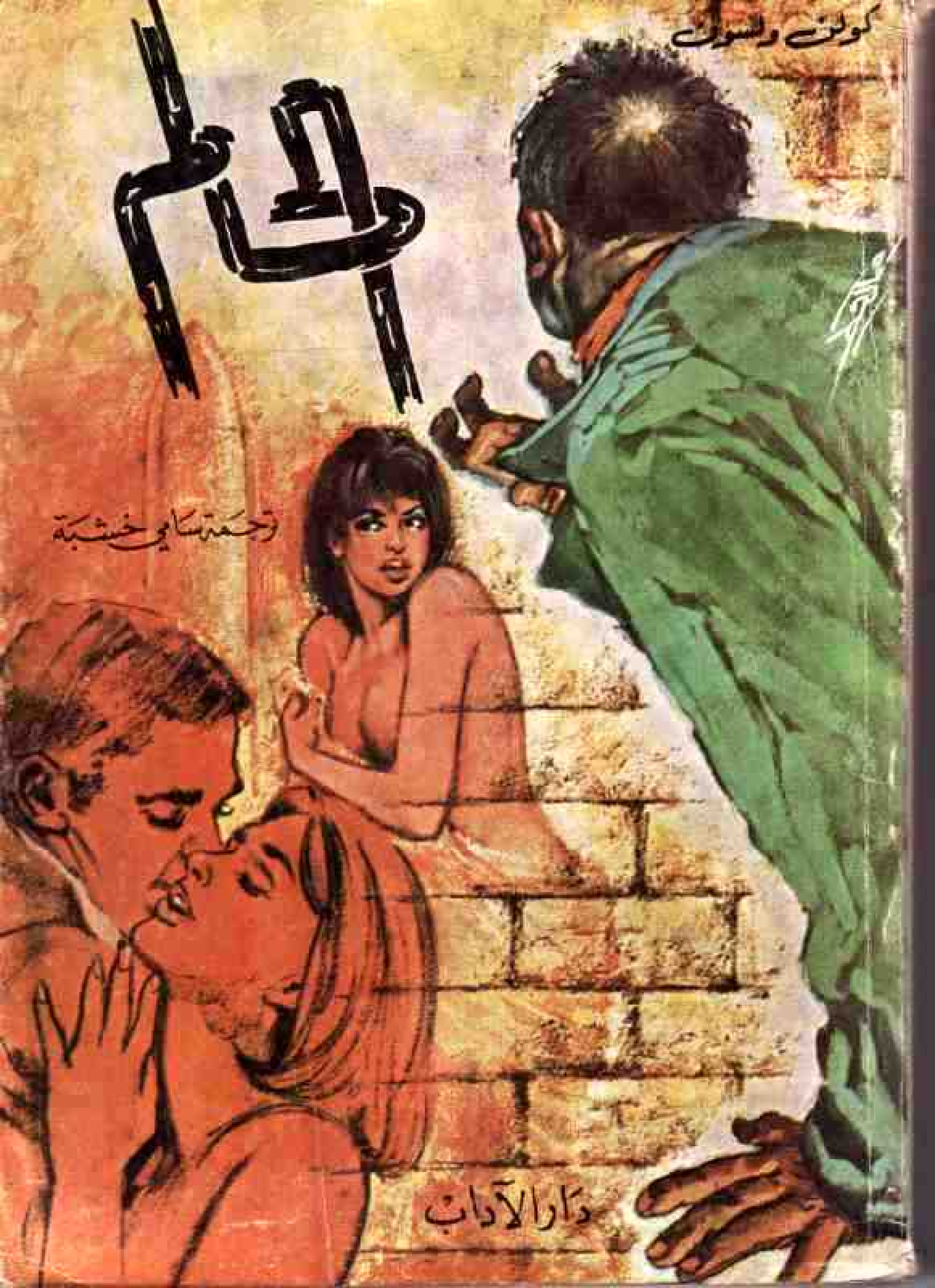

كولن ولسون
ترجمة سامي خشبة
دار الآداب

المقدمة

كتبت في عام ١٩٦٣ مسرحية بعنوان « ٧١ شارع ميتمازستراس » ، وكانت تدور حول « بيتر كورتن » القاتل الجماعي في مدينة « دوسلدورف » ، وكنت قد كتبتها خصيصاً لفرقة « ثييتر إن ذا راوند Theater in the Round » في مدينة « سكاربورو » . وقد رأى المرحوم « ستيفن جوزيف » في هذه المحاولة في كتابة المسرحية – غير – القصصية شيئاً بالغ الابذاء لأعصاب المتفرجين القادمين في عطلاتهم . ولست أعرف الآن ما إذا كانت هناك نسخة من هذه المسرحية حتى الآن أم لا . ولكن الفكرة ظلت ملتصقة برأسي : أن أبذل محاولة لنقل الحقيقة حرفياً وتحويلها إلى شكل قصصي . وفي هذه الحالة تأتي الحقيقة من الكتاب الكلاسيكي الذي ألفه « بيرج » حول « كورتن » بعنوان : « الصادي » .

وحينما ظهرت رواية « كابوت » بعنوان : « القتل مع سبق الاصرار In Cold blood » شعرت بأن حديثه عن « الرواية غير القصصية » ليست سوى حديث من قبيل صرف الانتباه عن الموضوع الحقيقي . كانت « الرواية غير القصصية » بالصورة التي قدمها بها « كابوت » شيئاً لا يختلف في جوهره عن الموضوع غير القصصي المكتوب بصورة روائية – مثل « الترجمة » التي كتبها « فولوب » و « ميللر » لحياة « راسبوتين » (ولو كان قد حاول أن يطبق طريقته على أي مجال غير مجال الجريمة ، فاني أشك في أن يصبح ذلك واضحاً) . ولكن شعوري بقي بأن « الرواية غير القصصية » ينبغي أن تكون عملاً في حيز الامكان . ولقد أطلعنا « البروفسور بيرج » على الطريق .

لقد كان هو الطبيب النفسي الذي وكل إليه أمر فحص « كورتن » في السجن ، وكتابه الذي ألفه عن « كورتن » لا يقل في استحواذه على المشاعر عن الرواية ، ولكنه يتمتع أيضاً بقدر من الواقعية الطبية (التشخيصية) تمنحه التأثير العميق والقاسي الذي يتجاوز أي تأثير يستطيع الفن القصصي أن ينتجه . ولقد حاولت أن أنقل هذا النوع من التأثير إلى منصة المسرح ، ولكن كان من الواضح أن التجربة لم تصادف النجاح . وفي هذه الرواية التي بين يديك ، بذلت محاولة أخرى للوصول إلى التأثير الذي أنتجه كتاب « بيرج » عن « كورتن » .

لم أشيد شخصية « آرثر ليجارد » بطل هذه الرواية ، على أساس مأخوذ من أي قاتل فرد ، رغم أن شخصية « بيتر مانويل » كانت هي النموذج القائم في خلفية عقلي حينما بدأت تأليف الكتاب . ولكن خلفية طفولة « آرثر » أكثر قرباً إلى تاريخ حياة « كورتن » . وكانت أعمال السطو والسرقة و « ... » الملابس الداخلية أقرب إلى شخصية « ويليام هيرينز » القاتل من شيكاغو . وكان اعتزار مخيلة « آرثر » وعدم ثباتها راجعاً إلى شخصية « هانز فان زون » القاتل الهولندي الحديث الذي يبدو أنه قد عاش في خياله حياة القاتل القديم « والتر ميتش » . ولقد أخذت تفاصيل التحليلات النفسية منها من الكتاب الذي ألفه « ميدارد بوس » بعنوان : « تحليل النفس وتحليل الوجود » وكتاب « إيروين شتراوس » بعنوان « علم النفس الظاهراتي » وكتاب « روبرت لينتفر » بعنوان : « الساعة ذات الخمسين دقيقة » ، وكتاب « فريدريك ويرثام » بعنوان : « استعراض العنف » (طبعته الأخيرة ... التي تحتوي على بعض الملاحظات الهامة حول « سيل » قاتل المراهقات الشاذ في شيكاغو) ، وكتاب « أودفيج بينسوانجر » بعنوان « قصة إلين ويست » . حقاً ، لقد قمت بعملية « انتقاء » من بين كل هذه المادة ، ولكنني لم أحاول أن أصوغها في نسيج قصصي أو أن أخفف من ... وفي معالجة قدرات « ليجارد » على التنويم المغناطيسي فقط اتجهت

* في اللغة : المكونة المشتركة ... التي أتت من قبل ...

إلى إعادة صياغة المادة المستقاة من كتاب « بول . ج . رايتر » بعنوان : « التنويم المغناطيسي والأعمال الإجرامية أو المعادية للمجتمع » (دار نشر مونكسجارد ، كوبنهاجن) . وقد اتجهت إلى ذلك لأن بعض التفاصيل بدت صريحة إلى درجة لا تصدق (وأنا لا أوحي هنا بأنها كانت كذلك ، فأنا أعرف في الحقيقة أنها لم تكن على هذا النحو) .

إنني لا أعرف إن كانت نتيجة ذلك « رواية غير قصصية » أصيلة وحقيقية أم لا ، ولكن هذا العمل هو أقرب ما استطعت الوصول فيه إلى هذا الهدف . وإذا استطاع أي إنسان أن يثبت أنها لا تصدر صوتاً إلا ما يشبه صوت العملة المعدنية المزيفة ، وأنها أبعد ما تكون عن « الرواية غير القصصية » فإنني لن أختلف معه ولن أناقشه في هذا العمل . والعملة المعدنية المزيفة ليست مما لا يمكن الجمع بينهما .

ولكنني لا بد أن أثبت هنا دينا جوهريا أدين به لكتاب « ... » « فان فوجت » بطله أكثر الناس ذكاء ، القصص العلمي الخيالي . ولكن أكثر كتبه أهمية ، وهو « الرجل العنيف » إنما هو رواية حقيقية . ولقد تنبأ في أثناء كتابته لها بأنها سوف يساء فهمها ، فوقع في مشكلة إعداد كتيب صغير أسماه « البيان » يقع في أربع عشرة صفحة قصيرة ، شرح فيه نظريته الأساسية ولكن الكتاب لم يلق سوء الفهم المتوقع ، وإنما عامله الناس بوصفه كتاباً آخر ، ألفه كاتب القصص العلمي الخيالي ، ثم تجاهلوه . غير أن البيان أو الكتيب الصغير يظل واحداً من أكثر العروض الثورية في علم النفس أهمية كتب « فان فوجت » قائلاً : « في عام ١٩٥٦ ، حينما كنت قد أصبحت ... بالخصوص سلوك الرجل العنيف ... حسبما ... ، سألت ... من الأطباء النفسيين أن يعثر على قصة أي ... غير عادية ... يكون قد لاحظها . مع التأكيد على السلوك الأولي ... في قصة ... حتى الآن قد جاء بزوجته السابقة للعلاج منذ خمس سنوات » .

« بالنسبة لقصة هذا الرجل كما سردها على الطبيب النفسي ... في أبد

كان قد حصل على الطلاق ، ثم أسكن زوجته في إحدى الضواحي . وكان دورها ، كما خطط له ، هو أن تكون طوال ما بقي لها من الحياة الأم المثالية لولدهما ، ولم يكن لها – في خطته – أن تتزوج من جديد ، ولم يرَ الرجل خياراً في أن تقوم المرأة بهذا الدور .

« وكانت وجهة النظر هذه أحادية الجانب إلى حد بعيد ، حتى أن الطبيب النفسي لم يدهش إزاء قصة خضوع الذكر التي سردتها الزوجة عليه .

« لقد كانت ممرضة ، وكانت قد مرت بعلاقتين مع طبيبين قبل زواجها . وحينما تقدم الرجل الذي أصبح زوجها لخطبتها ، أخبرته بما كان من أمر هاتين العلاقتين . وأصيب الرجل بالجنون تقريباً بتأثير الغيرة والشعور بالجرح الذي مس كبرياءه ، فجاء إلى بيتها في اليوم التالي لاعترافها حاملاً وثيقة قانونية – من ثلاث نسخ – لكي توقعها . ورفض أن يسمح لها بأن تقرأ ما كتبه على الورقة ، طالباً إليها أن توقع على أساس أنها مدينة له بهذا الحق . كان من الواضح أنه في حالة من التوتر والقلق العنيف . وكانت هي تشعر بالإثم ، حتى لقد وقعت في النهاية حسب ارادته ، دون أن ترى شيئاً . وبعد توقيعها بوقت قصير ، تم الزواج .

« ومضى يذرع أرجاء البلاد ، بعد أن أصبح متزوجاً ، ولا يعود إلى البيت إلا حينما يشاء . كان يصطحب الفتيات من سكرتيراته ، من العمل ، إلى سيارته ، مستغرقاً في ذلك وقتاً طويلاً لا حساب عليه ، أو يقوم بزيارة واحدة أو أخرى من النساء العاملات لديه في مساكنهن الخاصة . وكان أي تساؤل من جانب زوجته يدفعه إلى حالة من الهياج والغضب التي كانت غالباً ما تتضمن استخدامه العنف ...

وبعد مزيد من التصوير لهذا السلوك العصابي الأحادي الجانب ، يقول :

« إن السنوات التي قضيتها في ملاحظة الذكور الآخرين من هذا النوع ، يغريني بأن أقول إنها (في الوثيقة) قد وافقت على أن تكون بغياً أو عاهرة ، وأنه بزواجه منها ، فإنما كان يرفعها من مستوى المرأة الساقطة . ولكنها يجب

أن توافق على ألا يكون لها حقوق كزوجة ، باستثناء تلك الحقوق التي يمنحها هو إياها . »

هذا هو « الرجل العنيف » كما يقول « فان فوجت » . وهو يصفه أيضاً بأنه « الرجل المحق » ، لأنه يخضع لفكرة وهمية عن كونه « على حق » ولن يعترف تحت أي ظرف من الظروف بأنه مخطيء . الشخصية في هذا الجانب متصلبة متزمتة . ويشير فان فوجت إلى أن هذه الحالة إنما هي صورة مبالغ فيها للموقف العادي الذي يتخذه الذكر من الأنثى ، وهو الموقف الذي جاء كنتيجة لملايين السنين من التطور كان الرجل هو السيد في أثنائها . وقد حدث في ايطاليا عام ١٩٦١ أن حكم على امرأتين بالسجن لمدة عام لكل منهما بتهمة الخيانة الزوجية . وقد أثبتت المرأتان أن زوجيهما قد اعترفا بارتكاب الخيانة من جانبهما ، ولكن المحكمة العليا أوقفت الحكم ضد الزوجين على أساس أن هناك مستويين للحكم معترفاً بهما في ايطاليا .

ويمضي « فان فوجت » في الاشارة إلى حالات عديدة تصور « الرجل المحق » : رجال تتضمن علاقاتهم بزوجاتهم معايير مزدوجة فاجرة للسلوك ثم يعصف بهم الغضب إذا حاولت الزوجة أن تحتج . ولكن ما زال أغرب قسم من التقرير أمامنا . يعتقد « فان فوجت » أنه إذا حدث أن هجرت زوجة « الرجل المحق » زوجها – وهي الصبي الذي يقوده بالسوط – فإنه قد يموت أو يمرض مرضاً خطيراً ، أو يصبح مدمناً على المخدرات أو الكحول . ولأن عالم السيطرة الذي يعيشه ، وإرادة السلطة التي يمارسها ، قد قاما على جسد امرأة ، فإن البنيان كله يبدأ في التزعزع إن هي تملصت من تحته أو نفضته عن كاهلها . يقول : « إنها إذا تركته أو شرعت في اتخاذ اجراءات الطلاق ، فإنه يقع على الفور فريسة لحالة عاطفية جنونية . وتبدأ فكرة الموت في الظهور : الدموع ، والمناشدات المتوحشة ، والقلق اليائس : « لا تتركيني ، أحبك أكثر مما أحب حياتي » . ولا تستطيع نسبة معينة من الزوجات أن يرفضن قبول هذا الجنون بوصفه نوعاً من الحب إلا بعد تجارب

خالية متعددة .

« فاذا هجرته هجراناً يشتم منه أنه الفراق النهائي ، فان أفكار القتل تختلط بأفكار الانتحار في عقله غير المستقر ، لأنه من الضروري له أن يسيطر على امرأته أو يموت ، إلا إذا استطاع أن يهجرها هو ويعيش . فاذا استطاع أن يهجرها بالفعل ، فانه قد يستمر في محاولة السيطرة عليها » . ويشير « فان فوجت » إلى عديد من الحالات التي قتل فيها « الرجل المحق » زوجته أو حاول أن يقتلها .

وتتمتع نظريته عن « الرجل المحق » بأهمية خاصة حين يصل في حديثه إلى شخصية الديكتاتور ، وذلك لأن الميزة الأساسية « للرجل المحق » هي أن يرفض أن يقتنع بأنه قد وقع في أي خطأ على الاطلاق . ثم تلقى انفجارات غضبه المتوحش التبرير فيما بعد على أساس أنه قد تحمّل قبل الانفجار أكثر مما يطيق احتماله ، وأن أكثر الناس طيبة وهدوءاً ورقة كانوا سيفعلون نفس ما فعل .. إلخ ، ولسوف يبرر الديكتاتور أفعاله بطريقة مقنعة مشوهاً الحقائق كلما كان ذلك ضرورياً ، ثم تكون تلك التشويهات أساساً لأفعال مقبلة - وقد تكون تلك الأفعال في حالة ديكتاتور مثل هتلر ، هي حمامات الدم . إن : « الرجال الذين يمرضهم الشك » يصبحون عصابيين إذ يحصلون على السلطة ، وقد يصبحون مجانين جنوناً مطبقاً ، كما حدث في حالة « كاليجولا » .

وأنا أشك في أن أكثر الذكور من قراء هذا التعليق سوف يشعرون إلى مدى معين بأن « القبعة تناسبهم » . لكل امرىء احترامه لذاته amour propre . وحينما يعتدى على هذا الاحترام للذات ، فانه جدير بأن يمتطي صهوة أعلى جياده لكي يفرض تفسيره هو الخاص على « الحقائق » . ولكن هذا الموضوع يتمتع بأهمية خاصة عندي ، طالما أنني قد عالجته من زاوية مختلفة في كتاب « اللامنتمي » . فان احدى النقاط الرئيسية في ذلك الكتاب تشير إلى أن من الصعب غالباً أن نرسم الخط الفاصل بين الرجل الرفيع الموهبة الذي يفشل في التكيف مع واقعه لأنه يرى الأمور إلى درجة أكثر عمقاً من معظم الناس

وبين الأحمق غير الموهوب صاحب المقدرة على أن يمنح حماقته صورة العبقرية . يقول أي فنان كامل التفرد ، بصورة أساسية : « إنني محق ، وهذه هي الصورة الحقيقية للحياة . » وطالما تمتد ألوان الطيف الخبيثة من النزعة التفاؤلية التي نرى نموذجها عند « بليك » و « شو » و « ويتمان » و « تشسترتون » حتى الظلمة السائدة عند « أندرييف » و « جرين » و « بيكيت » و « سيلين » ، فانه من الواضح أنه من الصعب أن يكونوا جميعاً « محقين » أو على صواب . وهذه ليست سوى واحدة من غرائب الفن . وحينما يقول سيلين : « لا يكون الإنسان نفسه إلا في المرحاض أو على سرير موته ، وليس كل ما بقي سوى صور زائفة . » فاننا قد نرفض ما يقوله بينما نظل مفتونين بقوة كتابه : « رحلة في قارب الليل » . وربما كان من المناسب أن نقول إن « فان فوجت » نفسه إنما هو رجل رقيق ومتواضع . علم النفس هو اهتمامه المحوري . وعلى ذلك فانه يستطيع أن يفحص « الرجل المحق » دون انفعال من خلال عدسته المكبرة دون الكثير من التأثر الشخصي بموضوعه . أما أنا شخصياً فلست بهذا القدر من الاعتدال أو التواضع أو التباعد الذي كنت أحب أن أتمتع به . ولذلك فانني لا أرى إلا المبهمات الغامضة حيث يرى هو الخطوط الواضحة الحادة . والمشكلة ، كما أراها ، هي ما يلي : إنني - في لحظة ما ، قد أكون قادراً على التصرف بالغضب المشتعل باليقين الذاتي والقدرة على التبرير العقلي الذي يتصف به الرجل العنيف . ومن المحتمل أيضاً أن ينبع غضبي من أنه قد يحدث لي أن أكون ، بالنسبة لموضوع معين ، في وضع بطل قصة « ويلز » المعروفة « بلاد العميان » أي أنني « أرى » بالفعل شيئاً يرفض الآخرون الاقتناع بمجرد وجوده . إن الدافع إلى تأكيد الذات يشكل صفة مميزة ضرورية للعملية وللموهبة الابداعية بقدر ما نراه صفة مميزة أيضاً للرجل العنيف . لقد كتب « مارتين جاردنر » كتاباً ممتعاً بعنوان : « بدع وأكاذيب تتخذ اسم العلم » يناقش فيه كل أنواع النظريات الحمقاء . ولكنه يبدو كما لو كان يشير إلى أن ثمة مبادىء واضحة وبسيطة ساذجة كاملة يستطيع أي شخص عاقل

باستخدامها أن يميز بين النظرية المخبولة والعلم المعقول . وهو يشير أيضاً إلى أنه : « إذا كان الجميع مثلي : رؤوسهم مرفوعة ، شكاكين ، منطلقين ، فسوف يكون العالم قادراً على أن ينطلق إلى الأمام بسرعة أكبر » . ويبدو لي هذا الافتراض فرضية يشوبها الشك . ففي العلم ، مثلما في الفن والسياسة ، يكون الخالقون العظام وواضعو الأصول ميالين غالباً إلى تأكيد ذواتهم ، سحابين أعناقهم ملوية تحت رؤوسهم ، وتؤدي هـذه الصفات أحياناً إلى ومضات ساطعة ملهمة . لقد كان « نيوتن » نفسه رجلاً شكاكاً متجهماً نكداً . وقد بلغ من نذالة « فاجنر » أن أصبح من العسير أن نكتشف كيف استطاع أن يبرر سلوكه السيء إزاء النساء والأصدقاء الذين أضفوا حمايتهم عليـه .

قد يكون هذا مما يستحق أن يقال ، ولكنه لا يوضح الفكرة توضيحاً كافياً . ذلك أنني ، بوضوح ، لا أقول بأن « الرجل المحق » هو بالفعل « محق » . وإنما أقول بأنه ينبغي أن تكون ملاحظات « فان فوجت » أساساً لمزيد من الاستقصاء والمناقشة . إنها أساس جسور ، ولكنها ليست نظرية كاملة حول العنف الذي « يحركه الشعور بالصواب والحق » . إننا لا نحتاج فحسب إلى تعديلها لكي تتناسب مع « نيوتن » و « فاجنر » ، بل إننا نحتاج أيضاً إلى تعديلها كي تتناسب مع « هتلر » وأمثاله من الدكتاتوريين . وأياً ما كان شعورنا إزاء « هتلر » مثلاً ، فان المرء لا يستطيع أن ينكر أنه كان واحداً من أكثر السياسيين العالميين حيوية في عصره . ولقد تضمنت رؤى « هتلر » السياسية الفاجنرية إيمانه بأن اليهود والزنوج ينتمون إلى نوع منحط من الجنس البشري ، وأنهم يتآمرون ضد النوع الأسمى . وهذا التبرير يقدمه صورة نموذجية للرجل المحق . وقد يعزو أي معاد دؤوب للنازية « كل » دوافع هتلر ونظرياته إلى الميل الجنوني لتأكيد الذات الذي يتميز به « الرجل المحق » ولن يكون هذا التفسير من قبيل الهراء . إننا نحتاج إلى نظرية متكاملة وعميقة للرجل العنيف تستطيع أن تميز بين تأكيد الذات الخلاق وبين الأنانية العصابية ،

والاجابة المنتظرة لا تقول بأن تأكيد الذات الخلاق معتدل دائماً أو معقول باستمرار .

• • •

إن نظرية « فان فوجت » عن « الرجل العنيف » هي مفتاح روايـة « القاتل »* . ورواية « القاتل » أيضاً ، بحث للنظرية في شكلها الذي عبر عنه واضعها في روايته وفي كتيبه الصغير . إنني أقبل بوجود نوع الرجل العنيف . بل إنني قد أقبل تأكيده القائل بأن السيطرة القديمة للذكر على الأنثى توفر في ثقافتنا جواً نفسياً « أكثر مغزى بألف ضعف من أي عامل بيئي آخر » : (أي عقدة أوديب ، أو الدوافع الاقتصادية ، أو الحرب الطبقية ، أو صراع الذكر مع الذكر ، أو العقائد الدينية ، وما إليها) . والأكثر أهمية من كل هذا ، هو أنني أقبل بأن انسحاب الأنثى أو تخليها عن الذكر إنما يسبب نوعاً من الصدمة النفسية التي تؤدي إلى بروز الرغبة في الموت ، الموجهة إلى صاحب الرغبة نفسها أو إلى الآخرين . ولكن النقطة الأساسية فيما يتعلق بالرجل المحق هي أن أحد دوافعه الاساسية هو الدافع الذي يحثه على أن يجعل من « عالم حياته » بناء متماسكاً ومنطقياً . وقد يقول المرء إنه بينما يندفع — أو ينساق — أكثر الناس في حياتهم بابتهاج من يوم إلى يوم ، قابلين بالحياة بوصفها شيئاً « أعطي لهم » ، (مثلما نفعل في الطفولة) فان « الرجل المحق » يشعر بدافع علمي يلزمه بأن يشك وأن يتساءل . والمشاكل الشخصية لا تعالج واحدة بعد واحدة ، تبعاً لظهورها ، وإنما يتم التعامل معها بوصفها جزءاً من كيان متماسك أكبر . ولا يمكن التنبؤ بنتائج هذه المحاولة التي تسعى إلى « صناعة كيان مخطط ومتماسك » . ولقد حدث أن عرفت رجلاً ذكياً وجذاباً لم يكن ناجحاً في مهنته التي اختارها كممثل (وهناك صورة كاملة له في روايتي « ضياع في سوهو ») . وكانت أول استجابة له إزاء افتقاره إلى النجاح هي أن يضع نظرية تقول بأن المجتمع الحديث ليس سوى « قميص مجانين » من « مقاس

* فضلنا في الترجمة أن نطلق على الرواية إسم « القاتل » (س . ع) .

صيغ « لوضع فيه الأزواج أخرة . وأن الوجود « البوهيمي » من الناحية الأخلاقية هو الجواب الوحيد على هذا المجتمع . وحينما ازدادت مشكلته حدة وتعقيداً أصبح عنصرياً يشعر بأنه لا يوجد لمواهبه مكان في انجلترا ، لأن زنجاً قد اكتسحها « الزنوج niggs » (وسواهم من الذين كانوا مسؤولين أيضاً عن الهجمات التي تعرضت لأعمالي) . وقد شنق الرجل نفسه في « يوم جول » في العام الماضي . بعد أن ألقي القبض عليه لتهريب حشيش القنب . ولقد حزنت لسماع خبر موته . ولكني لم أستطع – بالمثالة – أن أفكر في أي طريق كان يمكنه من خلاله أن يكيف نفسه مع حقيقة العالم الذي عاش فيه

إن الاحتياج إلى تثبيت وغرس بناء منطقي لا يحتاج إلى هذا النوع من تأكيد النفس الثاني . ولقد وصف « إدوارد أبورد » في روايته : « في الثلاثينات » كيف بدت مختلف المشاكل الشخصية كما لو كانت غير قابلة للحل من خلال الفن أو الشعر ، وكيف وصل إلى القبول بالعقائد الماركسية القائلة بأن البناء الاقتصادي للمجتمع كان المسؤول عن تعاسته هو الشخصية . وقد أدى به هذا القبول – كما يعترف – إلى نوع من العقم الفني . فإن اختبار « البناء المنطقي » لا يقوم على التساؤل عما إذا كان هذا البناء يعين المرء على التكيف مع الواقع الاجتماعي ، وإنما يقوم هذا الاختبار على التساؤل عما إذا كان « البناء المنطقي » مساعداً بصورة مطلقة على التعبير عن أفضل إمكانيات الإنسان .

ولقد حاولت في شخصية « آرثر ليجارد » أن أصور تطور « الرجل المحقق » الذي هو أيضاً « لامنتم » في تصوري ، أي أنه إنسان ، في جوانب معينة ، أكثر موهبة وقدرة على التخيل من كل من حوله . ويمتلك من الإرادة والقدرة أكثر مما يمتلكون . إن حياته ليست تراجيدية بالمعنى الاغريقي القائم على المصير الذي لا يمكن الافلات منه ، وإنما هي حياة تراجيدية فقط بمعنى وقوع صاحبها في الاختيارات الخطأ التي اختارها بحرية والتي تنتهي بهبوط قدراته الخلاقة . إنه لا يتطابق مع تخطيط « فان فوجت » للرجل العنيف . أو مع « اللامنتمين » الذين رسمتهم أنا ، الذين كان أكثرهم خلاقين حقيقيين .

ولأنه يقع بين هذين الحدين فإني أجده بالغ الأهمية – وهو نفس السبب الذي جعلني أرى أن مشكلة الطبقة الاجرامية مشكلة بالغة الأهمية ، ويجب أن ينظر إلى هذه الرواية باعتبارها الجزء الثالث من ثلاثية تدور حول المجرمين مع الروايتين السابقتين « طقوس في الظلام » « القفص الزجاجي » ليس أكثر المجرمين من « الرجال المحققين » ، وإنما هم « مسافرون » . ولكن أسوأ المجرمين « رجال محققون » بالفعل [illegible] من « كوزلس » أو « ماهويل » أو « هاتي » . ويقول « فان فوجت » [illegible] « يستحق أكثر « الرجال المحققين » العاطفة لأنهم يتشاجرون مع فرع داخلي يكاد لا يمكن تصليحه » . وربما لا تحل ملاحظاته الأخيرة هذه أي مشكلة فعلاً . فإنها تضع عالماً هادئاً للعاطفة . إنه يؤمن بأن نظاماً مناسباً ديمقراطياً سيكون التأمين الأول ضد « الرجال المحققين » ، لأنهم سيستطيعون أن يعرضوا « المطلقة » في بيوتهم أو حتى في مكاتبهم إذا حدث وكان أحدهم رئيساً لعمل ما . ولكنهم لن يعرضوا مثل هذه السيطرة في الميدان السياسي ، حيث سيكون عليهم أن يصطدموا بأشخاص آخرين من ذوي العزم والقوة . ويؤدي هذا التحول إلى التأكيد الذي يسوقه « فان فوجت » بأن الاعتراض الحقيقي على أن النظم الشمولية إنما يكمن في أنه من المعتاد – وليس على الدوام – في ظل هذه النظم ألا يصل إلى السلطة سوى « الرجال المحققين » . وهذه فكرة هامة تقول بأن أكثر الاختلافات أهمية بين بني الإنسان هو الاختلاف بين الأشخاص [illegible] العقولين الذين هم بصورة مطلقة متحكمين ، أفضل في مواجهة المشاكل والصعوبات ، وبين « الرجال المحققين » الذين [illegible] أعمالهم [illegible] مبررات حيوية . لم [illegible] عن [illegible] العصابي . فإذا كان « فان فوجت » على صواب ، فإن مشكلة مجتمعنا الأساسية هي أن يتعلم كيف [illegible] « الرجال المحققين » [illegible] بعلمهم [illegible] يبنون في أنفسهم دوافع وضوابط داخلية . وقد [illegible] إلى « القاتل » باعتباره [illegible] المشكلة . محاولة لإثبات أن « الرجال المحققين » ليسوا بالضرورة ولا بصورة كاملة على خطأ

كولن ولسون

الفَصلُ الأول

لم يكن أكثر من رأيتهم من المجرمين خطورة حبيس زنزانة في جناح الأمن الأقصى من سجن « دورهام » : وإنما كان نزيلاً في سجن « روزهيل » التجريبي بالقرب من « سيدجفيلد » – وهو سجن مفتوح يدار وفقاً للأساليب السويدية ، حيث لا يخضع النزلاء الخمسة والسبعون إلا لأقل قدر من الرقابة . لقد كان هو « آرثر جيمس لينجارد » الذي كان يقضي السنوات الأخيرة من حكم بالسجن لمدة ثمانية أعوام بتهمة قتل من الدرجة الثانية : فقد قتل عرضاً رجلاً عجوزاً في أثناء محاولته السطو على منزل العجوز . وكان لينجارد قد قضى ثلاث أحكام سابقة بالسجن ، مرتين بتهمة كسر الأبواب والدخول عنوة ، ومرة بتهمة الاحتيال . كان ينظر إليه بوصفه معتدل الذكاء ، وإن لم يظهر ذكاؤه إلا بصورة متقطعة ، كذلك كان يمثل حالة معاناة منذ الطفولة لنوبات الصرع . وبقدر ما أعلم ، فإن أحداً لم يشك في أنه مرتكب جريمة القتل التي تمت في سيارة صغيرة ، وأنه قاتل الضحية التي وجدت في لديز ترتدي جواربها البيضاء ، وأنه الرجل المسؤول عن جريمة القتل التي وقعت في حديقة مدينة « دونكاستر » في عام ١٩٥٧ .

لقد وضعني لينجارد في أغرب أزمات حياتي العملية كلها وأكثرها إثارة للحيرة . إنني بوصفي طبيباً نفسياً للسجن ، فمن الواضح أن يكون ولائي الأول وواجبي في خدمة الجمهور وسلطات السجن . ولكن ولائي وواجبي كطبيب إنما يتجه إلى مرضاي . والأكثر من هذا هو أنني اعتقدت دائماً بأن أعظم فرص النجاح تتاح للطبيب النفسي إذا استطاع أن يتعاطف مع مريضه

وأن يدخل عالمه : فالعلاقة المثالية بينهما يجب أن تكون علاقة حب . ولكنني سرعان ما اكتشفت أن شخصاً مضطرب العقل إلى درجة الخطورة قد عولج وعومل باعتباره شخصاً جديراً بالثقة وغير مؤذ إلى حد ما . ولقد كنت أعرف أن واجبي هو أن أحذر حاكم السجن . ولكنني عرفت أيضاً بأنني إذا ما فعلت هذا ، فإنني أكون خائناً لروابط الثقة المتينة التي برزت بين لينجارد وبيني . وقررت أن يوسعي أن أقبل المخاطرة : وكانت نتيجة ذلك أن استطعت أن ألقي نظرة فاحصة ونافذة ، مفزعة ومتفردة ، داخل عقل واحد من أكثر المرضى العقليين تعقيداً في القرن العشرين .

* * *

في التاسع عشر من شهر يونية — حزيران — عام ١٩٦٧ لم يكن قد انقضى على عملي في سجن « روزهيل » سوى شهر واحد ، ولم أكن قد رأيت « آرثر لينجارد » بعد . وحينما وصلت إلى السجن بعد ظهر ذلك اليوم أخبرني الحاكم ، « مستر فرانك سليسور » بأن لينجارد قد أصيب بنوبة من نوع ما ، وبدا عليه أنه في حالة من الانقباض الشديد . وصحبني سليسور إلى حجرة لينجارد — فمن الصعب أن نسميها زنزانة — ورأيته هناك المرة الأولى . كان جالساً في ركن من أركان الحجرة النظيفة المبهجة ، وقد تشنجت قبضتاه ، وبدا عليه كما لو كان يريد أن يدفع نفسه إلى الخلف لكي ينفذ من الجدار . كان وضعه شبيهاً بوضع الجنين داخل الرحم ، وقد انثنت الركبتان إلى أعلى نحو الصدر ، وكل من القبضتين تضغط بقوة على إحدى الركبتين . ولم تبد عليه أية علامة على الاهتمام بوصولنا ، محدقاً في الفضاء بتوتر بلغ من شدته أنني ظننت أنه سيكون من المستحيل أن يستمر طويلاً . وأخبرني الحاكم بأن هذا الوضع كان هو المرحلة الثانية من مراحل النوبة . كانت النوبة قد بدأت في الثامنة من مساء اليوم السابق ، حينما ترك عشاءه لكي يسقط في حجره . ثم بدا عليه الارتباك بعد ذلك ، غير متيقن من المكان الذي يوجد فيه . اقتربت منه فرأيت أنه كان يرتعش رعشة خفيفة .

وكانت النظرة البادية على وجهه قائمة وثابتة . كان يشبه حيواناً بائساً يرتعش من البرد .

كان لينجارد يتمتع بوجه أقرب إلى الجمال ، رغم أن قلة النشاط في حياة السجن قد جعلته سميناً . وكانت جبهته مرتفعة دائرية في تناسق : فالأنف منقاري يكاد يكون مستقيماً والوجنة دائرية . وكان الفم حسياً دقيقاً يتهدل بضعف عند الركنين . وأعطته العينان الجاحظتان مظهر السنجاب المذعور وكان الشعر قاتم اللون مجعداً . ولسبب ما ، أثار شفقتي على الفور .

انحنيت فوقه وفرقعت بأصابعي أمام عينيه . وظلت العينان زجاجيتين ، دون أن تطرفا . جذبت جلد الجفن التحتي إلى أسفل : كانتا متورمتين وقد احمرتا بالدماء المحتبسة ، تماماً كما كان بوسعي أن أتوقع من التركيز الشديد الظاهر على نظرته المحدقة الثابتة .

قلت : « آرثر . أنا « كاهن » . « صاموئيل كاهن » طبيب السجن . أنا هنا لكي أساعدك . ما الذي يزعجك إلى هذا الحد ؟ »

كان ذلك دون أمل في نتيجة : فإنه قد يكون أشبه بمن ينفرد بنفسه فوق قمة جبل مرتفع .

فرصت مؤخرة رأسه ، وصفقت بيدي أمام وجهه . ولكن كان من الواضح أنه لا يشعر بوجودي .

كان ذلك مما يدعو إلى الارتباك . سألت الحاكم إن كانت النوبة قد سبقتها صرخة المصروع ، وعما إذا كان قد أبدى علامات على الاضطراب أو عدم التركيز والتشتت في القسم الأول من اليوم . فأجابني بالنفي . ولم يدهشني ذلك . فقد كانت حالته أقرب إلى الاغماء التخشبي منها إلى الصرع . ولكن تاريخ حالته كان سلبياً باستثناء نوبات الصرع العارضة والتي كانت تهاجمه على فترات طويلة ، أي مرة كل أربع أو خمس سنوات .

لم يكن هناك الكثير لكي أفعله . فقررت أن أتركه لما بقي من فترة بعد الظهر ، وأخبرت الحارس بأن يراقبه بعناية . لكي يلاحظ إن كان سيتم حتى

عندما نتصرف . وفي طريقي خارجاً من الباب ، لاحظت الصورة الموضوعة على المنضدة الصغيرة ـ وكانت صورة بنية مشرقة الاضاءة . التقطتها وحدقت فيها ، كانت صورة لمجموعة عائلية ، وكانت المرأة جميلة جمالاً ملحوظاً ، مرتدية « الفستان » ذا الأكتاف المرتفعة الذي كان شائعاً في أواخر العشرينات . وكان الزوج رجلاً عصبياً مربع الوجه له فم غضوب في شكل الفخ . ورغم أن نواحي التشابه كانت قليلة جداً ، فقد استطعت أن ألمح في الصورة آثاراً من ملامح آرثر ليتجارد .

كانت الفتاة ذات الستة أو السبعة أعوام ـ التي كان من الواضح أنها الابنة ـ جميلة جمالاً يلفت الانتباه كأمها ، تتمتع بتلك الأسنان الدقيقة المنتظمة اللهبية ، والعينين الداكنتين الكبيرتين والشعر المجعد الذي تتمتع به أمها . وأخيراً ، كان هناك آرثر . الذي يصعب أن يكبر عن طفل رضيع ، لقد بدا ـ مثل أكثر الأطفال ـ خالياً من أي تعبير في سترة البحارة التي يرتديها ، محدقاً في الكاميرا باهتمام قليل . وكان وجهه أيضاً يشبه وجه أمه ، ريانًا ، صادقاً ، ولكنه لم يكن في مثل جاذبية وجه شقيقته . دفع وجه الأم إلى ذهني بذكرى قديمة : ذكرى ممرضة كنت قد عرفتها قبل التخرج ، وأردت أن أتزوج بها . ولكن طالما كان الحاكم واقفاً إلى جواري ، فانني لم أحدق في الصورة المدة الكافية التي كنت أتمناها . وغادرنا الزنزانة ، وحينما ألقيت نظرة سريعة إلى الوراء ، كان آرثر ليتجارد ما زال يبدو متوتراً تعيساً .

أمضيت الساعات الثلاث التالية في الحديث مع النزلاء الآخرين حول مشاكلهم . ولم يكن أحد منهم مصاباً بمرض خطير ، باستثناء واحد رقيق مصاب بانقباض عقلي بسيط . كانوا يريدون أن يتحدثوا عن عائلاتهم وعما يمكن أن يفعلوه حينما يخرجون من السجن . كانوا يستمتعون بتبادل الحديث معي ، لأنه كان مما يثير زهوهم أن يتحدثوا مع طبيب نفسي كتب كتاباً شعبياً ناجحاً في هذا الموضوع . وكان يعاملهم بوصفهم بشراً مهذبين جادين ، وليس بوصفهم مرضى ، بوجه عام . كانت الأمور تسير سيراً حسناً في « روزهيل » .

ولقد راق لي هذا المكان وسكانه ، وخامرني شعور بأنني أقوم بعمل جيد وطيب . ولكن مشكلة آرثر ليتجارد أزعجتني ، فقد بدا لي أن الأمور لن تسير بهدوء بعدها . وفي الساعة الخامسة ، عدت إلى حجرته ، وكان ما يزال في الوضع نفسه .

لقد أزعجني توتره . كنت أخشى أن يتحول إلى توتر مزمن خطير ، سيكون هو البداية لانهيار بنائه النفسي . وقد تؤدي هذه الحالة إلى الموت عن طريق الاجهاد ، الموت دون أي سبب جسماني محدد . وقررت أن أحقنه بمهدىء قبل أن أترك السجن . أمسك به حارسان ولكن ذلك لم يكن ضرورياً . لقد ظل ساكناً تماماً بينما انغرست الابرة في الجزء العلوي من ذراعه ، وبعد ذلك قلت للحراس إن بوسعهم أن ينصرفوا . ثم جلست على الفراش . جلست هناك محدقاً في الصورة القائمة على بعد عدة ياردات قليلة فوق المنضدة . لماذا شغلتني هذه الصورة واستأثرت بتفكيري ؟ لأنها بدت لي صورة لأسرة كاملة تتمتع بالصحة والسعادة . فلا بد أن الزوج كان يشعر بقدر كبير من القناعة والرضا حينما كان ينظر إلى زوجته الناعمة الجميلة ، ثم نظرت إلى صورتها . وحدقت في صورة الابنة التي كانت تبدو فياضة بقدر ثابت وكبير من الحيوية الخالصة . كان الصبي الصغير منحنياً إلى الخلف على ركبة والدته ، وقد استقرت يده على كتف شقيقته . ولو طلب مني أن أقدم تنبؤاً بمصير أصحاب هذه الصورة ، وبمصير هذا الطفل ، لقلت إنه لا بد قد كبر سعيداً في أمان ، مزوداً بكل ما كان يحتاجه من حنان تمنحه إياه قريباته الحريصات عليه ، ومزوداً بمعرفة أن والده قريب منه دائماً من أجل حمايته . فما الذي حدث لكي يتحول الطفل الآمن إلى الحيوان المرتعش المتكوم في الركن ؟ وفجأة ثار كل فضولي الانساني والعلمي . لقد أردت أن أعرف .

أرسلت واحداً من الحراس إلى مكتب المدير في طلب الملف الخاص بليتجارد . وجاءني الملف مع قصاصة كتب عليها : « تعال إلى مكتبي واشرب كأساً قبل أن تنصرف » .

لم يخبرني التقرير المرفق بالملف إلا بالقليل مما لم أكن أعرفه بالفعل. كانت جرائم آرثر ليجارد جرائم صغيرة : حوادث سطو في حداثته . ثم محاولة غير مخططة للاحتيال . وقد وقعت الجريمة التي حكم عليه بثماني سنوات — حالياً — بسببها في شهر فبراير عام ١٩٦٣ . كان قد تسلل إلى منزل في مزرعة نائية ، بالقرب من مراعي بورن كشاير . وطعن كلباً هاجمه فقتله ، وشرع في تفتيش الأثاث — وكان من الواضح أن ذلك كان بحثاً عن النقود . وسمع المزارع — وهو رجل في الثالثة والسبعين الضحة — فهبط من الطابق العلوي مسلحاً ببندقية صيد مشحونة . وقد حاول الرجل أن يفاجيء ليجارد وأن يجعله يرفع يديه . وبينما كان المزارع يطلب الشرطة بالتليفون . هاجمه ليجارد وحاول أن ينتزع منه البندقية . وقد زعم في أقواله فيما بعد . أن البندقية انفجرت وأطلقت رصاصها في أثناء العراك . كانت الماسورة تحت وجنة المزارع في تلك اللحظة فأطاحت بنصف وجهه . وكان بوسع رجال الشرطة فعلاً أن يستمعوا إلى المعركة من التليفون ، ولكن وصولهم إلى بيت المزارع استغرق منهم نصف ساعة . كان السارق قد فر هارباً ، دون أن يترك أثراً يدل عليه ، ولكن زوجة المزارع رأته بوضوح وهو يندفع في اتجاه الباب ، وكان صوت انطلاق رصاصة البندقية قد أيقظها . وقدمت له وصفاً يقول إنه رجل ضخم الجثة . في حوالي الخامسة والعشرين ، له وجه مستدير وعينان جاحظتان . وكانت العينان الجاحظتان هما المفتاح . فقد تذكر أحد رجال الشرطة السرية أنه رأى وجه مثل ذلك الرجل في الملف المطلوب . وتعرفت زوجة المزارع على ليجارد بوصفه السارق المهاجم . وتم القبض عليه في مانشستر في اليوم التالي ، حينما كان يطلب توصيلة من سيارة شحن . وأنكر هو التهمة في البداية ، وأصر على انكاره حتى أبلغه محاميه أن رجال الشرطة قد قرروا أن لديهم من الأدلة ما يكفي لادانته دون اقرار بأنه مذنب ، أي دون اعتراف من جانبه . وهنا أقر بأنه مذنب . وخفض الاتهام إلى القتل الخطأ . وكان موضوع المناقشة الأساسي في المحاكمة هو البحث عما إذا كان

قد انفجر قائلاً : « كان ينبغي علي أن أقتلها ، هي الأخرى ، حينما قيل له إن زوجة المزارع هي التي تعرفت عليه . وقال طبيب نفسي في المحاكمة : « هذا رجل ذو شخصية غير متكاملة وليست قادرة ، وأمثال هؤلاء الناس لا يقتلون لكي يخفوا أو يتخلصوا من جريمة . »

وقد قال التقرير النفسي الذي أدى إلى نقل ليجارد من « سجن سترينج وايز » في مانشستر إلى « روزهيل » قال إن سلوكه كان طيباً بشكل ثابت ودائم ، بمعنى أنه لم يتشاجر أبداً مع المسجونين الآخرين ولم يتسبب في أية مشاكل مع ضباط السجن . كان معظم المسجونين يمقتون الحراس ويزدرونهم ، وكانوا يشيرون إليهم بكلمة « المتقوبين » (أي المستخدمين جنسياً) . وكان ليجارد مهذباً دائماً مع « المتقوبين » ولم يعرف عنه أبداً أنه كان يستجيب للاثارة أو للاستفزاز . ويقول التقرير : « لا يتمتع بالنمو العاطفي الكافي . وهو أقل من المتوسط العادي في الذكاء . يرفض أن يشترك في أي نوع من النقاش . ومن الواضح أن هذا راجع إلى العجز عن التركيز . ولا يقرأ أبداً . » ولكنني لاحظت أن هذا كان يتناقض مع تقرير طبي آخر جاء من سجن « سترينج وايز » وقال إن ليجارد قد عمل في مكتبة السجن لفترة ما ، وأثبت هناك أنه عامل كفء إلى درجة متوسطة في شؤون المكتبات . ولا شك أن هناك الكثير من العاملين في المكتبات لا يتمتعون بالكفاية العقلية المتوسطة ولا يقرأون أبداً ، ولكن كان بين التقريرين ما يوحي بالتناقض . وكان هناك أيضاً ما يثبت أن ليجارد قد بدت عليه علامات الاضطراب العقلي في سجن « سترينج وايز » . فلقد سحب من العمل في المكتبة حينما ضبط وهو يلطخ كتاباً بالبراز بأصابعه ولم يكن هناك ذكر لاسم الكتاب .

كان الهدوء الذي حققته به يعمل عمله . فكان ليجارد قد كف عن الارتعاش ، وأصبحت نظرته المحدقة أكثر عتامة . كانت الساعة النصف بعد الخامسة فتوجهت إلى مكتب المدير . وقبلت منه كأساً من الويسكي بالثلج وخرجنا إلى الشرفة المطلة على ساحة السجن الرئيسية . كانت حرارة ما بعد

الظهر تأتي نسمة منعشة وطازجة من المراعي الواقعة وراء السجن . وكان كثير من النزلاء ينتهزون الفرصة للقيام ببعض العمل في الحديقة ، أو الجلوس بالخارج تحت آخر أشعة الشمس . كان سجن « وورميل » يستمتع بموقع مثالي ، بقمة تل جرداء من خلفه في أحد الاتجاهات ، ثم بالنهر يتلوى من تحته خلف الغابات المغروسة حديثاً . ولم يكن الجدار المكهرب من حوله يقتحم الأنظار ، وكانت الأكواخ الخشنة التصميم والبئر المحفورة في وسط الساحة تجعله أكثر شبهاً بمعسكر للاصطياف أو لقضاء العطلات منه بسجن مغلق .

كنت مسروراً بالفرصة التي أتيحت لي لتبادل الحديث . فأخبرت المدير بأني قد حقنت المريض بالمهدئ ، وأنني لا أملك فكرة عما قد يكون سبب الأزمة .

« أيمكن أن يكون السبب عضوياً – شيئاً من الاضطراب في الدماغ مرتبطاً بالصرع ؟ »

قلت : « أشك في هذا » ثم شرحت له باختصار حالتين أخريين من الاغماء التشنجي واجهتهما في أثناء التمرين الطبي ، وكيف كانت الأعراض في الحالتين متشابهة مع أعراض حالة ليتجارد . ولكن ، كانت في الحالتين ، حبكة سابقة على التشنج العصبي ، كانت كافية لكي تنبئنا وتحذرنا بما يوشك أن نواجهه . أما ما كان يربكني فهو عدم توقع نوبة ليتجارد ووقوعها بشكل مفاجىء .

سألته : « ألم يهتم « الدكتور ماسي » – الذي سبقني هنا في العمل – به أي اهتمام ؟ » كان الدكتور المذكور قد انتقل إلى لندن ليشترك في دورة تدريبية .

« آه . هذا محتمل . ما زلت أحتفظ بأكثر ملفاته في المكتب الملحق » . دخل إلى مكتبه ، وخرج بعد دقائق قليلة حاملاً ورقة واحدة . كانت مكتوبة بخط اليد . الأمر الذي كان سبباً في عدم ارفاقها حتى الآن بملف ليتجارد . ولم يكن ما كتب عليها سوى بضعة سطور تقول :

« آرثر جيمس ليتجارد . ولد في « ماركيت » شمالي لندن ، عام ١٩٣٧ أصبح يتيماً في السنوات الأولى من الحرب ، وذهب ليعيش مع بعض أقاربه في « بيجحول » . وضع تحت مراقبة الضابط الاجتماعي للتحريات قبل عام ١٩٥١ بسبب حوادث السرقة ، والتمرد العام وعدم الطاعة . حاول القيام بهجوم جنسي حين كان في السادسة عشرة ، تلاه محاولة الانتحار . قام بالسطو في العام التالي وتضمنت الأشياء المسروقة سراويل نسائية داخلية . وضع تحت المراقبة بسبب ذلك وأدخل سجن الأحداث . حكم عليه في عام ١٩٥٥ بستة أشهر من السجن بسبب السطو . في عام ١٩٥٦ قام بمحاولة للاعتداء المتعلقة بآلة الغسيل . حكم عليه بستة أشهر أخرى . ١٩٥٩ ستة أشهر بسبب السطو . ١٩٦٣ ثمانية أعوام بسبب السطو والقتل الخطأ . في مقابلة « ماريس نورنو » . حالة قديمة للصرع . قابل للتعلم وسهل الانقياد وتحت مستوى الذكاء العادي . »

كانت هنا ثلاثة عناصر اجتذبت انتباهي على الفور . لقد أصبح يتيماً في سن الخامسة أو نحوها . ويقدم هذا معلومات واسعة حول تفسير [illegible] مجموعة الأسرة الآمنة المنعدمة . ولقد حدثت محاولة مبكرة للهجوم الجنسي في سن السادسة عشرة . وتضمن بعض من أعمال السطو السراويل الداخلية النسائية . ويمكن أن تكون هنالك أسباب عديدة للاستيلاء على [illegible] من السراويل [illegible] قد أخذها ليبيعها [illegible] [illegible] هدية لصديقة له . ولقد حدث مرة أن عرف [illegible] [illegible] المسروقة من [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] هذه السطور [illegible]

[illegible]

عاشت هناك ، إنها ضاحية بهيجة للسكنى والاقامة . ولا بد أنها كانت في عام ١٩٣٣ تقع تماماً في وسط الريف . فاذا كانت أسرته قد عاشت هناك ، فمن المحتمل تماماً أنهم كانوا أسرة ميسورة الحال — وربما كانوا يسكنون في « فيللا » من مساكن الضواحي المتباعدة . ومن ناحية أخرى فانني أظن أن « وورينجتون» مكان من نوع بالغ القذارة والبؤس ، وأستطيع أن أتخيل أنه لم يكن شديد السعادة . »

عدت فدرست ملف الحالة كله مرة ثانية .

« إنني بحاجة إلى أن أعرف عنه المزيد . ولن يكون ثمة أمل إلا إذا استطعت أن أحمله على الكلام . » فرغت من كأسي ثم عدت إلى حجرة لينجارد . كان قد غرق في النوم على أرض الحجرة ، وكان الحارس قد غطاه ببطانية أخذها من فراشه . وكان تنفسه ما يزال ثقيلاً وغير طبيعي حتى وهو تحت تأثير المهدىء .

وحينما كنت أجلس في سيارتي ، في انتظار أن يفتح الباب لي للخروج ، جاءني حارس البوابة وقال :

« يود المستر سليسور أن يقول لك كلمة يا سيدي . إنه في مبنى الادارة . »

افترضت أن ثمة عملاً آخر كان قد غفل عنه أو نسيه . ولكنني حينما عدت إلى مكتبه ، وجدت حارساً من حرس أقسام الشرطة جالساً فوق أحد المقاعد . قال سليسور :

« أعتقد أنني قد حصلت على شيء لك يا سام . إن المذكور من مقاطعة « ناريس‌بورو » قد هتف لي بالتليفون . وهذا هو « مستر جينكز » الذي يعيش في « ناريس‌بورو » .

صافحت يد الرجل المتوسط العمر الثقيل البنيان الذي كان يبدو في هيئة المزارعين ، وسألته :

« هل تعرف شيئاً عن آرثر لينجارد ؟ »

« لقد سمعت حكاية عنه يا سيدي . ولا يمكنني أن أقول إنها توحي بأي

شيء يؤخذ عليه . لقد كنت صديقاً حميماً لرئيس الحراس في قسم الشرطة في « ناريس‌بورو » . وحينما ألقي القبض على هذا الفتى بسبب قتل « بنسون » العجوز ، أخبرني رئيس الحراس انه كان بين من كانوا موضع الشك في قضية قتل أخرى — وكانت الضحية فتاة بالقرب من «ستوكسبريدج» — ولا أستطيع أن أتذكر اسمها . » .

مد سليسور يده في درج مكتبه وقال : « من السهل تماماً أن نعرف اسمها . تقول بالقرب من « ستوكسبريدج » ...؟ وأخرج دليلاً مزدوجاً لأرقام التليفونات وأضاف قائلاً : « ويمكننا أيضاً أن نكون في منتهى الدقة » ثم طلب من القائم على الاتصال الهاتفي للسجن أن يوصله بقسم شرطة ستوكسبريدج. وبعد لحظة كان يقول : « أيمكنني أن أتحدث إلى السيرجنت القائم بالخدمة من فضلك ؟ أنا سليسور ، مدير سجن « روزهيل » . واستمرت المحادثة لمدة عشر دقائق بينما كان يسجل بعض الملاحظات في كراسة مذكراته . وحينما وضع السماعة في مكانها قال للحارس : « لقد كنت على حق . كان لينجارد موضع شبهة في تلك القضية » وراح يقرأ من ملاحظاته المسجلة . « كان اسم الفتاة « ايفلين ماركيز » . عثر عليها في فبراير عام ١٩٦٠ بالقرب من « إيودين » في « ميدهوب مورز » . ومن الواضح أنها كانت ابنة رجل يدير « جراجاً » للسيارات . وكانت من حين إلى حين تساعد والدها في أعمال سيارات الأجرة . وفي وقت متأخر من مساء أحد أيام الجمعة ، أجابت على مكالمة هاتفية لكي تصطحب رجلاً بسيارتها إلى « ليدز » — على بعد ما يقرب من عشرين ميلاً . وذهبت فأخذته بالسيارة من أحد الفنادق في الساعة العاشرة والنصف . وفي الساعة الثانية من صباح اليوم التالي ، كان رجل على دراجة بخارية يمر فرأى سيارة تحترق على بعد خمسين ياردة من الطريق وعثر على الفتاة راقدة بجوار السيارة ، وهي وثيابها تأكلها النيران . وكانت قد قتلت بضربة عنيفة على مؤخرة الرأس . »

« وهل كانت قد اغتصبت ؟ »

« أجل . لقد أثبت التقرير الطبي أنها كانت عذراء قبل أن تتعرض للهجوم . »

« ولماذا وضع لينجارد في قائمة المشتبه فيهم ؟ »

« لقد ظن والد الفتاة أنه كان الرجل الذي رآه يتسكع حول « الخارج » — وكان يقود سيارة صغيرة من سيارات اصلاح اجهزة التليفزيون . وقد تم استجوابه مرتين ، ولكن لم يكن ثمة أي دليل . ولا بد أنهم قد قرروا أنه كان بريئاً لأنهم ألقوا القبض فيما بعد على رجل يدعى إيفانز . »

قال جيكينز : « هذا شيء لم أكن أعرفه . »

« ولكن هذا الرجل لم يقدم أبداً إلى المحاكمة ، بسبب الافتقار مرة أخرى إلى الأدلة . »

انتابتني الدهشة بسبب رد فعلي إزاء كلمات : « لا بد أنهم قد قرروا أنه كان بريئاً . » فعلى أي حال ، فانه لا اختلاف بالنسبة لي ، بين ما إذا كان لينجارد مذنباً أو لم يكن . إنه لم يكن سوى « حالة » . وعلى العكس ، فان احتمال أن يكون قاتلاً جنسياً قد يقدم لي مفتاحاً لأزمته وانهياره الحالي .

أخذت ملاحظات الحاكم معي إلى البيت . وكنت قد قررت أنه قد حان الوقت لفتح « ملف » جديد لآرثر لينجارد . وفي ذلك المساء كتبت خطاباً إلى الطبيب النفسي الذي كتب التقرير الوارد من سجن « سترينج وايز » لأسأله إن كان بوسعه أن يذكر لي شيئاً عن الكتاب الذي ضبط لينجارد وهو يلطخه بالبـراز .

طلبني فرانك سليسور قبل الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي بالتليفون ، وقال لي : « لقد قلت لي أن أعرفك بأي تغير يحدث . إنه يكاد يكون قد عاد إلى حالته الطبيعية هذا الصباح . وهو لا يريد أن يتحدث إلى أي مخلوق ، ولكنه تناول طعام افطاره . »

« حسناً حاول أن تعطيه قلماً وبعض الورق . » كنت أعرف من تجربتي السابقة أن هذه الطريقة تثمر دائماً مع المرضى الذين يكونون ما زالوا متباعدين .

إلى داخل ذواتهم إلى درجة تمنعهم من الاتصال بالآخرين عن طريق الكلام .

إن منطقة « ويست هارتلبول » التي كنت قد اشتريت فيها منزلاً ، تبعد من السجن مسافة تقطعها السيارة في ساعة واحدة . ولم يكن هناك في « روزهيل » ما يكفي من العمل للقيام بالخدمة لمدة يوم عمل كامل كل نهار بالنسبة لطبيب نفسي ، وقد اعتدت أن أمضي ساعتين أو ثلاث ساعات في فترة بعد الظهر كل أسبوع هناك ، عاملاً على تقسيم ما يبقى من وقتي بين المصحة العقلية المحلية وبين عملي الخاص . ورغم أنني لم أكن ملتزماً بالعودة إلى « روزهيل » حتى اليوم التالي ، فان مشكلة آرثر لينجارد ظلت تؤرقني وتلح علي طيلة الصباح ، فقدت سيارتي مباشرة بعد الغداء .

لمحني بنظرة خاطفة دون أن يتعرف علي حينما دخلت الحجرة ، وتجاهلني حينما وجهت إليه الحديث . كان منهمكاً في الرسم بقلم من الحبر الجاف الأحمر . وكانت صفحات عديدة من الورق مطروحة على الأرضية متناثرة إلى جوار السرير . التقطت الأوراق . فبدا كل ما خط عليه من الرسوم متشابهاً تقريباً : كتل منتفخة مثل السحب أو التلال المنخفضة إذ تنعكس صورتها على صفحة المياه . وحينما أمعنت التحديق فيها بدا لي أيضاً أنها تشبه الأمعاء . أمسكت بواحدة منها ومددتها أمامه وسألته : « ماذا يفترض أن تكون ؟ » توقف عن الرسم بأدب . بينما ظللت منتظراً إلى جواره ، بينما ظل هو على صمته . وحينما أبعدت الورقة ، عاد إلى الرسم . فسألت الحارس :

« من الذي أعطاه قلماً أحمر ؟ »

« هو الذي اختاره بنفسه يا سيدي . » وأشار إلى علبة رخيصة من الأقلام المختلفة الألوان ، وضعت فوق سطح صوان الأدراج : كان لينجارد قد اختار القلم الأحمر من بين سبعة أقلام مختلفة الألوان .

جلست ورحت أراقبه لمدة عشر دقائق . كان توتره ما زال قائماً ، ظاهراً في ضغطه على سن القلم . ولو كان يستخدم قلماً من أقلام الرصاص لما صمد في يده أكثر من ثوان معدودة . وكان وجهه ما زال متخشباً مشدوداً .

تجاهلني لينجارد في جلستي في مكاني . ولكن حينما وقفت لكي أنصرف حصلت على نظرة طويلة فاحصة متسائلة من العينين الجاحظتين . شعرت بالتشجيع . كان هذا على الأقل شكلاً من أشكال التواصل .

نظرت إلى ما بين يديه مرة أخرى قبل انصرافي . كان قد غطى عشرين - أو نحو العشرين - من الأوراق الجديدة بالرسوم . بدا لي أن الرسوم كانت تلقى المزيد من العناية بالتدريج : وبدا عليه أنه يستمد نوعاً من اللذة الحسية من الحركات التلقائية للخطوط . جلست على الفراش لمدة عشر دقائق أخرى . وبينما كان على وشك أن يلقي بأحد الرسوم على الأرض ، مددت يدي وأخذت الورقة . رفع نظره إلي ، وحدقت في عيني عيناه اللتان لا تطرفان . بدت عيناه خاليتين من التعبير ، ومع هذا فقد شعرت في الوقت نفسه بأنه كان يحاول أن يجبر نظرتي المحدقة على الانكسار ، بل وأن يحاول حتى أن يومئني مغناطيسياً . ظل يحدق في عيني لعدة دقائق ، غير مدرك بوضوح لمرور الوقت ، ثم عاد إلى رسمه .

قلت : « أخبرني بشيء ، يا آرثر . أتحب أن تأتي شقيقتك بولين لزيارتك ؟ » ومقني بعينين في لمحة سريعة دون اهتمام ومضى يرسم . ومضيت فجربت طلقة أطلقها في الظلام : « وماذا عن إيفلين ماركيز ؟ » ومرة أخرى نظر إلي دون تعبير : ثم فجأة قفزت عيناه لتستقرا على نقطة ما تقع فوق كتفي ، وعبرت وجهه نظرة حذر سريعة . نظرت حولي ، ولم يكن هناك شيء : لم يكن ثمة سوى جدار خال لا يشوبه شيء . انحنيت إلى الأمام وسألته : « هل تعرف إيفلين ماركيز ؟ » وبينما كنت أحدق في العينين الكابيتين ، خيل إلي - أو بدا لي - أن ثمة استجابة ، نظرة حذر ومكر . ولكنها اختفت على الفور . وبعد ذلك تجاهل وجودي كلية . وتركت رسالة أطلب فيها من المدير أن يتصل بي ، إذا كان هناك أي تطور آخر ، ثم قدت سيارتي إلى البيت .

* * *

في الثامنة والنصف من ذلك المساء ، كان أحد الحراس يحمل العشاء إلى آرثر لينجارد ، فوجده يحدق بثبات في الجدار المواجه لفراشه ويرتجف . وسأله الحارس عن المشكلة ، فتمتم لينجارد بشيء ، عن شخص ما ينظر إليه . وذهب الحارس إلى النافذة وقال : « ليس هناك أحد » . فقال لينجارد بانزعاج « كلا ، هناك » وأشار إلى الجدار . فقال الحارس : « لا أستطيع أن أرى أحداً . » فأجابه لينجارد : « إنه قناع ، قناع كهربائي . » فأعطاه الحارس طعامه ونقل تقريراً بالحالة إلى المدير . وقرر سليسور ألا يتصل بي ، طالما أن لينجارد لم يكن عنيفاً بالفعل . وفي الصباح التالي كان لينجارد ما زال يتحدث عن الأقنعة الكهربائية ؛ وكان يرسمها أيضاً . وكان ما يرسمه وجوهاً متناقضة مقلوبة كوجوه الزبانية .

وفي اليوم التالي وقفت إلى جواره ورحت أراقبه وهو يرسمها . كان القلم يحوم لبرهة قصيرة فوق منتصف الصفحة ، ثم يصنع به طعنة لافلة مفاجئة ، ثم يبدأ برسم الحاجب أو الأنف ، ثم يتحول إلى العينين أو الفم . وأحياناً كان القلم يتوقف في حالة من الحيرة وعدم التثبت من اتجاهه . كما لو كان غير واثق من أين تكون البداية ، ثم تحدث الطعنة السريعة ، ثم يظهر خط آخر جديد . كان الشيء الغريب هو أن آخر ما يكتمل من أقسام الوجه كان هذا الخط الخارجي للرأس . ومما يكاد يكون غريباً ومخيفاً ، الطريقة التي كان هذا الخط الأخير يستطيع بها أن يغير مجموع شخصية الوجه وطبيعته جاعلاً إياه معبراً عن التهديد ، أو ذاعراً إلى حد كبير ، أو ناعساً غارقاً في النوم .

وفي لحظة مفاجئة ، ألقى نظرة سريعة نحو النافذة ، وكانت نظرة مليئة بالذعر . سألته : « أهناك قناع كهربائي ؟ » فهز رأسه . فأضفت : « فماذا سيحدث ؟ » رفع إلي عينيه بكآبة صامتة ثم تمتم بشيء بدا لي أنه يقول : « كلب » .

وحينما غادرت الحجرة سألت الحارس إن كان لينجارد قد ذكر الكلاب من قبل فقال الحارس « أوه ، أجل . إنه يتحدث عنها من حين لآخر .

يبدو أنه يظن أنها تطارده ... » كنت أعرف أن لينجارد قد تحدث مع الحراس ، ولكنه لسبب ما كان أكثر حرصاً وحذراً معي .

وبينما كنت أسير نحو مبنى الادارة ، برقت في ذهني صورة معينة . كانت صورة المزارع العجوز الميت التي كانت مرفقة ضمن ملف لينجارد . كان وجهه قد طمس وأزيل من مكانه بفعل انفجار طلقة بندقية الصيد . وكان جداران من جدران الحجرة ظاهرين خلف الجسد المسجى ، وكانت هناك صور لكلاب معلقة على كل من الجدارين . أيمكن أن يكون هذا مفتاحاً لحالته المرضية النفسية — أي أنه قد كبت في داخله صورة ذلك الرأس المخيف الذي فقد وجهه ، فأصبح هذا هو جذر الاضطراب العقلي الذي ينتابه ؟ بدا لي هذا التحليل معقولاً — فهناك صور الأقنعة التي تهدف إلى تغطية الوجه المشوه الباعث على الغثيان ، وهناك كلاب الحراسة التي كانت تقتفي أثره لكي تنتقم لموت المزارع العجوز .

كانت هذه واحدة من تلك الأفكار التي تستميل الانسان ببساطتها المغرية . ولكني حينما عرضتها على فرانك سليسور ، بدا لي متشككاً . ضغطت عليه لكي يفسر شكوكه . فقال أخيراً : « إن ما يزعجني بشأنه هو أنه أكثر ذكاء مما يسمح بأن يبديه . »

« ماذا يجعلك تظن هذا ؟ »

« لقد تحدثت مع المسؤول عن المكتبة حول الكتب التي قرأها منذ جاء إلى هنا . » ثم ناولني ورقة منتزعة من مذكرته ، ونظرت إليها غير مصدق ما أراه . قلت له :

« ألنت واثق من أنه ليس ثمة خطأ ؟ »

« واثق تماماً . »

كان هذا مما يعسر على التصديق . كان لينجارد قد أمضى في « روزهيل » مدة لا تتجاوز الستة أشهر ، وكانت الكتب التي قرأها في غضون هذه الفترة تتضمن كتاب فرويد : « الحضارة ومساوئها » وكتاب آردري « أصول

الأجناس الافريقية » ، وكتاب داوتي : « صحراء العرب » وكتاب لوريتز « خاتم الملك سليمان » ، وكتاب ي . و . كار : « المنافي الرومانتيكية » . وكتاباً عن تاريخ الحرب الأهلية الاسبانية وكتاب جون كاوبر بويز : « أوين جليندوور » بالاضافة إلى ما تضمنته القائمة من أسماء بعض القصص والروايات العلمية الخيالية .

قال سليسور : « هذا هو الرجل الذي وصفه طبيبان نفسيان بأنه تحت المستوى العادي من الناحية العقلية » .

قلت : « هناك تفسيران محتملان . فاما أن يكون الطبيبان النفسيان لم يعرفا عمن يتحدثان . أو أن لينجارد « كان » تحت المستوى العادي في سجن « سترينج وايز » . ثم تحسنت حالته منذ جاء إلى هنا . وربما كان هذا تفسيراً معقولاً لانهياره الأخير — أي النشاط والفعالية العقلية المتزايدة ، الأمر الذي أدى إلى اضعاف عوامل الكبت السابقة ... »

« هناك بالطبع تفسير آخر محتمل . وهو أنه قد قصد أن يصدق الطبيبان النفسيان بأنه تحت المستوى العادي » .

« ولكن لماذا ينبغي عليه أن يفعل ذلك ؟ » .

هز المدير كتفيه .

نزلت من مكتب المدير لكي أرى المسؤول عن المكتبة — وكان رجلاً نشيطاً ضئيل الحجم يقضي عامه الأخير من حكم بعد سنوات بسبب الاغتصاب . وقد أكد لي أن لينجارد كان يستفيد دائماً استفادة كاملة من التصريح المعطى له باستخدام المكتبة ، واستعارة كتابين منها كل أسبوع منذ وصوله إلى « روزهيل » حتى قبل انهياره بأيام قليلة . وسألته عن انطباعه عن لينجارد فقال : « إنه فتى من النوع الواضح الذكاء . ولكني لا أقول إنه شديد الذكاء » سألته : « هل حادثته أبداً عن الكتب ؟ » فأجابني : « كلا . كان الشيء الوحيد الذي قاله : « هذا واحد من أفضل الكتب عندكم في هذه المكتبة . » فسألته أي كتاب كان هذا الكتاب . فذهب إلى أرفف الكتب وناولني كتاباً

من سلسلة « البنجوين » . كان الكتاب هو « المنافي الرومانتيكية » الذي ألفه ى . هـ . كار . وقال : « لقد راق له هذا الكتاب بالفعل ، وقد استعاره مرة أو مرتين » . وكان هناك عنوان فرعي للكتاب يقول : « مجموعة من الصور الشخصية لجماعة من الهاربين من الاستبداد القيصري في القرن التاسع عشر » . وانفتح الكتاب بين يدي من تلقاء نفسه عند الفصل الرابع عشر ، وكان عنوانه : « قضية نانشاييف . أو الارهابي الأول » . ورحت أنظر في صفحات الفصل نظرة سريعة . كان شخص ما قد وضع بعض العلامات على الهامش بالقلم الرصاصي . على الصفحة الأولى من الفصل كتب عبارة تقول : « في حياة عملية خاطفة في سرعة الشهاب ، انتهت في سن الخامسة والعشرين ، لم ينجز شيئاً على الاطلاق" بمعنى الكلمة » . وكانت الجملة مرقمة بعلامتي تعجب وعلامة استفهام . ولكن الفصل المكتوب عن « نانشاييف » كان يحتوي على علامات وتخطيطات أكثر من غيره . استعرت الكتاب وأخذته معي إلى البيت . وأخذت معي أيضاً كومة من الرسوم التي رسمها لينجارد . كان حدس زوجتي يبدأ في العمل غالباً حينما يهبط مؤشر عقلي إلى درجة الصفر .

قرأت معظم الكتاب في ذلك المساء . وفي أثناء القراءة بدأت صورة تخطيطية ذات شكل ما تبرز في ذهني . فحينما كان المؤلف يصف الثوريين المثاليين ، كانت علامات التعجب تشير إلى عدم الموافقة أو إلى السخرية والتهكم . وكانت هناك جملة تقول : « يقول هردر إن القبلة في الحب الإنساني برهان على نبل الانسان . » وكانت أمامها علامة تعجب وعلامة استفهام . وكان هناك سهم صغير يشير إلى أسفل الصفحة ، حيث كان شخص ما قد رسم كلبين ، وأحدهما يتشمم مؤخرة الآخر .

كان الفصل المكتوب عن نانشاييف يقدم الدليل على العناية في القراءة . إن نانشاييف هو أكثر الثوريين قسوة وبعداً عن الاخلاق ، وهو الرجل الذي ظن أن الثورة هدف في حد ذاتها ، وآمن بأن أية جريمة مبررة باسمها . لقد كان نانشاييف هو الذي رتب عملية قتل أحد أتباعه لكي يوحد صفوف جماعته

الثورية . وفي الصفحة الأخيرة من الكتاب ، كان هناك تعليق كتب بالقلم الرصاصي يقول : « أكثرهم بلهاء . »

سجلت في ذهني ملاحظة لكي أراجعها في ملف لينجارد في اليوم التالي ، لكي أرى إن كان خط توقيعه يماثل خط الكتابة أم لا . ولكن لم تكن هناك حاجة إلى ذلك . فقد كانت زوجتي تجلس أمامي تنظر في الرسوم فقالت لي وهي تناولني أحد الرسوم : « هذا رسم غريب » . في الركن العلوي الأيمن كان لينجارد قد كتب عبارة تقول : « هذا شيء مقرف » . وقارنت خطه بالخط الموجود في الكتاب . كان خطه هنا أكبر وأكثر حدة في زواياه ، ولكن بدا واحدة كانت هي التي كتبت الخطين .

لاحظت أيضاً أن الرسم نفسه قد اختلف في جانب أساسي من جوانبه عن الكتل المنتفخة الأولى . كان هذا أكثر ميلاً لتحديد الزوايا . وزواياه تماثل في حدتها زوايا الخط الذي كتب به عبارته . لسبب ما . أراد أن يهرب من المنحنيات الناعمة . أراد شيئاً أكثر تنظيماً وتجريداً . وبدلاً من كتل الأمعاء ، كان هذا الشكل يبدو أكثر شبهاً بالجبال المنعكسة صورتها على صفحة المياه في إحدى البحيرات .

« ها هي واحدة أخرى » وناولتني رسماً لأحد « الأقنعة الكهربائية » . وقد كتب عبره كلمات تقول : « لقد خلق الله العالم . ولكنه انتزع من بين يديه » .

كان الأمر أكثر إثارة للاهتمام في العبارة الأمريكية . « هذا شيء مقرف » . فهل كان يعني أن الرسم كان من الرداءة لدرجة أنه لم يستطع أن يتحمل النظر إليه ؟ ثم تذكرت أن المرضى النفسيين غالباً يعنون ما يقولونه حرفياً إلى درجة غريبة . لماذا ينبغي أن يكون الرسم مقرفاً ؟ وما هو الذي يقرف ؟ كان الجواب واضحاً [illegible] مددت يدي وأخذت رسماً من الرسوم الأخرى من فوق ركبة زوجتي . الآن حصلت على المفتاح . وكان واضحاً . كانت تلك الأمعاء المنتفخة المتقاطعة [illegible] كتلاً غريبة الشكل من [illegible] ولكن [illegible] الذي [illegible] التجعد [illegible] لا يكون منتفخاً

ولا ملتوياً . إن افراز الشخص المصاب بالامساك وحده هو الذي يخرج في صورة هذه الكتل الدائرية الشكل . كان ليتجارد يرسم براز شخص مصاب بالامساك — رمزاً لتصلبه وتجمده الداخلي . ثم حدث التمرد ، « هذا شيء مقرف » ثم أصبحت الخطوط غاضبة حادة الزوايا . ثم حدث على الفور ، وبعد تمرده الثائر مباشرة ، أن جاءت الأقنعة الكهربائية . وربما كانت قائمة أمامه على الدوام — وتذكرت نظرة الخوف التي ألقاها فوق كتفي حينما سألته عن « ايفلين ماركيز » . ولكنها الآن كانت تنتصب أمامه طول الوقت .

قد يبدو كل هذا تفسيراً ذاتياً متعسفاً : ولكنني كنت أحاول أن أستفيد من أنواع الحدس التي كونتها عبر ثلاثة وعشرين عاماً من العمل التطبيقي . ولسبب ، لم أدرك أنا نفسي ، لماذا خلب ليتجارد لبي . وشعرت بأنني مثل طفل استغرقه الفضول وحب الاستطلاع . أردت أن أعرف سره . وبدأت في تلك اللحظة كما لو كنت أحصل على اشارات أو لمحات غير مباشرة لدراما من نوع ما كانت تتشكل وتدور في داخل عقله . لم يكن هذا الرجل أبله . إن مشكلة آرثر ليتجارد لم تكن مما يمكن تلخيصها بكلمات الضعف وعدم الكفاية . كان هذا الرجل رازحاً تحت نوع من أنواع الشياطين . وقد حاول هو أن يفلت من قبضتها بالتراجع نحو عالم السلب الذي يكونه الاغماء التشنجي ، ولكن جزءاً من كيانه قد رفض أن يستسلم . وكان الآن يقاتل مرة ثانية في عالمه الخاص الغريب ، مثل رجل حاصرته الوحوش وأوقعت به داخل بوتقة زجاجية مغلقة . كانت مهمتي هي أن أحطم الزجاجة ، وأن أحاول الوصول إلى وهدته العميقة لكي أعاونه .

ولكن أي نوع من الرجال كان هذا الذي أقنع طبيبين نفسيين بأنه كان تحت المستوى العادي من الناحية العقلية وبأنه لا يتمتع بالكفاية العاطفية ، والذي قد راودته بالفعل أحلام الثورة العنيفة — والذي رأى نفسه شبيهاً كل الشبه بالمتوحد المجنون نانشاييف ؟ كان هذا رجلاً يفكر في الناس بوصفهم كلاباً ، وفي التعاطف الإنساني العاطفي في صورة كلبين يتشمم الواحد منهما

مؤخرة الآخر . ولقد أقنعه الآن شيء بأنه في خطر من « الكلاب » ، وكان خائفـــاً .

وقد طرأ لي ، في وقت متأخر من تلك الليلة ، وقبل أن أدخل فراشي للنوم مباشرة ، أنه ربما كان قتل المزارع العجوز عملاً متعمداً تماماً . كان رجل عجوز يرتدي قميص نومه قد ضبطه في هذا الموقف السخيف ، وكان الرجل العجوز قد عزم على أن يسلمه للشرطة مثل صبي ضبط وهو يسرق التفاح من حديقة الجيران .... وقد انتظر هو فرصته ثم هاجم الرجل . ولقد أسكت الرجل العجوز بمثل السرعة والقسوة اللتين أسكت بهما كلبه ، ثم خرج وسط ظلمة الليل ، متجاهلاً صرخات المرأة العجوز التي كانت تقف عند أسفل درجات السلم .

وإذا كان قد قتل المزارع متعمداً ، فقد يكون من الممكن إذن أنه قد قتل « إيفلين ماركيز » .

وبزغ في داخلي في تلك اللحظة شعوري بأن « آرثر ليتجارد » قد يكون رجلاً بالغ الخطورة .

* * *

في ذلك المساء ، بدأ ليتجارد في الصراخ . كان مقتنعاً بأن شيئاً ما كان يحاول الهجوم عليه بالداخل من خلال النافذة . وتطلب الأمر استخدام ثلاثة من الحراس للسيطرة عليه والباسه قميصاً من قمصان المجانين . وأعطاه طبيب السجن جرعة قوية من عقار مهدىء : ولكنه استيقظ ثانية بعد ساعات قليلة ، صارخاً مستنجداً من رجل يهدده بسكين . وفي الصباح التالي نقلوه إلى أكثر غرف السجن تطرفاً حيث كانت صرخاته أقل صخباً من أن تزعج الآخرين . وأرسلوا في طلبي . كان الطبيب قد اقترح نقله إلى مستشفى للأمراض العقلية . وعارضت أنا هذه الفكرة بصراحة ، مشيراً إلى أن هذا العمل لن يؤدي إلا إلى إيذائه بسبب وضعه في « عنبر » مزدحم بالآخرين من المرضى العقليين . وتذكرت حالة كانت قد أثرت في عدد من المناسبات السابقة

مع المرضى ذوي حالات الاضطراب الشديد ، فاقترحت عليهم أن يقدموا له اللبن الدافيء في زجاجة من زجاجات ارضاع الأطفال . كان عدد كبير إلى درجة غريبة من المرضى العقليين يتمسكون بارتياح عميق بهذا الاقتراح الذي يوحي لهم بأنهم ما زالوا أطفالاً يرضعون اللبن . وحينما وصلت إلى « روزهيل » بعد ساعتين اكتشفت أن الحيلة قد بدأت تأثيرها . كان لينجارد قد شرب ثلاث زجاجات من الحليب المحلى ، وكان يرقد الآن على أرضية حجرته ، محدقاً في سقفها .

صدمني منظر وجنتيه ومقدار ما أصابهما من نحول . كان الوجه قد أصبح أصفر اللون مجهداً . وعلى جبهته كانت هناك كدمة كبيرة — وأخبرني الحارس بأنه قد تدحرج فسقط من فوق السرير وهو في قميص المجانين . كانت هناك آثار دماء على وجنته . وأخبرني الحارس بأنه كان يغمغم بكلمات عن رجل كهربائي يهدده بسكين .

ولما كان يبدو هادئاً لدى دخولي حجرته ، فقد حللت أربطة قميص المجانين الذي يقيده . وظل هو يلعق شفتيه ويبتلع لعابه ، ويتمتم بأشياء لم أستطع أن أدركها . ساعدته على الوقوف على قدميه والتمدد فوق الفراش . وكان هناك فوق المائدة كومة من ورق الرسم وقلم أحمر ، وضعتها جميعاً على طرف الفراش وغادرت الحجرة .

وبعد ساعة واحدة ، سمعت صرخاته تتعالى من الطرف الآخر للسجن . أسرعت عائداً إلى حجرته . كان يتلوى تحت السرير ، وهناك حارسان يحاولان اقناعه بالخروج . وحينما رآني ، بدا أنه قد أصبح أكثر هدوءاً . جلست على أرضية الحجرة وسألته من أي شيء يخاف . تجاهلني في البداية ، ثم أشار فجأة إلى النافذة وقال : « أنظر ! الرجل حامل السكين . » سألته : « وماذا يريد ؟ » صرخ لينجارد : « إنك لن تنزل بهذه فوقي . »

التقطت بعض الأوراق التي كانت مبعثرة على الأرض . أظهر الرسم الأول يداً تمسك بعضو تناسلي لرجل ، تقطعه إلى نصفين بسكين ضخمة الحجم

ذات نصل مثلث ومدبب الطرف من النوع الذي يستخدمه القصابون أحياناً . وتجسدت السكين في عدد من الرسوم الأخرى . وفي بعض الرسوم كانت السكين تقطع أطراف أنوف الأقنعة ، شبيهة بالزبالية . وفي أحد الرسوم فقط ، كانت السكين تخترق عين القناع .

استطعت بعد نصف ساعة من الكلام المهدىء أن أقنعه بالصعود ثانية فوق السرير . قدمت إليه زجاجة إرضاع الأطفال ، ولكنه أزاحها بعيداً نافد الصبر . وحينما أعدت كراسة الرسم والقلم ووضعتهما فوق ركبتيه ، قبض على القلم وشرع يرسم السكاكين .

وضعت في جيبي خلسة رسم السكين التي تقطع العضو التناسلي المذكر . بدا لي أنه رمز فرويدي بالغ الوضوح — إنه الخوف من الخصي واستئصال الأعضاء التناسلية ، وهو نتاج نوع من الخوف المجلل بالشعور بالإثم . ولكن ماذا كانت علاقته برسوم البراز والأقنعة الكهربائية ؟ « إنك لن تنزل بهذه فوقي » ، من الذي هدده بسكين ؟ ظل السؤال معلقاً في خلفية عقلي طوال حديثي مع المسجونين الآخرين . طرأ لي الشكل الخارجي لاجابة ما بينما كنت أعبر باحة صغيرة مشمسة ، فجعلني هذا أتوقف لكي أحدق في الحشائش . لقد ذكرني النصل المثلث للسكين بالنهايات المحددة المدببة التي حلت محل المنحنيات الناعمة لرسوم البراز . كانت هذه النهايات المدببة تمثل العدوان والتمرد ضد سلبيته نفسها . فلنفترض أن السكين أيضاً تمثل العدوان — العدوان ضد العضو التناسلي لشخص آخر ؟ ماذا لو فرضنا أن عبارة « إنك لن تنزل بهذه فوقي » كانت تشير إلى العضو التناسلي لهذا الآخر وليس إلى سكين ؟

كان علي أن أقوم بزيارة أخرى بعد ظهر ذلك اليوم — لشخص يدعى « بيرت » وهو رجل ضئيل الجسم متصلب الوجه من أهالي المدن . كانت الكوابيس تهاجمه في نومه وتجعله يستيقظ صارخاً مبللاً بالعرق . وكان « بيرت » قد استجاب بشكل جيد للعلاج الايحائي العادي ، فإن مجرد التأكيد الصادر من طبيب بأن كل شيء سوف يكون على ما يرام كان كافياً لكي تبدأ

عملية التحسن . كان داعراً ولا أخلاقياً بطريقة ضاحكة مكشوفة ، وكان علي أن أصل إلى الاعجاب بهذا الفاسق الصغير الذي لا يمكن تقويمه ، بينما أعترف بأن هذا قد يوفر على البلاد تكاليف « إعدامه » الكامل مثل كلب يقتل صغار الدجاج . كان من نوع المجرمين الذين لا يسمع عنهم الجمهور إلا قليلاً ، لقد كان محتالاً مثلما يكون رجال آخرون ساكين أو نجارين، ولم يكن فيه شيء مختلط أو غير مكتمل أو دون الكفاية . وحينما سألته إن كان قد عقد العزم على أن يسير في الطريق المستقيم بعد أن يخرج قال لي : « ولماذا يجب علي هذا ؟ ما الغرض من وجودك هنا إذن إذا كنت تنوي أن تسيرني الطريق المستقيم ؟ إنني هنا لأنني آمل أن أقوم بعمل كبير في أحد تلك الأيام — عمل أستطيع أن أتقاعد وأنا ميسور الحال من دخله . إن لي حقاً في الحصول على قدر من الراحة حينما أتقدم في العمر . » لم يكن يشعر حينما يخطط لعملية سطو بأنه يعادي المجتمع أكثر من شعوره بالعداء للمجتمع لو كان يخطط لصفقة في البورصة (سوق الأسهم والأوراق المالية) أو في مصرف الجرائد ناشيونال. كانت فلسفته قائمة على الجهل والغباء المطلق ، ولكنها كانت فلسفة ثابتة على هذا الأساس . ولو كان المدير قد عرف بموقفه ، لكان من الممكن أن يؤدي به هذا إلى حرمانه من إطلاق سراحه إذا حسن سلوكه ، ولذلك حرصت ألا أذكر عنه هذا .

وحينما هممت بمغادرة « بيرت » سألته : « ألا تعرف شيئاً عن آرثر لينجارد ؟ »

هز كتفيه وقال : « لا أعرف عنه الكثير . »

« كيف يفكر فيه الآخرون ؟ »

« إنه فتى عادي تماماً وهادىء — ليس شديد الذكاء أو الألمعية . »

« أيمكن أن تظن أنه أكثر مهارة مما يبدو عليه ، فمثلاً ، أن يكون من قبيل اللصوص أو المحتالين الدهاة ؟ »

جفل بيرت وقال : « لن يكون هذا في حياتك أبداً . لا مؤاخذة على

هذه الكلمة يا سيد ، ولكنك لا تعرف اللصوص ولا المحتالين الدهاة . إنهم ليسوا كزهور ورق الحائط المتواضعة . إنهم إذا كانوا في قمة انتصارهم ومجدهم ، لجعلوا الآخرين يعرفون عنهم كل شيء . »

« وماذا عن حياته الجنسية ، أتعرف شيئاً عن ذلك ؟ »

كان هذا — بصراحة — سؤالاً لا عدل فيه . لقد كان هناك قدر معين من المثالية الجنسية في السجن ، مثله في ذلك مثل كل السجون ، ولكن لم يكن من حقي بوصفي ممثلاً للجانب الرسمي أن أتوقع منه أن يبوح بما يجري داخل السجن ، ولكنه وثق في لحسن الحظ ، وقال :

« لم أسمع عنه شيئاً أبداً . فليس له رفاق خصوصيون » .

« وماذا عن الحراس ؟ ألا تعرف الشذوذ عن أي واحد منهم ؟ »

« لا أريد أن أزج أي إنسان في مشكلة . »

« لن يزج بأحد في أي مشاكل . »

« طيب ، اسمع ، هناك هاري تيان . إنه شاذ مثل ورقة التسعة ذات النقطة الحمراء . ومع هذا فلا يبدو عليه أنه من النوع الشرير » .

غمزت له بعيني وقلت : « شكراً لك يا بيرت . »

• • •

كان لينجارد جالساً في سريره ، وقد وضع كراسة رسمه فوق ركبتيه . لم يكن يرسم . وإنما كان جالساً يحدق في الجدار المقابل للسرير بعينين ضيقتين ، متحركاً إلى الأمام والخلف في حركة متسانة كما لو كان يدقق النظر . جلست على السرير إلى جواره ونظرت إلى ما فرغ منه من رسوم . كان هناك المزيد من السكاكين التي تقطع أعضاء التناسل الذكرية أو تستأصل الخصيتين . وفجأة جفل رأسه ، وحدق نحو النافذة مثل حيوان مذعور ، وسال خيط من لعاب أبيض اللون على جانب فمه . سألته :

« ما ذا هناك يا آرثر ؟ أهو قناع كهربائي آخر ؟ »

وبدون أن يبعد عينيه عن النافذة أومأ برأسه موافقاً ولكن دون أن ينتبه إلي .

سألته : «ما اسمه ؟»

فهز رأسه بعنف كما لو كنت ذبابة مزعجة .

سألته : «هل اسمه هاري تيبان» .

ولم يكن رد فعله مما يمكن الشك فيه أو تفسيره تفسيراً خاطئاً . بدا كما لو كنت أغرقته بالماء البارد . ارتفع صوت تنفسه إلى درجة حادة ، وتقلصت عضلاته ، ورمقني بنظرة مرتعبة .

قلت مهدئاً : «لن يسمح له بأن يزل به عليك مرة ثانية .»

ولم يبد لهذه الكلمات أي تأثير ، ولكنني مضيت في ترديد نفس المعنى بصياغات مختلفة ، ببطء وهدوء ، وظللت أراقبه وهو يسترخي بهدوء . أغمض عينيه وتنفس بعمق . ثم امتدت يده دون هدف بحثاً عن القلم حتى أمسك به . وبدأ يرسم خطوطاً على صفحة الكراسة الموضوعة على ركبتيه . كان القلم يتحرك ببطء شديد ، وقد راح منه يخطط المنحنيات المبهجة الناعمة التي كنت أعرفها ، وللمرة الأولى منذ دعيت لرؤيته ، شعرت بطفرة من الابتهاج والفرح . ودهشت حين شعرت بهذه الطفرة تمتزج بما يكاد يكون إحساساً أبوياً قريباً من الشعور بالرغبة في حمايته . نهضت وغادرت الحجرة .

* * *

وجدت هاري تيبان خارج فترة الخدمة ، وعثرت عليه يحتسي الشاي في مقصف الحراس . كان رجلاً ضخم الحجم وسيم الشكل في الثلاثينات من عمره ، له كتفان قويتان وصدر عريض . لم يكن الوجه جذاباً للوهلة الأولى — فقد كان ناتىء العظام يكاد ينم عن العصبية الشديدة ، وقد برز منه أنف يشبه الفأس . وكانت العينان الكبيرتان الناعستان البنيتان مما يثير الاهتمام القليل في الرجل ؛ رغم أنهما كانتا تجتذبان الاهتمام . وعلى الفور أدركت كيف يمكن أن يكون شعور آرثر ليتجارد إذا اعتقد أن هذا الرجل يحوك حوله حبائله . ويستطيع أن يعرف هذا الإحساس أي شخص عرف امرأة متقدمة في السن تتمتع بأي نوع من الملامح الجنسية الجذابة — ساقين جميلتين أو فم حسي

شهواني ، بل وحتى عينين جميلتين . فالساقان الجميلتان تدفعان التفكير أوتوماتيكياً إلى الفراش والفم الجميل يدفع المرء إلى التفكير في تبادل القبلات . ولكن فكرة ممارسة الجماع الجنسي مع امرأة متقدمة في السن توحي بالأمومة المهيمنة . هي فكرة منفرة بغيضة ، وقد أثار هاري تيبان المخيف — على الأقل في داخلي أنا — هذا المزيج من الانجذاب والرفض .

وجهت كلامي إلى الموضوع مباشرة .

«هناك قدر معين من الكلام عنك في السجن .»

شحب وجهه رغم ما بذله من جهد لكي لا يبدو عليه الانزعاج .

«حقاً ؟ عن أي شيء ؟»

«أظنك تعرف عن أي شيء . .»

وحينما شرع في الاحتجاج ، قاطعته قائلاً : «إسمع ، ليس لي أن أتدخل فيما تفعله مع من يقبل من الرجال . هذا شيء اعترف به القانون الآن .»

وبدا عليه الارتياح مع الكلمات السابقة . ولكني استطردت أقول : «طالما أنك لا تستخدم وضعك كحارس لكي تفرض نفسك على المسجونين» .

وبدأ حينئذ يحتج ثانية . فمضيت قائلاً : «وأنا لا أشك في أنك أكثر ذكاء من أن تفعل ذلك» . وابتسم في ارتياح .

«إذن فلماذا كنت تريد أن تراني ؟»

«أريد منك أن تخبرني عن شيء معين بصدق . فإذا أجبتني بأمانة ، فإني أعدك بأن هذا لن تكون له أية نتائج ضارة على وظيفتك أو عملك . إنني أريد أن أعرف ما بينك وبين آرثر ليتجارد .»

نهضت واقفاً بعد هذا وقلت له : «فكر في الموضوع بينما أحضر لنفسي قدحاً من الشاي .»

عدت إليه وجلست في مواجهته وسألته بغموض : «هيه ؟» ودخل بعض الحراس الآخرين فلم نعد وحيدين .

قال : «تعال إلى الخارج وسوف أخبرك بالحكاية .»

سرنا إلى الخارج ، نحو الأسلاك الشائكة . قال : « اسمع . هناك شيء ينبغي أن تصدقني فيه . إنني لم أحاول أن أفرض نفسي على آرثر » .

« إنني أصدقك . والآن أخبرني كيف حدث أن تعرفت به . »

« لقد ثار اهتمامي بالكتب التي كانت في حجرته . إنه فتى ذكي كما تعرف . لم يشأ في البداية أن يتكلم . ولكنه فتح نفسه بعد قليل ، وثرثرنا قليلاً في السياسة والكتب . و ... حسناً ... حدث ذات يوم في حجرته ... طيب ... بدا لي أنني فهمت أنه كان يطلب مني أن أدخل إليه . »

« هل ثارت بينكما مناقشة حول المثالية الجنسية ؟ »

« قليلاً . لقد تحدثنا عن الانحراف الجنسي . وقد برز في عقلي انطباع بأنه قد ... حسناً ، بأنه قد عاش عديداً من التجارب ، إذا شئت أن تقولها بهذا الشكل » .

« إذن فماذا فعلت أنت ؟ »

نظر إلي بقلق ثم قال بعصبية : « إسمع ، إنني لا ... » ولكن تعبير وجهي المتصلب أوقفه ومنعه من اتمام كلامه . لم أكن أمثل دور القاضي والمحقق ، ولكنني كنت مصمماً على أن أعرف . قلت : « تذكر أنني طبيب ، وأخبرني بكل التفاصيل . »

كان ينظر إلي براجم أصابعه الضخمة المنتظمة وقد أغلق قبضته وراح يتأملها بالمقلوب . قال : « طيب ، لقد قبلته » ثم استطرد مندفعاً : « ثم .. ثم لحونا ولعب كل منا مع الآخر ، وصعدنا إلى الفراش . ثم بلغ كل منا ذروته » .

« هل بلغها هو ؟ » كنت مهتماً بهذه النقطة اهتماماً خاصاً .

« أوه ، أجل . لقد بلغها بالفعل ، وقذف مثل القنبلة تخرج من المدفع . »

« فماذا حدث بعد ذلك ؟ »

« لا شيء ... في هذه المرة . »

« ولكن أكانت هناك مرات أخرى ؟ »

« مرة واحدة . ففي اليوم التالي ، عدت إليه وصنعنا ما صنعناه بالأمس . »

« ولكنك خطوت خطوات أبعد في هذه المرة ؟ »

كان قد قرر أن يتحدث عن الموضوع بصراحة وقال : « خامرني إحساس بأنه أراد هذا . وهكذا فقد طلبت منه أن يتحنى فوق السرير . ولقد عرفت من الطريقة التي فعل بها هذا أنها لم تكن المرة الأولى . »

« أولم تثر مسألة رغبته في أن يلوط هو بك ؟ »

« كـلا . »

« فماذا حدث حينما انتهيت ؟ »

« قال : « انصرف ودعني الآن بمفردي » قلت له : « وماذا عن الغد ؟ » فقال : « كلا ، لن يحدث هذا أبداً . » فتركت الأمر عند هذا الحد . »

قلت : « حسناً ، شكراً يا تيبات . » وعدت إلى المقصف لكي أشرب قدح الشاي ، ولكنه لم يتبعني . وحافظت أنا على وعدي له فلم أبلغ المدير شيء مما عرفته ، إذ ما كان هناك هدف يمكن تحقيقه من ذلك . لقد صدقت تيبات حينما قال بأن ليتجارد قد قبل اللعب . لقد كان تيبات حارسه بالطبع ، ولو أنه كان سجيناً آخر ، فأعتقد أن رد فعل ليتجارد كان سيصبح إيجابياً ورافضاً . ولكن سواء كان تيبات حارساً أم لم يكن ، فان شيئاً لم يكن يمنع ليتجارد من رفض تيبات . لقد كانت قصة ، أو كان موقفاً قذراً . لقد اعتاد ليتجارد أن يحافظ على نفسه لنفسه . ثم وقع في خطأ السماح لنفسه باتخاذ صديق واحد . وتحولت هذه الصداقة فجأة وبسرعة إلى خيانة ، بالاضافة إلى مهانة أن يلاط به فوق الفراش .

(ولقد أحسست بالارتياح بعد شهرين ، حينما ضبط تيبات خلف دار عملية السينما ، منغمساً في بعض اللهو الجنسي مع صبي في الثانية عشرة . واتخذ الحاكم اجراءاته ، ونقل تيبات إلى جهات غير معلومة .)

• • •

مشيت ببطء ، عائداً إلى حجرة ليتجارد . ظهر لي أن هذا بالتأكيد هو المفتاح لفهم انهياره ـ أو أنه على الأقل أحد مفاتيح فهمه . إن المريض العصبي

يعيش في حالة ظاهرة وملموسة من الخوف ؛ إنه يسبح في الخوف كما تسبح السمكة في الماء . والخوف يغرق كل ما يراه أو يفكر فيه . ويستطيع كل ظل يراه على الحائط أن يولد لديه شعوراً بسقوط معدته في أمعائه ، والقضيب النفسي المعالج يصبح موضوعاً من موضوعات الخوف مثله في ذلك مثل أي شيء أو شخص آخر . والمشكلة هي كيفية النفاذ إلى عالمه المغلق ، وكيفية عكس ذلك التيار لكي يسير في الاتجاه المعاكس على الأقل في نقطة أو لحظة واحدة . كنت أملك الآن وسائل الولوج إلى عالم لينجارد الداخلي . وكانت تتملكني في هذه اللحظة رغبة ملهوفة لاستخدام مفتاحي . ولأن آرثر لينجارد كان « مريضي » ، وكنت أنا قد اكتشفت المفتاح ، فقد شعرت بإحساس دافيء من الرغبة في حمايته . لم يكن احتمال أن يكون قاتلاً مدبراً لجرائمه وعامداً إليها مما يثير أي اختلاف في هذا الإحساس . لم يكن ذلك أكثر من جانب آخر من جوانب مرضه .

جلست عند طرف فراشه . وجعلت أرقب يده وهي ترسم نصل سكين . تجاهلني حينما تحدثت إليه . رسم شكلاً أقرب إلى العضو التناسلي المذكر . أشرت إلى الشكل الجديد وسألته : « لمن هذا العضو ؟ » فتجاهلني . فقلت : « إنه عضو هاري تيبات ، أليس كذلك ؟ إنك تريد أن تبتر عضو هاري تيبات ؟ » اهتزت يده وتعرج الخط الذي كان يرسمه : ثم أسقط القلم . جرى على جلده الرمادي فجأة خيط عريض من العرق . قلت له : « لن يهتم أحد إذا أنت بترت عضو هاري تيبات . إنه يستحق هذا ، أليس كذلك ؟ لأنه يفعل أشياء لا تحب أنت أن تفعلها ؟ » هبط رأسه إلى الخلف حتى لامس الوسادة وقد أغمض عينيه . بدا مريضاً وطاعناً في السن . جعلتني همساتي أشعر بأني مثل شيطان يغوي ناسكاً من القرون الوسطى . كنت أقول : « هيا . اقطعه ، لا تخف . » . فجأة ، استدار رأسه بعنف ، ومضى يتقيأ فوق الرسوم المنثورة على المقعد القائم بجوار السرير . تصاعدت من فيه رائحة عفنة وحامضة ، شعرت أنا أيضاً بالغثيان ؛ ولكن اللحظة لم تكن لحظة الاقتراب

في الحساسية . جعلت أرقب تقلصات كتفيه ، انتظرت لمدة خمس دقائق أو أكثر حتى انحنى إلى الخلف ، والقيء يسيل على خده . قلت له : « هذا أفضل . إنك تتخلص منه وتخرجه من كيانك الآن . » شعرت بأن جزءاً منه كان ما يزال يقاومني ! ولكن هذا الجزء كان يضعف باستمرار . تحدثت إليه بهدوء . وفي كل مرة أذكر فيها اسم « تيبات » ، كان رد فعله يظهر على الفور . تصلبت قبضته فقلت له : « هيا . أمسك بالسكين في يدك . أجل . هكذا اقبض عليها . أمسكها جيداً . » رأيت يده الأخرى تقترب وتتقاطع مع حركة اليد الأولى . قلت له : « أجل ، هكذا . اقطعه . لا تخشى شيئاً . » نزعت يده اليسرى ، اليد الممسكة بالسكين الوهمية . قلت بحدة : « هيا ، الآن . » كانت الحركة التي تلت هذا عنيفة ومتوحشة لدرجة جعلتني أجفل . ارتفعت وتم الوجه الغارق في عرقه عن البغض المروع . ونزلت اليد المرتفعة بكل قوتها لكي تخبط ركبته بعنف . للحظة واحدة مليئة بالهلوسة ، بدا لي أنه يمسك بالفعل سكيناً في إحدى يديه وعضواً ذكرياً مقطوعاً في اليد الأخرى . قلت : « هاك هو . لقد فعلتها . » . تقبض وجهه وتقلص مع تحقق توتره ، وجرى فوقه العرق . بدا مثل عداء مجهد بعد سباق طويل . مضيت في كلامي ، ببطء عامل بالنعاس : « هاك ، لقد انتهى الآن كل شيء . يمكنك الآن أن تطوحه بعيداً ... » لم أكن أعتقد أن الفعل الوحيد العنيف الذي قام به الآن قد حقق بشكل ما من كل كراهيته لتيبات . لماذا كان يبغي ذلك ؟ لقد كان يعبر عن الكراهية منذ أن بدأ يرسم السكاكين ، أما ما كان يهمني فهو أنه قد سمح لي بالولوج إلى عالم خياله ، سمح لي بالولوج إلى عالمه الخاص . وكان من الممكن الآن أن يحدث شيء من الشيئين . فربما أصبح جزءاً من خيال آخر من خيالات الكراهية ، أو ربما يتقبلني بوصفي شخصاً يريد له الخير ، بوصفي قوة من قوى الخير . وحالما يحدث ذلك ، فسوف أكون قد كسبت نصف المعركة . قد يتحطم حينئذ ذلك المحيط السلبي . مضيت أتحدث لمدة نصف ساعة أخرى ، متمنياً ألا يقاطعنا أحد . أخذت أرقب وجهه وهو يسترخي ببطء . كان النعاس يغلبه بالتدريج .

وبعد قليل بدأ يتمتم : « أجل ، إنه خنزير ، خنزير قذر . » كانت هذه الكلمات تلفظ من شفتين نائمتين ، ودون كراهية ... وشعرت بومضة انتصار . لقد تحطمت البوتقة الزجاجية . كان – في هذه اللحظة – قد عاد مؤقتاً إلى عالم الناس .

* * *

حينما غادرته بعد نصف ساعة أخرى ، كان ينام في سلام . وبعد رائحة القيء النتنة ، كنت مسروراً باستنشاق عبير الزهور .

□

الفصل الثاني

يصبح من الصعب أحياناً بالنسبة للطبيب الذي يعمل مع المرضى العقليين أن يحافظ على أي احساس بالفكاهة . ولكن كان لا بد أن أبتسم في اليوم التالي حينما ذهبت إلى حجرة آرثر ليبجارد . كان موضوع رسومه قد تغير . فبدلاً من السكاكين التي تغوص في أعضاء الذكور التناسلية ، كان يرسم الآن شعرات حلاقة طويلة تغوص في أعضاء الاناث . كانت رسوم ليبجارد تثبت أن لديه موهبة فنية أساسية . فقد بدت الأفخاذ المتباعدة وشعر العانة واقعية تماماً .

قلت له : « كيف حالك ؟ » فرفع إلي عينيه وأومأ برأسه . سألته : « هل رأيت الرجل الكهربائي اليوم ؟ » . أجابني ليبجارد دون أن ينظر إلي أو يرفع عينيه من فوق كراسته : « لقد اختفى . » وقد قالها بلهجة حاسمة وقاطعة . جلست على حافة الفراش والتقطت أحد رسومه وسألته : « ومن هذا ؟ » . فأشار إلى منطقة العضو الأنثوي كله وقال : « هذا هو العالم . وهذه شفرة الله » . سألته : « ولكن لماذا يضرب الله العالم بشفرته فيفتحه ؟ » أجابني : « لكي يسمح بالخروج [illegible] » [illegible] يبحث عن الكلمة المناسبة ثم قال : « لكي يسمح بالخروج للمياه المحملة بالطين . » سألته : « المياه المحملة بالطين ؟ » فقال : « أجل . المياه التي تطفو فوقها مادة خضراء ، وصغار الضفادع والطين الذي يشبه الصمغ السائل . »

[illegible] التي [illegible] بهذه الطريقة [illegible] أمر [illegible] الآخر [illegible] من [illegible] الواضح أني [illegible] بعيداً جداً من [illegible] العلاج [illegible] أو [illegible]

أن تتركه يتكلم، وأن تصغي إليه باهتمام، منتظراً أن يمدك بالمفتاح الذي أنت بحاجة إليه. إنه غالباً ما يحاول أن يتجنب الموضوع القائم في مقدمة ما يشغل ذهنه، وأن يخفيه أو يخفي معالمه، وأن يغطيه بلفائف كثيرة طياتها من الكلمات المتباعدة الغامضة. ولكن لم يكن أمامي إلا أن أحدق في رسومه لكي أرى كم كان علي من مسافة أقطعها.

وفي فترة بعد الظهر من ذلك اليوم، وقبل أن أذهب فأنضم إلى فرانك سلبسور لمشاركته في جلستنا المعتادة لمراقبة الغروب، جلست على حافة فراش آرثر ليتجارد، محاولاً أن أحصل على استجابة ما ذات مغزى. قلت له:

– «إنك رجل ماهر، أليس كذلك؟ أتعرف بمن تذكرني؟ إنك تذكرني بناتشاييف.»

لم تحدث أي استجابة لهذا الاسم فمضيت مكملاً: «إنك تعرف سيرجي ناتشاييف، ألا تعرفه، الفوضوي الروسي؟»

رفع إلي عينيه وقد بدت عليهما الدهشة.

– «أوه، تقصد نيتشيف!».

كانت طريقة نطقي للاسم هي السبب في عدم ظهور رد فعله على الفور: فقد كان هو قد صاغ لنفسه نطقه الخاص لاسم «ناتشاييف» (الذي كنت أنا أنطقه مقطعاً إلى ثلاثة مقاطع: نا – تشا – ييف). وعاد ثانية إلى رسومه – فرسم قناعاً كهربائياً – ولكنني لاحظت أن يده كانت مترددة غير حاسمة. قلت:

«أجل، إنك مثل نيتشيف بشكل من الأشكال. إنك تؤمن بضرورة الثورة بأي ثمن، أليس كذلك؟»

ابتسم مكشراً عن أنيابه: أحسست بأنه قد سر من كلامي. ولكن كان كل ما قاله: «ربما كنت أؤمن بذلك.»

«أهذا هو السبب الذي يجعلك تريد أن يظن الناس فيك الغباء؟»

«من قال إنني أردت هذا؟»

«دكتور ماس (وكان ماس هو سلفي في سجن روزهيل) لقد قال إنك حاولت أن تقنع الناس بأنك غبي. ولكن الحقيقة هي أنك بالفعل فوق مستوى الذكاء العادي.»

نظر نحوي مستغرباً وقال: «هل قال ذلك حقاً؟»

«أجل.» (لم يكن الدكتور ماس قد قال ذلك حقاً، ولكنني كنت أتحسس طريقي.)

«أأنت واثق من هذا؟»

«كل الثقة. أتود أن أطلعك على التقرير؟»

وبدا هذا كافياً لاقناعه، إذ بدا عليه الاقتناع بالفعل. فقلت:

«لماذا تريد من الناس أن يظنوا فيك الغباء؟»

لم يكن لدي هدف خاص من طرح هذا السؤال. وإنما أردت ببساطة أن أمهد علاقة بيننا ذات اتجاهين، من ناحيتي إليه، ومن ناحيته إلي. رمقني بنظرة سريعة ماكرة وقال: «أنت تعرف السبب.»

«كلا. لا أعرف. أخبرني أنت.»

رفع بصره نحوي، ثم أخذ قصاصة من الورق فمزقها وتناول منها قصاصة صغيرة استند بها على كراسة الرسم، وكتب فوقها شيئاً ثم ناولني القصاصة. فقرأت: «لولا ذلك لوصلوا إلي.» فسألته:

«من الذين سيصلون إليك؟» فقال بسرعة:

«هش ش» واختطف القصاصة من بين أصابعي، ودفعها في فمه ليمضغها. ومضغها بالفعل ثم ابتلعها. فأخذت أنظر حولي بطريقة توحي بأننا مشتركان في مؤامرة. وقلت له هامساً:

«من الذين سيصلون إليك؟»

واقترب بوجهي حتى التصق بوجهه، فهمس من زاوية فمه:

«رجال الحرس الأسود.»

«ماذا، حرس السجن؟»

«كلا.» وابتسم باشفاق على غباوتي وقال: «لماذا تظن أنني هنا؟»
«لا، لا أعرف. لماذا أنت هنا؟»
«لكي اختبئ منهم. إن حرس السجن هنا من أجل حمايتي.»
«ولكن من هم رجال الحرس الأسود.»
«ألا تعرفهم؟» وظهر عليه عدم التصديق.
«كلا. لا أعرفهم.»
فهمس بصوت خفيض لدرجة أنني لم أكد أسمعه:
«لقد أرسلهم الزعيم الأسود.»
«ومن هو الزعيم الأسود؟»
«ألا تعرفه؟» اشتدت دهشته هذه المرة، لدرجة أنه أشعرني باحساسه بالعار من أجلي. جعلت أهز رأسي محاولاً أن أبدو بمظهر الغبي. فقال:
«كلا. أعتقد أن كثيراً من الناس جاهلون في مثل جهلك.»
وأخذ يحدق في وجهي كمن يحاول أن ينفذ إلى أعماقي، ثم كف عن محاولة الاحتفاظ بانخفاض درجة صوته وقال:
«اسمع، هناك حرب مشتعلة. الكون كله مشترك في حرب ضروس!»
«ولكن من الذي يشترك في القتال؟»
«هناك قوى سوداء من خارج الكون تحاول الوصول إلينا. وأنا أعرف منهم كل شيء. ولذلك فانهم يسعون إلى تدميري. وهذا هو السبب في مجيئي إلى هنا، لكي أختفي عن أنظارهم.» بدأت أفهم لماذا كانت خيانة تيات له موجعة إلى هذا الحد: لقد تحول أحد حماته ليقف ضده. وتساءلت بيني وبين نفسي عن طول المدة التي عانى فيها لينجارد من هذه الأوهام.
وتطلب الأمر نصف ساعة لكي أقنعه بأن يسرد علي حكاية «الحرب العظمى التي يشترك فيها الكون كله.» كانت أقواله المتقطعة تشير إلى أن قوى معينة ذات قدرة هائلة على الشر قد دخلت العالم، وأنه يستطيع أن يرى هذه القوى وأن يحس بها، وأن «الحقيقة القديمة» قد أوشكت أن تصل إلى

نهايتها، أو أن الزمن كان يوشك أن يتجاوزها؟ أما الآن فهناك حقيقة جديدة مفزعة تهدد الجنس البشري بأسره. ولن يفيد في شيء اخبار الناس بأمرها، لأن ذلك لن يؤدي إلا إلى افزاعهم، وإلا إلى نشوب القتال الدموي في الشوارع.

ومع ذلك، «فانه» هو، آرثر لينجارد يملك الحل السري للمشكلة. إنه واحد من فصيلة جديدة من البشر تستطيع أن تطور في داخلها قوى غير عادية، منها قدرة النظر إلى أكثر الغيران والمهاوي المظلمة عمقاً، وإدراك أكثر الأسرار وعياً، ومن ثم، القدرة على تدمير «الزعيم الأسود» شخصياً. ولقد قال لي بثقة كاملة إنه يستطيع أن يهلك رجلاً بأن يشير إليه باصبعه. وهنا خاطرت باثارة عدائه بأن سألته لماذا إذن، والحالة هذه، لم يهلك هاري تيات. فابتسم لي باشفاق على مقدار غبائي. وقال:
«لأنني لا أريد أن يعرف الناس حقيقتي، ولا من أنا. فانهم، الحرس الأسود، قد يكتشفون مكان اختبائي.»
كان خياله متكاملاً بصورة غير عادية ومفزعاً. فقد كان بوسع تلك المخلوقات التي تحدث عنها أن تغير شكلها بارادتها، ولكنهم، في الأغلب، يجيئون في صورة سحابة كهربائية، تتخذ بغموض شكل إنسان حي، مليء بنقاط براقة حمراء من الطاقة، مثل طوفان من البراعات اللامعة. وقال إنهم يجيئون في بعض الأحيان إلى حجرته، ولكن هذا لم يكن إلا من قبيل التفتيش الروتيني، ولم يشك هو في أنهم تشككوا في هويته. أما «الزعيم الأسود» نفسه فقد كان وحشاً شبيهاً بالأخطبوط مثلاً أو قنديل البحر. ولكن كان باستطاعته أيضاً أن يتخذ أشكالاً وصوراً مختلفة، وكانت الصورة التي يفضل أن يبدو فيها هي صورة الرجل المجنح. وكان عالم الحرس الأسود هؤلاء مختلفاً عن عالمنا في كل شيء. ولم يكن بوسع العقول الأرضية حتى أن تشرع في فهمه.
كانت التفاصيل التي حددها لينجارد لعالم أعدائه مدهشة، فوجدت

نفسي أفكر . بينما كنت أقوم بمقابلاتي مع عدد من المرضى العصبيين . في أنه لو كان يملك القدرة على تنظيم خيالاته . لاستطاع أن يحولها إلى مؤلفات حيوية من القصص العلمي الخيالي .

وأخيراً سألته : « ومتى في ظنك ستقع هذه المعركة العظمى ؟ (أي المعركة التي سينتصر فيها الله . بمعونة آرثر لينجارد . على الزعيم الأسود !)

أجاب بقول : « حالاً . سريعاً جداً » . نظر إلى الخارج من النافذة وتصلب جسمه . تتبعت اتجاه نظرته فرأيت أحد رجال الشرطة من راكبي الدراجات البخارية يسير بدراجته بسرعة . كان يرتدي نظارات سميكة سوداء حفتها بقطعة من المطاط حول رأسه إلى أعلى حتى جبهته . وفوقها خوذة لحماية الرأس من الصادمات . قلت : « ماذا هناك ؟ » .

أشار إلى النافذة وقال : « الآن فقط رأيت واحداً منهم ، واحداً من الحرس الأسود . »

هنا ، كان في تقديري . ظهرت فرصتي أن أضع أول شرخ رفيع من الشك في بنائه المجنون :

« أأنت واثق من هذا ؟ »

« واثق تماماً . »

« ولكنني أعرف الرجل . إنه « كونستابل » الشرطة هاميت الذي يقوم بالدورية بين سيدجفيلد ودارلينجتون . »

« أنت تظنه الرجل ، ولكنه متنكر . »

سرت نحو الباب ونظرت إلى الخارج وناديت :

« هاميت ! كونستابل هاميت ! »

نظر الرجل حوله ، ورآني ، وعاد إلينا . قلت :

« أتسمح بالمجيء إلى هنا دقيقة واحدة من فضلك ؟ »

« بالطبع ، بالتأكيد يا سيدي . » ثم تبعني إلى الحجرة . قلت لآرثر لينجارد : « هاك هو . إنك تعرف كونستابل هاميت . أليس كذلك ؟ » .

طلبت من هاميت أن يخلع نظارته وخوذته ، بعد أن غمزت له بعيني غمزة خفيفة . وأذعن الرجل . ثم تبادلت معه بعض كلمات ودية ، لكي أتجنب ملاحظة لينجارد المتفحصة . فسألت هاميت إذا كان طفله قد شفي من اصابته بالسعال الديكي ، إلى ما هنالك من مثل هذه الموضوعات . ولعب هاميت دوره بطريقة تدعو إلى الاعجاب . كان رجلاً ريفياً من الغرب جاء لكي يعيش في الشمال . وكان يتمتع ببشرة يعلوها نمش بني لطيف ، ويتكلم بطريقة مباشرة بلهجته القاطعة كفلاح يتحدث إلى أرضه . وكان أي شخص يظنه واحداً من رجال الحرس الأسود ، بحاجة إلى طاقة كبيرة وقدرة على إقناع نفسه عن طريق التوهم والايحاء .

وحينما انصرف هاميت التفت إلى لينجارد ، وسررت حينما رأيت أن ابتسامته المستعلية قد اختفت . سألت :

« هيه ؟! أرأيت ؟! »

أومأ برأسه وقال : « من الممكن أن أكون قد أخطأت . إنه يشبه « لبافيل » شبهاً كبيراً ، إن « لبافيل » هو رئيس فرقة « مراقبي الموت » من الحرس الأسود . »

شعرت بأن هذه الفرصة كانت أحسن من أن أدعها تمر . فسألته :

« ولكن هل أنت واثق من أن « لبافيل » موجود حقاً ؟ هل رأيته أبداً ؟ »

« عدة مرات . »

« ولكن كيف يمكنك أن تكون واثقاً من أنه لم يكن الكونستابل هاميت أو أي فرد آخر من أفراد الشرطة من راكبي الدراجات ؟ يمكنك أن تخطىء فتظنه لبافيل ؟ »

هز رأسه ثانياً وقال : « ليس هذا من المؤكد . ربما كان هو لبافيل . إن تنكرهم كامل ودقيق غالباً . »

« ولكني آمل أن يوسعك دائماً أن تكتشف هذا التنكر . »

أزعجته هذه الملاحظة . جعل يفكر لبعض لحظات . كان شديد الاصرار

على قدرته على كشف ألاعيب أتباع الزعيم الأسود وأساليب خداعهم . رحت أوسع من النقطة التي كسبتها . فقلت :

« إنك رجل رفيع الذكاء قوي العقل والقدرة على التفكير . ومن المؤكد أنك لا بد أن تعترف بأنك من المحتمل أن تكون قد أخطأت بشأن الحرس الأسود . »

راح يفرك عينيه ، ثم قال بصوت ملؤه الضجر :

« إنك تريد أن توحي إلي بأن الحكاية كلها من وحي خيالي ، بمعنى أن دوافعي غير الواعية المكبوتة قد شوهت مدركاتي الطبيعية ؟ هل تظنني مريضاً ؟ »

كان هذا دوري لكي أتراجع قليلاً . لم يكن من الممكن أن تزيد دهشتي لو أن « شيطاني » قد وجه الحديث فجأة إلي . لم يكن لينجارد قد ترك لدي أي انطباع عن ثقافته . ولكنه كان يتحدث الآن عن « الدوافع التي شوهت مدركاتي الطبيعية » كما لو كان معتاداً على استخدام مثل تلك المصطلحات تعوداً تاماً . بدأت أتساءل — في داخلي — إذا لم يكن هذا الرجل يحاول أن يظهرني بمظهر الأبله . ولكنني حاولت ألا أظهر دهشتي أو احساسي بالمفاجأة . فقلت :

— « تماماً . لماذا لا تفترض ، كمجرد افتراض جدلي ، أنك ربما كنت تعاني من الهلوسات المرئية والمسموعة ، البصرية والسمعية » .

كنت قد قررت أن أعمل على أساس افتراض أنه لن ينزعج من الكلمات الكبيرة — بل إنه في الحقيقة قد يشعر بالرضا لأنني أتعامل معه بوصفه مثقفاً مساوياً لي واستطردت أقول :

« ولكن هذا لا يتضمن أنك مجنون . إنني على استعداد تماماً لأن أعترف بأن عقلي اللاواعي يستطيع أن يتدخل في حياتي اليومية دون أن أكون مدركاً لهذا التدخل ولا واعياً بهذا العقل اللاواعي نفسه . ولقد عانيت أنا نفسي — في الحقيقة — من الهلوسات والتخيلات الوهمية في أثناء الحرب بعد أن أصيب المنزل الذي كنت فيه بقنبلة . كنت أسمع صوت أمي يناديني بوضوح كامل ،

رغم أنها كانت قد ماتت قبل هذا بعشر سنين . »

كنت هنا أحاول تجربة منهج الاقناع الذي ابتدعه بول تشارلز ديبوا — الذي يقوم على اقامة علاقة انسانية وثيقة مع المريض . ثم أضفت قائلاً :

وبنفس الطريقة عانيت ذات مرة من صدمة عنيفة بعد حادث اصطدام وقع لسيارتي . وقد تطلب الأمر مني بعض الوقت لكي اكتشف السبب الذي جعلني أشرع في الارتجاف فجأة وأشعر بالضعف . إن اللاوعي ، على كل حال ، مختف عن عيوننا وراء ما هو محدود وواضح » .

أصغى لينجارد إلى هذا الحديث كما يصغي القاضي الوقور ، وقد أمال رأسه إلى جانب ، واستقرت أصبعه على خده ، ثم أومأ برأسه بحركة بطيئة وقـال :

« إنني أفهم وجهة نظرك بالطبع . وأنا أفهم لماذا تفكر بهذه الطريقة . ولكن لماذا لا تضع في اعتبارك الفرضية المعاكسة — وهي أنني قد أكون على حق ؟ إنك تعترف بأنك لا تفهم متى قد يتدخل لاوعيك في حياتك اليومية . ولكنك سوف توافق على أنك تفضل ألا تفكر في الأشياء غير السارة ؟ وعلى سبيل المثال ، لا تفضل أن تفكر في أن جسدك في غضون ثلاثين سنة من الآن قد يكون في سبيله إلى أن يتحول إلى سائل تتشربه الأرض تحت سطحها ؟ »

« هذا حقيقي . »

« إنك تعترف بأنه حقيقي . ولكن هل تفكر فيه حقاً ؟ هل يمكنك حقاً أن تنظر إلى يديك ، ثم تتصور كيف سيكون شكلهما دون جلد يكسو العظام ؟ »

نظرت إلى يدي بالفعل وغمزت له بعيني . فاستمر يقول :

« إنك لا تفكر في هذه الصورة بطريقة طبيعية . لأنك بهذا التفكير قد تنسف تصوراتك العقلية الثابتة وأوهامك . وانه لمن الضروري للسعادة الإنسانية أن يتجاهل الناس كل ما قد يهدد بالخطر تصوراتهم العقلية الثابتة وأوهامهم . أتوافق على هذا ؟ »

أجبته أن نعم . فاستطرد يقول : « في هذه الحالة ، ألا يكون الأكثر

احتمالاً هو أنني على حق أكثر منك؟ إنني أحاول أن أواجه الحقائق التي تفضل أنت أن تتجاهلها. عليك أن تعترف بأنك بالتأكيد تفضل لو كان «الزعيم الأسود» وهماً من أوهام خيالي. ألا تفضل ذلك حقاً؟ كيف تعرف إذن أن تفضيلك هذا لا يعميك عن وجوده الحقيقي؟»

بدأت أشعر بإحساس بعيد كل البعد عن الارتياح. فمن المفترض أن العلاقة بين الطبيب وبين مريضه إنما تقوم على أساس شعور بالتفوق. ولكن لينجارد كان يجعلني أشعر بأنني في موقف الدفاع، وأنني أوشك أن يتفجر غضبي. بينما استمر هو في كلامه بحكمة عقلية متتابعة:

«إن مشكلة معظم الناس هي أنهم لا يستطيعون أن يركزوا تفكيرهم. أليس هذا هو ما كنت تشعر به حينما رحت تسمع صوت أمك باستمرار؟ هل شعرت بالاضطراب وبعدم الثقة في نفسك؟ وكيف استطعت أن تتخلص من ذلك الشعور؟ ألم يكن ذلك عن طريق التركيز على المشكلات اليومية التافهة ونسيان كل شيء عن مخاوفك؟ (كانت هذه ضربة في الصميم بوجه خاص: فإنني كنت قد تمكنت من استعادة توازني في الحقيقة عن طريق تعلم فن الرسم) أتظن أن هذا من الأمانة حقاً: أن تحاول نسيان ما يزعجك بدلاً من مواجهته؟ إنني لم أهرب أبداً من مشكلة ما. ولقد قررت أن أتعلم كيف أركز تفكيري أكثر من كل الآخرين من الناس. وحالما تعلمت كيف أركز تفكيري، بدأت أشعر بوجود رجال الحرس الأسود.»

كان يعرض حججه بطلاقة ومنطقية عاقلة. كانت حججه من الناحية الأساسية — من النوع الذي لا يمكن الاعتراض عليه. إن بوسع أي إنسان أن يثبت أي شيء إذا ما أشار إلى أن الكون مليء بالأسئلة التي لم تحصل على إجابة لها وأننا لا نكاد نعرف شيئاً عن هذا الكون. قلت هذه العبارات لأرشمر لينجارد فأجابني قائلاً:

«بالضبط. إذن فكيف يمكنك أن تكون واثقاً من أنك على حق وأنني المخطىء؟»

«ولكنني لا أستطيع أن أرى حرسك الأسود. ولو أنهم كانوا موجودين حقاً، أما كان بوسعي بالتأكيد أن أراهم؟»

«إنهم لا يريدون أن تقع عليهم الأنظار. ولو أنك تعلمت كيف تركز تفكيرك إلى الدرجة الكافية، فسوف تكون قادراً على رؤيتهم. ولو كان لديك المزيد من الخيال لأمكنك أن ترى أن كل ما أقوله محتمل وفي حيز الإمكان.»

كانت هذه أول مرة في حياتي أوضع فيها في هذا الموضع: وقد حاصرني مريض حصاراً كاملاً. كمن حوصر «ملكه» في لعبة الشطرنج. ومات ولقد طرأ لي في تلك اللحظة أن ثمة شيئاً مشكوكاً في أمره جداً في الأساليب العادية التي يتبعها الأطباء النفسيون. فلو أنك قلت لمريض إنه لا يستطيع أن يفكر تفكيراً مستقيماً لأن عوامل لاوعيه التي لا يدركها تشوه أحكامه وتحرف مسار تفكيره عن الطريق المستقيم، فسوف يكون لديه الحق الكامل في أن يجيب عليك بأن الحالة نفسها تنطبق عليك. وإن علاجك له بأسره قد يكون قائماً على افتراضاتك أنت المرضية النابعة من ضغط ما يكبت داخلك باستمرار.

ولكن على الرغم من أنه بدا واضحاً أنني لا أستطيع أن أنتصر في هذه المناقشة، فإنني كنت أنتصر بمعنى آخر. كنت قد أصبحت أكثر قرباً من لينجارد. وكان هو يتحدث معي بحرية. كانت هذه هي أولى الخطوات الكبيرة. وإذ كنت أفكر في تلك الخطوة ذلك المساء — بعد أن وصفتها بعد ظهر اليوم نفسه لزوجتي إيلين — طرأ لي أنه ربما كانت أزمة لينجارد راجعة في جزء منها إلى وحدته. كنت قد أطلقت قذيفة صائبة ملهمة في الظلام، حينما قلت له إن الدكتور ماسي قد اعتبره من الأذكياء [illegible]. كان هذا هو [illegible] الذي [illegible] أمامي. لقد كان [illegible] ولا [illegible]. أو على الأقل [illegible] الكلام. [illegible] قد أمضى في [illegible] من خمس سنوات [illegible] على نفسه، محافظاً على وحدته، بعيداً عن أفكار [illegible] الآخرين. ولقد [illegible] أن هذا كان هو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

اكتشفت ذلك في حديث مع مدير السجن . وكان هذا هو السبب الذي دفع لينجارد إلى تشجيعه . كان قد قرر المخاطرة بانشاء علاقة وثيقة مع شخص آخر سواه . وكانت الخيانة هي النتيجة . وكان أن ألقى به مرة أخرى وحيداً إلى بريته الموحشة .

ولقد جسد هذا الحادث أكثر الأسئلة أهمية على الاطلاق . لماذا يحق الجحيم كان مصمماً على أن يغلق على نفسه ، وعلى أن يحافظ على ذاته لذاته كل هذا التصميم ؟ لم يكن هذا طبيعياً . إن شخصاً ذكياً يحتاج دائماً – أكثر من الشخص الغبي – إلى تبادل علاقة إنسانية مليئة بالتعاطف والفهم .

• • •

ولقد حدث عند هذه النقطة أن ضربت ضربتي الثانية في هذه « الحالة » . وقد ذكرت سابقاً أنني كتبت إلى سجن « سبرينج وايز » لأرى إن كان بوسعهم أن يكتشفوا إسم الكتاب الذي كان لينجارد قد ضبط وهو يلوثه بالوحل . كانت اجابتهم الأولى سلبية . كان الكتاب قد أحرق إذ لم يكن من الممكن أن يقرأه أحد بعد تلويثه . ولكن حدث بعد يومين أن تسلمت كتاباً من الكتب الشعبية (ذات الأغلفة المصنوعة من الورق المقوى) وصلني بالبريد . كان إسم الكتاب « الصبي القادم من لويزفيل » بقلم « إدريس . ت . مدروني » . وقد بدا عليها أنها رواية عن الملاكمة من النوع الذي يصدر منه الآلاف كل عام . وكان الخطاب الذي أرفق مع الكتاب موقعاً باسم « الدكتور آلان باكل » وكان يقول إن مساعد المسؤول عن المكتبة كان واثقاً كل الثقة أن هذا هو عنوان الكتاب الذي سألت عنه ، وأنه تصادف أن كان لديهم منه نسخة ثانية . طلبوا مني أن أعيدها إليهم . ولم يكن لديه بالطبع فكرة عن الصفحة التي كان لينجارد قد لوثها . بقيت في المنزل ذلك المساء وقرأت الكتاب . كانت الرواية تحكي القصة المعتادة عن الملاكم الذي يصعد إلى قمة النجاح . وكان التأليف والأسلوب تحت المستوى العادي . وفي منتصف الطريق ، يقابل بطل الرواية مدير أعمال البطل العالمي السابق ، ويقابل أيضاً عشيقته بولين . « كان جلدها

الذاتي يشع بالصحة . وتحت الصفحة السوداء الناعمة لثوبها ، كانت حلمتاها تنتصبان مثل قمتين صغيرتين . وحينما سارت مبتعدة عنه متجهة نحو البار ، استطاع أن يرى الخطوط الخارجية لسراويلها الداخلية الصغيرة تحت الحرير الناعم ...... » ثم يحدث فيما بعد ، حينما ينفردان ، أن ينحني البطل « ويكنس » إلى الأمام ويعض حلمة ثديها من فوق الثوب . ثم يرفع ذيل الثوب إلى ما فوق وسطها . « كان الفم الناضج الأحمر قد انفتح مع أنة توحي بالارتياح ، واغمضت عينيها تماماً . انحنى إلى الأمام وأخذ شفتيها بين أسنانه ، وعضها حتى تفجر منهما الدم . ثم بحلية واحدة من يده الكبيرة مزق السروال الرقيق وألقاه إلى نار المدفأة ، ومضت يده الأخرى تمتد وتجول تحت الثوب ، وتمزق حمالة الجوارب السوداء لكي تحلها . كانت تنحني في مواجهته بضعف ، كما لو كان ساقاها قد تحولا إلى ماء . أبعدها للحظة قصيرة لكي يجرد لحمه المنتصب ثم جذبها وحملها إلى الأريكة . همست تقول : « الباب.. » ولكنه تجاهلها . همست ثانية « أرجوك.. » . وهنا انقطع احتجاجها إذ تحول إلى أنة تلذذ بينما كان عضوه القوي يندفع إلى الأمام لكي يشق إلى نصفين وسادة اللحم التي تنتظره ... »

كان هذا المشهد هو نقطة الذروة في الكتاب الذي رحت أقلب بسرعة صفحاته الباقية . وأكدت لنفسي أنه لن يكون هناك المزيد – على قدر ما أستطيع التنبؤ – مما يمكن أن يثير لينجارد . وعلى أية حال ، كنت قد شعرت برجفة التعرف حين قرأت اسم الفتاة . كان اسم شقيقة آرثر لينجارد هو « بولين » . نسخت الفقرة السابقة وأعدت الكتاب بالبريد .

وبعد يومين جاءت مفاجأة أخرى . فان الدكتور باكل كان قد راح يفحص ملفات سلفه ، فوجد نسخة بالكربون من تقرير عن حكم صدر عام ١٩٥٣ في قضية سطو . وقد أرسل إلى الدكتور باكل نسخة مصورة من هذا التقرير . كان التقرير مكوناً من ثلاثة صفحات كتبت بالآلة الكاتبة ، وقد رأيت على الفور أنها تمثل محاولة واعية لاقتفاء أثر تطور لينجارد وتحوله إلى

لص صغير معتاد على السرقة .

ولد آرثر لينجارد في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٧ . هذا التاريخ المشؤوم المحمل بالنذر ، وسحب الحرب تتجمع بالفعل فوق أوروبا . وقتلت أمه في غارة جوية على شمالي لندن في عام ١٩٤١ ، وقد شاهد لينجارد وشقيقته بولين التي تكبره بخمس سنوات الجثمان وهو يسحب من بين أنقاض المبنى المحترق . وقد قال لينجارد للطبيب النفسي إنه كان بوسعه أن يستعيد كل تفاصيل المشهد ، رغم أنه لم يكن قد تعدى الرابعة من عمره في ذلك الوقت . وكانوا جميعاً في طريقهم إلى المخبأ الذي يحتمون فيه من الغارات الجوية حينما سقطت القنبلة على المبنى .

وأجليت الأسرة مع بقية المنكوبين إلى «ووريتجتون» في مقاطعة «لانكشاير» ، ليسكنوا في بيت شقيق والد آرثر . وبعد ستة أشهر قتل والده أيضاً . واحتفظ عمه وزوجته بذلك السر ، ولكن واحداً من أبناء عم الطفلين أخبرهما بالحقيقة عندما اقتربت الحرب من نهايتها .

وكانت والدتهما تمتلك عقاراً صغيراً شرقي لندن ، وقد اشتراه «مجلس لندن الحضري» لقاء مئات قليلة من الجنيهات ، وأقيم فوق الموقع مبنى كبير يضم عدداً من الشقق السكنية . وورث كل من بولين وآرثر ذلك المال . وكان العم ديك لينجارد قد أصبح الوصي الرسمي عليهما حينما علم بأمر ذلك المال . وكان كل ما تبقى من المبلغ الذي ورثاه ، حينما بلغت بولين سن الرشد ، اثنان وعشرون جنيهاً .

وقد بدأ آرثر يواجه المتاعب منذ كان في الرابعة من عمره ، حينما ذهب إلى مدرسة الحضانة ، كان يبدو عليه أنه يحتاج احتياجاً قاهراً إلى تحطيم الأشياء: الدمى والنوافذ والزجاجات وآنية الزهور . كان يتلقى الكثير من الضرب ، وفي عام ١٩٥١ ، حينما كان في الثالثة عشرة ، طلب عمه من أحد ضباط شرطة الأحداث أن يتكفل بوضعه في إحدى مدارس التهذيب لأنه كان غير قابل لأي سيطرة . وفر آرثر من المدرسة بعد ستة شهور . وأصدر قاضي

رحيم إلى عمه أمراً بأن يأخذه إلى البيت لكي يبذل معه محاولة أخرى . وبعد بضعة شهور ألقي القبض على عمه ، وكانت بولين حاملاً ، وزعمت أن ديك لينجارد كان هو والد الطفل ، وأنه كان يمارس الاتصال الجنسي معها منذ كانت في الثانية عشرة . وحكم على الرجل بالسجن لمدة ثلاث سنوات . وفي من السادسة عشرة ، وقع آرثر فريسة حالة من الانقباض العميق استمرت فترة طويلة ، ربما كانت مرتبطة بالخوف من عودة عمه من السجن . وكف حينئذ عن الطعام وأخبر أحد المشرفين الاجتماعيين بأن طعامه يدس فيه السم دائماً . ثم هاجم تلميذة في العاشرة من عمرها بقضيب من الحديد ، وحاول اغتصابها . ثم تبع هذا الحادث محاولة للانتحار غرقاً . وأمرت إحدى المحاكم البدائية بإحالته إلى طبيب نفسي . وخلال العام التالي ، ضبط مرتين وهو يحاول السطو على المنازل ، وفي المرتين أفلت من السجن بعد ان وجه التحذير إليه ضابط التحقيق لأنه كان أصغر من أن توجه إليه التهمة في المحكمة . وفي المرة الثانية ، كانت أسلابه تضم ساعة ذهبية ، وسكيناً ، وخمسة أزواج من السراويل الداخلية النسائية . وحينما بلغ الثامنة عشرة ، حكم عليه أحد القضاة بالسجن مدة ستة شهور بسبب السطو على أحد المنازل . وفي عيد ميلاده التاسع عشر ، حاول أن يجرب طريقة جديدة لكسب المال ، فقد حصل من مكان ما على كومة من المساحات التي تستخدم في آلات الغسيل ، ومضى يطرق الأبواب ، مقدماً مساحاته مقابل مبالغ زهيدة إلى درجة غير عادية ، وكان يقبل الهبات من ربات البيوت . وازدهر هذا العمل بين يديه ، ومرت ثلاثة شهور قبل أن يلقى القبض عليه . فحكم عليه بمدة قصيرة أخرى يقضيها في السجن . وبعد الافراج عنه مباشرة تقريباً ضبط متلبساً باقتحام محل تجاري ، واعترف بأنه مذنب باقتحام المحل عنوة ودخوله دون اذن ، فحكم عليه بستة أشهر أخرى . وبعد ذلك استطاع أن يظل بعيداً عن المشاكل مع الشرطة لمدة تقرب من أربع سنوات ، حتى وقعت حادثة السطو على بيت المزارع الريفي . وخلال هذه الفترة استدعي للتحقيق معه بشأن حوادث سطو عدة مرات ،

كما استدعي مرة واحدة للتحقيق بشأن حادثة القتل التي ذكرتها ، ولكنه لم يحاكم أبداً ولم يصدر ضده أي حكم . كذلك اتهمه زوج شقيقته بولين بالمجيء إلى منزلهما بعد ظهر أحد الأيام فضربها ضرباً قاسياً مبرحاً . ورفضت شقيقته أن تقيم ضده الدعوى ، فأسقطت المسألة ، وصرف عنها النظر .

•

بدا لي هذا التقرير تاريخاً للحالة عادلاً ومبيناً عن مقاصده ، هناك يتم مبكر صحبته صدمة قاسية ، ثم هناك « والد بالنيابة » له أسرة كبيرة . (وقد كان ديك لينجارد منغمساً باستمرار في المشاكل مع الشرطة بسبب استخدام العنف بعد أن يفقد وعيه من السكر) . وكان سجل المدرسة أحسن بكثير مما كان متوقعاً ، ولكنه من الجانب الآخر ، كانت كل العلامات المدرسية تشير إلى غلام ينفر من المجتمع نفوراً شديداً ويبغضه . ولقد تساءلت إلى أي مدى كان مسؤولاً عن دفع شقيقته إلى اتهام ديك لينجارد في مسألة حملها ؟ أمن المحتمل أنه كان هو الذي يشعر بالغيرة من عمه ، بعد موت أمه . كانت أخته بولين هي كل ما تبقى له في العالم ، وكانت أماً بديلة عن أمه . فاذا كان عمه قد ارتكب فعلاً جنسياً مع بولين حينما كانت في الثانية عشرة من عمرها ، إذن فان آرثر كان في السابعة في ذلك الوقت . ألم يكن ذلك تمهيداً ومبرراً لأعمال التدمير والتحدي العديدة التي بلغت ذروتها في طلب ديك لينجارد أن يرسل آرثر إلى مدرسة للتهذيب ؟

كانت المشكلة هي أن سجلات الحالة لم تكن تضم ما يكفي من المعلومات. كنت بحاجة إلى أن أعرف قدراً أكبر بكثير من المعلومات عن تطور آرثر لينجارد . ولم يكن هناك سوى شخص واحد يستطيع أن يخبرني بتلك المعلومات هو آرثر لينجارد نفسه .

• • •

كنت أنا وآرثر قد أقمنا في تلك المرحلة علاقة ممتعة . كنا قد اتفقنا على أن نختلف . وكان هو قد أدرك أنني اعتبرت رؤاه الوهمية عن الرجال

الكهربائية هلوسات خيالية ، وأدركت أنا أنه قد اعتبر كلامي معقولاً ومرضياً وإن كنت عنيداً عصياً على الاقتناع . وفي بعض الأحيان ، كان يرفض الوصول باقتناعه إلى درجة تجربة افتراض أن رؤاه لم تكن حقيقية ولاواقعية . وفي لحظات أخرى ، كان يبدو متوتراً ومنزعجاً ، فكنت حينذاك أنصت إليه بجدية ، كما لو كنت مقتنعاً بأن هناك حقاً ما يجدر به أن ينزعج بسببه . وبعد أسبوع من محادثتنا الأولى حول « الزعيم الأسود » حدث أن وجدته وقد بدا عليه الوجوم والاجهاد ، وقال لي إنه قد وصلته أخبار تقول بأن الغزو لا بد وأن يحدث على الفور تقريباً ، وأن الآلاف من رجال الحرس الأسود يتدفقون على انجلترا من مناطق نائية في شمال اسكتلندا ، وأنهم يبيدون كل شيء حي يواجهونه . والأكثر من هذا هو خشيته من أن يكون هو نفسه هدفهم النهائي ، لأنهم يعرفون أن بوسعه أن يتعرفهم ويهزمهم . وفي اليوم التالي عثرت على مقال عن وحش بحيرة « كوشي نيس » وكان المقال قد كتب من مدينة « إينفرنيس » في اليوم السابق .

أخذت المقال معي لكي أطلعه عليه ، حتى أثبت له أن أحداً لم يلحظ وجود الحرس الأسود حتى الآن . وحينما رأى المقال وقرأه اكتفى بأن هز كتفيه صامتاً ، ثم قال :

« من الطبيعي ألا يلحظهم أحد . فان لديهم منظمات هائلة وعظيمة ، وكلما دمروا قرية من القرى ، خلفوا وراءهم بعض الأشخاص لكي يردوا على المكالمات التليفونية ولكي يجيبوا على الرسائل . فلا يعرف أحد ما فعلوه » .

« ولكن ماذا يفعلون في الناس الذين قد يدخلون المنطقة ؟ » .

« إذا كان هناك أي خطر من اكتشاف الأمر ، فانهم سيقتلون على الفور أو يسحبوا » .

وعاد فقرأ القصة في الصحيفة بعناية ، ثم أشار إلى عدد من الأخطاء المطبعية وقال : « أرأيت ؟ إنهم يكشفون عن أنفسهم من خلال بعض الأشياء الصغيرة . إنهم لا يستطيعون بعد هجاء الكلمات بطريقة صحيحة » .

« أتظن أن هذا المقال قد كتبه رجال الحرس الأسود أنفسهم ؟ »

« إنني أعرف أن هذا هو ما حدث . فقد أغاروا على مدينة « إيتغرنيس » يوم الأحد الماضي . »

« وكيف عرفت ؟ »

« جاءني شخص ما وأخبرني ليلة أمس . امرأة كهربائية . »

« ما شكلهـا ؟ »

« إنها مجرد رأس فقط . إنها تعرف أنها لو ظهرت لي بجسدها لراودتني عنها أفكار سيئة . ولذلك فإنها تترك جسدها في الخارج حينما تأتي لمقابلتي . »

وازدادت حالته سوءاً في اليوم التالي . كان مقتنعاً بأن رجال الحرس الأسود قد تسللوا إلى المعسكر ، ومزودين بتعليمات تنص على تسميم طعامه ، وإذا أمكن ، أن يوقفوا نبض قلبه بإرسال « موجات كهروستاتيكية » . وقال إنهم يظهرون له خلف الحارس الذي يحمل له طعامه ، ينظرون إليه شزراً نظرات خبيثة . ولأحدهم عضو تناسلي هائل منتصب دائماً ، يزيد طوله عن قدم كاملة . وكان هذا الحارس الأسود الأخير ، يقوم بحركات حقيرة راقصة بأردافه ، موحياً بأنه ينوي أن يغتصب لينجارد لما تتاح له الفرصة . وحدث ذات مرة ، حينما كنت أنتظر لينجارد خارج المرحاض ، أن اطلق صرخة عالية ، وانطلق هارباً خارج المرحاض وسرواله حول حقويه . فقال لي إنه كان يمد يده لينظف نفسه حينما اكتشف أنه كانت هناك يد أخرى بالفعل بفتحة شرجه . والتفت فوجد رجل الحرس الأسود ذا العينين الخبيثتين ممسكاً بعضوه التناسلي بإحدى يديه . وكان لينجارد مقتنعاً اقتناعاً كاملاً بأن هذا الحرس الأسود كان موجوداً حقاً . وكان علي أن أعود فأنظر إلى المرحاض لكي أؤكد له أنه لم يكن هناك . ثم أقف إلى جواره حتى ينظف نفسه ويضغط على مغسلة المرحاض . وكان ما زال يرتجف حينما عاد إلى الفراش ، ويكاد يكون على وشك البكاء .

كان أوان المناقشة قد انقضى إلى غير رجعة . فجربت طريقة أخرى لعلاجه

بدأت فقلت له :

« إسمع ، لماذا لا تكف عن خوض القتال بهذا الحماس ؟ لماذا لا تسترخي ببساطة ، وتكف عن القتال ؟ إنهم لا يمكن أن يكونوا قاصدين إيذاءك . أو ربما أنهم لا يراقبونك بالدقة التي تتخيلها . إنهم فقط يضعونك تحت الملاحظة . لماذا لا تدع نفسك ببساطة تنفتح وتواجه الناس بوضوح . قبل كل شيء ، تصرف كما لو كنت مجرد مراقب ، تراقبهم فحسب . »

ولشدة دهشتي ، أثمر هذا الكلام ثمرته . فوعدني بأن يحاول ذلك وبينما كنا ما نزال نتبادل الحديث ، رأيت عينيه تتجولان فوق كتفي . فسألته إن كان قد رأى شيئاً بالفعل .

« أجل ، إنه هناك ، خلفك مباشرة . إنه ما يزال يبتسم لي ابتسامته الكريهة مكشراً عن أنيابه ، ملوحاً بعضوه . »

« حسناً . اتركه . لا يهمنا إن كان يصغي إلى ما نقوله أو لا يصغي لكلامنا . أليس كذلك ؟ عامله كما لو كان شيئاً طبيعياً تماماً . كما لو كان قطعة من الأثاث . وسجل ملاحظاتك عن كل ما يقوله لك . »

استرخى على الفور بطريقة ملحوظة جداً . بل إنه عرف اظهره بالفعل وسط الوسائد . وترك ركبتيه الثنيتين لكي تستقيما مبسوطتين . مرة أخرى ، هداني حدسي إلى أن أتقدم له بالاقتراح الصحيح . وفي الحقيقة ، كانت هذه هي نقطة التحول في الحالة كلها . لقد كف عن ابداء أي رد فعل إزاء خيالاته الوهمية . لقد مضى ببساطة يراقب تلك الخيالات ، وجعلها باعتبارها أشياء لا مفر منها ، ثم يكتبها جميعاً بعناية بالغة . كان يكتب قائلاً إن كلبا أسود اللون منبطحاً على تحت نافذته ، يزمجر غاضباً كأنه هيبة . وقد اصطحبت المرأة التي تأتيه بالأخبار تقدم الحرس الأسود . اصطحبت جسدها معها حينما جاءته آخر مرة . كانت ترتدي ثياب ممرضة ، وكانت تحمل عصا مصنوعة من الخشب . وقد تقبل وجودها تقبلاً كاملاً حتى بدأت تعقب بإيواء إلى حوار فراشه وتبتسم له بطريقة موحية . قال له

« لماذا لا ترى ما قد يحدث إن أنت حاولت التقرب إليها ؟ »

« ربما أخافها ذلك فتنصرف دون عودة . »

وحينما رأيته في المرة التالية قال لي : « لقد فعلتها . »

« ماذا حدث ؟ »

« لقد فاقتني دهاء . لقد وضعت يدي على فخذها ، فلم تحاول أن تمنعني ، فرفعت ذيل ثوبها وأنزلت سروالها . ولكن لم يكن هناك شيء تحت السروال . كان السروال فارغاً . »

قلت له : « هذا شيء ساحر . أترى كم تتعلم حينما أصبحت مراقباً فحسب ؟ »

أومأ برأسه بجدية وقد بدا عليه التفكير . كنت أعرف أن علاقتنا قد تغيرت . كنت مرة أخرى قد أصبحت الطبيب ، وأصبح هو المريض . وكان هو قد قرر أن يثق بي . وقد قام بناء على طلبي برسم كل من يظهر له ، وللكلب القابع تحت نافذته . ولشدة دهشتي ، كان هذا الرسم الأخير رسماً سريعاً ممتازاً لكلبي المدلل من نوع « الساتان » الذي أسميه « سكيبر » ، وكان الرسم أسود اللون فاحماً ، ولكن لا يمكن الخلط فيه أو الشك بشأنه . ولم يكن لينجارد قد رأى كلبي أبداً . وأنا لا أستطيع أن أفسر هذه المصادفة ، ولا أحاول الآن تفسيرها ، باستثناء القول بأنه أحياناً ما يستطيع الطبيب والمريض أن يقيما فيما بينهما علاقة وثيقة إلى درجة غريبة .

كانت نتيجة كل هذا أن تحسنت صحة آرثر لينجارد العامة تحسناً هائلاً . فقد شرع ثانية في التجول في ساحة السجن وفي الاهتمام بالمساحة المخصصة له من الحديقة ، بل إنه استطاع أن يدخل مع المسجونين الآخرين في محادثات طويلة طبيعية ، رغم أنه كان سرعان ما يشعر بالضجر ثم يقطع المحادثة فجأة ليبتعد عمن كان يتحدث معه . وأصبحت علاقته بي هي العلاقة المعتادة بين الطبيب والمريض العصبي . سجلت أحلامه وناقشت خيالاته المحمومة وأصغيت إلى مخاوفه — مخاوفه التي تتراوح بين أن يهاجمه كلب عملاق ، أو

أن يتحول إلى سلحفاة بحرية (وهذا رمز آخر لعصاب الخوف من الأماكن المغلقة) ، أو أن يتسلق ثعبان ظهره وهو جالس في المرحاض (وهذا رمز آخر واضح) . وهنأني الحاكم على نجاحي . ولكنني كنت أعرف أن هذه التهنئة سابقة لأوانها . كان لينجارد قد وثق بي ، ولكن كان ما يزال هنالك الكثير الذي يمنعه عني . كان ما يزال لغزاً — من النواحي الجوهرية — بالنسبة لي .

وذات يوم ، بعد أن غادرت حجرته — وكان ذلك بعد بداية العلاج بما يقرب من خمسة أسابيع ، اجتاحني بقوة هذا الاحساس بالاحباط ، احساس من ألقى نظرة على جانب واحد من لغز محير دون أن يراه كله أو أن يفهمه ، وكان هذا الاحساس من القوة بحيث أنني رحت أغذيه طوال طريقي إلى البيت ، ثم ناقشت هذا الاحساس بالفعل مع طبيب من زملائي يعيش في « لانكشاير » واتصل بي ذلك المساء . وكان أكثر ما لفت نظره وشغله في الموضوع هو تحول لينجارد المفاجيء من حالة القريب من البلاهة إلى مستوى الشخص الشديد الفصاحة والقدرة على الابانة . ووصف لي الزميل حالة مشابهة كان قد عرفها لرجل مصرفي كان قد عانى من الأوهام الثنائية التي اجتاحته بعد حادثة عنيفة ، فأصبح يبدو كما لو كان عدة أشخاص متميزين ومختلفين تماماً ، أحدهم كسول بليد ذكاؤه متوسط ، والآخر مثقف ذكي . وبذلت أنا كل جهدي لكي أضع يدي على بعد داخلي مراوغ لم أكن قد استطعت أبداً أن أمسك به . قلت له :

« ولكن حالة لينجارد ليست من نفس هذا النوع . أم أنها لا تشبه هذه الحالة مطلقاً . إن غباوته — أو غباوته المزعومة — تبدو لي كما لو كانت نوعاً من التنكر الدائم . قرر هو أن يتخلى عنه أمامي »

« أتعني أنه يخاف خوفاً طبيعياً من أن يظهر ذكاءه ؟ »

« إذا شئت ، فإنني أعني شيئاً من هذا القبيل . »

« إذن فإنه حالة معقدة حقاً تحيطها العوائق الشائكة . لقد عرفت أشخاصاً

أنفقوا كل حياتهم في سبيل أن يداروا عداواتهم ويخفوها عن الأنظار، ولكنني لم أعرف من حاول العكس أبداً.

وبينما كنت مستلقياً على فراشي في تلك الليلة، عاد إلى ذهني ذلك التعليق الأخير. فقمت مستنداً على مرفقي وقد زالت رغبتي في النوم. شعرت بالرغبة في أن أصرخ هاتفاً بالسؤال: لماذا يريد ليتجارد أن يداري ذكاءه؟ ليس هذا الموقف مما يتفق مع عقلية المجرم. فالمجرمون يحبون المباهاة والتفاخر، مرة بعد الأخرى يقصدون جريمة متقنة كاملة بسبب الرغبة في أن يعجب بهم المجرمون الآخرون. فهل بلغ به الاشمئزاز والضجر ممن يحيطون به، وبما يحيط به، في السجن إلى الدرجة التي جعلته يسقط في هوة ذاتية أغلقها على نفسه؟ أم أنه كان على الدوام محروساً داخل هذه الهوة؟ لم يكن هناك سوى طريق واحد لاكتشاف الاجابة: أن أتعرف على أماكن نشأته وأقاربه الذين نشأ بينهم على الطبيعة.

الفصل الثالث

لست من المغرمين بمدن «يوركشاير» الصناعية. فقد قدت سيارتي من جبال «البناين» إلى «برادفي»، ومن هناك اتجهت جنوباً إلى «وانتشستر». [illegible] المطر قد هطل في الليل، وكان صباح شهر يوليو (تموز) طازجاً ماتعاً [illegible] الصيف. وبينما كنت أقود السيارة عبر حقول الريف الخضراء والذهبية، استمعت إلى تسجيل من موسيقى الجاز «دبليوس» من راديو السيارة. وجمال هذا النهار أدرك ما في موسيقاهما من حنين عميق إلى البعيد والمفقود والضائع. ثم أخلت التلال مكانها لأكوام الأوساخ وبقايا الفحم المتراكمة شمال «لانكشاير»، وكانت مداخن مصانع «برادفي» تنفث دخانها، وبقايا الهواء [illegible] الثقيلة. وفي مشارف «مانشستر»، رأيت إحدى علامات الطريق تشير إلى اتجاه مدينة «سادلورث» فذكرتني بالحالة التي عالجتها في قضية جرائم «مورز». وفجأة شعرت بأنني فهمتها. كان كل هذا الخطاء القذر مجرداً من بريق الفن ومن أي سحر خلاب. كانت الفتاة ذات [illegible] الحمراء والساقين الطويلتين والتي سارت عبر الطريق من مكان عبور المشاة، كانت تبدو كمن فقدت عذريتها وراء صالة للرقص في الثالثة عشرة من عمرها. وفي غضون [illegible] أمامها [illegible] أطفال [illegible] طفل [illegible] على هذا الطريق نفسه، وتعجل إلى جوارها طفل آخر شاكياً باكياً.

[illegible]

[illegible]

منتصف النهار بقليل . أوقفت سيارتي واحتسيت قدحاً من البيرة في حالة قبل الشروع في البحث عن شارع « بينكيث » ، وهو الشارع اللذي نشأ فيه آرثر لينجارد . ولم أكن قد جئت إلى « ووربنجتون » من قبل ، ولكنها كانت – بشكل ما – تشبه ما كنت قد توقعته ، بلدة صناعية أخرى من مقاطعة « يوركشاير » ، تقطع شوارعها خطوط السكك الحديدية والقنوات ، بينما يبدو نهر « ميرسي » بنيأ تحت سطح الزيوت العائمة فيه . وعلى جدار مرحاض عمومي للرجال . رأيت رسماً لفتاة جالسة على مرحاض ، تفتح عضوها الجنسي العاري بكلتا يديها ، وقد كتب تحتها تعليق سمج ووقح . وبدت لي هذه الصورة – صورة الأعضاء التناسلية الأنثوية والمرحاض – بدت لي في ضوء علاقة شوهت من ذهني كل الانطباعات العديدة التي تركتها في نفسي الساعة السابقة أو ما يقارب من الساعة .

كان الأطفال في شارع « بينكيث » يلعبون « الحجلة » . وكان الشارع يمتد بين أحد الطرق الرئيسية وبين « قناة شيب » في « مانشستر » ؛ وكانت هناك كنيسة « ميثودية » صغيرة . ذات واجهة صفراء تنتصب في نهاية الشارع . وكان محل البقالة الحديث الذي يعتمد على نظام « اخدم نفسك » والقائم في الناحية المقابلة . كان يبدو غريباً كل الغرابة في ذلك المكان . كان هذا أحد الشوارع التي لم تتغير منذ عام ۱۸۸۰ ، وكان من الممكن أن يمثل في إحدى أعمال « آرنولد بينيت » التي تتحدث عن مصانع وصناع الفخار أو في أحد أعمال « د . هـ . لورنس » ، بكل ما يملأه من شظايا الفحم التي استخدمت في رصف الشارع أو رائحة معامل الغاز والقناة الملاحية ، أو الضجة البعيدة الصادرة من القطارات إذ يسوقونها إلى مواقفها على الأرصفة ، أو التعليقات البذيئة المكتوبة بالطباشير على جدار إحدى الحدائق . كان الباب الأمامي للمنزل رقم « ۱۷ » مغطى ببقع من « الورنيش » ربما كانت موجودة منذ طفولة آرثر لينجارد .

رفعت مطرقة الباب ، فصدرت عنها خبطة زاعقة . ولم أسمع إجابة .

طرقت مرة ثانية وانتظرت ، ثم هبطت في مدخل ضيق تفوح منه رائحة فضلات القطط ، ومنه إلى باحة خلفية . تطايرت الذبابات من حول صندوق القمامة ، كان مشروع الحديقة القديم قد بدا وقد تحول إلى مخزن للفضلات والحطام . كان الباب الخلفي موارباً قليلاً ، ولكن الطرق المتكرر لم يأتي بأي اجابة . وبعد لحظات فتح الباب ، وخرجت منه امرأة تحمل حقيبة مما يستخدم في حمل الحاجيات من السوق . كانت المرأة ضئيلة الحجم ، ذات وجه لحيم لا تبدو عليه الصحة . وقد اجفلت عندما رأتني ، بل بدا عليها الانزعاج ، وأسرعت فقدمت نفسي باسم « دكتور كاهن » وسألتها إن كانت هي « مسز لينجارد » ، فقالت إنها هي .

قلت : « إنني من السجن . وأريد أن أتكلم معك عن آرثر ، ابن أمي زوجك » ثم تبعتها إلى المطبخ الذي كان مليئاً بالبخار ، كانت غلاية للماء يطقطق فيها الماء الساخن في الزاوية ، تفوح منه رائحة الملابس المغلية .

قالت : « كان علي أن أجلب غداء زوجي . ولهذا لا أستطيع الجلوس . هل آرثر يواجه المشاكل ثانية ؟ »

أخبرتها باختصار بحكاية انهيار آرثر العصبي ، وثار اهتمامي حينما لاحظت الطريقة التي بدت بها البهجة على وجهها حينما أخبرتها بذلك . كنت قد وصلت إلى اعتبار هذه العلامات كوسيلة مفيدة في اختبار الشخصية فكلما زاد ما يغرق فيه الناس من اجهاد وهزيمة ، كلما ابتهجوا لأخبار الكوارث . لقد بدت لي « إلزي لينجارد » باعتبارها شخصية غرقت في الهزيمة حتى عنقها ، ثم وصلت في النهاية إلى نوع من الثبات اليائس . راقبتها وهي تشعل موقد الغاز ، ثم وهي تلقي عود الثقاب الذي استخدمته في وعاء ضخم لأعواد الثقاب المستخدمة كان يقف إلى جوار زاوية منضدة المطبخ . كانت الجدران مطلية بلون بني قذر . كان لا بد أنه قد لزم المرأة صباح يوم بأكمله مع وعاء كامل من الطلاء الرخيص لكي تنظف هذا المكان حتى تجعله على هذه الصورة التي لا يمكن تخيل قذارتها ، ولكنها ما كانت لتهتم بذلك . كان « المشمع »

القدر الذي يغطي المنضدة بلا لون تقريباً ، وكان مليئاً بالقطعات في كل مكان استخدمته لتقطيع البصل والبطاطس دون أن تهتم بأن تستخدم صحناً تحت السكين . كانت رائحة الدهن تطفو فوق كل شيء . تناولت مقلاة كانت بقايا الدهن ولحم الخنزير قد تركت فوقها لتتصلب وتجف ، فوضعتها على نار الموقد الغازي فامتلأ المطبخ برائحة خفيفة اللذع . تناولت بيضة من حقيبة حاجياتها وكسرتها على حافة المقلاة ، انفجر مح البيضة بينما كانت تجلب هي بدءها ، فسال في وسط المقلاة .

« هل زوجك في المنزل ؟ »

« أجل . إنه في الفراش » .

« أهو مريض ؟ »

« أعتقد أن بإمكانك أن تصفه بذلك . هل سيضعون آرثر في مستشفى للمجانين ؟ » (كانت قد لفظت عبارة « مستشفى المجانين » كما لو كانت كلمة واحدة) .

« ربما لم تكن هناك حاجة إلى ذلك . إنني آمل ان أعالجه . »

« أوه » وكان من الواضح أنها فقدت اهتمامها بالموضوع .

كان من الصعب أن ينفذ المرء خلال لامبالاتها . سألتها : « ما شعورك إزاء آرثر الآن ؟ »

« لا يمكنك أن تتوقع مني أن أشعر بالكثير . أيمكنك ذلك ؟ »

« لا يمكنني ؟ لماذا ؟ »

« ألا تعرف ما فعله لريتشارد ؟ » (زوجها) .

تظاهرت بأنني أجهل ما تشير إليه .

« كلا ، لا أعرف ، ماذا فعل به ؟ »

« وشى به للشرطة . »

« أتعنين حكاية شقيقته ؟ »

« أجل . لقد كان هو الذي جعل « بولي » تذهب إلى الشرطة . »

كان هذا هو ما ظننته من قبل . سألتها : « ألم يكن أحدهما يحب الآخر ، أعني زوجك وآرثر ؟ »

« لا أظن أنهما أحبا بعضهما . كان اكثر مهارة من أن يبدي حقيقة مشاعره . لم يكن يمكنك أبداً من أن تخمن ما يفكر فيه . كان كتوماً . »

قطع حديثنا وصول فتاة في نحو الثامنة عشرة من عمرها ، قدمت نفسها باسم « جين » . بدت كما لو كانت واحدة من أولئك الفتيات اللواتي يولدن لكي يعشن حياتهن كلها « فوق الرف » ، ذات وجه كئيب كان يمكن أن يكون جميلاً لو أنها كانت تتمتع بومضة من الحيوية . ذات شعر رمادي مستقيم ، ذراعاها وساقاها كالعصي وليس لها نهدان . بدت عليها هي الأخرى تلك اللمحة المميزة للابتهاج حينما سمعت بانهيار آرثر العصبي . وقالت : « أجل ، كنت أظن دائماً أن رأسه مليء بالوطاويط . » قالت مسز ليتجارد مؤنبة : « هش يا بنت ، لا يجب أن تقولي ذلك للدكتور . »

تساءلت بيني وبين نفسي إن كان من اللائق الآن أن أستمر في بحث موضوع الفترة التي قضاها ديك ليتجارد في السجن بسبب فسقه بابنة أخيه . قلت بحذر :

« كنت تحدثيني عن موقف آرثر تجاه زوجك . »

قالت جين : « كان يكره رائحته . »

« ولكن لماذا ؟ »

« ألا تعرف لماذا ؟ لقد رباه وعامله كما يعامل ابنه . وكل ما فعله له هو أنه عمل على إرساله إلى السجن . »

« أعتقد أن شقيقته بولين كانت هي المسؤولة . »

« كلا . كان هو دائماً من خلفها يدفعها . »

قررت أن أخاطر بطرح السؤال الذي كنت أنوي أن أطرحه على مسز ليتجارد قبل وصول الفتاة .

« وهل كان متعباً في ذلك »

نظرت إلى احداهما ثم إلى الأخرى . كنت أنقل عينيّ بينهما حينما هزت جين كتفيها وقالت :

« هذا يعتمد على ما تعنيه بكلمة مذنب ، أليس كذلك ؟ »

« بأي معنى ؟ »

كانت مسز لينجارد تكوم قطع البطاطس المكعبة بعد أن تشرح كل ثمرة إلى شرائح طويلة تقسمها بعد ذلك إلى مكعبات بعناية غير عادية . قالت : « إنه لم يكن الأول . »

قالت جين : « بالطبع ، لم يكن هو الأول . »

« لم يكن هو ؟ إذن فمن كان الأول ؟ »

قالت جين : « يمكن أن يكون أي رجل . فقد كانت من هذا النوع . كان يمكن أن تعملها مع أي شخص . كان على أبي أن يضربها بالحزام « دستة » من الضربات و « دستة » من المرات في كل مرة . لقد اعتادت أن تلتقي بالأولاد في مدخل البيت . »

« هل كان آرثر شديد الانجذاب إليها ؟ »

ضحكت جين ضحكة كالصرخة .

« أوه ، أجل . كان منجذباً إليها بشدة . كان منجذباً إليها لدرجة أنه لم يكن باستطاعتك أن تفصل أحدهما عن الآخر . »

« هل تظنين أن آرثر كان أحد هؤلاء الأولاد الذين ... الذين حصلوا عليها في مدخل المنزل ؟ »

« لم يكن عليه أن يلجأ إلى هناك . هل تفهم ؟ لقد كانا ينامان في فراش واحد . »

ربما كان الاحساس بالعار قد ظهر على وجهي ، لأن مسز لينجارد قالت بسرعة : « لم يكونا ينامان بمفردهما بالطبع . كان معهما دائماً أولادنا الثلاثة ، ألبرت وتيد وآجي . »

« كلهم في فراش واحد ؟ »

« لقد كان سريراً كبيراً جداً . وما يزال هناك بالطابق العلوي . »

رأيت أن بوسعي أن أعرف من جين كل ما يمكن أن أعرفه من مسز لينجارد . فاقترحت أنه يمكننا أن نترك الأم لكي تطهو الطعام بهدوء . فقبلت الاقتراح بابتهاج وخفة .

قالت جين : « أجل ، تعال واجلس . » بدت غرفة الجلوس كما لو كان اللصوص قد اجتاحوها منذ قليل . قالت : « هذه الغرفة غير مرتبة قليلاً . تعال إلى الغرفة الأمامية . » تبعتها عبر قطعة من الجلد المجفف علقت حول اطار فتحة مثل الباب فدخلت إلى ما كان من الواضح أنها « أحسن الغرف » في المنزل . كانت هذه الغرفة مرتبة بما فيه الكفاية ، ولكن طبقات التراب ، ورائحة الرطوبة والعرق جعلتها غرفة مقبضة . لم تكن حرارة يوليو قادرة على الوصول إليها . كانت غرفة باردة إلى درجة محسوسة .

حينما جلسنا في المقاعد ذات المساند الرطبة الملبدة سألتها :

« أيمكنك القول بأن آرثر في صباه كان صبياً ماهراً ؟ »

« كان يحاول أن يكون كذلك . »

« ولكن هل كان ماهراً ؟ »

« كلا . لقد كان متزمتاً وجامداً . وقد أحب أن يخيف الأولاد في الشارع بحكاياته عن الأشباح والوحوش . »

فتحت دولاباً صغيراً إلى جوار مقعدها وقالت :

« هذا هو نوع الأشياء التي كان يقرأها ... »

وناولتني إحدى المجلات : « حكايات الرعب » . ظهر على الغلاف رجل سال لعابه ممسكاً بسوط ، وعدة فتيات في ملابس داخلية ممزقة قيدن إلى الجدار وتعليق تحت الصورة يقول : « كان يعذب النساء لكي يشبع شهوات مريضة . » فتحت المجلة . كانت هناك صورة لفتاة قيدت إلى سرير وقد فتحت ساقيها وباعدت بينهما ، ونفس المجنون الذي يسيل لعابه يقترب منها وقد أشرع في يده قضيباً من الحديد المحمي

نظرت إلى الدولاب . كانت هناك أكوام من تلك المجلات ، بالاضافة إلى نسخ من : « قصص القضاء العجيب » ، « حكة الخاتم » ، « المخبر السري الحقيقي » ، « اعترافات حقيقية » . كان هناك أيضاً عدد من الكتب الشعبية ذات الغلاف الورقي . جذب احدها انتباهي على الفور . كان عنوان الكتاب : « مارفو الساحر » ، وظهرت على الغلاف صورة لرجل في عباءة حمراء تبدو عليها علامات فلكية مختلفة ، وقد انحنى إلى الأمام فامتدت يداه صوب فتاة جميلة ظهر عليها أنها تحت تأثير التنويم المغناطيسي . وعلى الأرض عند قدميه ، تكوم رجل في وضع حيوان مذعور . وتحت الصورة جملة تقول : « إنه يحول الناس إلى كلاب » . نظرت جين إلى الكتاب وقالت :

« أوه ، أجل ، كان هذا أحد كتبه المفضلة . يمكنك أن ترى كم من المرات قرأه » .

وكان قولاً صحيحاً ، فصفحات الكتاب قد أصلحت بعناية وألصقت الشرائط اللاصقة (السيلوتيب) والأوراق المصمغة ، وكان غلافه قد دعم بقطعة من الورق المقوى انتزعت من علبة مما تعبأ فيه البلور المهيأة للمطبخ . قلت :

« لا بد أن أسأل والدتك إن كانت ستسمح لي بأن أستعير بعضاً من هذه المجلات والكتب ؟ » .

« أوه ، إنها لن تهتم بهذا أبداً . إنها لا تقرأ مطلقاً . » .

سألتها : « وأين بولين الآن ؟ » .

« لقد تزوجت سائق شاحنة . إنها تعيش في ستوك بورت » .

« ألا ترينها أبداً ؟ » .

« كلا ، ولكني أسمع بأخبارها أحياناً . » .

قالت ذلك بطريقة ذات مغزى . رفعت حاجبي ، فقالت :

« إنها عاهرة بكل معنى الكلمة . وكانت كذلك دائماً . زوجها يخرج في الليل . وتقضي أياماً خارج المنزل . وانه لمن الخير أنه لا يعرف ما يدور من ورائه » .

« ماذا يدور من ورائه ؟ » .

« إنها تنام مع أي شخص . سأحكي لك حكاية أعرف أنها حقيقية . إنها تحب صالات الموسيقى المرحة . وهناك فتى أعرفه يدير الصالة القريبة من منزلها . ذهبت إليه ذات مساء ، ودخلت مكتبه . قالت : « ليس لدي أي نقود ، ولكن يمكنك أن تأخذ حقك من هذا ؟ » ثم خلعت قميصها . وقد قال لي الرجل إنها كانت ترتدي ثياباً داخلية « مكشكشة » ، وكانت قد وقفت أمامه مدة كافية بحيث ألقى عليها نظرة طويلة .

« وهل فعل معها شيئاً ؟ » .

« كلا . » بصقت الكلمة القصيرة بازدراء ، ثم أضافت تقول : « لم يجب أن يخاطر بهذا . يمكنك أن تنتزع من هذا النوع أي شيء تريد . » .

بدأت أشعر بأن جين ليتجارد فتاة مقبضة للروح . وكانت قد تكلمت بتلقائية كافية ، ولكن كان كل ما قالته مشبعاً بأهوائها وحسدها ، والأكثر من هذا أنها كانت تشعر بأن من المسلم به أن كل الناس يشعرون مثلما تشعر هي ويفكرون مثلما تفكر . وربما كنت أنا أبدو شديد التعاطف معها والتشجيع لها . شعرت بأني قد حققت أهم اكتشاف لي في هذا اليوم — المجلات . شعرت بالارتياح حينما صاحت مسز ليتجارد تنادي : « جين ، تعالي ، تناولي غداءك . » عدنا إلى الغرفة الأخرى . كانت المرأة قد أبعدت بعض صحون الافطار من فوق المنضدة ، ووضعت بدلاً منها وجبة منتصف النهار لابنتها — البيض والبطاطس المقلية ، وكلها فقدت لونها بسبب الدهن البني الرخيص الذي استخدم في طهوها . سمعت خبطة ثقيلة على السقف فصرخت مسز ليتجارد قائلة : « طب ! » في صوت جعلني أقفز من مكاني . قالت جين : « هذا دادي . أظن أنه جائع . » .

وحينما عبرت مسز ليتجارد غرفة الجلوس حاملة صحناً آخر من البيض والبطاطس المقلية ، قلت لها : « هل يمكنني أن أرى زوجك ؟ » .

حملقت وبدا عليها الانزعاج ثم قالت

« إذا راق لك ذلك . ولكن الأحسن أن تدعني أخبره أولاً . »

قالت جين بثقة كمن يسرّ لي بأمر خطير : « إنها تريد أن ترتب الغرفة العلوية . »

وبعد بضع دقائق صاحت مسز لينجارد قائلة : « ياالله ، بامكانكما أن تصعدا الآن . »

صعدت الدرج الذي كان مظلماً لدرجة أنني رحت أتحسس طريقي بيدي . كانت غرفة ديك لينجارد تطل على الباحة الخلفية . وكانت النافذة مغلقة بأحكام ، وكان المكان يفوح برائحة العرق والبول .

كان ديك لينجارد جالساً في الفراش . وكانت أول نظرة مني إليه مفاجأة لي . كنت أعرف أنه رجل قوي ، ولكن لا شيء من قوته هذه كان قد بقي له . كان يبدو كمن تجاوز السبعين من عمره . كان الوجه في بياض وليونة العجين الذي لم يخبز ، وكان الفم غائراً (كانت أسنانه الصناعية غارقة في كوب من الماء على المائدة) . كان يرتدي صداراً ذا رباط ، ملتصق من الخصر بالبنطلون الذي يشبه السروال الداخلي الطويل . منحه هذا الرداء شبهاً بالأحدب ، ولكنني تحققت بعد لحظة أن هذا المنظر كان بسبب أنه سمح للكتفين اللتين كانتا قويتين في يوم ما ، بأن تتهدلا في ارتخاء كامل .

قالت مسز لينجارد : « هذا هو الدكتور » . نظر إلي وأومأ برأسه ، ثم بدأ في تناول قطع البطاطس المقلية بأصابعه لكي يضعها في فمه . قلت له : « لا تدعني أزعجك » ولكنه تجاهلني . كان يمتص طعامه أكثر مما يمضغه . قطعت مسز لينجارد بيضته إلى نصفين ، وقدمت إليه أحدهما على ملعقة . فتح فمه لها . لكي يظهر لثته المتقيحة وقطع البطاطس المقلية التي لم يبتلعها وتركها تدفع بالملعقة إلى داخل فمه المفتوح . حاولت أن أنتقل إلى جوار النافذة ، خلف السرير الذي كان يحتل معظم مساحة الغرفة . اصطدمت قدمي بوعاء مما يستخدم في غرف النوم للتبول ، فانقلب فوق حذائي . قلت شاعراً بالحرج :

« لا أريد أن أزعجك الآن . سأهبط إلى الطابق السفلي » .

أومأت مسز لينجارد دون أن تتكلم . وعثرت على طريقي عائداً من حيث صعدت إلى الغرفة السفلية . كانت جين « تغمس » الدهن السائل من صحنها بالخبز . قالت :

« يمكنك الآن أن ترى ما فعله آرثر به . »

« ما حكايته ، مم يشكو ؟ »

« لا أعرف » وبدا من صوتها أنها تريد أن تقول : « أنت الطبيب لا أنا » .

« ألا يتكلم أبداً ؟ »

« لا يتكلم إلا إذا شرب قليلاً . »

« أمن المسموح له أن يشرب ؟ »

« إنه يشرب سواء كان ذلك مسموحاً به أم لا . »

كنت قد بدأت أشعر بالضيق من هذا المكان المغلق . وبعد عشرين دقيقة حينما لم تكن مسز لينجارد قد ظهرت ثانية بعد ، قلت :

« أظن أن الأفضل لي أن أنصرف »

« أجل ، فأنا نفسي علي أن أعود ثانية إلى العمل . »

« أمن الممكن أن تكوني عارفة بعنوان بولين ؟ »

« أوه ، أتنوي أن تراها هي الأخرى ، أليس كذلك ؟ »

« أودّ هذا . »

فتحت دولاباً صغيراً ، وأخذت منه حقيبة يد صغيرة قديمة . أخرجت من الحقيبة بعد الخطابات القديمة ومزقاً من الورق وبعض الصور . نظرت إلى هذه الأخيرة بشيء من الاهتمام .

« ألديك صورة لآرثر ؟ »

« أظن هذا » .

لم تبذل أية محاولة للعثور على واحدة . فبدأت أنا في البحث عنها بنفسي . كانت هناك صورة قديمة بنية اللون لأزواج في حفلات زفافهم ترجع إلى بداية القرن ، وكانت هناك صوراً أخرى لجماعات من الناس يبتسمون

وهم يرفعون كؤوساً قرمزية . وجدت نفسي أمسك بصورة لفتاة ممتلئة ذات جمال لافت للنظر في نحو الخامسة عشرة من عمرها . سألت :

« من هذه ؟ »

« هذه بوللي . »

حدقت فيها باهتمام . كانت استدارة الوجنة ناعمة ، وقد ارتفع الصدغ إلى أعلى . كانت صورة لفتاة ممتلئة بالحيوية ، لم تمسها الهزيمة . كان بوسعي أن أرى لماذا كرهتها جين وأبغضتها . وسرعان ما عثرت على صورة أخرى لبولين ، كان من الواضح أن الناس كانوا يستمتعون بالتقاط صورها . وفي إحدى الصور بدا صبي كان من المستبعد ان أخطىء في اكتشاف أنه آرثر لينجارد . كان الوجه يبدو نحيلاً مهزولاً ولكن العينين الجاحظتين كانتا قابلتين للتعرف في أي مكان . كان ينظر بجدية شديدة إلى آلة التصوير ، بينما كانت بولين التي تقف إلى جواره تضحك بمرح . كان بوسعي أن أقرأ أفكاره في تلك اللحظة تقريباً : « إنهم يصورونني ، ربما ذات يوم سينظر إليها الناس ويقولون « كان هذا هو آرثر لينجارد قبل أن يصبح مشهوراً ... » . نظرت جين من فوق كتفي إلى الصورة وقالت :

« أجل ، كان دائماً متجهماً بهذا الشكل . »

ولكنه لم يكن متجهماً . كان شديد الجدية فحسب .

عثرت على صورة أخرى تضم أسرة كاملة بدت كما لو كانت قد التقطت اثناء قيامهم بنزهة خارج المدينة . أشرت إلى فتاة في سن بولين كانت تضع يدها على كتف آرثر .

« من هذه ؟ »

« أوه ، هذه ماجي ، التي تتبعنا نحن . شقيقتي . »

« أكانت تحب آرثر ؟ »

« أجل . لقد ماتت منذ زمن . »

« ما كان سبب موتها ؟ »

« ذات السرئة . »

أجل . كان بوسعي أن أرى السل في وجهها الشاحب ، وجه الضحية . ولكن الصورة باحت لي بشيء آخر . كان آرثر يقف بين ماجي وبوللي : فتاتين مغرمتين به . وهكذا فان طفولته لم تكن تعاني من الجوع إلى الحنان . فماذا كان السبب في تطوره إلى التمرد والخروج على كل شريعة ؟ »

سألت جين التي كانت ترتدي معطفها :

« ما كان السبب – في ظنك – الذي دفع آرثر إلى الوقوع في مثل تلك المشاكل ؟ هل كان يكره أي شخص في العائلة ؟ »

« لم ألاحظ هذا أبداً . إنما أراد فقط أن ... أن يكون زعيماً ، « ديك الدجاج » .

وضعت اصبعها على الغلاف المقوى للكتاب « ماريو الساحر » وقالت :

« مثل هذا الفتى . لقد ملأ خياله دائماً بأن يكون منوماً ... »

للحظة فشلت في إدراك ما كانت تعنيه . ثم سألتها :

« أن يكون منوماً مغناطيسياً ؟ »

« أجل . كان يحاول دائماً أن ينوم الناس . وأنا أظن أن هذا هو ما قتل ماجي . لقد أضعفها . »

« ألم يحاول مرة أن ينومك أنت ؟ »

« كلا . كنت طفلة صغيرة بعد . ولكنه اعتاد أن يفعل ذلك مع آجي . لقد كانت أمته المستعبدة . »

« أتقصدين ماجي ؟ »

« كلا . آجي . الأخرى . »

« بأي شكل ؟ »

« آسفة . يجب علي أن أعود إلى العمل . إنهم يخصمون منة بسات لقاء كل دقيقة بتأخرها العامل . هاك عنوان بوللي . »

وأسرعت إلى الخارج وتركتني وحداً مع الصور . فشعرت باغراء أن

أستعير بعضها ، ولكني قررت أنه سيكون من الأفضل أن أطلب إذناً بذلك . ناديت برقة ناحية أعلى السلم :

« مسز لينجارد ؟ »

لم أسمع رداً . ناديت ثانية ، وحينما ظل كل شيء على صمته ، قررت الانصراف . أخذت معي بعض المجلات والكتب ذات الأغلفة الورقية . وعلى عتبة الباب الخلفي للمنزل المجاور ، وقف رجل واضعاً يديه في جيوبه وأخذ يرمقني بفضول ، وأطلت امرأة من نافذة مطبخها . كنت أتخيلهما يقولا : « والآن من يمكن أن يكون هذا بحق الجحيم ؟ » . الجيران فضوليون في شارع بينكيث .

كان من الممتع أن أسير بعد هذا في ضوء الشمس ، وأن أستنشق الهواء المحمل بروائح الغاز وسفن الشحن في القنال . على الأقل ، كانت هذه هي روائح الهواء الطلق .

* * *

بينما كنت أقود سيارتي في شوارع « ستوك بورت » تخلصت من بعض ما كنت أشعر به من انقباض . رحت أحلل ما كنت قد رأيته ، وجعلني هذا أدرك كم كانت حياتي موفقة الحظ ، سعيدة الطالع . إن ما يبدو فهمه شديد الصعوبة بالنسبة لبيئة من النوع الذي نشأ فيه آرثر لينجارد هو أنها شديدة « الانغلاق على نفسها » إلى درجة كبيرة . بينما كنت أجلس في الغرفة الأمامية في منزل لينجارد ، كنت قد رأيت صحيفة عنوانها الرئيسي يقول : « ديجول يقول : لا » وقد بدت لي هذه الصحيفة كشيء غير حقيقي . وخارج الكنيسة عند نهاية الشارع ، كانت هناك لافتة تقول : « اهزموا الشيطان باسم الرب » . ديجول ، الرب ، الشيطان ، شكسبير ... هذه كلها أشياء تنتمي إلى مملكة بعيدة من الأساطير ، من اللاحقيقة . « هذه » كانت حقيقة : « ما زال شايا يباع بسعر أربعة بنسات للقدح الواحد . » « أعيدوا الباكستانيين إلى بلادهم » . يصبح هذا العالم مثل المستنقع إذا دخلته للمرة الأولى . تغرس

قدمك في أوحاله ، وكل محاولة للهروب لا تؤدي إلا أن تغوص ساقك أكثر .

وهكذا راح آرثر لينجارد يحلم بقوى خفية سرية ، بأن يكون « مارفو الساحر » ، وبأن يجعل الرجال يهرون كالكلاب بنظرة واحدة ثاقبة من عينيه المسماريتين وببعض الاشارات من أصابعه السحرية . ولكن في الحقيقة العملية ، كان الأسلوب المؤثر الوحيد للتعبير عن رفض هذه البيئة هو اقتحام محل بائع الحلويات عند الناصية ، أو رسم فتـاة في وضع مزر على جدار مرحاض عمومي . كنت قد أفلت من كل هذا بوصفي طبيباً : لقد عشت في عالم لم يكن ديجول ولا فرويد ولا داروين فيه شخصيات أسطورية ، وإنما كانوا جزءاً من الحقيقة اليومية . الحقيقي الذي يتجسد في شارع بينكيث .

كان شارع بلدة « ستوك بورت » حيث كانت بولين لينجـارد ــ التي تدعى الآن بولين سبارو ــ تعيش أقل انقباضاً من شارع بينكيث ، وكان ، من الناحية الاجتماعية ، يقع على ارتفاع درجة واحدة من سابقه . ورغم أن المنازل كانت تبدو متشابهة ، وكانت هناك زجاجات لبن متحطمة في الطريق ، فقد كان لكل منزل حديقة صغيرة وراء جداره الخشبي . كان صبي نشيط قد ترك دراجته ذات الحمالة المليئة بأنواع الخضروات المحفوظة ، واتكأ على السور ؛ ولو كان هذا الصبي في شارع بينكيث لما غامر بترك بضاعته ودراجته على هذا النحو . ورغم أن المنازل كانت صغيرة الحجم والمساحة ، فقد كانت متباعدة عن بعضها قليلاً .

كانت للحديقة الأمامية في بيت بولين سبارو حافة رصيف ضيقة عامة ، وكانت مزودة بممر جاف نصف ظليل . رفعت المطرقة المعلقة على الباب الأمامي الأخضر اللون (وكانت كل الأبواب الأمامية في الشارع خضراء اللون) وطرقتها طرقة خفيفة . فتحت على الفور نوافذ المنزل المجاور على مصاريعها ، وارتفع صوت جهاز الراديو يقول :

لقد أثارتني قبلات كثيرة من قبل .
ولكن يا حبيبي لم تثر لي قبلة كهذه من قبل !

طرقت الباب مرة أخرى ، طرقة أكثر قوة ، خشية ألا تكون الأولى قد سمعها أحد . ظهرت امرأة على باب المنزل المقابل ، وكانت تجفف يديها بمنشفة مما يستخدم في تقديم أقداح الشاي . قالت :

« إنها ليست بالداخل . لقد ذهبت إلى عملها » .

كانت هذه خطوة إلى الوراء . سألتها :

« متى ستكون في البيت ؟ »

« حوالي الساعة السادسة . هل سأقول لها إنك سألت عنها ؟ »

كان من الواضح أن الأمل قد داعبها في أن نبدأ عادثة . فأجبتها بأنني سأعود فيما بعد ، ورحلت .

ولما كانت أمامي ساعتان أمضيهما دون عمل ، فقد تناولت وجبة صينية ، وتسكعت داخل محل لبيع الكتب القديمة ، ورحت أنظر إلى القوارب المعروضة في إحدى صالات العرض . وفي الخامسة والنصف ، شربت كأساً من الجين والليمون الحامض في إحدى الحانات . ثم قفلت عائداً بسيارتي إلى عنوان بولين . ولم يكن هناك أحد حتى تلك الساعة . وبرزت لي السيدة من المنزل المقابل لكي تخبرني بأن بولين تخرج أحياناً من العمل ، لا إلى البيت ، وإنما إلى حيث تقضي أمسياتها . وأضافت تقول :

« إن زوجها سائق سيارة شحن من تلك السيارات التي تذهب الى أماكن بعيدة ، ولذلك فليس عليها أن تهيء له عشاءه » .

جلست في السيارة لمدة نصف ساعة . ولو كان في نيتي أن أعود إلى بيتي في تلك الليلة ، لكانت تلك هي الساعة المناسبة للشروع في العودة . ولكنني كنت أتطلع إلى رؤية بولين لينجارد . عدت بالسيارة ثانية إلى مركز « ستوك ورث » ، وحجزت لنفسي غرفة في أحد الفنادق ، وأمضيت نصف ساعة في البار ، ثم ساعة أخرى في مشاهدة التلفزيون في البهو . وشعرت بالجوع بعد ذلك فتناولت العشاء . وكانت الساعة قد قاربت العاشرة . قدت السيارة عائداً في الظلام إلى منزل بولين . كانت الأضواء ما تزال مطفأة . ولا بد أن

الجارة القريبة كانت تراقب ما يجري من النافذة ، فقد خرجت لكي تخبرني بأن مستر سبارو غالباً ما تظل خارج المنزل إلى منتصف الليل . وكانت هذه فكرة مخيبة للرجاء ، ولكني كنت مصمماً على ألا أستسلم . ذهبت فجلست في السيارة ، ورحت أصغي إلى الراديو . أذيعت نشرة الأخبار في الساعة الحادية عشرة . ثم رأيت النور يضاء في الغرفة من المنزل ، كانت قد دخلت المنزل دون أن ألحظها .

ذهبت فطرقت بابها ، وأنا أشعر بالعيون التي تراقبني من المنزل المجاور . لم تأتني أية اجابة . وبعد المزيد من الطرق ، سمعت صوت المياه تتدفق من الحمام ، وصوتاً يقول : « من هناك ؟ » . ولما لم يكن بوسعي أن أصيح باسمي من خلال فتحة البريد في الباب فقد رحت أطرق ثانية . وهنا فتح الباب بعنف وقالت بولين لينجارد :

« من أنت ؟ »

« إسمي الدكتور كاهن ، وأنا من سجن « ووزهيل » وأود أن أتحدث معك حول شقيقك » .

« ماذا ، الآن ؟ »

« لقد جئت إلى هنا بعد ظهر هذا اليوم . وظللت أحاول مقابلتك طوال المساء » .

« طيب ، إذن أظن أن من الأفضل أن تدخل » .

راحت تنظر إلي باهتمام وأنا أخطو إلى الداخل . وكان من الواضح أن الاطمئنان قد عاودها . نعتها إلى حجرة الجلوس . كانت حجرة مريحة بما فيه الكفاية . لم تكن شديدة الأناقة ، ولكنها لم تكن قذرة أيضاً .

كانت بولين سبارو امرأة في منتصف الثلاثينات ، ذات ردفين كبيرين ونهدين ممتلئين . وكان شعرها كثيفاً وداكن اللون . كان وجهها قد فقد خطوطه الناعمة التي رأيتها في الصورة وأصبح أكثر صرامة . وكان الفم ممتلئاً موحياً بنزعة صاحبته الحسية ، وكانت العينان حادتين مدهشتين . بدت لي كحيوان

صحيح الجسم ممتلىء بالحيوية . تنتمي إلى نوع من النساء اللواتي يظهرن في صورة طبيعية تماماً حينما تقف إحداهن ويداها على ردفيها ، وساقاها منفرجتان بينما يضيق ثوبها بعنف حول فخذيها ، ويتراجع الكتفان إلى الوراء بصورة واضحة .

سألتها : « هل زرت آرثر في السجن ؟ »

« ليس كثيراً . إن زوجي لا يحبه . وهو لن يسمح لي بأن تكون لي به أية علاقة . كيف حاله ؟ »

أخبرتها بالتفصيل بحكاية انهيار آرثر العصبي ، وأوهام الجرس الأسود ، وما إلى ذلك . أصغت إلي باهتمام ، ولكن تعليقها الوحيد كان « الولد المسكين » . غير انني شعرت على الأقل بأن ثمة تواصلاً بيني وبين من أكلمها . أخبرتها بما كان من زيارتي لمنزل أسرة لينجارد في « وورينجتون » ، فقالت :

« هل أخبروك بأي شيء مفيد ؟ »

« كلا . لا أظن أنهم يفهمون المشكلة . »

ضحكت . وكانت ضحكتها كالصرير المرتفع النغمة ، ولكنها لم تكن خليعة أو خشنة . قالت :

« كان بوسعي أن أخبرك بذلك . إن « مخ » العمة إلزي أسمك من كتلتين من خشب ، ومخ جين لا يفضل مخ أمها كثيراً . »

« ماذا عن عمك ديك ؟ »

« لقد طار عقله تماماً . إنه مدمن على الخمر . وكان عنيفاً دائماً ، ولكنه أحرق نفسه حتى استهلكها . والطبيب يصف له العقاقير حتى يظل هادئاً . »

رحت أشرح لها ما كنت أريد أن أعرفه . لماذا كان شقيقها يحاول أن يداري ذكاءه ؟ ولماذا تحول إلى مجرم ضئيل الشأن بدلاً من أن يحصل على منحة من إحدى الجامعات ويفوز بدرجة علمية ؟ وقلت لها : « أظن أنه كان بوسعه أن يحقق حياة عملية ناجحة في المهنة التي يختارها . »

« أوه ، بالطبع كان يمكنه ذلك ، لو أنه أراد أن يفعله . ولكن لم تكن

هذه هي فكرته . كانت لآرثر دائماً أفكاره الكبيرة . »

« أي نوع من الأفكار الكبيرة ؟ »

فتحت حقيبة يدها وأخرجت علبة سجائر ، وقالت :

« إذا كنا سنبدأ الحديث في هذا الموضوع ، فمن الأفضل أن نذهب إلى الغرفة الأخرى . إنها مريحة أكثر من هنا . »

تبعتها إلى الحجرة الأمامية ، وأشعلت مدفأة غازية وقالت :

« ما رأيك في كأس ؟ »

فقلت إنني ربما كنت قادراً على أن أشرب كأساً صغيرة . ذهبت إلى المطبخ ، وعادت حاملة زجاجة من الجين ، وزجاجة من عصير الليمون المعطر ، وكأسين . وقالت لي : « قل متى أكف عن الصب ؟ » . وقفت أنظر إلى احدى الصور الموضوعة على إحدى الموائد . كانت إحدى الصور تجمع بين بولين وآرثر واقفين على رصيف بحري ، والبحر من ورائهما . كان آرثر في الصورة — يبدو في الخامسة عشرة ، كان نحيلاً شاحباً بنفس الوجه الصامت الحاد والعينين الجاحظتين . أما بولين فكانت تبدو كعادتها مليئة بحيوية هائلة . وكان رجلان في حافة الصورة ينظران إليها . بزغت في ذهني ذكرى بسبب وجه آرثر : ما الذي ذكرني به هذا الوجه ؟ ثم تحددت الذكرى : صورة هتلر في فترة باكرة من حياته كنت قد رأيتها ذات مرة . كانت تبدو في عينيه نفس النظرة الجامدة العميقة التي تحمل أثراً من كآبة حزينة .

كانت هناك صورة من صور الزفاف تبدو فيها بولين غارقة في الثياب البيضاء . وكما هي العادة ، كانت عيون كل الرجال الآخرين في الصورة مثبتة عليها . كان زوجها رجلاً ضخم الجسم حسن المظهر ، وكان يبدو عليه أنه طيب المعشر ولا يتمتع بشخصية قوية . وكان من الواضح أنه لم يكن يشعر بالراحة الكاملة في حفلة زفافه . جاءت بولين ووقفت إلى جواري بينما كنت أتطلع إلى تلك الصورة . مدت يدها وأشارت إلى الصورة وقالت :

« هذا هو إرني . وذاك جورج أفضل أصدقائنا . »

كانت تشير إلى رجل طويل له شارب بارز ، وقد بدا مستريحاً راحة كاملة في حلته الصباحية . بينما كانت هي تقهقه وتقول :

« لقد أراد هو الآخر أن يتزوجني »

واستراحت يدها للحظة واحدة على كم سترتي وهي تلفظ عبارتها الأخيرة . قلت :

« إنه جذاب جداً » .

كنت أشعر بأنها كانت تريدني أن أشجعها .

« أجل ... كنت أود أن أتزوجه . ولكنه كان غارقاً في المشاكل إلى درجة جعلته لا يستحق المغامرة من أجله . وقد كان شيطاناً يخلب ألباب الفتيات . »

هكذا كانت بولين قد فضلت جورج ، ولكنها تزوجت إرني ، لأنها عرفت أنه كان رجلاً يمكن الاعتماد عليه . كانت امرأة صلبة عنيدة تعرف ماذا تريد .

قالت : « تفضل بالجلوس » وأشارت إلى مقعد قريب من النار . رأيت عندئذ أنها كانت صبت لي كأساً بالغة الضخامة من الجين وعصير الليمون . وكانت كأسها أكثر ضخامة . جلست على الأريكة ووضعت وسادة صغيرة خلف رأسها ، وقالت :

« الآن تفضل ، اسألني ما تريد من الأسئلة . » وأشعلت سيجارة أخرى .

« هل أنت مغرمة بأخيك ؟ »

« اسمع ، فلنبحث هذا الأمر . »

كانت تتميز بطريقة حاسمة مباشرة في الكلام . وكانت لهجتها مزيجاً مدهشاً من لكنة أهالي لندن ولكنة مانشستر ، ولكنها كانت لهجة أكثر وضوحاً بكثير من لهجة عمتها . أضافت تقول :

« أعتقد أنني كنت مغرمة به جداً حينما كان طفلاً صغيراً . ولقد تغير هو كثيراً حينما تقدم في العمر . »

« ماذا كان شكل تغيره ؟ »

« صارت له أفكار شاذة . وصار ميالاً بشدة إلى التأمل . »

« أي نوع من الأفكار الشاذة ؟ »

« أوه ، لا أعرف . لم يكن يتكلم معي حقاً . وإنما اعتاد أن يتكلم أكثر بكثير مع آجي - كانت هذه هي ابنة عمه وكانت تعتقد أنه إنسان عجيب ورائع . »

« لقد وصفتها ابنة عمك ، اختها جين ، بأنها كانت أمة الرقيقة . »

ضحكت وقالت :

« أوه . أجل . كانت جديرة بأن تفعل أي شيء لأجله . وقد فعلت . »

ودفعتني طريقتها في نطق العبارة الأخيرة إلى طرح السؤال التالي ، قلت :

« أتعنين أنه كان يمارس الجنس معها ؟ »

هزت كتفيها وقالت :

« بالطبع . »

« لماذا تقولين : بالطبع ؟ »

« الجميع يفعلون ذلك في تلك الأسرة . الأولاد لا يفكرون في شيء غير الجنس . وكان أكبرهم ، جيم ، هو الأكثر سوءاً . »

رشفت رشفة طويلة ، وحينما رأتني منتبهاً مضت تقول :

« لقد نلت أكبر صدمة في حياتي حينما تبينت ما كان يجري من حولي هناك . كنت أعرف بالطبع أنهم قد اعتادوا أن يمارسوا بعض الألعاب أثناء اللهو وما إلى ذلك . كنا جميعاً نفعل هذا . وكان الأولاد يتحسسون أجسامنا ويجعلوننا نتحسس أجسامهم . ولكنني استيقظت ذات ليلة وسمعت آجي تبكي فقلت لها : « ماذا يبكيك ؟ » فقالت : أنا خائفة . لقد جرحني جيم » كان جيم هو أكبر أبناء عمي . وعلى أي حال لقد انتهى بي الأمر إلى أن تسللت معها إلى الطابق السفلي ، وأشعلنا النور في المطبخ . كانت ترتدي جلباباً أبيضاً قديماً . وكانت الدماء تغطي ظهره كله . كنا نتبادل الحديث همساً حتى لا نوقظ العم ديك . قلت لها : « ماذا فعل بك ؟ » قالت : « أظن أنه مزق بداخلي

شيئاً ما . أنظري إن كان بامكانك رؤية أي شيء » ؟ وهكذا فقد جلست على المقعد رافعة ركبتيها ، ونظرت داخلها ، ولكن كانت الدماء هي كل ما استطعت رؤيته . جئت بقطعة من الصوف المندوف ووضعنا فوقها الزنك ومرهم زيت الخروع ، وتولت هي وضعها داخلها ، ثم عدنا إلى الفراش . وفي الصباح التالي كانت قد توقفت عن النزيف . »

« كم كان عمرها في ذلك الوقت ؟ »

« حوالي الثانية عشرة ، كما أظن . »

« هل فرض أخوها نفسه عليها ؟ »

« لا طبعاً . لم يكن جيم من هذا النوع . ولكنه كان أكبر من آجي بعامين وكانوا جميعاً ، حالما يخرج أبوهم وأمهم ، يبدأون في لعبة « الأطباء والممرضات » . هل تفهم ما أعنيه ؟ كانوا يجلسون على الفراش وكان هو يخلع بنطلونه فتخلع هي جونلتها ، ثم يبدآن في تبادل اللعب . وهكذا فقد كان من المقدر أن يحدث ما حدث آجلاً أو عاجلاً . أليس كذلك ؟ »

« ما الذي كان من الممكن أن يحدث لو أن الوالدين قد اكتشفا الأمر ؟

« أوه ، لقد اكتشف أبوهما الأمر ، فضربهما معاً بالحزام . »

« وهكذا فقد كان يرفض الأمر كله ؟ ومع ذلك فقد انتهى بأن فعل معك أنت نفس الشيء . »

ابتسمت وهزت كتفيها . كان بوسعي أن ألاحظ أنها تستمتع بهذا الحوار . قالت :

« ليس هذا هو نفس الشيء . أليس كذلك ؟ كان يحب أن يضربنا بيده على مؤخراتنا . وكان بوجه خاص يحب أن يضربني أنا . لم أكن أحب أن أشترك كثيراً في اللهو مع أبنائه ، ولكنه كان دائماً يجد شيئاً ما يأخذه عليّ . »

« أتظنين أنه كان سادياً ؟ »

« ليس بالتحديد . لم يكن هذا إلا سبباً يتعلل به لكي أنزع سروالي ثم يضعني فوق ركبتيه عارية – الساقين والردفين . وكان باستطاعتي أن أشعر

بشهوته وهي تستثار بينما كان يفعل ذلك . »

قلت لها : « آمل أن تصدقيني حينما أقول إن كل هذا ليس مجرد حب استطلاع شهواني . إنني أحاول أن أفهم الجو الذي نشأ فيه أخوك . »

« أوه ، هذا مفهوم تماماً . لا يهمني الكلام في هذا الموضوع . اسألني عما تريد . »

« ألم ينته الأمر بعمك إلى اغتصابك حينما كنت في الثانية عشرة من عمرك ؟ »

« أعتقد أن بوسعك أن تصف الأمر على هذا النحو . »

وقفت لكي تعيد ملء كأسها . ونظرت بسرعة إلى كأسي نظرة تنم عن عدم الانسجام ، إذ أنها كانت ما تزال ممتلئة إلى منتصفها ، قلت :

« هل فعل ذلك أم لا ؟ »

قالت : « اسمع ، سأكون صريحة معك . إنك تدرك أنه ليس بيننا من هو ملاك . ونحن جميعاً نعرف الكثير عن الجنس في سن مبكرة . لقد خمنت السبب الذي كان يجعل الرجل العجوز أن يضربني على مؤخرتي ، رغم أن زوجته العجوز لم تكن تحب ذلك . ولقد أردته أن يعلم أنني عرفت ما كان يسعى إليه . وقد حدث في أحد الأيام . وكان بعد ظهر أحد أيام السبت ، ان عاد هو إلى البيت من مباراة كرة القدم ، ولم أكن قد انتهيت من غسل آنية المطبخ . كنت وحيدة في المنزل . وكان الجميع يتنزهون في الخارج . وبدأت المسألة بأن قال : « أظن أنك بحاجة إلى تنبيه شديد . إن حالتك تمضي من سيء إلى أسوأ ، وقد قررت أنك بحاجة إلى درس جيد » . قلت له : « طيب ، إنني أعرف ما سوف يحدث » ، ثم رفعت جونلتي ، إلى أعلى ، وجذبت سروالي الطويل الطفولي إلى أسفل . وكان بوسعي أن أرى كيف كانت رغبته تبدأ في التحرك . وجلس هو على أحد المقاعد ، وجذب حزام بنطلونه ، وجعلني أرقد على وجهي فوق ركبتيه . اسمع ، إنني لا أحب أن أضرب بالحزام . إنني لست محبة للأحاسيس . ولذلك ، فقبل أن يتمكن من أن يبدأ في ضربي ،

مددت يدي بين ساقيه ونخسته نخسة قوية في ذلك المكان . حينئذ كف عن التظاهر ، فوضع يده بين ساقي وقال : « أووه . إنك فتاة حلوة . » ثم أمرني بأن أجلس وقال : « اسمعي ، لو أنك وعدتني بألا تخبري أحداً فإني سأعطيك خمسة شلنات . تأخذينها وحدك . » قلت : « كلا . لن أخبر أحداً . » فقال : « إذن . تعالي إلى الغرفة العلوية » . ولم أكن قد تبينت بالطبع ما يريده على وجه التحديد . كنت أظن أنه لا يريد مني أكثر من أن ألهو معه قليلاً ، تماماً كما اعتاد جيم أن يفعل . تجمدت من الخوف حينما طلب مني أن أستلقي على الفراش ولكنني لم أشأ أن أجعله يشعر بخوفي . ظل يقول لي : « لن أوذيك . أعدك بهذا . » وكدت أموت حينما خلع ملابسه ورأيت مبلغ ضخامته . ولقد حاول هو من جانبه جاهداً أن يكون رقيقاً ، وأنا أعترف له بهذا . »

« ولكنه اغتصبك بالفعل . »

« كلا ، لم يتم هذا في تلك المرة . كان الألم قد فاق احتمالي فطلبت منه أن يتوقف ، فتوقف بالفعل ، وقد أعطاني الشلنات الخمسة أيضاً . »

أدهشني لحنها فقلت : « يبدو أنك ما زلت تحبينه ، رغم كل ما حدث . »

بدت عليها الدهشة هي الأخرى . وقالت :

« بالطبع ما زلت أحبه . ليس بوسعك حقاً أن تبغضه . لقد كان رجلاً من نوع لطيف حقاً . »

« ومتى كان بوسعكما أن تجدا الفرصة للانفراد معاً في منزل صغير إلى هذا الحد ؟ »

« كنا نجد هذه الفرصة أساساً في أمسيات أيام السبت . كان الأولاد والأطفال قد اعتادوا على الخروج في هذا الوقت دائماً لكي يلعبوا بالخارج . وكان جيم وتيد يعملان في توصيل الرسائل إلى أصحابها . وكانت العمة إلزي قد اعتادت على الخروج لكي تزور صديقتها في الشارع القريب . وكان من عادة العم ديك أن يذهب إلى الحانة حتى الساعة الثالثة ، ثم يعود ثملاً له

شطيرة . وكان من المعتاد أن يبكي إذا كان شديد السكر . »

« يبكي ؟ لماذا يبكي ؟ »

« كان يبكي بسبب شدة ما كان يشعر به من الخجل لما يفعله من الأشياء القبيحة مع فتاة صغيرة ، إلى ما هنالك من أشياء مشابهة . »

وحينما ضحكت قالت بجدية :

« أظن أنه كان يشعر حقاً بالخجل . أترى ، لقد كان رجلاً شديد النهم إلى الجنس . كما أن ... حسناً ، لقد رأيت العمة إلزي . لم يكن بوسعه أن يبتعد عني فحسب . كنت مثل زوجة بالنسبة له . وسوف تشتد دهشتك إذا عرفت كم كان بوسعه أن يكون لطيفاً وطيباً . كنا نذهب إلى الفراش معاً كل يوم سبت ، تماماً مثل زوجين قديمين . وكان ينالني في بعض الأحيان سبع أو ثماني مرات قبل أن يحين وقت العودة إلى ارتداء ملابسنا . وكان من عادته أن يقول إنه قد ادخر كل ما عنده طوال الأسبوع لهذه اللحظات . »

« كيف كان شعورك إزاء كل هذا ؟ ألم تشعري بالألم ؟ »

ابتسمت ابتسامة مترعة بالذكرى الحبيبة وقالت : « أوه ، في البداية فقط . أنا أيضاً نهمة جداً إلى الجنس . وكانت حالتي أفضل بكثير مع العم ديك مما لو كنت ألهو لهواً لا طائل وراءه مع صبي مراهق . »

« إذن ... فلم تكن لك أية علاقات مع صبيان مراهقين ؟ »

« حسناً ، ليس كثيراً ، ولم تكن مما يمكن أن تسميها بالعلاقات . من الطبيعي أنه كان هناك صبيان كثيرون في المدرسة أرادوا ذلك . وطالما أنك بدأت في الحصول على ذلك الشيء بانتظام ، فإنك تشعر بالرغبة فيه طول الوقت وعلى الدوام . ولم أكن أنا أحصل عليه إلا مرة واحدة في الأسبوع . وغالباً ما كان هذا المعدل نفسه يقل عن ذلك ، لأن الأولاد في الشتاء لم يكونوا يرغبون في الخروج للعب . ولذلك كان لا بد لي أن أخرج مع أحد الصبيان من حين إلى حين . وقد ضبطني العم ديك ذات مرة في مدخل المنزل ، وكاد أن يقتلني ، وأنا لم آلمه .

« ألم تشك العمة إلزي في الموضوع ؟ »

« أوه ، أظن أنها كانت تعرف طول الوقت ، وكذلك كان الأولاد الكبار ، لأنهم كفوا عن محاولة أن ينالوني . »

« أريد الآن أن أوجه إليك ... سؤالاً ... محرجاً بعض الشيء . »

قاطعتني وهي تضحك وقالت :

« إنك مضحك حقاً . إنك تشبه خورياً في كنيسة . »

كنت أرى أنها امرأة لا كوابح لديها تمنعها عن شيء . وربما كان الجين قد ساعد على ذلك . كانت في تلك اللحظة تشرب كأسها الثالثة . قلت :

« وماذا عن آرثر ؟ ماذا كان موقفه إزاء كل هذا ؟ »

هزت رأسها ببطء وقالت :

« كان هذا حقاً هو أسوأ ما في الموضوع . لقد عرف بالأمر . لقد دخل علينا ذات مرة حين كان العم ديك يقوم بمهمته معي في المطبخ . »

« تمارسان الجنس ؟ »

« حسناً ، ليس على وجه التحديد ... » كان من الواضح أن ثمة حدوداً لصراحتها . استمرت تقول : « لم يكن يمكنه أن يتركني بمفردي أو أن يبتعد عني : وكان يروق له أن يدخل يده تحت ملابسي وأن يجعلني ألمسه أيضاً . »

قلت بسرعة : « أرى ذلك . إذن فقد عرف آرثر بالموضوع . »

« أجـــل . »

« وكيف كانت نظرته إلى هذا الوضع ؟ »

« كان رد فعله سيئاً جداً فيما أعتقد . لقد شعر بالغيرة . ولكن كما تعرف لم يكن آرثر مثل بقية الصبيان . لقد كانوا نهمين إلى الجنس كالأرانب . أما آرثر فكان ... حسناً . أعتقد أنه كانت لديه أحاسيس جنسية ، تماماً مثلنا جميعاً ، ولكنه كان يشعر بالخجل من تلك الأحاسيس . كان — ماذا تقولون لها ؟ — طهوراً ... »

« تطهرياً ؟ »

« أجل . تلك هي الكلمة . »

« اسمع ، هذه قصة أخرى . إنك بالتأكيد تدفعني إلى الحديث . أليس كذلك ؟ »

نهضت لكي تشعل سيجارتها ، وحينما عادت للجلوس ، رفعت ساقيها على الأريكة . تمت هذه الحركة دون أن تكون الاثارة هي مقصدها ، ولكن لما كانت جونلتها قصيرة ، فقد كان من الصعب الا أتبين أن ساقيها كانتا جميلتين جداً . وجدتني أنظر إليها دون رغبة حقيقية . ولكن باهتمام عميق امتزج فيه الجانب الحسي بالجانب العقلي . كانت هذه الفتاة شبيهة بشخصية « مولي بلوم » التي أبدعها جيمس جويس في رواية « يوليسيز » : ذكية بطريقتها الخاصة ، حيوية ، وحسية بطريقة طبيعية . ولو أنني أردت أن أنام معها ، لما كانت قد نظرت إلى الأمر باعتباره عملاً آثماً من أعمال الخيانة الزوجية . ولكانت قد خلعت ملابسها لأجلي كما كانت تخلعها لعمها ، بصورة طبيعية ودون خجل . كانت بشكل طبيعي تقف في وضع أعلى من جاراتها ، بطريقتها الخاصة ، كما لو كانت قد ولدت كأميرة .

قالت :

« يمكنك أن ترى ، إنني كنت دائماً صورة من صور الأم بالنسبة لآرثر . كانت أمي تذهب إلى العمل حينما كان رضيعاً — فقد انضمت إلى الأعمال التي افترضتها الحرب حالما نشبت الحرب نفسها . ولذلك كنت أنا من ترعى آرثر وتعطيه قنينة الرضاعة . وأعتقد أنه قد ظن أنني أمه بالفعل . »

كنت قد بدأت أدرك ما حدث فجأة . كانت بولين هي الأم بالنسبة له ، وقد توجهت الفكرة الأوديبية عند آرثر نحوها وليس نحو زوجة عمه . ولذلك فحينما أصبح العم ديك عشيقها ، أصبح هذا الهدف الطبيعي لكراهية آرثر وإحساسه بالاحباط . قلت :

« لماذا غيرت موقفك من عمك وأصبحت ضده ؟ »

«أصبحت ضده؟ ولكني لم أفعل ذلك.»
«ولكنك قدمت الدليل الذي انتهى به إلى السجن.»
«كلا. لم أقدم أنا هذا الدليل. آرثر هو الذي قدمه.»
«ما الذي حدث على وجه التحديد؟»
«حينما ظهر علي الحمل، أبلغ هو ضابط شرطة الآداب بالموضوع.»
«أي ضابط لشرطة الآداب؟»
«الضابط الذي كان يأتي لرؤيته. كان آرثر دائماً يواجه المشاكل. كان تحت رقابة الشرطة بسبب اتهامه بالسطو. وقد أخبر ضابط الشرطة بأن العم ديك هو والد الطفل.»
«وهل كان هو والده حقاً؟»
«أظن هذا — على أي حال. لقد جاؤوا إلى المنزل — أقصد الشرطة، وأخذوه لكي يستجوب، ثم قالوا له إني تخليت عنه — وإني اتهمته بأنه والد الطفل. كانوا قد وضعوني في الحجرة الأخرى المجاورة مع اثنين من النساء العاملات في الشرطة. وهكذا اعترف بكل شيء.»
«وماذا حدث للطفل؟»
«وضعته في دار لإيواء الأمهات غير المتزوجات. ثم تبناه بعض الأفراد.»
«هل عرف عمك أن آرثر قد أسلمه للشرطة؟»
«لم يعرف هذا إلا بعد الحادثة بوقت طويل جداً. ولكنه كان يظن في البداية أن رجال الشرطة كانوا قد اكتشفوا أمر حملي وسمعوا بعض الشائعات.»
«إذن فقد كانت علاقتك به معروفة خارج نطاق الأسرة أيضاً؟»
«أظن هذا.»

اكتشفت فيها امرأة تدعو إلى الدهشة. كانت قد أصبحت عشيقة الوصي عليها وهي في الثانية عشرة من عمرها، وكانت قد عاشت في منزل ضئيل الحجم مع زوجة عمها وأبنائه — ويمكنني أن أتخيل جو المنزل حينما شرع العائلة في التحقق مما كان يجري — ولكن ذلك كله تركها دون خدش،

ودون أن تخرج أو أن تحمل احساساً دائماً بالمهانة. كان كل شيء بالنسبة لها طبيعياً بصورة ما. قلت لها:
«ولكن حدثيني عن آرثر. إنك تقولين إنه كان تطهرياً — أتعنين أنه لم يكن يشترك أبداً في الأعمال الجنسية؟»
«كلا، كان يشترك فيها... فلم يكن بإمكانه حقاً أن يتجنبها.»
«ولكنه لم يكن يشترك فيها إلا مع الأطفال الأصغر سناً؟»
انفرجت شفتاها في ابتسامة هادئة.
«أوه، كلا. إنما كان قد ثبت عينيه علي.»
«كيف تعرفين ذلك؟»
«حسناً، في البداية، كان يتعلق بي ببساطة في الفراش. فإذا كان عليه أن يذهب إلى الفراش قبلي، كان علي أن أعطيه واحدة من كراتي لكي يمسك بها أمام وجهه. وكان من عادته أن يبتهج بارتدائه ملابسي أيضاً. وحينما كان صغيراً جداً، اعتاد أن يطالبني باحتضانه طول الوقت — وكان يضع ذراعيه حولي ويقول لأبناء عمه: «إنها شقيقتي أنا. لا شقيقتك.» ثم يخرج لسانه للآخرين. ولكنه كف عن كل ذلك فجأة.»
«في أي سن كف عن هذه التصرفات؟»
«أوه، في حوالي السابعة أو الثامنة. لا أتذكر بالضبط.»
«في نفس الوقت تقريباً الذي عرف فيه بأمر العلاقة بينك وبين عمك؟»
«أعتقد أنه من الممكن أن يكون هذا قد حدث في نفس الفترة، أجل، ولكني لا أظن أنه كان يملك ما يفعله إزاء هذا الوضع.»
«ما السبب الذي دفعه حقاً في رأيك إلى أن يتغير؟»
«إسمع، إن الأطفال يتغيرون حقاً. أليس كذلك؟ أعني أنه لا يروق لهم أن يسخر منهم الناس وما إلى ذلك. إنه فقط لم يشأ أن يستعرض مشاعره أو أن يجعل الآخرين يصرخون عليه بعد ذلك. ولكنه أخذ يقترب مني في الفراش أكثر من ذي قبل، وقد كانت له في الحقيقة عادة مضحكة

كان يحاول أن يرقد فوقي. »

« أتصفين ذلك بأنه مضحك ؟ »

« أوه، لا أظن أنه كانت لذلك أية علاقة بالجنس. لم يكن هناك إلا أنه لم يكن قانعاً بأن يستلقي إلى جواري. كان يشعر بقدر أكبر من الأمان إذا كان يستخدمني كلاءة لفراشه، تماماً مثل الجلوس على ركبتي. وكنت أنا أنتظر حتى يغرق في النوم، ثم أسحب نفسي من تحته بهدوء. »

« هل ظهر عليه أي نوع من الاهتمام الجنسي بك ؟ »

ضحكت. وقالت: « حسناً، لقد ظهر عليه هذا النوع من الاهتمام فيما بعد. كان ذلك حينما بدأ يكبر قليلاً. اعتاد أن ينتظر حتى يظن أنني قد غرقت في النوم، ثم يحاول أن يتحسسني. أو أن يضغط بجسمه على جسمي. »

« وماذا كنت تفعلين ؟ »

« أبداً، لم أكن أريد أن أجعله يحزن. كنت أعرف أنه يشعر بالغيرة من العم ديك. ولذلك كنت أتظاهر بالنوم. ولم يكن هو يحاول أن يوقظني. وضع في اعتبارك أنني لا أقول إن الخطأ كله كان خطأه وحده. ولاتنس أنني كنت.. أعني، حسناً، أن بعض الأحلام كانت تنتابني. أترى ما أعنيه ؟ كنت أحلم بأنني في الفراش مع العم ديك، ثم تبدأ غرائزي في التحرك... »

للمرة الأولى في ذلك المساء ظهرت عليها بعض علامات الحرج، رغم أن هذه العلامات الأولى، لم تكن واضحة أو حادة. ومن ثم فقد غيرت الموضوع. قلت:

« كيف كانت علاقة آرثر بابنة عمه آجي، طالما أنه كان متعلقاً بك بهذه الصورة القوية ؟ »

« أنظر، لقد كان هذا الأمر مختلفاً. كما أن آرثر لم يبدأ في التغير إلا فيما بعد كما تعرف. كان قد أصبح بالغ الغرابة حينما اقترب من الثالثة عشرة من عمره. كان يقرأ تلك الكتب المهلكة طوال الوقت، وقد اعتاد أن يلتهمها التهاماً. كان يقرأ كل شيء عن القتل والتعذيب وما إلى ذلك من

أشياء مرعبة. كان هناك شيء يدعى « ماركو الساحر »، وقد اعتاد أن يستغرق طول الوقت في قراءة ذلك الكتاب. ثم حدث أن غادرت المنزل لكي أضع ذلك الطفل. ثم ذهبت إلى « بلاك بول » مع ذلك الرجل المتزوج، وعشنا معاً لمدة حوالي ستة أشهر قبل أن تقتفي زوجته آثاره وتكتشف مكانه. ثم عدت ثانية إلى وورينجتون، ولكنني نمت بعد عودتي في السرير الآخر، مع العمة إلزى، ولم يظهر آرثر السعادة لرؤيتي. كان قد أصبح بارداً تماماً ومتباعداً. وبدأ يستخدم كلمات كبيرة. أنظر: لدي صورة له في تلك المرحلة. »

أخذت تعبث في أحد الأدراج وأخرجت منه كراساً لحفظ الصور. فتحته وأشارت إلى صورة لآرثر كتبت تحتها عبارة: « آرثر — ١٩٥١ ». كان قد غير طريقة تصفيف شعره؛ بدا أن الشعر قد صفف بدهان « البريانتين » ومشط على الخلف بطريقة مستهجنة. كان وجهه قد صار أكثر نحولاً منذ طفولته. وكانت العينان الجاحظتان تحملقان في آلة التصوير. ومع هذا فقد بدت الصورة كما لو كانت الشرطة هي التي التقطتها. ومضت بولين تقول:

« لم أهتم بأحواله الغريبة — ولم أظن إلا أنه يكبر وأنه ينمو في السن والخبرة. ثم اكتشفت ما كان يفعله مع آجي. »

« ما الذي كان يفعله معها ؟ »

« تماماً كما قالت جين. كان يعاملها كأمة مسترقة. كان قد بدأ خدعة التنويم المغناطيسي معها. »

« أأنت واثقة من ذلك ؟ أعني، هل كان جاداً حقاً، أم أنها كانت مجرد محاولة لتقليد ماركو الساحر ؟ »

« أظن أنه كان جاداً. كان يعرف كيف يجعل لعبته تؤثر في آجي. »

« وهل حاول أبداً أن يجرب هذه الحيلة معك أنت ؟ »

« كلا. ولكنه جربها مع ألرت. وكان هذا هو أصغر الصبيان. »

« أليست لديك أية فكرة عن كيفية تعلمه لهذه الحيلة وكيفية وصوله إليها وتطبيقه لها ؟ »

« أجل . فقد جعل ألبرت يجلس ويضع يديه على ركبتيه . ثم أمره بأن يفكر بقوة ، أن يستغرق في التفكير في ركبتيه . وقال ألبرت إن ذلك يجعله يشعر بأن ركبتيه مضحكتان تماماً . وكان عليه أن يستمر في ذلك لمدة طويلة من الزمن . ثم راح يقول لألبرت إنه بدأ يشعر بالتعب ، فقال ألبرت إنه بالفعل بدأ يشعر بالتعب . ثم قال له إن ذراعيه أصبحتا أخف وزناً ، وأن وزنهما يزداد خفة باستمرار ، وأنهما يريدان أن يطفوا كالبالونات ، فقال ألبرت إنه لا يستطيع أن يمنعهما من الطفو كالبالونات . »

كانت هذه طريقة فنية استخدمتها أنا نفسي من قبل . ولكنني دهشت حين عرفت أنها كانت الطريقة التي استخدمها صبي في الثالثة عشرة من عمره . سألتهـا :

« حدثيني عن آجي . لماذا تقولين إنها كانت أمته المسترقة ؟ »

« لقد أجبرها هو على هذا الوضع . وقد أجبرها عليه حتى يستطيع أن يجعلها تفعل كل ما يطلبه منها . وقد جعله هذا شريراً رديئاً . »

« بأي شكل ؟ »

« كان يجعلها تفعل أشياء ... حسناً ، أشياء لا يجدر بأي إنسان مهذب أن يجبر شخصاً آخر على فعلها . »

« أتعنين أشياء جنسية ؟ »

« طبعاً ، أجل ، بشكل أساسي . ولكنه لم يجعلها تأتي هذه الأشياء معه هو فقط . وإنما مع أناس آخرين . »

« أي آخرين ؟ »

كان هذا ضوءاً جديداً يلقى أمامي على شخصية لينجارد . كنت أفكر به دائماً في صورة ذئب منفرد منقطع عن الآخرين . وكان عليّ أن أكرر السؤال عليها ، فقد كان هذا الموضوع مما تفضل ألا تتحدث فيه . قالت

« حسناً ، أظن أنه يجدر بي أيضاً أن أحدثك عن هذا الموضوع . كان أحد هؤلاء الآخرين هو ذلك الفتى — الرجل الذي هربت معه أنا إلى « بلاك بول » » .

كانت طريقتها في سرد القصة شديدة التماسك والاكتمال حتى ليبدو أنه من العسير علي جداً أن أعيدها هنا ، ولكن إليكم مادتها الأساسية . كان اسم الرجل « يوجين تيزلر » ، كان يمتلك مأوى للسيارات المؤجرة في « ستوك بورت » ويؤجر سياراته الخاصة . وكان متزوجاً وله طفلان ، ولكن هذا لم يمنعه من الاحتفاظ بسلسلة من العشيقات . أما بولين لينجارد ، فقد وعدها بالزواج قبل أن يأخذها إلى شقة في « بلاك بول » ، حيث عاشت لمدة تقرب من ستة شهور ، وكان عشيقها يزورها كل يوم تقريباً . وكان في ذلك الحين قد هجر زوجته . ولكن كمية المال التي كان مضطراً لأن يدفعها لاعالة الزوجة ، جعلته يقرر أنه سيكون من الأكثر بساطة أن يعود إليها ، وهكذا تم اقناع بولين بالعودة إلى ووربنجتون ، حيث استمرت في مقابلته . وذات مساء ، اشترك تيزلر وآرثر لينجارد في حوار ، وقامت بينهما صداقة متينة . وفي المساء التالي ، دهشت بولين ، حينما عرض تيزلر أن يأخذهما معاً لتناول عشاء صيني ، ومع آرثر وبولين ، وجهت الدعوة إلى ابنة عمهما آجنيس . ومع ذلك ، فان بولين لم تساورها الريبة حتى ذلك الحين ، وافترضت أن هذا التصرف ليس سوى مظهر من مظاهر الكرم البسيط .

كان المطعم معتماً ، وجلست آجنيس في الركن ، ولاحظت بولين أنها بدت شاحبة ومنتشية ، ولكنها ظنت أن مرجع ذلك إلى الخجل . وكان تيزلر وآرثر يجلسان حول آجنيس ، كل منهما على أحد جنبيها . وبعد فترة ، لاحظت بولين أن آجنيس يبدو عليها عدم الارتياح ، فسألتها إن كانت تريد أن تذهب إلى حمام السيدات ، واحمر وجه آجنيس وقالت إنها لا تريد ذلك وفيما بعد ، وفي أثناء تناول الطعام ، خلعت بولين حذاءها وأمدته

عن قدميها — وهي عادة كانت قد اعتادت عليها في المطاعم — فلمست قدمها شيئاً ناعماً تحت المنضدة. انحنت بولين لكي ترى هذا الشيء، وقد رفعت غطاء المائدة، وحينئذ دهشت حينما رأت أن آجنيس كانت عارية من الخصر إلى كل النصف السفلي من جسمها، وأن يوجين تيرنر قد وضع إحدى يديه بين ساقيها. وكان الشيء الملقى على الأرض هو سروال داخلي. وبطريقة بولين المباشرة، سألت عما كان يجري تحت الجحيم. فازداد احمرار وجه آجنيس وراحت تشد ثوبها إلى أسفل. ولم يفعل تيرنر إلا أن ابتسم ابتسامة عريضة وقال إنهم كانوا يتسلون قليلاً فحسب. ونهضت بولين ومضت خارجة من المطعم. وتبعها عشيقها وقال لها إن الأمر كله كان رهاناً بينه وبين آرثر الذي كان قد قال له إنه يستطيع أن يجعل آجنيس تفعل أي شيء يريده منها. وأنه (أي تيرنر) قد راهنه على أن آرثر لا يستطيع أن يجعلها تخلع سروالها في مطعم ثم ترفع ثوبها عن ساقيها.

وصدمت بولين — ولم يكن مصدر صدمتها راجعاً إلى «التسلية القليلة» بقدر ما كان راجعاً إلى ما تكشف لها من شخصية عشيقها. فقفلت عائدة إلى البيت. وعلى الفور قطعت علاقتها بتيرنر بعد أن أخبرتها آجنيس - تحت ضغط من جانبها - بأنهم قد ذهبوا بعد تناول الطعام إلى منزله بعيد حيث مارس تيرنر الجنس معها عدة مرات. وتشاجرت بولين أيضاً مع آرثر، وكفا عن تبادل الحديث.

«هل أجبرها آرثر على أن تسلم نفسها لأي شخص آخر؟»

«لم أعرف إلا بأمر شخص واحد، وهو شاب يدعى داجز».

«شاب آخر من النوع المراوغ الفاسد؟»

«أبداً. كان على العكس من هذا في الحقيقة. كان في أواخر عهده بالشباب. وكان قد دخل السجن وخرج منه عدة مرات طوال حياته. كان لوطياً عجوزاً قبيح المنظر وكان يسكن في الشارع المجاور. عجوز قذر، من النوع الذي قد يغري طفلاً ببعض الحلوى لكي يجلسه على ركبته

ويتحسس بيديه».

«وما السبب — في ظنك — الذي جعله يروق لآرثر؟ إلى درجة المودة؟»

«لا أعرف. اسمع، إنني لم أكن أتواجد هناك كثيراً في ذلك الوقت، كل ما أعرفه إن هذا الشخص قد وصل هو الآخر إلى آجني وفعل معها ما فعله تيرنر».

«هل أخبرتك هي بذلك؟»

«أظن أنها أخبرتني به. لا أتذكر حقاً».

تثاءبت. نظرت إلى ساعتي وتبينت أنها بلغت الثالثة بعد منتصف الليل. قلت لها:

«لم يعد لدي سوى سؤالين أو ثلاثة. ثم أتركك لتتمكني من النوم. هل صلح الأمر بينك وبين آرثر بعد المشاجرة؟»

«نوعاً ما. فقد أعطاني ذات مرة ساعة ذهبية جميلة. ولم أشأ أن أسأله من أين جاء بها».

«إذن فقد كان آرثر من مد يده بغصن الزيتون؟»

«أجل، بالطبع. هكذا كان الأمر دائماً. ألا ترى...» وترددت قليلاً ثم أضافت تقول:

«كان يشعر دائماً بذلك الشعور تجاهي».

«حتى فيما بعد؟»

«طبعاً. أجل. إنه لم يحاول أن يتكلم معي بعد أن تزوجت. لقد وصل حقاً إلى حالة الجنون. بل إنه هدد بقتلي». وتثاءبت ثم قالت: «ولكنني ضحكت منه وحسب».

«أتظنين أنه لم يكن قادراً على القتل؟»

«أوه. ليس هذا ما عنيته. وأنا لن أفاجأ إذا كان قادراً على القتل. إنني لم أصدق أبداً أن مسألة ذلك المزارع كانت مجرد حادثة غير مدبرة. لكنه ما كان يقتلني أنا».

« كلا . أعتقد أنه ما كان يقتلك » .

نظرت ثانية إلى صورة الزفاف ، كان هناك تاريخ تحت اطارها الداخلي : ١٠ يونيه ١٩٦١ . كانت قد تزوجت وهي في الثامنة والعشرين من عمرها ، وكان شقيقها في الثالثة والعشرين .

« وماذا حدث لذلك الرجل العجوز ، داجر ؟ » .

« لا أعرف . لقد مات . وأظن أنه انتحر ، لست واثقة » .

« يمكنني أن أكتشف ذلك . ماذا كان اسمه الثاني ؟ » .

« إيه ... انتظر حتى أتذكر ، انه اسم غريب .. تيبات ، أجل ، هذا هو » .

شعرت كما لو كان شخص قد صب على ظهري نهراً من الماء المثلج .

سألتها :

« أأنت واثقة ؟ » .

« أجل ، بالطبع . لا يمكنك أن تنسى إسماً كهذا » .

وقفت وقلت :

« من الأفضل الآن أن أتركك . لقد كان لطفاً منك ان سمحت لي بكل هذا الزمن من وقتك » .

« يمكنك أن تبقى الليلة إذا شئت . هناك فراش زائد » .

« لا أظن أن هذا سيكون هو الوضع الأحسن . قد يتكلم الجيران » .

« سيتكلمون على أي حال . لا يهمني هذا . أفكر أحياناً في أن من الواجب أن أحصل منهم على ضريبة ملاهي . أنا لا أعرف ما الذي سيفعلونه لو أنني هجرت هذا الاقليم . أوه ، طيب ، حان وقت النوم » .

ابتسمت ابتسامة حالمة ، وقوست كتفيها ، ولاحظت قوة ما يفوح منها من ايحاء جنسي . كان ما يثير الاهتمام فيها هو أنها رغم الفم الحسي والجسد الحسن التكوين ، فانها لم تكن « واضحة » . كان بها شيء بعيد ومكبوح لا يمكن الامساك به .

قلت بسرعة :

« أرجوك لا تقفي من أجلي . أشكرك مرة ثانية » .

ابتسمت ابتسامة عابثة ساخرة وأنا أسرع إلى الباب ، ولكنها لم تتحرك لكي تنهض . فتحت بنفسي الباب الأمامي ، وخرجت ثم أغلقت بهدوء . وحينما دخلت السيارة ، رأيت الضوء يلمع من وراء الستائر في نافذة حجرة النوم بالمنزل المجاور .

الفصل الرابع

وجدت النوم صعباً رغم ما كنت أشعر به من ارهاق. كانت أشياء كثيرة جداً قد حدثت بسرعة بالغة. إن آرثر لينجارد الذي كنت اكتشفه طوال الساعات الاثني عشرة السابقة بدا كما لو كان مقطوع الصلة بالمريض الذي عرفته في سجن «روزهيل». من الحقيقي أنني كنت بالفعل قد طرحت الاحتمال — الذي أكدته بولين لينجارد — القائل بأن قتل الفلاح العجوز لم يكن قتلاً على سبيل الخطأ، وإنما جريمة قتل متعمدة. وكنت بالفعل قد عرفت أن تحت السطح الساكن، الذي دفع طبيبين نفسيين إلى وصف آرثر لينجارد بأنه «تحت مستوى الذكاء المتوسط»، كان هناك عقل مدبر ورغبة قاهرة تطمع في القوة والتسلط. ولكن الحكايات التي قالتها بولين عن آجي أشارت إلى شيء أكثر خطورة بكثير — إذ بينت نزعة عدوانية عنيفة عنيدة. ومرة أخرى وجدت عقلي يتجه إلى جريمة قتل إيفلين ماركيز.

رحت أذكر نفسي بأنه ربما كان كل ذلك محض خيال من جانبي. كان آرثر لينجارد قد ولد وسط بيت مليء بالحنان والشعور بالأمن ينتمي إلى الفئة الدنيا من الطبقة المتوسطة، وبينما كان لا يزال طفلاً صغيراً، فصل عنوة عن والديه ودفع به إلى بيئة شعر إزاءها بالكراهية. وتحت تلك الضغوط كانت الشخصية التي تتمتع بأكثر فرصة للتطور والنمو هي الشخصية ذات الميول المعادية للمجتمع. وكان من الواضح أن مشاعره الداخلية قد تركزت حول شقيقته، من الناحيتين الجنسية والعاطفية في آن واحد. أما الآن وقد

رأيت بولين، فقد كان من السهل أن ألحظ جوانب الشبه بينها وبين الفتاة ذات الشبق الجنسي العنيف في رواية «صبي من لويزفيل». ولا بد أن آرثر قد أصيب بصدمة عنيفة — بعد ست سنوات من الحرمان الجنسي في السجن — حينما قرأ وصفاً داعراً لاغتصاب فتاة ذكرته بشقيقته، وكانت استجابته لذلك — وهي تلويث الكتاب بالبراز — في وقت واحد إشارة إلى الانتقام، وإلى العجز عن الامتلاك. وكنت على استعداد لأن أراهن بسمعتي العلمية على أنه قد بلغ ذروة جنسية حينما كان يقوم بهذا العمل. وقد ظل كل ذلك شيئاً أمكنني أن أفهمه، بل وأن أشعر بالتعاطف إزاءه. ومنذ أن قرأت التقرير النفسي التحليلي ذا الصفحات الثلاث الذي وضع عن حالته، سيطر الشعور بالتعاطف والاشفاق على أحاسيسي نحوه. لقد رأيت فيه ضحية للظروف بصورة أساسية. ولكن بدا لي أن كل ما عرفته في الاثني عشرة ساعة الماضية كان يتناقض بصورة جوهرية مع هذه النظرة البسيطة.

• • •

استولى علي النوم حتى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، واستيقظت وأنا أشعر بمزيد من الانتعاش. دفعت فاتورة الفندق. ذهبت إلى مقهى في المبنى المجاور لكي أتناول إفطاراً متأخراً. وجلست بعد ذلك وراء النافذة، أراقب حركة المرور في الشارع، وأسجل في الوقت نفسه بعض المذكرات التي ستدخل في تقريري عن حالة آرثر لينجارد. بدا لي الأمر أكثر وضوحاً في ضوء النهار. إن الطفل التعيس، الذي عاش في بيئة معادية، يلجأ إلى عالم من الخيال يصبح هو فيه ساحراً. ليس هناك شيء غير عادي في هذا. إن «إيان برادي» مرتكب جرائم منطقة «مورز» كان قد تأثر بأفلام «سوبرمان» وروايات رجال العصابات: ولكن ذلك لم يجعل منه مجرماً متفوقاً. ولقد تعلم آرثر لينجارد هو الآخر حيلة التنويم المغناطيسي — بأسلوب بالغ السذاجة — واستخدمها لكي يتسلط على ابنة عمه، ولكن آجي ليس من النوع الذي يمكن أن يصبح ضحية، وكان آرثر مسيطراً

بصورة طبيعية. كانت الرابطة التي جمعتهما مفهومة بما فيه الكفاية، وخاصة إذا وضع المرء في اعتباره الجو الجنسي المشحون الذي كان يشيع في المنزل. كان النموذج الموازي أو المقابل الذي ورد إلى ذهني بهذا الصدد هو «بيتر كورتين»، القاتل الجماعي في مدينة «دوسلدورف» الألمانية، الذي كان الفناء الخلفي لبيت أسرته أيضاً. أشبه بوكر أرانب شبقة تدور فيه علاقات الفسق بالمحارم والاختلاط الجنسي بين الأقارب الذين لا يحل أحدهم للآخر. ولكن رغبة كورتين في التفوق والتسلط حولته إلى سادي. ولم يكن هناك أي دليل على أن لآرثر لينجارد أية ميول سادية.

فما الذي ألح على ذهني إذن حينما حاولت أن أصور آرثر لينجارد بوصفه ضحية أخرى للحرب التي شنها هتلر؟ كان ذلك راجعاً - جزئياً - إلى حدس لم يتشكل بصورة نهائية يشير إلى رجل كنت أشرع في فهمه، وكان يرجع - من ناحية أخرى - إلى إحساس واضح بالقلق إزاء قضية إيفلين ماركيز. نظرت إلى خريطتي لكي أرى أي طريق يمكن أن أسلكه. وجدت أنني إذا سرت على الطريق الرئيسي رقم «٢٦٨أ»، إلى الجنوب تماماً من مستنقعات «ساد لوورث»، فإنني سأمر بالقرب من مدينة «ستوك بريدج» مسقط رأس إيفلين ماركيز ومحل سكناها. اتصلت هاتفياً بزوجتي وقلت لها ألا تتوقع عودتي حتى وقت متأخر. وأخذت أقود سيارتي إلى الشرق عبر جبال البيناين.

* * *

«ستوك بريدج» بلدة صغيرة جميلة، ويمكن ان تعتبر نموذجاً لمدن الغرب الانجليزي. أوقفت سيارتي بالقرب من قسم الشرطة وقدمت نفسي للجاويش القائم بالخدمة. لم يكن هو الرجل الذي خاطب فرانك ملبسوري منذ بضعة أيام. سألته إن كان قد اشترك في العمل في القضية فقال:

«طبعاً. لقد اشتركنا جميعاً، بقدر أو بآخر».

«هل تحتفظون بملف القضية هنا؟»

«كلا. إنه يحفظ في الرئاسة بمدينة شيفيلد».

طلبت منه أن يذكر لي ملخص القضية من وجهة نظره الشخصية، ولكن ما كان قادراً على أن يذكره لي لم يضف إلا القليل إلى ما كنت أعرفه بالفعل. لقد حدث ذلك في ليل أحد أيام الأحد، وكان فندق «جروف» مزدحماً. ولم يلق أحد كثيراً من الاهتمام لذلك الرجل الذي سأل أين يستطيع أن يحصل على سيارة أجرة. وأوصته موظفة الاستقبال في الفندق بأن يحاول الاتصال بمأوى سيارات ماركيز في شارع «لانجيت». وأخذته إيفلين ماركيز بسيارتها في الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة. واتجهت بالسيارة خارج البلدة باتجاه بلدة «دود وورث». وبعد ذلك بساعة كان رجل يركب دراجته البخارية بالقرب من «إيودين» فشاهد لهيباً لنيران مشتعلة. ورجلاً يجري مبتعداً عن سيارة كانت تقف على بعد عدة أقدام من الطريق. وذهب الرجل إلى السيارة فشاهد جسد امرأة شابة راقدة بالقرب منها وقد اختلت النار بملابسها. وأطفأ راكب الدراجة البخارية ألسنة اللهب. فرأى أن دماء المرأة كانت تنزف من جرح في مؤخرة رأسها. ووصل رجال الشرطة بعد عشر دقائق، ولكن على الرغم من أن سيارات الشرطة أغلقت كل الطرق المؤدية إلى منطقة المستنقعات والخارجة منها، فإن الرجل الذي شوهد وهو يبتعد عن السيارة قد أفلت ولم يلق القبض عليه. واكتشف فيما بعد أن الفتاة كانت قد تعرضت للاغتصاب. ثم اكتشف رجال الشرطة فيما بعد أن رجلاً عرف بتعرضه الجنسي للنساء، وهو من مدينة «ليدز»، كان موجوداً في «ستوك بريدج» في فترة باكرة من ذلك اليوم. وتعرفت موظفة الاستقبال في فندق «جروف» على صورته. ولكن تصادف ان استطاع الرجل أن يثبت أنه أمضى الليلة نائماً في مدينة «شيفيلد» فأخلى سبيله.

سألت الجاويش إن كان قد سمع عن مشتبه فيه آخر في هذه القضية يدعى لينجارد. فهز الرجل رأسه نافياً ذلك. كان يعرف أنه كان هناك عدد

آخر من المشتبه فيهم ، ولكنه لم يعرف عنهم شيئاً .

ولكنه تطوع بالاتصال بالمركز الرئيسي للشرطة في « شيفيلد » هاتفياً ، فدعيت للتوجه إلى هناك . واستغرقت رحلة الأميال السبعة نصف ساعة ، وأدخلت هناك الى كبير المفتشين « نيوتل » ، الذي كان مسؤولاً عن قضية « ماركيز » . كان يضع الملف أمامه في انتظاري ، وقبل أن أفتح الملف سألته :

« هل تتذكر واحداً من المشتبه فيهم يدعى آرثر لينجارد ؟ »

قطب جبينه وقال : « لينجارد ؟ لا أظن ذلك ... أوه . انتظر . أكان هو الفتى صاحب العينين الشبيهتين بعين الضفدعة ؟ »

« يبدو هذا الوصف قريباً منه » .

« أجل . ولكنه لم يكن من المشتبه فيهم حقاً . إن ما حدث هو أن موظفة الاستقبال في الفندق وصفت الرجل الذي سأله عن سيارة الأجرة بأنه ذو عينين بارزتين ووجه مستدير . وأوردت جريدة « يوركشاير بوست » هذا الوصف في صيغة أخرى فقالت « إن للرجل عينين جاحظتين ووجهاً مستديراً » وقد اتصل بنا جاويش الشرطة في « ناريس بورو » وقال إن هذا الوصف ينطبق على ذلك الفتى لينجارد . ولذلك فقد جئنا بصورة له وعرضناها على موظفة الاستقبال في الفندق ، فوافقت على أن الصورة تشبه "رجل الذي تحدثت إليه ... فاتصلنا بشرطة مانشستر لكي يأتوا به إلى هنا . ولكنه تقدم بعذر مقبول أثبت فيه أنه كان في مكان آخر ليلة الجريمة . ولا أتذكر ماذا كان ذلك العذر – وهكذا فقد أخلينا سبيله . كنا واثقين تماماً من أننا قد وضعنا أيدينا على الرجل المطلوب بالفعل . لماذا يثير هذا الرجل اهتمامك ؟ »

أخبرته باختصار بقصة الانهيار العصبي الذي أصاب لينجارد ، وعن محاولتي لاكتشاف ما كان يحاول أن يخفيه . فقال :

« حسناً ، أخشى ألا يكون بوسعي أن أساعدك في هذا الشأن . وأشك في أنك ستجد شيئاً في هذا الملف أيضاً » .

فتحت الملف اعتباطاً ، ومرة أخرى شعرت بالثلج ينساب على سلسلتي الفقرية . كنت أنظر إلى صورة لبولين لينجارد . ثم اكتشفت أنها لم تكن بولين حينما دققت النظر . كانت هذه فتاة تشبهها شبهاً ملحوظاً . رغم أنها لم تكن في مثل جمالها ودون حيويتها بكثير .

تركني كبير المفتشين لكي ألقي نظرة على الملف . رحت أقرأ الشهادة الطبية . قرأت فيها : « كان الجسد مرتدياً ثياب الفتاة الكاملة . ووجدت كل قطعة من الثياب في مكانها الصحيح . وعلى الرغم من هذا ، فبالكشف على العضو الجنسي للجسد ، وجدت آثار لسائل منوي . وعثر على آثار أخرى للسائل نفسه على مؤخرة القميص الداخلي الأمر الذي يدل على أن السروال الداخلي قد جذب إلى أسفل في أثناء عملية الاغتصاب . بينما تشير لطخة من الطين بالقرب من رباطه المطاطي إلى أنه ربما كان قد انتزع تماماً وأبعد عن الجسد . وكان شعر العانة أيضاً مشبعاً بآثار السائل المنوي وحينما تمت تعرية الجسد لفحصه قبل التشريح . اكتشفت آثار لأسنان فوق الثديين . ولكن حمالة الصدر لم تكن ممزقة . وكانت مؤخرة الجمجمة محطمة . ووجدت شظايا صغيرة في الشعر ، تدل على أنه ربما كان السلاح المستخدم زجاجة متحطمة من زجاجات الويسكي من نوع « فات ٦٩ » في المقعد الخلفي للسيارة . ولكن البحث عن بصمات الأصابع كان سلبياً . السبب المباشر للموت هو الخنق . وربما تم ذلك باستخدام الوسادة المغطاة بالقماش المطرز والتي وجدت في السيارة ، وقد تعرف والد الضحية على هذه الوسادة قائلاً إنها كانت تستخدمها لكي تعطي لمقعد القيادة ارتفاعاً إضافياً » .

لقد قتلت إيفلين ماركيز في ٢٨ يوليه عام ١٩٦١ – أي بعد ما يقرب من ثلاثة أسابيع من زواج بولين لينجارد ، التي كانت تشبهها . كانت في الثامنة والعشرين من عمرها ، أي كانت أصغر من بولين لينجارد بعام واحد . وقد راحت ضحية لاعتداء جنسي . ولكن الرجل الذي اعتدى عليها حمّل نفسه مشقة إلباسها ثيابها بعناية بعد أن تم الاعتداء . ثم أخذ نقودها وحوالي

جيبهين) وبعض الخواتم التي كانت في أصابعها ، محاولاً بذلك أن يجعل السرقة هي الدافع إلى الجريمة . وقد اكتشف رجال الشرطة هذه الخدعة ، وكان هذا الاكتشاف هو أحد الأسباب التي دفعتهم إلى الاشتباه في الرجل المعروف باعتداءاته الجنسية ، الذي كان من الطبيعي – لو كان هو الفاعل – أن يحاول اخفاء آثاره . ومن المحتمل أن يكون نفس الاكتشاف هو الذي أبعد الشكوك التي كانت تحيط بآرثر ليتجارد إذ لم يكن له سجل باعتباره متعوداً على القيام باعتداءات جنسية .

عاد كبير المفتشين ، فسألته إن كان من الممكن أن أستعير صورة إيفلين ماركيز ، ووعدته بأن أعيدها حينما أتمكن من طبع نسخة عنها . فقال :

« أجل ، وأرجوك أن تخبرني بالكيفية التي سيبدو بها رد فعل هذا الآرثر ليتجارد حينما يراها . ولا تنس أن هذا الملف ما يزال مفتوحاً » .

« سأبذل كل ما أستطيعه . وبالمناسبة ، أتعرف اسم رجل شرطة « نيس بورو » الذي أخبرك باسم ليتجارد ؟ » .

« كلا . لا أعرفه أنا . ولكن ربما كنت أعرف من يعرف اسمه » .

خرج وعاد بعد بضع دقائق وقال :

« إسمه الجاويش بينهام ، كان في ذلك الحين في رتبة « كونستابل » . »

شكرته وغادرت المكان . كان الوقت يمضي ، ولكن كان ما يزال أمامي شخص آخر أريد أن أزوره قبل أن أتخذ طريق عودتي إلى بيتي .

* * *

لم يكن الجاويش بينهام موجوداً في قسم شرطة « نيس بورو » . ولكن « الكونستابل » القائم بالخدمة أعطاني عنوان منزله حينما وضّحت له وظيفتي ، ووصف لي كيفية الذهاب إلى هناك . كان الرجل الذي قابلني على باب المنزل المتباعد عن جيرانه على مشارف البلدة ، أصغر سناً مما توقعت . وجعلني الأنف الأفطس والفك الثقيل العريض أتذكر كلاب « البول دوج » . كان قسم الشرطة قد اتصل به ليخبره بأني في الطريق إليه . قادني إلى غرفة

مشرقة ، تفتح نوافذها على الحديقة الخلفية ، وقدم إلي علبة من الجعة . ثار اهتمامي حينما لاحظت أن الكتب الموجودة على رفوف مكتبته لم تكن من الروايات المختصرة التي تصدر عادة في سلسلة « ريدارز دايجست » ولا من المجموعة الهابطة « مجتمع الكتاب » . كانت هناك كتب الدوس هكسلي وهيمنجواي وكتب جون جنثر التي تبدأ كلها بكلمة « داخل ... »

كانت النوافذ الفرنسية تفتح على مرجة خضراء ، وكان هناك طفلان جميلان يلعبان « الكروكيت » .

رددت له قصتي عن الانهيار العصبي الذي أصاب آرثر . وكنت قد حكيتها مراراً في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة لدرجة أنها كانت قد تركزت واختزلت إلى عدة جمل قليلة . قال بينهام وهو يطلق عليونه بأسنانه :

« إنني لست مندهشاً . وهذا ليس مفاجأة بالنسبة لي » .

« إلى أي مدى كنت تعرفه ؟ » .

« إنني أعرفه بما فيه الكفاية . كنا في نفس الصف في المدرسة » .

« هل عشت في وورينجتون ؟ » .

« نعم . لقد ولدت هناك . وكنت أسكن على ناصية الشارع الذي يسكن فيه آرثر ، في شارع بادجيت رود » .

كان هذا نموذجاً لاختلاف الخطوط لم ألحظه في حينه ولم أكن أتوقعه اتجهت مباشرة إلى السؤال الذي شغل عقلي طوال يومين :

« هل تظن أنه مجرم خطير ؟ » .

هز بينهام رأسه ، ودهشت للارتياح الذي شعرت به . قال :

« إنه يستطيع أن يكون كذلك . لو أن ظروفه كانت ملائمة . أنا أظن أنه من النوع الذي يمكن أن يكون مجرماً . إنه مغرم بالوحدة . وعلى شيء من غرابة الأطوار » .

« ما صورة غرابة أطواره ؟ » .

« إنه ليس غريباً إلى درجة كبيرة . ولكنه يترك لخياله العنان ويستسلم

اه . ولكنه ليس غبياً » .

دفعته إلى أن يزيدني تفسيراً . مضى يبحث عن الكلمات الملائمة . ثم وقعت عيناه على رف الكتب ، وقال :

« أتعرف هذا الكتاب ؟ » .

مد يده وتناول نسخة من رواية ألدوس هكسلي « اللحن واللحن المقابل » وقال :

« توجد هنا شخصية تماثل شخصية آرثر » . وفتح الكتاب وقال : « شخصية فتى يدعى سبندريل . هل قرأته ؟ » .

« منذ وقت طويل » .

« إنه يتمتع بنفس العقلية باستثناء أن آرثر ينتمي إلى الطبقة العاملة ، أما هذا الفتى فمن الأثرياء . إنه يريد أن يكون مجرماً عبقرياً . الذئب الكبير الشرير . ولكن ليس الأمر كله سوى استعراض » .

« ومع هذا فأنت تظن أنه قد يكون قادراً على قتل إيفلين ماركيز ؟ » .

« كان السبب في هذا الظن هو الوصف الذي جاءنا في ورقة التنبيه . وحالما قرأته ، وهو يقول إنه وجه مستدير وعينان جاحظتان — فكرت في آرثر » .

« هل تظن أنه كان يستطيع أن يرتكب هذا العمل ؟ » .

ظل يفكر بعناية قبل أن يهز رأسه . وقال :

« لم أعد أظن ذلك منذ أن عرفت أنها كانت جريمة جنسية . لقد كان في وسعه أن يقتلها في سورة غضبه لو أنها قاومته وهو يحاول سرقتها . ولكنني بشكل ما لا أظنه من نوع المجرمين الجنسيين » .

« لماذا ؟ » .

« الحق أنني لا أدري . ربما لأنه قد يظن أن مثل هذا العمل أقل من قدره . إلى جانب أن الفتاة لم تكن من النوع الذي يفضله آرثر . كان يفضل الفتيات الشاحبات جداً ، مثل ابنة عمه آجي » .

« أكنت تعرف هذه الحكاية ؟ وهل كان الكثيرون من الآخرين يعرفونها ؟ » .

« عدد قليل جداً في المدرسة . لقد كان يحاول دائماً أن ينوم الناس مغناطيسياً . وقد حاول ذات مرة أن يجربها معي ، ولكنه لم ينجح . وأنا لا أصدق أنه نجح في تنويم أي شخص آخر ، على أي حال . ليس بالصورة التي كان يتكلم بها » .

« ولم لا ؟ » .

« حسناً ، كل الناس يعرفون أنك لا يمكن أن تخضع للتنويم المغناطيسي إذا لم تكن تريد ذلك . وأنا لا أعرف ما الذي فعله مع بعض من تلك الفتيات ، ولكني لا أصدق أن الأمر كان على ذلك النحو » .

« أكانت هناك أخريات إذن ؟ » .

« كذلك كان يقول . ولكني لم أعرف إلا واحدة » .

« ومن كانت ؟ » .

« حسناً ، طبقاً لما كان آرثر يقوله — وأنا لا أقول إنني أصدقه — كانت زوجة أحد مدرسينا ، وهو رجل يدعى مستر جروز . كان يدرس الألعاب الرياضية . أما زوجته فكانت تدرب الصبيان الأكبر سناً على الموسيقى . كانت امرأة شاحبة ضئيلة الحجم ، ولم تكن جذابة جداً ، من النوع الذي لا يمكن أن ينافس أي مخلوق أو أن يستلفت نظر أحد . وقد فكر آرثر في أنها يمكن أن تكون من النوع الذي ... ماذا تسمونهم ... القابلين للخضوع للتنويم . كان المدرس وزوجته يسكنان في « ويلدس » واعتادت الزوجة أن تأتي بالقطار . على أي حال ، لقد قال آرثر إنه ينوي أن يسافر معها بنفس القطار لكي يرى إن كان يستطيع أن ينومها . وقد قلت له إنه يتحدث دون عقل ، ولكن جاء ذات يوم وقال إنه قد فعلها — أي أنه قد نومها في القطار . وقلت له إنني لا أصدقه ، فأجابني : « حسناً . لا تصدق » . وقد رأيته يسير إلى محطة القطار معها مرة أو مرتين ، ولذلك فقد ظننت أنه أقام معها

نوعاً من الصداقة في القطار ».

« ألم يخبرك بالمزيد ، بأي شيء آخر ، عنها ؟ »

« كلا . كان يعرف أنني لن أصدقه . »

« ولكن ماذا زعم بعد هذا في روايته لك ؟ ولماذا أراد أن يومها ؟ »

« حسناً ، كان هدفه هو الهدف المعتاد ، أعني ، وهذا هو ما قاله — وهي أنه قد ذهب إلى منزلها وأخذها إلى الفراش . لقد كان أكبر كذاب عرفته في حياتي . »

« هل زعم فعلاً أنه نام معها ؟ »

« هذا هو ما قاله . إذا سمحت لي أن أقول فانه ليس من المستحيل تماماً أن تسعى فتاة ما من نوع معين إلى أن تذهب إلى آرثر . ولكنني بصراحة لا أظن أنه حدث أي شيء بينه وبين مسز جرورز . »

« وماذا حدث لها بعد ذلك ؟ »

« حسناً من المضحك تماماً أنها طلقت من زوجها . وكانت الشائعة المنتشرة في المدرسة هي أنها قد أصبحت باحثة عن الرزق . »

وحينما رأى أنني لا أفهم هذا التعبير قال موضحاً :

« بالتسول . لا أعتقد أن هناك مستحيلاً . »

« ألا تظن أنه كان لآرثر علاقة بهذا الطلاق ؟ »

« كلا . أنا واثق تماماً أنه لم تكن له أية علاقة بهذا الأمر . ولم تكن هذه سوى واحدة من خيالاته الصغيرة . لقد كان يجب أن يؤثر علي لأنني كنت رئيس فريق « الكريكيت » . وقد كان يجب أن يقول إن أصحاب الشعر البني لا عقول لهم . »

صدر عنه صوت ينم عن الضيق ، وراحت عيناه تحومان حول رفوف الكتب ثم قال :

« لم أكن أستطيع أن أتحمله . وكان يعرف أنني أظن فيه البلاهة . »

« كيف كان رد فعلك حينما عرفت أنه قبض عليه بتهمة السطو ؟ »

« أوه ، كما تتوقع تماماً . كان يعيش دائماً وسط مشاكل من نوع ما كانت لديه أفكار كبيرة ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يحقق شيئاً منها . »

لم أشأ أن أشير إلى ان هذه النقطة تتناقض مع ملاحظته السابقة التي قال فيها بأنه من الممكن أن يكون آرثر ليتجارد مجرماً خطيراً ، لو أن ظروفه كانت مناسبة » . ولذلك فقد شكرته ، وصافحته ، وانصرفت .

• • •

غمرني احساس بالسلام والرضا بينما كنت أقود سيارتي في طريق العودة إلى « هارتلبول » عبر أضواء الغسق الصيفي . كان الجاويش بينهام قد أعطاني جزءاً هاماً من لغز الخطوط المتقاطعة — رغم أنه لم يكن يعرف هذا . لقد بدأت جلستي معه بأن وجدته فرداً مقبولاً . متوسط الذكاء من أفراد الشرطة البريطانية ، صلب ورقيق وأكثر استثارة مما يدل مظهره . ولا شك أن كل هذا كان حقيقياً بما فيه الكفاية . ولكن احتقاره المزمن لآرثر ليتجارد كان نوعاً من الاستعراض . كان هناك شيء ما في ليتجارد حمله على الشعور بالقلق العميق . ومن الواضح أنه كانت ثمة صداقة من نوع غريب بينه وبين ليتجارد . أكان هذا بدافع من تجاذب الأضداد ؟ إن ليتجارد يترك أثراً في الشعور لا يمحى . فبعد عشر سنوات من مزاملة أحدهم للآخر في المدرسة . يظن بينهام أن وصفاً معيناً لأحد القتلة يتشابه بشكل غامض مع شكل ليتجارد . كانت هذه رمية من مسافة بعيدة ، ولكنها كانت تستحق المحاولة . ولم تكن بدافع من مجرد الحقد الخبيث ، ولكن لو أنه كان مصيباً ، لكان في ذلك نصر له ، واثبات لوجوده . ثم بعد ما يقرب من عشرين سنة ، تظل الكلمة الموجعة « إن ذوي الشعور البنية لا عقول لهم » تدوي في أذنيه . وفي الحقيقة ، لقد كانت « المعرفة الضئيلة » التي يتمتع بها بينهام أسوأ بكثير من عدم معرفة شيء على الاطلاق . لم يكن من الصواب القول بأن الناس لا يخضعون للتنويم المغناطيسي اذا كانوا يرفضون ذلك . أما الحقيقة فهي أن كل ما يعتمد عليه التنويم هو أنه يقلب الارادة ضد نفسها . وهذا هو السبب في أن الأذكياء

من الناس يكونون أكثر قابلية للنوم من الأغبياء. فإنك إذا قلت لرجل غبي إن قدمه اليسرى «مثملة». فإنه ببساطة لن يصدقك. أما الرجل الذكي فإنه لن يصدقك هو الآخر ولكنه يعرف أن «اقتراحك» قد يثير ذلك الاحساس بالتنميل، ومن ثم يبدأ جزء من عقله في مقاومة ذلك التأثير، بينما يشرع الجزء الآخر من العقل في الاستسلام لايحاء التنميل.

لقد تفاخر آرثر لينجارد بأنه يستطيع أن ينوم زوجة مدرسه، ثم أخبر بينهام فيما بعد بأنه قد نجح في ذلك. ثم كف بعد ذلك عن الكلام في الموضوع. وقد فضل بينهام أن يصدق أن صمت زميله كان راجعاً إلى أنه لم يكترث بأن يستمر في الأكذوبة. وتساءلت إن كان من الممكن أن نضع احتمالاً لتفسير آخر: أن آرثر لينجارد قد اكتشف فجأة قيمة الصمت. فالتفاخر ميزة الفاشل. ورغم أن لينجارد قد وثق في بينهام وأسر له بقدرته على التنويم، فان بينهام أشاح عنه بوصفه غبياً وكذاباً. وربما كان هذا هو ما أراده لينجارد، على المدى الطويل.

• • •

كان اليوم التالي مزدحماً. فقد كان علي أن أقوم بعدة لقاءات كنت قد ألغيتها في اليومين السابقين، وكانت هناك مريضة معينة كثيرة الالحاح، اعتبرت غيابي هجراناً لها، وكان علي أن أهدئها وأن أخرجها من حالتها الهستيرية. اتصلت بالسجن هاتفياً في أول فرصة أتيحت لي، وسألت عن لينجارد. فقالوا لي إنه لم يكن أسوأ ولا أحسن مما تركته، باستثناء أنه أصيب بنوع من الحمى الجلدية المؤلمة. وكان دائم السؤال عني، فطلبت منهم أن يبلغوه رسالة مني أقول فيها إنني سوف أراه في وقت متأخر من هذا اليوم.

كان من الغريب بالنسبة لي أن أراه مرة ثانية، فانني طوال اليومين الماضيين كنت قد تعودت على آرثر لينجارد آخر غيره، شاب ساهم واجم كثير التفكير، تتملكه أفكار الجريمة والجنس. بدا لي أكثر نحافة بقليل مما رأيته آخر مرة، وكانت يداه ملفوفتين بالضمادات فلا يظهر منها إلا أطراف

أصابعه. وكان وجهه محمراً تحت غطاء من البثور الصغيرة الشبيهة بالدمامل.

بدا عليه السرور لرؤيتي، ولكنه لم يسألني أين كنت. انتظر حتى أصبحنا بمفردنا ثم قال:

«إنهم يفترون، وهذا هو السبب الذي جعلني أمتلىء بهذه البقع.»

«ما مدى انتشارها على جسمك؟»

«في كل مكان.»

«الأفضل أن تخلع ملابسك لكي أراها.»

كان الأمر كما توقعت تماماً. فقد كان بطنه، وأعضاؤه التناسلية، وباطن فخذيه، مغطاة تماماً ببثور حمراء قبيحة المنظر. وكان عضوه التناسلي وخصيتاه مصبوغين بمحلول النترات الأحمر الفضي، فبدت كما لو كانت لوحة سيريالية. أما باطن فخذيه فكان متقيحاً، وقد ملأ الصديد بثوره. سألته:

«ما السبب في هذه البثور في تقديرك؟»

«الأشعة الآكتية.»

«والآن اسمع يا آرثر. إنك تعرف من العلوم ما يكفي لكي تعلم أن هذا مستحيل. الأشعة الآكتية هي الأشعة العادية في حزمة الضوء التي تؤثر على لوحة التصوير الفوتوغرافي. وهذه الحجرة مليئة بذلك النوع من الأشعة طوال الوقت.»

قطب جبينه ونظر إلى يديه.

فجأة طرأت على ذهني فكرة عشبة سخيفة. قلت:

«من الذي صبغ عضوك الخنثي بنترات الفضة؟»

«المرض العطي، بيري مال.»

«وأنت الذي طلبت منه ذلك؟»

«أجل.»

«ولماذا تصبغ عضوك فقط؟ لماذا لم تصبغ كل بطنك أيضاً؟»

«لأنه كان «يأكلني» وكنت أريد دائماً أن «أهرشه».»

بدا لي أن شكوكي كانت بعيدة المرمى ، ولكنها لم تكن مستحيلة . إن نيترات الفضة هي العنصر الذي يتأثر بالضوء في لوحة التصوير الفوتوغرافي – أي يتأثر بالأشعة الآكتية . فهل حاول أن يستخلص فكرة سخيفة عن احتمال أن تقوم نيترات الفضة بمقاومة تأثير الأشعة الآكتية ؟ كانت البثور تعبر عن نوع من الاضطراب العميق المرتبط بأعضائه التناسلية ، ثم يمكن لتأثير الأشعة الآكتية على نيترات الفضة أن يكمل تنكره الذي يريده . أكان هذا هو مسار تفكيره ؟

سألته عن أحلامه ، فأخبرني بخلاصة بعض الأحلام المرعبة عن الأشجار المتحركة والديناصورات . كتبت خلاصة كل تلك الأحلام ورحت أسأله :

« أليست هناك أحلام أخرى ؟ وماذا عن النساء ؟ ألم تحلم بأي شيء عنهن ؟ »

قطب جبينه وشعرت بأنه يحاول أن يمنع عني شيئاً من أحلامه . قلت :

« لا بد أنك تحلم بالنساء أحياناً »

غمغم بشيء بدا لي أنه « طبعاً » فقلت له :

« احك لي واحداً من هذه الأحلام . »

« لقد ضربتني بالسوط . »

« أين ؟ »

« تحت هنا . » وهومت يداه عند منطقة أسفل معدته .

« على أعضائك التناسلية ؟ »

« أجـل . »

« كيف كان شكلها ؟ صفها لي . »

نظر إلى يديه ولم يقل شيئاً . اجتاحني شعور بأنه كان يحاول الحفر داخل دماغه لكي يخفي شيئاً ، أو لكي يستخرج شيئاً من الأعماق .

« هل كانت قوية ضخمة الحجم ؟ »

« كـلا . »

« إذن كانت ضئيلة الحجم ؟ صغيرة وشاحبة ؟ »

« أجـل . »

« هل كانت هي ابنة عمك آجي ؟ »

نظر إليّ بسرعة . توقعت أن يسألني كيف عرفت ، ولكنه لم يقل شيئاً واكتفى بأن صرف نظره عني سريعاً : قلت :

« كانت تشبهها . أليس كذلك ؟ »

« قليـلاً . »

أطلقت تنهيدة الارتياح . كان هذا نوعاً من التقدم . لقد سمح لي بالدخول إلى عالم طفولته . وكانت توقعاتي الحدسية تتطابق الآن . إن ابنة عمه آجي – أو واحدة أخرى من النساء اللواتي ابتزهن وسيطر عليهن – قد ضربته بالسوط على أعضائه التناسلية . كان الماضي ينهض الآن من مكمنه حيثما كان هو في لحظة هزيمة وتراجع . ذلك أنه كان قد اقتحم السنوات وعبرها عبوراً سريعاً ، كان قد انطلق إلى الأمام دون روية ، باعتباره رجلاً يعرف هدفه . وكان عقله اللاواعي الآن يعلن تمرده ، المخاوف التي كبتها داخله ، كل شعور بالألم كان قد رفضه ، كانت الآن تمسك بخناقه وتطبق عليه .

شعرت بأن هذه هي اللحظة المناسبة لي لكي أتقدم ، باحثاً عن ثغرة أنفذ منها . جذبت مقعدي لكي أصبح أكثر قرباً من فراشه وقلت :

« اسمع يا آرثر . لقد حانت اللحظة المناسبة لكي تفهم ما يحدث الآن لك . لقد كنت ذئباً منفرداً طوال سنوات عديدة . كنت تقف في جبهة تعترف لا تستشير غير نفسك . وأنت تشعر الآن بأنك تفقد قوتك ، وكل مخاوفك المكبوتة تنهض الآن لكي تبرز من لا وعيك . وهذا هو السبب في هذه البثور . وليس الحرس الأسود . ليس هناك أي حرس أسود . »

قال بهدوء : « كيف تعرف ؟ »

« اسمع . لا بد لك أن تفهم . إن الطريقة التي تتحدث بها سوف تؤدي بك إلى انهيار كامل . لقد ظللت تقف وحيداً لمدة طويلة جداً . أليس كذلك ؟

لأنك «لم تجرؤ» أبداً على أن تضع ثقتك في أي مخلوق. أليس هذا صحيحاً؟»

نظر إلي بسرعة، ولكني استطردت أقول:

«ولكنك أصبحت الآن ضحية لاوعيك أنت، ولا بد لك أن تتعلم أن تثق بشخص ما.»

كان الآن قد خفض بصره وراح يحدق في يديه المفرودتين فوق غطائه، كما لو كان تلميذاً صغيراً يسمع توبيخ مدرسه وتأنيبه. سألته:

«هل تعتقد أن بوسعك أن تثق بي؟»

تردد قليلاً قبل أن يقول:

«أجـــل.»

«حسناً. إذن عاملني كما تعامل الطبيب الذي يحاول أن يعاونك ويأخذ بيدك. لا تفكر في كما لو كنت شخصاً يعمل لصالح القانون. يمكنك أن تخبرني بما تشاء، تماماً كما لو كنت قسيساً. وسوف يكون كل ما تقوله لي سراً بيننا.»

رأيت زاوية فمه تلتوي بابتسامة واهنة. عرفت أن هذه هي لحظة المقامرة الأعظم خطراً. مقامرة يمكن أن تؤسس بيننا اتصالاً أكثر عمقاً، أو أن تدمر كل اتصال بيننا. فجأة كان علي أن أواجه حقيقة أنه قد أصبح هاجساً متسلطاً علي: وأنه «لا بد» لي أن أفهمه. وضعت يدي على كتفه، متجاهلاً اجفاله التلقائي. وقلت:

«سأقول لك شيئاً يثبت أنني أقول الحقيقة صادقاً. إنني أعرف أنك قتلت عامداً إينوش بنسون (الفلاح الذي حكم عليه بالسجن بسبب قتله على سبيل الخطأ كما اعتقد المحققون والاتهام). وأنا أعرف أنك قد قتلت عامداً هذه الفتاة.»

أخرجت صورة ايفلين ماركيز من جيبي وألقيتها أمامه على الفراش.

كان بوسعي أن أرى التأثير الضخم الذي ولدته الصورة، رغم أنني لم أكن أستطيع أن أرى وجهه. بدأت اليدان ترتعشان. وحينما رفع رأسه، لم تلتق عيناه بعيني، وإنما ثبتا على أزرار سترتي. ظهر وجهه كوجه المريض

بلونه الرمادي. استطردت قائلاً بسرعة:

«وأنا أعرف أيضاً حكاية مسز جروز، زوجة مدرس التربية البدنية في المدرسة. كان علي أن أعرف عنك كل هذا لأنني طبيب، وعملي ووظيفتي هو أن أعرف سبب مرضك.»

جلست على الفراش، وأعدت وضع الصورة في جيبي. وقلت:

«إنها تشبه شقيقتك بولين. أليس كذلك؟»

ارتجف وجهه، وبدا عليه كما لو كان يوشك أن ينفجر في البكاء. ولكني مضيت قائلاً:

«ولكن لا شيء يوجب أن تنزعج بسببه. إذا كان علي أن أساعدك، فلا بد لي من معرفة كل شيء. لماذا لا تخبرني بكل شيء بصراحة؟»

حينما نظر إلي كانت عيناه كابيتين. وكانت عبارته التالية جافة تماماً ومنطقية.

«... ثم أمضي ما تبقى من حياتي في السجن؟»

«أنا طبيب نفسي، ولست شرطياً. إنني مهتم بما يدفعك إلى اتيان هذه الأعمال. وأنا أريد أن أفهم الطريقة التي يعمل بها عقلك.»

كان هدفي من هذه الجملة الأخيرة هو أن أتملق غروره، ولكن وجهه ظل خالياً من أي تعبير. وضعت يدي على ساعده وانحنيت إلى الأمام وقلت:

«لا يمكن أن يستخدم ضدك أي حديث تدلي به إلي. إنك غير عاقل من الناحية القانونية في هذه اللحظة.»

طرق على الباب أحد الممرضين، كان قد أحضر الشاي. كنت أجد دائماً أن تناول الطعام أو احتساء المشروبات مع المرضى يؤدي إلى تخفيف شعورهم بالعداء إزاء طبيب السجن. شكرت الممرض ورحت أصب الشاي لكلينا، وفي نفس الوقت رحت أراقب ليجارد من ركن عيني. وحينما ناولته قدح الشاي، كانت يداه ترتعشان إلى درجة أنني اضطررت إلى وضع القدح على المائدة الصغيرة المجاورة للسرير. كان بوسعي أن أحس الصراع الذي كان

يدور داخله في تلك اللحظة . كانت خمس سنوات من السجن قد حطمت مقاومته حتى أصبح لا بد له أن يتراجع إلى داخل نفسه ، إلى عالمه النفسي الداخلي المغلق والغامض ، لكي يتجنب أن يثق بشخص ما . ولقد جعله أنا بعي هذه الحقيقة ، وكنت أقدم له الآن بديلاً لها . كان كل ما أعرفه عن تحطيم التوتر الإنساني يدلني على أنني لا بد أن أنجح ، فاما ذلك ، وإما أن يتراجع إلى مستوى أكثر عمقاً من عالمه النفسي الكثيف ، حيث لا يمكن أن يصل إليه أحد .

طرأت لي فكرة أخرى . قلت :

« لقد كنت تفكر في أن تولي «تيبات» ثقتك . أليس كذلك ؟ كنت تريد أن تجعله صاحب سرك وموضع ثقتك ؟ »

جفل هذه المرة ولكنه لم ينظر إلي . حدست فجأة أنه قد انزعج ، كنت أعرف الكثير جداً . جلست على مقعدي ، ورحت أرتشف الشاي ، ثم قلت :

« هناك شيء واحد ، هو ما يربكني . بعد أن اغتصبت إيفلين ماركيز ، لماذا ألبستها ثيابها ثانية ؟ ألم تكن تعرف أن الطبيب الشرعي كان سيبحث عما اذا كانت قد اغتصبت ؟ »

قال : « كيف تعرف أنها قد اغتصبت ؟ »

جاء سؤاله هادئاً مليئاً بالتعقل دالاً على حسن التفكير . فلو أصغى إلينا الآن أي شخص ، لما كان باستطاعته أن يخمن أن هذا الرجل كان يتحدث عن الأشعة الآكتية والحرس الأسود . قلت :

« لقد أثبت تقرير الطبيب الشرعي ذلك . »

« كيف تعرف أنها لم تكن تصاحب شاباً من أصدقائها ؟ »

« لم يكن لها صديق خاص تصاحبه . لم تكن قد خرجت مع رجل أبداً منذ هجرها صديقها وتزوج فتاة البار التي تعمل في فندق جروف . وحتى لو كان لها عشيق لا يعرف بأمره أحد ، فانه ما كان يستطيع أن يجامعها في ذلك المساء . فقد كانت راقدة في فراشها طول النهار بسبب صداع شديد . »

لم يقل شيئاً . قلت :

« حسناً . اسمح لي بأن أخمن . لقد اغتصبتها لأنك كنت تتخيل أنك تغتصب شقيقتك . ولكنك لم تكن تريد أن تخمن شقيقتك رغبتك الحقيقية . كنت تخشى أن ترى بولين صورة الفتاة في الصحف فتخمن أنك أنت المغتصب القاتل . ولذلك فقد حاولت أن تجعل الأمر يبدو كما لو كان سرقة . أذلك هو السبب ؟ »

مد يده لكي يتناول قدح الشاي ، ورأيت أن يده كانت قد كفت عن الارتجاف . وقبل أن يلمس القدح شفتيه ، قال :

« هل تعرف بولين بما حدث ؟ »

اجتاحتني موجة ارتياح هائلة جعلتني أشعر للحظة بالدوار . لقد ربحت .

* * *

قال : « هل تحدثت مع بولين ؟ »

« أجـل . »

عرفت الآن أنه كان عاقلاً ، لكل الأغراض العملية الممكنة . كان قد مد يده على طولها ، وأمسك ثانية بأجزاء شخصيته التي كانت قد أفلتت منه خلال سنوات السجن . إن قدرة الإنسان على التفكير العاقل لوظيفة من وظائف إرادته إلى حد كبير ، ووظيفة من وظائف إحساسه بوجود غرض محدد . إنه يصبح « نفسه » إلى أقصى حد حينما « يشد أجزاء نفسه بعضها إلى البعض » ، حينما يركز إرادته نحو بذل مجهود من نوع ما . فاذا كان هناك رجل يتمتع بارادة قوية ، ثم كف فجأة عن استخدامها ، فانه يصبح مريضاً عقلياً ، تماماً كما يصاب بالسمنة والترهل الرجل الرياضي الذي يكف فجأة عن ممارسة رياضته . إنه يصاب بنوع من سوء الهضم العقلي ، باحساس الاحتراق الداخلي للقلب ، بشعور بأنه لم يعد قادراً على السيطرة على نفسه . ولكنه طالما ظل يرفض أن يقلع عن هذه السيطرة ، فانه يظل عاقلاً من الناحية الجوهرية . لقد أصيب الراقص نيجنسكي بتوتر عقلي جعل من الصعب أن يعيش معه أحد ،

ولكنه لم يصبح مجنوناً بالفعل حتى أرسل والدا زوجته بعض الرجال حاملين قميص المجانين إلى غرفته بالفندق. ولما ارتدى قميص المجانين، قبل بفكرة أنه لم يعد عاقلاً، ومن ثم فقد سقط فريسة الانقباض العصبي. أما آرثر ليجارد فقد ظل طوال سنوات مغلقاً نفسه على نفسه لا ينفتح على أحد سواه، رافضاً أن يقبل بالهزيمة، محتفظاً بجمود إرادته حتى سقط عقله مريضاً من التعب. وحينئذ بدأ نوع من جهاز ميكانيكي للأمان في العمل، لكي يسمح له بأن يموضع مخاوفه بأن يجسدها في صورة أعداء غير طبيعيين، الحرس الأسود. كان بوسع الارادة حينئذ أن تنام، والشخصية المتصلبة أصبح بإمكانها أن تسترخي. ولكنه واجه الآن نوعاً مختلفاً من الخطر – الأحلام الغريبة التي تأتي حينما تتحلل الحقيقة. إن نومه المليء باليقظة كان نوعاً من أنواع التجمد العقلي، وقد تحول عقله الى مستنقع، بركة من الماء الآسن العطن.

كنت قد أعدته إلى آرثر ليجارد، وكنت قد قدمت له فرصة للافلات من العذاب العقلي السيطرة. قد يكون من غير المفهوم لماذا قرر أن يثق بي، بينما كان قد عرف أن هذه الثقة قد تعني أن يفقد حريته بصورة دائمة، ذلك أنه لا بد كان يعرف أن وعدي له باحترام ثقته إنما هو وعد في اطار حدود معينة. فأنا بوصفي موظفاً حكومياً، لا يمكن أن يكون بوسعي أن أسمح لرجل بالعودة إلى المجتمع بعد أن أكون قد عرفت أنه قاتل مختل العقل فقد توازنه. ولكن لا بد أن نتذكر أنه كان رجلاً مريضاً، رجلاً أصيبت حياته العقلية كلها بالتسمم. وكان جديراً بعمل إرادي واحد – وهو اتخاذ القرار بأن يوليني ثقته – فانه قد يستطيع أن يجفف مستنقعه العقلي، وأن يهرب من التوتر العصبي الذي كان قد شل قواه طيلة سنوات.

ولقد اتخذ القرار، ولكنه لم يضعه موضع التنفيذ على الفور. كانت عادة الانغلاق والتحفظ قد أصبحت بالغة القوة. وأدركت أنا هذا، فلم أبذل أي مجهود لاجباره على أن يبوح بما عنده. تركته يتكلم، وشجعته على أن يتكلم، ولم أبذل أي جهد حقيقي لتوجيه تيار حديثه، عارفاً بأنه كان يحاول أن

يكتشف طريقه الخاص لتخفيف التوتر.

بينما كان يشرب شايه، سألته:

«لماذا تكره شقيقتك؟»

«لقد أخلت بوعدها.»

صمت ثانية فانتظرت صامتاً أنا الآخر، دون أن أبذل محاولة أخرى لدفعه إلى الكلام. وبعد قليل بدأ يتحدث:

«قبل أن يعود «دادي» إلى «آلين»، جعلها تقطع وعداً على نفسها أن تعتني بي. قال لها: «عديني بأنك سوف تولين آرثر عنايتك مهما حدث. هل تعدين بذلك؟» وقد قالت بولا: «أعدك بهذا، وأقسم على ذلك». ولكنها لم تفعل. لقد حفظت وعدها لفترة قصيرة، ثم نسيت كل شيء.»

«ولكنكما كنتما ملتصقين جداً حينما كنتما صغيرين.»

«أجل، في بداية اقامتنا في وورينجتون بعد ذهابنا إلى هناك. كنا ملتصقين جداً.» وقفة طويلة، صمت مشحون. ثم: «كانت فتاة جميلة»... سكتة أخرى، امتدت هذه المرة لخمس دقائق أو أكثر. ثم: «كان دادي غبياً ما كان يجب أن يدعنا نذهب إلى هناك.»

أخذ يبحث عن الكلمات المناسبة، ثم قال:

«لقد... سحقني هذا، هرسني هرساً. كان بوسعي أن أفعل أي شيء كي أستطيع أن أكتفي ببولا. وكان يمكنها أن تكتفي بي. لو أننا قد تركنا وشأننا، لسار كل شيء على ما يرام. لم تكن تراودني منها أية أفكار سيئة. ولكن سار كل شيء منذ البداية في الطريق الخطأ، وازداد كل شيء سوءاً. لم تشأ الحياة أن تعطيني شيئاً على الاطلاق. ماتت أمي في البداية، ثم مات أبي. لم يكن قد بقي لي إنسان سوى بولا.»

رأيت أنه كان منساقاً إلى حالة من الاشفاق على الذات، وكان هذا، من وجهة نظري، شيئاً ممتازاً. إن الاشفاق على الذات شعور من مشاعر العقلاء الأساسية، طريقة لتحقيق نوع من التوازن الوجداني، وسيلة من وسائل

التطهير واحراق الخبائث الداخلية . قلت :

« أجل ، لقد مرت بك فترة عفنة تماماً نتيجة لهذا . أظن أن الحرب هي السبب . »

« كان بمكننا أن نكون في وضع أفضل في لندن ، أو في « سوري » أو « دورسيت » . فطالما كنا سنبقى معاً ، فان كل شيء سيسير على ما يرام . كنا كلانا جديرين بأن نكون على خير ما يرام حتى لو كانوا قد وضعونا في ملجأ الأيتام . »

كان بوسعي أن أرى أنه كان يردد شيئاً كان قد فكر فيه كثيراً : كيف كانت ستبدو الحياة لو أنهما لم يرسلا للاقامة في ووربنجتون . رأيت ما يرمي إليه وأدركت مغزى كلماته . كانت بولين هي كل ما يحتاج إليه . كانا جديرين بأن يشعرا معاً بالسعادة . لقد كان طفلاً عاطفياً وحساساً لم يطلب سوى أن يحبه الناس وأن يسمح له بأن يحب . قلت :

« حدثني عن تلك الأيام الأولى في ووربنجتون . خبرني بكل ما تذكره من التفصيلات . كم كان عمرك حينما ذهبت إلى هناك ؟ »

« أربع سنوات . كانت بولين في التاسعة . »

« أخبرني بكل ما تذكره . ماذا كانت أول انطباعاتك عن بيتك الجديد ؟ »

قليلاً قليلاً ، وببطء شديد ، خرج منه الكلام . كان يتحدث بتردد شاعراً بالحرج ، وفي بعض الأحيان كان يجاهد للعثور على الكلمة المناسبة ، وأحياناً كان جهاده هذا يستمر لعدة دقائق . قاومت الاغراء الذي كنت أشعر به لكي أدفعه إلى الكلام بصورة أسرع وأكثر انطلاقاً لأنني كنت قادراً على أن أرى كم يتعذب لكي يبوح بما انطوى عليه . كان يتحدث وقد أغمض عينيه محاولاً أن يبعث كل شيء من جديد في داخله وهو يستحضر كل تلك الذكريات ، ولكي يستحضرها بدقة . وكان العرق ينضح من جبهته وينصب على وجهه وعنقه .

إن ما كنت أحاول أن أفعله كان أمراً بالغ الخطر ، وكنت مدركاً لهذا

باستمرار . كانت الفترة الأخيرة من حياته كلها رد فعل مضاد لطفولته ، ضد مشاعر العجز والغيرة والاشمئزاز ، وكان قد خلق لنفسه شخصية خاصة من أجل التعامل مع تلك المشاعر : شخصية عدو المجتمع ، الشريد المتمرد الذي يأخذ ما أراده . أما الآن فكانت تلك الشخصية قد انهارت . كان مثل رجل ظل يقيأ حتى انقلبت امعاؤه وتقيأها وأوشك على الموت والاجهاد . وكنت أنا من يسأله أن يستعيد ذكرى الوجبة التي جعلته يتقيأ مذاقها . هذا هو السبب الذي كان يجعل العرق ينضح من كل بقعة في وجهه بينما كان يتحدث عن طفولته . كانت كل جملة تخرج منه كما لو كانت تسحب بعنف مؤلم من أحشائه لكي تتصلب تحدياً على شفتيه كما لو كانت عربة يد قديمة ملئت بكتل الاسمنت . لكنه كان قد وصل إلى نقطة اللاعودة . وكان مثل رجل يحاول أن يصطنع في نفسه الشجاعة اللازمة لكي يبتر الكف التي سممتها « الغنغرينا » في ذراع سليمة .

الفصل الخامس

حينما ذهب آرثر لينجارد لأول مرة إلى شارع بينكيث لكي يقيم هناك ، كانت رائحة السمك تفوح من المنزل . كان اللحم نادراً في السنة الثانية من الحرب . أما البحر فلم يكن يبعد أكثر من بضعة أميال . كانت رائحة السمك المسلوق الواهنة المقززة هي الرائحة التي ظلت تحوم فوق طفولته . وكان من سوء حظ آرثر أنه كان يمقت السمك بطبيعته ، ولم يكن يأكله أبداً حينما كان طفلاً في لندن .

وبعد خمس دقائق من وصوله إلى المنزل مع بولين (حيث تركهما والدهما الذي كان قد منح اجازة استثنائية) عوت صفارات الانذار من الغارات الجوية ، وأخذت خطوط الأشعة البيضاء للأضواء الكاشفة تذرع السماء في أشكال هندسية . وهرع عشرة منهم — ثلاثة كبار وسبعة أطفال — إلى الملجأ من طراز « أندرسون » — الذي كان قد أقيم في الفناء الخلفي للمنزل ، وراحوا يصغون إلى صوت قاذفات القنابل . وتعلق كل من آرثر وبولين بالآخر ، وكان آرثر يشعر بالنعاس بعد الرحلة الطويلة ؛ وكان بوسعه أن يسمع حديث بولين مع ابنة عمه ماجي التي كانت تماثلها في العمر (وقد ماتت في عام ١٩٤٨) وهما يبحثان أمور العرائس ، بينما غرق هو في النوم على حجر شقيقته . وبعد ساعات ، سمعت صفارة الأمان ، فاستيقظ وهو يرتجف من البرد ، وحمل إلى المنزل ، ثم إلى الطابق العلوي حيث كانت غرفة نومه الجديدة المشبعة برائحة سمك « القد » المسلوق . كان الفراش بارداً ، وقد طار النعاس من عينيه . كان الصبيان الأكبر عمراً ، جيم (في الثانية عشرة) وتيد (في الحادية عشرة) يقفان لينظرا من نافذة حجرة النوم ، متطلعين إلى

الأفق الذي يصطبغ بحمرة النيران . لم يكن هناك نور في حجرة الأطفال — وكان هذا يوفر الستائر اللازمة لمنع تسلل النور إلى الخارج بالاضافة إلى توفير ثمن الكهرباء — ولكنه كان يستطيع أن يرى ما في الغرفة بوضوح على ضوء النار . كانت مدينة ليفربول-دوكس قد عاشت ليلة من أسوأ لياليها . وفي الصباح كانت السماء المترامية إلى الغرب سحابة ملتوية من الدخان .

لم يحب آرثر أبناء عمه ، ولم يحبوه هم أيضاً . وقد قابلت أنا « تيد لينجارد » بعد عدة أسابيع ، فقال لي إن آرثر كان ولداً قد دللته أمه يصرخ ويعوي حينما لا يخلى بينه وبين ما يريد . لم يستطع أبناء العم لينجارد أن يصلوا إلى التعاسة الوجدانية التي عاشها آرثر بسبب خسارته لأمه ، وبسبب اختفاء والده . أما آرثر فقد وجد أن أبناء عمه يخلون منه موقف الرفض والعداء . وكان عليه أن يختزن قدراً كبيراً من طاقته بسبب جاذبيته الجسدية وحيويته . وكانت ابنتا عمه شاحبتين كالمرضى . وكانت تفوح من ماجي رائحة قبيحة ، بسبب التهاب مستمر في إحدى أذنيها . أما ألبرت الذي كان يصغره بعامين ، فكانت على إحدى عينيه بقعة بيضاء ، وكان عرضة لنوبات الصرع . كان تيد وجيم ولدين أحمقين يميلان إلى الصخامة . لهما أسنان أمامية كبيرة وشفاه منفرجة على الدوام ، وكان فيهما شيء أخافه دائماً . وقد دأب ألبرت على التهكم منه لأنه « طفل بكاء » وكان لديه ما يبرر تهكمه . ظل يبكي طوال أسابيع بعد رحيل والده ، حتى نفد صبر العمة إلزي نفسها وبياتها الطيبة . وبعد ما يقرب من أسبوع حاول العم ديك تجربة التعامل مع كثرة بكائه وصرخاته بأن خلع حزامه الجلدي العريض من حول وسطه لكي يجلده به . كانت هذه هي المرة الأولى التي ضرب فيها في حياته . وقد باغته الضرب وصدمه لدرجة أنه أنساه البكاء .

زارهم والده في عيد الميلاد التالي . ولكن آرثر ، في فترة الشهور الثلاثة ، كان قد اعتاد على بيئته الجديدة ، غير أن رؤية والده أثارت فيه اشتياقاً قوياً إلى العودة إلى لندن الاقامة عند جدته . توسل وبكى ، وقال له إن العم ديك

يضربه بحزامه . وغضب والده والرعب وشعر بالارتباك ، وتحدث مع أخيه حديثاً طويلاً . وحينما قرر الرجل قال : « والآن كن ولداً طيباً ، وربما أصبحت قادراً على الذهاب للاقامة عند جدتك لفترة من الزمن . » وطوال أسابيع ظل آرثر يشعر بالارتياح لتلك الفكرة . وذات يوم حينما كان يتوقد غضباً دون جدوى ضد ألبرت وتيد - اللذين كانا يدعوانه « الطفل البكاء » - قال لهم إنه سرعان ما يغادرهم إلى الأبد لكي يعيش مع جدته . وقال ألبرت : « أوه ، لا . لن ترحل ، لأنها ماتت . ماتت في غارة جوية » . واندفع إلى زوجة عمه حينما عادت إلى البيت من عملها لكي يسألها عن صحة ذلك . وأجابته : « أخشى أن يكون ذلك صحيحاً » . هكذا أغلق في وجهه طريق الهرب . وبدأ يبلل فراشه . وعاد العم ديك إلى ضربه بالحزام .

كان من الصعب أن أجعله يتحدث حديثاً متصلاً دون ثغرات حول هذه الفترة الباكرة من حياته . كان يصمت ثم يبدأ الحكاية من أولها مرة ثانية ، ويتناقض مع ما سبق أن رواه ، وفي النهاية بدأ صوته يخشوشن ويصاب بنوع من « البحة » الأمر الذي رجحت أنه بدافع نفسي زائف . اشتكى من بعض التنميل في حلقه ، وكان يصل حتى تنساب الدموع من عينيه . كانت هذه الأعراض تقل إذا جلست أنا في الطرف البعيد من الحجرة ، كما لو كان حضوري هو السبب في المشكلة . حاولت أن آتي له بجهاز للتسجيل يعمل بالبطاريات الكهربائية ، وطلبت منه أن يسجل ذكرياته على الشريط ، ولكنه لم يسجل على الشريط سوى سلسلة من الغمغمات المترددة .

وجاءت الثغرة التي انطلقت منها مصادفة . فقد كنت كتبت لبولين لأطلب منها أن تكتب ذكرياتها عن طفولتها وكل ما تستطيع أن تتذكره عن آرثر . وبعد أسبوع بعثت إليّ برسالة تقع في ثلاثين صفحة ، مليئة بالذكريات والحكايات والأمثلة . كتبت تلك الحكايات بالآلة الكاتبة : كل حكاية على صفحة مستقلة من الورق ، تاركة سطراً خالياً تحت كل سطر مكتوب ، وتاركة نصف الصفحة خالياً . سلمت تلك الأوراق إلى آرثر ليحاول ، وطلبت منه

أن يضع ما يراه من التصحيحات والتعليقات . وحينما عدت في اليوم التالي ، كان قد ملأ صفحة بعد صفحة بخط يده المدبب غير المتعلم . (ومع تقدم العلاج أصبح هذا الخط أكثر انتظاماً ولكنه حافظ على شكله المدبب) . كان قد بدأ بتصحيح حكايات بولين ، ثم قرر أنه قد يكون من الأسهل أن يكتب نسخته الخاصة من نفس الحكايات . وكانت النتيجة تفصيلية إلى درجة مدهشة ، مليئة بالأسماء ، وبسطور حقيقية من الحوار ، وذكريات عما كان قد رآه بالفعل أو شعر به بالتحديد . لقد برزت بسرعة بالغة صورة واضحة للأحداث السياسية في طفولته .

قبل وصول بولين وآرثر ، كان أبناء العم الخمسة ينامون على نفس السرير الكبير في حجرة الأطفال ، أما بعد وصولهما فقد انتقلت ماجي وألبرت لكي يناما على سرير صغير من أسرة المعسكرات في حجرة والديهما . وأخذ آرثر وبولين مكانيهما على السرير النحاسي الكبير . كان هو ينام على طرف بين بولين وآجي ، أما جيم وتيد فكانا ينامان على الطرف الآخر . ومن حين إلى حين ، كان يسمع بولين أو آجي وهي تقول : « كف عن هذا » ثم تنسحب قدم أحد الصبيين مبتعدة عن جسد الفتاة التي صاحت ، وكان هو يفترض دائماً أن أحد الصبيين مولع « بتعليبهما » بالركل والرفس .

وكان ألبرت يعجب إعجاباً شديداً بأشقائه الكبار ، وخاصة جيم . وقد قال لآرثر : « إن جيم أكبر عضو في المدرسة » فسأله : « وكيف عرفت ذلك ؟ » فأجابه : « لقد سمع كل الفصل ذات يوم وأخرجوا أعضاءهم وقام مستر بلدمي « جوني » بقياس أعضائهم بمسطرته . وكان عضو جيم هو أكبرها » . وقد امتلأ آرثر شعوراً من النوبير المدهم بالغثيان والاشمئزاز [illegible] تصوره لمدرس يمسك مسطرة ، ويقيس طول أعضاء مجموعة أطفال بعصبيها . ولاحظ أيضاً مشاركة ألبرت اهتمامه بأعضاء الذكور التناسلية قد ذاك [illegible] الاشمئزاز ، وحينما كان ألبرت يتحدث بإعجاب عن ... وهو من اللعب على الشاطئ مع الصبيان الآخرين ، والسماح لهم برؤية عضوه ، كان آرثر

يخجل ويشمئز . ولم يكن بوسعه أن يرى من أين تأتي المتعة في مثل هذا اللعب .

ولم يكن قد مر وقت طويل على وصوله مع بولين إلى وورينجتون ، حينما سافر عمهما مع زوجته إلى خارج المدينة في سيارة عامة على أن يتغيبا طول اليوم ، تاركين الأطفال الصغار في رعاية تيد وجيم . كان آرثر يلعب في سلام بمكعبات البناء حينما تبين أنه وحيد مع ألبرت . وسأل أين كان الآخرون . جعل ألبرت عينه الخبيثة تبتسم وقال : « يلعبون لعبة الأطباء والممرضات » . سأل آرثر : « أين ؟ » فأجابه ألبرت : « لن يمكنك الدخول إليهم . إنهم لا يريدون الأطفال الصغار . » . صعد آرثر إلى الطابق العلوي وطرق بعنف على باب حجرة عمه المغلق . صاح به صوت جيم : « اذهبوا بعيداً لا يمكن دخول الأطفال . »

قال آرثر : « أنا أريد أن أدخل . » وبدأ يركل الباب ويصرخ .

قال جيم : « وهو كذلك . ولكن لا بد أن يجلس هادئاً في أحد الأركان . »

هكذا سمح له بالدخول . كانت آجي راقدة على السرير ، وقد حلت أزرار قميصها . راقب آرثر ما كان يجري أمامه بافتتان . وكذلك فعلت بولين التي كانت هذه اللعبة جديدة عليها . اقترب تيد ، حاملاً حقيبة من حقائب السوق – وكان المفروض أن هذه هي حقيبة الطبيب السوداء ، وقال :

« والآن ، ما هي المشكلة ؟ مم تشكو ؟ »

قالت ماجي التي كانت تقوم بدور الراهبة الممرضة : « إنها تشكو من الاغماء المستمر يا دكتور . »

قال الطبيب : « أتوقع أن تكون مصابة بنوع من الربو . سرعان ما سنعرف حقيقة الأمر . »

حل تيد ما تبقى من أزرار القميص وقال : « اخلعي هذا . » ثم جذب قميصها الداخلي إلى أعلى ، وجعل يخبط على صدرها بقطعة من الخشب ، متسمعاً صوت الضربات من الطرف الآخر ثم قال : « لا شيء هنا . »

ظلت آجي راقدة في سلبية وهي تنظر إلى السقف ، بينما قال تيد :

« سوف نختبرها . »

أمرت بولين بأن تفحص « أحد » الساقين ، بينما أخذ تيد الساق الأخرى . توالت الضربات وأنواع التربيت على سماني ساقي آجي وفخذيها . ثم قال تيد : « أعتقد أنه من الضروري أن تخلع هذا . » وأشار إلى جونلتها ذات الخطوط المتقاطعة على الطريقة الاسكتلندية . حلت آجي « سوستة » جونلتها ثم خلعتها . ورقدت في مكانها بقميصها الداخلي القطني المخطط ، وظل الجزء العلوي من القميص تحت إبطيها . تسمع تيد أصوات معدتها ، وأعلن أن مصدر المرض لا بد أن يكون من مكان آخر ...

بعد نصف ساعة ، كانت قد أجريت خلالها جراحة لماجي لاستئصال زائدتها الدودية ، تم اقناع بولين أخيراً بأن تساعد على خلع ملابس جيم . وفجأة بدأت تنكص عن الاستمرار وقالت : « لا أريد أن أستمر في هذه اللعبة . » وعمل الآخرون جميعاً على استثارة غريزتها الرياضية ، حتى سمحت لنفسها أخيراً بأن تقتنع .

توقع آرثر بثقة أن بولين سترفض أن تتخذ مكانها على الفراش . كانت إذا قررت أن تفعل شيئاً ، فما من قوة على الأرض تستطيع أن تقنعها . وراح آرثر يتعجل قيام المناقشة التي ستدور حول هذا الموضوع ، وكل أبناء عمها يصفونها بأنها مفتقرة إلى الروح الرياضية ، وبولين تهز رأسها بعنف وتقول لهم إنها لا تهتم بما ينعتونها به ، وتقسم قائلة : « فلتهشم العصي والحجارة عظامي ، إن أنا فعلت كذا وكذا ... »

حينما ارتدى جيم ملابسه ثانية قال : « هيا يا بولين ، هذا دورك الآن . » ونظر آرثر منتظراً رفضها . ولشدة دهشته ، هزت بولين كتفيها ، ثم صعدت إلى الفراش .

صاح آرثر : « لا تسمحي له بأن يفعل ذلك يا بولين . » نظر إليه جيم وتيد شزراً في لحظة واحدة ، وصاح به جيم : « اخرس أنت . » وتحقق آرثر من أنه قد يطرد من الغرفة إذا خضع لرغبته القوية في الصراخ ، فبقي مكانه

ساكناً ، متعجباً ، لماذا كان قلبه يتألم في صدره ، بينما انحنى تيد وجيم فوق شقيقته ، يفحصانها بتدقيق .

ورغم شعوره المتزايد بالبؤس والضيق ، فان آرثر لم يستطع أن يمنع نفسه من الاحساس بالفخر لأن جسد شقيقته كان أجمل من جسدي ابني عمه . كان تيد يقول : « أجل ، إن ما نحتاج إليه هنا ، هو قطعة من المرهم » . وفي اللحظة تقيأ آرثر . تقيأ الطماطم التي كان قد تناولها في طعام الافطار ، وتقيأ الخبز المقدد والنعق المشوي اللذين كان قد أكلهما منذ ذلك الحين ، وانسال بعض القيء فوق رأس آرثر ، أما الباقي فقد انسال فوق الفراش ، بينما كان ألبرت يصرخ فيه بعنف . أما الآخرون فكانوا في حالة استغراق كامل لدرجة أن عقل أحدهم لم يكن حاضراً لكي يرفع رأسه فيلتفت إلى ما يجري . جلست بولين ، وهي تبعد اليد عن فخذيها وقالت : « اذهب الى المرحاض يا آرثر ، بالله عليك ! »

بذلك انتهى اللعب لهذا اليوم . شعر ألبرت وآجي بالغثيان بسبب رائحة قيء آرثر . أما بولين فقد مسحت الفراش وأرضية الحجرة ، ثم أمضت فترة ما بعد الظهر أمام وعاء كبير مليء بالماء والصابون تحاول أن تخلص الملاءة والغطاء من رائحة القيء . وأخيراً ، وقبل نصف ساعة من موعد وصول الوالدين إلى البيت ، سألهم آرثر — الذي كان قد استعاد توازنه الوجداني وسط العاصفة التي تسبب هو فيها — سألهم لماذا لم يقلبوا الغطاء ببساطة على وجهه الآخر . لم يكن أحدهم قد فكر في هذا . قال جيم باكتئاب إن هذا ما كان يؤدي إلى أي فرق ، لأن الملاءة كانت مبتلة ، ولكن بولين ، التي اكتشفت الآن طريقاً للخلاص ، اقترحت أن بوسعهم أن يستبدلوها بالملاءة الموجودة على سريرهم . كان هذا معناه أن يمضوا ليلة غير مريحة ، ولكنه أفضل من أن يكتشف أمرهم . ونسي أمر ضيقهم من آرثر . وشرعوا يعملون في عجلة ، فقلبوا الحشية الكبيرة على وجهها الآخر — التي لم تكن قد ابتلت إلا بللاً خفيفاً من ناحية حافتها السفلي — ثم غيروا الملاءة وارتفعت عنهم كآبتهم

وزال قنوطهم . وكان الجميع يشعرون — باستثناء آرثر — بأن الكارثة لو نما من الحكم نزل بهم جزاء إثمهم ، أما الآن فان الحكم قد رفع ، وأصبحوا جميعاً سعداء ثانية . أما بالنسبة لآرثر ، فقد انتهى اليوم على صورة أفضل من بدايته . ولكنه حينما رقد على السرير ، واقترب من بولين ، طرأت له فكرة ما يرقد على بعد بوصات قليلة من يده ، وشعر بالغثيان مرة أخرى . بدا أن شيئاً مضراً ومخيفاً قد دخل حياته ، وقد أثار هذا الشيء في داخله احساساً ربطه هو ربطاً طبيعياً بالديدان والقاذورات . لقد أراد أن يحمي بولين من هذا الشيء ، وأن يتأكد من أنها لن تمر مرة أخرى إلى هذا المستنقع من الروحة المسعبة والشر . ليست هناك علاقة لأبناء عمه بفخذيها وبطنها : على هذه الأعضاء أن تظل مخفية بشكل مهذب تحت غطاء الريون الرقيق الذي كان معلقاً بأحكام عليها في تلك اللحظة

. . .

لقد كرست مساحة كبيرة لما كان — على أي حال — مجرد لعبة طفولية رثة . فليس هناك أي دهشة في أن يكون للأطفال بعض الفضول بالنسبة لأعضائهم التناسلية ، تماماً مثلما عرف ذلك سكان جزر المحيط الباسيفيكي الجنوبية . إنه فضول من الأصح تشجيعه . ولكن آرثر ليجارد كان في الرابعة والنصف من عمره ، وكان بريئاً براءة غير عادية حتى بالنسبة لسن الرابعة والنصف . كان لديه بالفعل إحساس بأن في أبناء عمه شيئاً خبيثاً مظلماً ، شيئاً خبيثاً ومروعاً . وقد أصبحت لديه الآن صورة مثلة تجسد مخاوفه . لقد كان آرثر لسجارد [illegible] بالغ العاطفة . ولكن عواطفه لم تكن متعاقبة [illegible] مقدرة . كانت عواطفه من نوع المشاعر التي [illegible] كانوا [illegible] في كتاب [illegible] العصر الرومنسي العاصف [illegible] ومشاعر عفو [illegible] ، وقد [illegible] في أنه في [illegible] الأولى [illegible] انفعالات عاطفية عنيفة دون سبب واضح [illegible] . كان معناه [illegible] الحظ على [illegible] كان يفكر في

الهواء ، مخاوف غريبة ملحة كانت تجعله يشعر بالغثيان (ومن الواضح أن هذه الأخيرة كانت ذات أصل جنسي) . كان طفلاً انهمك « مصنعه العاطفي » في الانتاج إلى درجة تفوق احتياجاته . فلو أنه مثل الموسيقار مندلسون في صباه المبكر ، كان فرداً في عائلة دافئة متماسكة وتلقى تدريباً ودراسة مشبعين بالحنان والتعاطف منذ فترة باكرة ، فإن هذه المشاعر الطافية بحرية كانت ستجد «موضوعات مختلفة» ، فتصبح سهلة المعالجة والتعامل . ومن المؤكد أن هذه البيئة الغريبة الجديدة قدمت موضوعاً ملائماً لمخاوفه . كما قدمت لعبة الأطباء والممرضات هذه موضوعاً محدداً للمزيد من العواطف . وأنا أعني عاطفة القلق المهلك ، وهي العاطفة الشائعة بين الكثيرين من ذوي الحساسية بين الأطفال . إنها عاطفة تشترك في شيء ما مع الشعر ، لأنها تميل إلى تجاهل العالم الفعلي ، هذا العالم الذي يتميز بقدر من العادية والحقيقة أكبر جداً من أن يوفر لتلك العاطفة موضوعاته المناسبة . وقد وصل إدجار آلان بو إلى الربط بين هذه العاطفة وبين موت الجميلات من النساء ، وربطها « لي فانو » بالأشباح ومصاصي الدماء ؛ أما بودلير فقد ربطها بالخطيئة . أما آرثر لينجارد فقد كان ما يزال صغيراً إلى درجة تمنعه من أن يشعر بأن هذه الأسرة التي دخل فيها عنوة كانت أسرة غير إنسانية وخطيرة . كان ألبرت بعينه الدوارة قد بدا له في صورة القزم الشرير أو القرد الشبيه بالإنسان . أما هو وشقيقته فقد كانا زوجاً من الأطفال الملكيين ، لجأا عن طريق الصدفة إلى كوخ لأحد الفلاحين . وكان ما يود آرثر لأخته هو أن تنضم إليه في حلف ضد أبناء عمهما ، وأن ترتبط به ارتباطاً وثيقاً ، وأن تقول : « إننا نقف معاً وسط هؤلاء الناس المرعبين ... » ، ولكنها ، بدلاً من هذا ، قد دخلت في لعبهم المقززة . . إنه حينما يستعبد كل شيء ، « لا بدّ له » أن يصدق أن كل شيء قد حدث ضد رغبتها وإرادتها ، وأنها قد أرغمت على اتيان ما أتته أو غرس في قلبها الخوف من أجل أن تأتيه . وإلا ، فكيف كان من الممكن أن تحط من نفسها وأن تسمح لهؤلاء القردة أن يتحسسوا جسدها ؟ كانت هذه صدمة عاطفية

ذات تأثير عظيم . كانت العاطفة الأساسية المصاحبة لها هي الغيرة المتفجرة بالغضب على شقيقته ، التي كانت — أيضاً — هي أمه .

وبينما كان يرقد في الفراش في تلك الليلة ، وذراعه حول خصر أخته ، شعر بقدم تتحرك تحت الغطاء ، وتزحف لتتسلق ساقها . ومد هو يده نحو هذه القدم فأحس بها تحاول أن تندس بين فخذيها . وراح آرثر يركل القدم بجنون وهو يصيح : « كفّ عن هذا ! كفّ عن هذا ! » واستيقظت بولين وقالت : « ماذا حدث ؟ » بينما كان الذي استثار غضبه يفح في سخط : « أيها الحشرة الصغيرة ، سوف أخرج مخك من دماغك ! » .

قال آرثر : « إذا فعلت هذا فسوف أخبر العمة إلزي بحكاية لعبتكم من الأطباء والممرضات . »

« لن تجرؤ على هذا . »

ومن الحجرة الأخرى جاءت زمجرة رجل غاضب تقول : « ماذا حدث هناك بحق الجحيم ؟ »

قال آرثر بجنون : « سأخبره إذا جاء هنا . »

وشعرت بولين بخطورة الموقف فهدأته وقالت له أن ينام . أما جيم ، الذي أخافته فكرة الخيانة ، فلم يرد حرفاً . ورقد آرثر في مكانه ، وظل مستيقظاً نصف الليل ، متسائلاً كيف يمكن أن يحاول جيم قتله ، وكيف يمكن أن يبدو عنه حينما لا يعود داخل دماغه . وطوال أسابيع بعد ذلك ، ظل يشعر بالخوف من جيم ، الذي كان في الحقيقة قد ورث طيبة والده الطبيعية الأساسية ، والذي كان — على كل حال — لا يكاد يشعر بوجود ابن عمه الصغير . ولكن ، حتى بعد أن انتهى الخوف ، فقد خلف وراءه بقية أثر من الكراهية والقلق .

سرعان ما يتكيف الأطفال . ففي خلال شهور قليلة ، كان قد اعتاد بصورة أساسية على بيئته الجديدة . (وتقدمه السريع في القراءة في المدرسة دليل على هذا ، فالأطفال المضطربون عاطفياً يميلون إلى التخلف العقلي) .

ولكن شيئاً ما كان قد كمن في داخله واستقر . لقد كف عن أن يكون ذلك الصبي الصغير الحساس السهل الكسر الذي تبرز أعصابه خارج جلده . كانوا قد سرقوا منه حب شقيقته ، وكان هذا حزناً أبدياً وأسى لا شفاء منه .

وسرعان ما استقرت بولين في وورينجتون ، رغم أن موت أبيها كان بالنسبة لها صدمة عاطفية أضخم مما كان بالنسبة لآرثر . كانت تتمتع بذلك النوع من المزاج النفسي الهادئ الرصين الذي يستطيع أن يصمد لأي شيء . وكانت أيضاً من النوع الذي لا يخشى اللعب بالنار . ولقد أخبرتني فيما بعد بأنها قبل أن تفقد عذريتها على يدي العم ديك ، كانت تسمح لنفسها بأن تلتقي لقاء عارضاً بأحد الجنود . وقد مارست مع هذا الجندي على طول ضفة القنال ، رغم أن فتاة كانت قد وجدت مخنوقة هناك قبل ذلك بأسبوع . وقد سمحت له بأن يقبلها ، وأن يعبث بنهديها ، ولم تعترض أي اعتراض جدي حينما تسللت يده إلى ما تحت ملابسها الداخلية . ولحسن الحظ لم يكن هذا الجندي من النوع المريض بداء الاغتصاب ، فحينما أخبرته بأنها عذراء اكتفى بالاحتكاك بفخذها حتى أشبع جوعه . وقد أخبرتني بولين بكل ذلك بصراحتها الخالية من الخجل في زيارتي الثانية لها في «ستوكبورت» . وقد خطر لي في ذلك اليوم أنها أكثر من قابلتهن من النساء جدارة بالإعجاب ، لأنها كانت أكثرهن تميزاً . كانت تفكر في الجنس على الدوام باعتباره نوعاً من الفكاهة أو المرح . ومع هذا فقد كانت تتمتع بقوة شخصية أساسية منعتها من الانسياق والتحول إلى المومس المجردة . وسرعان ما أقنعها أبناء عمها بمداعبتهم ، وكانت هي لينة العريكة ولم تر سبباً يمنعها من ذلك . وقد اكتشفت أن تلك الألعاب تنتج نوعاً من الاستثارة التي يمكن أن تهبها أصابع جيم ، وقد كان بوسعها أن تنتج التأثير ذاته بنفسها ، ولكنها كانت بشكل ما شخصية ودية ومفتوحة بصورة تجعلها ضد العادة السرية . لقد فضلت أصابع رجل خشنة وقوية . كانت في ذلك الوقت في الحادية عشرة من عمرها . وقد استدارت أردافها ، ونما نهداها . فاذا راق لها صبي من الصبيان ، فكرت

بشكل أوتوماتيكي في مقدار ما يمكن أن تشعر به من متعة لو أنها قادته إلى جوارها وشعرت بيده وهي تتحسس طريقها تحت ثوبها وداخل رباط [illegible] حول ساقها . ومن المضحك تماماً أن فكرة الجماع الجنسي الحقيقي لم تدخل رأسها أبداً ، فقد كانت تفترض أنها عملية لا بد أن تكون لا يستمد منها المتعة سوى الرجل وحده .

من الواضح أنها كانت تتمتع بالكلام معي في صراحة ، وتعدني بوصفي نوعاً من المحجوب الاجتماعي ، التي تستطيع أن تصب أمامه كل التفاصيل الحميمة دون أي شعور بالحرج . كان الجنس هو مركز حياتها ، موضوعاً لاهتمام غير محدود وغير نهائي ، وكان من الممكن أن تستمتع بكتابة دائرة معارف في عشرة مجلدات عن كل جوانبه . وحينما أبديت ملاحظتي قائلاً : إنه من المدهش أنها لم تفقد عذريتها قبل ذلك ، أوضحت لي أنها كانت قد طورت طريقة يدوية كانت تستطيع عن طريقها أن تدفع الرجل إلى ذروته سواء كان يريد هذا أم لا ، في نصف دقيقة ..

يؤدي كل هذا إلى امكان فهم السبب الذي دفع آرثر [illegible] في الطريق الذي تطور فيه . لقد كان منطوياً على ذاته ، متجهماً مكتئباً ، وأكثر مهارة من أبناء عمه (أو من شقيقته) ، وكان بشكل طبيعي ، وبحكم تكوينه المزاجي ميالاً إلى كتب مشاهيره . ولما كان قد احتقر أبناء عمه ، وعلى أساس ذلك ، احتقر [illegible] الحسية الصريحة . فقد تأكدت ميوله إلى الاحتشام والتطرف في كتب مشاهيره ورهبانه . لقد أحب شقيقته إلى درجة العبادة ، وذلك بالنسبة له تجسيداً لشخص الأم . ومع نمو أعضاء جسمها الأنثوية ، [illegible] أردافها ، [illegible] تلك الهالة [illegible] لم تكن قد [illegible] إلى الجنسي الكامل [illegible] العاطفية . فقد كان هو [illegible] أن يعي ما حدث . ولكن كل شيء كان واضحاً أمامه تماماً . [illegible] الأولاد في المدرسة [illegible] هي على استعداد [illegible] إلى النساء [illegible]

فئة السيدات التسعة. وقد حدث ذات ليلة كانت قد عادت فيها متأخرة، أن هبط آرثر إلى المطبخ لكي يشرب، فوجدها تحاول أن تربط حزام جونلتها بسرعة، ولم يكن هو بحاجة إلى أن يسألها عما كانت تفعله. ولقد اقتنع بأنه قد صدم بسبب لاأخلاقيتها، ولكن من المحتمل أن تكون عاطفته أقل تجرداً من ذلك.

كان هذا وجوداً محبطاً مؤدياً إلى خيبة الأمل، وقد وجد سخطه التعبير عنه في السرقة وفي تحطيم الأشياء. لقد بدأ في السرقة بانتظام منذ سن السادسة — ودون هدف تماماً — حتى لقد اقترح أحد المشرفين الاجتماعيين أنه يجب أن يقابل طبيباً نفسياً. ولسوء الحظ أهملت تلك الفكرة وتم نسيانها، وكان من الممكن أن توفر قدراً كبيراً من المشاكل. ولقد قال المشرف الاجتماعي لعمه ديك لينجارد: «يمر كل الأطفال بمرحلة من التمرد في سن السادسة أو السابعة، ولكنهم سرعان ما يتجاوزونها.» وفي الحقيقة، لقد بدا أن آرثر لينجارد قد شرع يتجاوز هذه المرحلة في سنه الثامنة، حينما تعلم القراءة.

* * *

سألت آرثر، سؤالاً روتينياً، عن أول كتاب قرأه؟ فأجابني:

«طرزان. والمجلد السنوي لمجلة «بانش».»

«أخبرني عما كان في المجلد السنوي لمجلة «بانش».»

هز كتفيه وقال: «لا شيء يمكن أن أخبرك به. لقد ذهبت ذات يوم مع العمة إلزي إلى سوق المزادات الرخيصة، فأعطتني إياه سيدة كانت هناك.»

ولكنني شعرت بحب استطلاع لسبب ما. فان المجلد السنوي لمجلة «بانش» يعد شيئاً غريباً إذا أعطى لصبي في الثامنة من عمره لكي يقرأه. وحينما ذهبت إلى «ستوكبورت» في المرة التالية لكي أرى بولين، سألتها إن كانت تذكر المجلد السنوي لمجلة «بانش»، فقالت:

«أوه، أجل. ما زلت أحتفظ به.»

وذهبت إلى أحد الصناديق، وأخرجت منه مجلداً ضخماً بلون الزيتون

الأخضر: «مجلد «بانش» السنوي — ١٩٣٢».

«لماذا تعتقدين أن آرثر كان يستمتع بقراءة هذا؟».

«أوه، إنه لم يكن يقرأه. إنما كان ينظر إلى الصور.»

ونظرت إلى الصور. فلم أفهم شيئاً: كانت رسوماً لشبان يرتدون ملابس الحوالف، يلهون بأشياء مختلفة داخل السيارات الرياضية أو يطلبون طعام العشاء في أحد النوادي. كان هناك تعليق — مثلاً — تحت أحد الرسوم يقول: «أنت تعرف يا بنسون، أن تناول الطعام هكذا وحيداً في النادي كفيل بأن يدفع الرجل إلى الزواج.» فيجيب النادل قائلاً: «أجل يا سيدي، ولكن الزواج يدفع أكثر السادة مثلك إلى النادي مرة أخرى.» أكان هذا هو ما يثير اهتمامه إلى هذا الحد؟ حياة الطبقات الانجليزية العليا والمتوسطة ممثلة في صور؟ سألت بولين إن كان يمكن أن تعيرني هذا المجلد تلك الليلة، وأخذته معي إلى المنزل.

كنت قد أخبرت آرثر انه كان في نيتي أن أزور شقيقته. وحينما ذهبت إليه عصر اليوم التالي أدهشني أن أجده مسترخياً في هدوء أكثر من المعتاد. سألني:

«هيه. كيف حالها؟»

«بخير. إنها بعثت إليك بحبها.»

بدا هذه الأثناء [illegible] ثم قال:

«هل قالت [illegible]؟»

«أخبرتها أنا قالت «ذلك». فصمت متطلعاً إلى [illegible] ثم سألني:

«هل قالت: «أعطه حبي» بهذا الشكل؟»

«أجل.»

والواقع [illegible] «بانش» السنوي [illegible] حتى أن [illegible] إلا

مجموعة من الأوراق أخرجتها من حقيبتي الصغيرة . ومرت عشر دقائق ثم قـال :

« يا له من مضحك ، هذا الشعور الذي يعيده إلي . »

« ما الذي يعيده إليك ؟ »

« أوه : كل الأشياء من كل نوع . تعلم القراءة ... »

قلت : « احك لي هذه القصة . »

حينما بدأ يتحدث لم أكن أتوقع أي كشف جديد . ولكن لم تكن قد مرت عشر دقائق أو نحوها ، حينما تبينت أنه كان يقدم إلي المفتاح المحوري لفهم طفولته .

— لم تكن هناك أية كتب في منزل شارع بينكث . ولذلك ، فرغم أنه كان قد تعلم مبادىء القراءة حينما كان قد بلغ السادسة أو السابعة ، فانه لم يكن يملك دافعاً لتحسين ما تعلمه ولا فرصة لذلك . كان يحب أن ينظر إلى الرسوم الفكاهية في الصحف التي اعتاد عمه أن يعود بها أحياناً من العمل . وفي الصفحة الأولى من مجلد « بانش » السنوي ، كانت هناك صورة لنادل في مطعم يقدم « الفاتورة » لزبون . فيقول النادل :

« هل ستدفع ثمن حساء البطاطس يا سيدي أم حساء الطماطم ؟ »

الزبون : « لا أعرف . كان مذاقها مثل مذاق الصابون . »

النادل : « إذن فقد كان حساء الطماطم . فان حساء البطاطس طعمه عندنا كطعم زيت البارافين . »

وقد بدت له هذه الفكاهة أكثر شيء مضحك رآه في حياته ، فسقط على أحد المقاعد يكاد يختنق من شدة الضحك . وبعد عدة صفحات ، كانت هناك صورة لنادل آخر يقول لسيد محترم وصبي عجوز :

« كلا يا سيدي . أنا لم أحملك — كذباً — ثمن الكرفس . فأنت قد أكلت من سيقان النرجس البري . » ومرة ثانية بدت له هذه الفكاهة مضحكة إلى درجة لا تصدق . وكان كلما حدق في الصورة ، كلما اكتشف في الفكاهة

جوانب جديدة . فهناك أمام السيد العجوز ، تقوم زهرية خالية من الزهور ، وطبق يشبه الزهرية يحتوي سيقان الكرفس . وكان الكتاب المفتوح على المائدة يفسر السبب الذي جعل السيد يعجز عن ملاحظة أنه كان يأكل سيقان النرجس الموضوع في الزهرية بدلاً من سيقان الكرفس .

وأمضى آرثر اليوم التالي في غرفة نومه ، ينظر بعناية إلى كل صورة ، سائلاً العمة إلزي أن تشرح له الفكاهات التي لا يستطيع أن يفهمها . كان معنى التقليد القديم لمجلة « بانش » الذي يؤدي إلى نشر الصور ذات التفاصيل الدقيقة والملاحظات الحادة للأنماط الاجتماعية ، أنه كان بوسعه أن يتعلم الكثير جداً من الأشياء ، ببساطة ، من خلال التحديق في تلك الصور . وكان الأمر كما ظننت . فقد اكتشف عالماً بأسره لم يكن قد اكتشفه من قبل . وأصبح هذا المجلد السنوي هو أثمن ممتلكاته . وحينما أخذه ابن عمه ألبرت ذات يوم ، أصبح آرثر عنيفاً بصورة وحشية إلى درجة أن العم ديك أملى أوامره بعدم تكرار هذا العمل بعد ذلك .

كان ما جلب لبه في البداية الفكاهات التي تضم أطفالاً في صورها . أطفالاً كان من الواضح أن آباءهم من الأثرياء . وقد أطلعني على صورة لفتاة صغيرة وتحت الصورة هذا التعليق :

إلزي : « ما هذا يا دادي ؟ »

الأب : « بقرة . »

إلزي : « لماذا ؟ »

ولكن إلزي كانت فتاة جميلة أنيقة الملبس ترتدي قبعة منتفخة وجوربين مزودين بأغطية للكاحلين . أما أبوها فكان يرتدي حلة من صوف التويد الفاخر وقد وضع عصا تحت ابطه وعلا له شارب ضخم

سألته : « هل كنت تحسد هؤلاء الأطفال ؟ »

« ليس بالتحديد . »

« إذن ، ماذا ؟ »

« إسمع . كانوا يجعلونني عاجزاً عن الفهم . أنظر ... »

وبدأ يشير إلى بعض التفاصيل في الرسوم . بالة الصبي الصغير التلميذ في [illegible] إيتون . الطفلان المتسبان إلى الطبقة العليا يلعبان لعبة « حفلات الشاي » . وفي خلفية الصورة دمية كبيرة تمثل خادمة منزلية ودمية أخرى لسيارة أنيقة . وكانت كل الأمهات في هذه الصور — في الحقيقة — رشيقات جميلات . وكانت هنالك صورة لفتاة صغيرة مستلقية على أريكة وثيرة ، تقرأ كتاباً . وأمها تجلس بالقرب منها على مقعد من مقاعد الخيزران تسأل طفلتها : « أهذا كتاب لطيف ، يا حبيبتي ؟ »

« أوه . إنه رائع . ولكن نهايته حزينة . »

« ماذا يحدث ؟ »

« إنها تموت . وعليه هو أن يعود إلى زوجته . » وكانت الفتاة ترقد تحت شجرة حور ، وقد أسندت ظهرها إلى وسادة وثيرة . وقد رقد عند قدميها كلب السكتلندي أصيل ، من الواضح أنه كلبها . وإلى جوار مقعد الأم الخاص بالحديقة ، كانت هنالك مائدة أعدت لشرب الشاي ، وعليها مجموعة من الأقداح المسطحة العريضة — من الواضح أنها صينية — وصحن كبير مملوء بالكعك والفطائر . وفي عمق الخلفية ، وراء أريكة الفتاة ، يستطيع المرء أن يرى المنزل والزهور تحيط بالنافذة . ولكنني لاحظت تفصيلاً آخر . كانت [illegible] الصغيرة راقدة وحولها تحيط بخصرها ، وسروالها الداخلي الطويل باد [illegible] ، وقد ضمت ركبتيها بقوة ، ولكن قدميها كانتا متباعدتين ، وقد [illegible] مرة الحذاء المنزلي المصنوع من الفراء والقطيفة إلى جوار قدمها . [illegible] آخر من إدراك الدلالات الاجتماعية للصورة سألته :

« وماذا عن أمر الفتاة ؟ »

« ماذا عن أمرها ؟ » ولكن بطريقة الخائبة الخاطفة إلى [illegible] أوضحت [illegible] أنه فهم [illegible] أمي ولم يقل هو شيئاً ، وإن كان أحد تحديقاً إلى [illegible] [illegible] حتى قال [illegible] كانت هذه هي صورتي المفضلة . »

كانت الصورة لفتاة صغيرة أخرى راقدة على أريكة من نوع آخر ، ورأسها في حجر شقيقتها الكبرى ، تسألها : « اسمعي يا مابل . هل يوجد أقصاد أم [illegible] قنافذ صغيرة مثل الأرانب ؟ » وكان بوسعي أن أرى لماذا [illegible] هذه الصورة . إنها علامات الترف والحياة المرفهة مرة أخرى . [illegible] الأريكة المستديرة المبطنة وأرجلها الرشيقة المنحوتة . وكانت الفتاتان [illegible] [illegible] ساق مابل ، المنثنية إلى الخلف من تحتها ، طويلة حسنة الاستدارة ، [illegible] مظهر اليد النحيلة وراء مسند الأريكة ، تشير إلى عالم ذهبي من الثراء والرشاقة . كان وجه الفتاة الكبرى جميلاً يدل على التدليل [illegible] [illegible] الصغرى فكان وجهها صريحاً وملائكياً .

« احك لي عن هذه الصورة . »

« حدث أن أحلم في بقطتي بهاتين الفتاتين » وأشار بإصبعه إلى صغرى الفتاتين وأضاف قائلاً : « إن اسمها « إنجليتا » (أي ملاك صغير) وقد [illegible] على هذا الاسم من فكاهة أخرى . »

« ماذا كانت أحلام يقظتك ؟ »

« أوه ، الأشياء المعتادة . كيف أنني شقيقهما الذي فقداه منذ مدة طويلة [illegible] هذه الحكايات . أو أنقذ هذه الصغيرة من نهر هائج . »

« هل كانت حكاياتك من الناحية الجنسية ؟ »

[illegible] ضحكة [illegible] أن يجعلها خشنة [illegible] .

« بالطبع . لقد [illegible] أن أفكر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

بهذا السحر والجاذبية والبهجة . لقد لمس خياله كل شيء فيهن ومن حولهن . بل لقد لمس أيضاً مصدراً أكثر خفاء من مصادر الاحتدام والعنف . لقد دفعه وضع الفتاة الراقدة على الأريكة الوثيرة إلى التفكير في بولين وقد فتحت ساقيها حينما كانوا يلعبون لعبة الأطباء والممرضات . وعندما تخيل – للمرة الأولى – نفسه وهو يجذب سراويلها الطويلة ، جعله هذا يشعر بالخجل والغثيان . ولكن هذه الفكرة عاودته في كل مرة نظر فيها إلى الصور . كانت أحلام يقظته التي يتخيل نفسه فيها وهو ينقذ الشقيقتين من ثور هائج أو وهو في صورة شقيقهما المفقود من زمن طويل . كانت هذه الأحلام تأتيه بالتبادل مع حلم آخر . يرى نفسه فيه قادماً نحوهما فيجدهما نائمتين على الأريكة . فيرفع ثيابهما بحذر ليعري سيقانهما . كان المحتمل أن ترتدي الصغرى سروالاً داخلياً طويلاً وردي اللون . أما الكبرى فكانت ترتدي أشياء صغيرة جداً مثل « جين » التي تظهر صورها في صحيفة « ديلي ميرور » .

بشكل غامض . كان آرثر ليتجارد مدركاً أنه يقوم باختيار بين شيئين . كان بوسعه إما أن يحلم متيقظاً حلماً بريئاً ومثالياً يؤدي إلى أن يشاركهما حياتهما المترفة المرفهة ، وإما أن يسمح لتلهفه العنيف المهلك إلى الأخذ والامتلاك . فيتخيل نفسه وهو يخلع عنهما الثياب . وقد جعلته هذه الخيالات يشعر بالألم والمرارة . ولكنها تضمنت نوعاً من القلق الحلو المسمم . وقد أعطته أيضاً الاحساس بأنه لم يكن يستحق أن يكون جزءاً من عالم الثراء والجمال . ومع زيادة هذه المشاعر . أصبحت خيالاته مرتبطة بكيفية الدخول سراً إلى المنازل الثرية واغتصاب مابل وآنجيلينا .

كان الاختيار حرجاً . وفي هذا العالم الذي جسده مجلد « بالش » السنوي والذي يقطنه الأطفال المتأنقون في ثيابهم الجميلة والشبان الذين يحملون العصي المزخرفة . لا يفكر الناس في الجنس طول الوقت . ولقد اشتاق هو إلى أن يكون جزءاً من هذا العالم . ولم يكن السكان الأجلاف يفكرون في الجنس طول الوقت إلا في ذلك العالم الذي تفوح منه روائح الأسماك . هذا

العالم القذر العطن المتجسد في شارع بيكث . ولكنه وهو ينظر إلى تلك الصور ، لم يكن يستطيع أن يفكر في غير الجنس . فهو – بادىء ذي بدىء – إنما ينتمي إلى شارع بيكث . وكان مجرد رؤيته لنظافتهم وجمالهم تدفعه إلى الانتصاب . ولقد كان في نظره هو نفسه ، فاسد الطوية قذر العقل إلى درجة لا شفاء منها .

سألته فجأة : « متى بدأت السراويل الداخلية تستبد بخيالاتك لأول مرة ؟ » جفل وحدّق في وجهي قائلاً : « ماذا ؟ » . فتظاهرت بعدم الفهم . وسألته :

« هل كنت دائماً منهوساً (فيتشيا) بالملابس الداخلية . أم أن هذه الحالة بدأت حينما أعطتك السيدة مجلد « بانش » السنوي ؟ »

هز كتفيه وحرص على أن يتجنب عيني . ثم قال :

« لا أعرف . أعتقد أنها ربما كانت حالة موجودة على الدوام . ولكني لم أصبح مدركاً بوجودها إلا فيما بعد . »

كان هذا هو المفتاح . المفتاح الذي كنت أنتظر الحصول عليه . إن نهوسه الفيتيشي بالسراويل الداخلية كان هو الخيط الذي يربط بين كل نشاطاته الاجرامية الأخيرة . وحالما سلم هو – تسليمه بالبديهيات – بأني كنت أعرف بأمر هذه الحالة ، بدأ يتحدث إلي بمستوى جديد من الصراحة

سوف يكون من الخطأ الظن بأن النغمة الأساسية لطفولته كانت هي الانشغال الدائم بالجنس . ففي محل بالسوق لبيع الكتب . اكتشف قصة « طرزان والقرود » وشرع في قراءته لأنه كان قد رأى فيلماً لطرزان من تمثيل جوني ويسمولر . وسرعان ما وقع في قبضة عاطفة جديدة لم يكن قد تبين من قبل أبداً أن من الممكن أن تكون قصة من القصص واقعية إلى هذا الحد أو حداثة . وفي هذه القصة كان يوجد شيء استطاع أن يطابق بينه وبين نفسه تماماً . فقد كان هو نفسه « لورد جريستوك » الصغير ، الذي نشأ وسط القرود في الغابات . واشترى آرثر مزيداً من كتب طرزان من اليهودي السمين الرثاثر

الذي كان يدير محل بيع الكتب . وكان يدفع ثمنها نقوداً يأخذها من حقيبة يد زوجة عمه ، أو من جيوب العم ذلك حينما يكون ثملاً . وانتقل من طرزان إلى « أميرة المريخ » ، وهي القصة التي غادرته وقد تقطعت أنفاسه مرة أخرى . ثم شرع يقرأ روايات « أ . ميريت » بعد أن خلبت أغلفتها الشهوانية ألبابه ، وقد باعها له صاحب المحل صفقة واحدة : « عبيرة القمر » ، « الوحش المعدني » ، « سفينة عشتار » ، « الوجه في الحب » . ثم الرواية الكلاسيكية « سبعة آثار قدم حتى الشيطان » . وقد كان من الممكن أن تصبح قراءة هذه الروايات نقطة تحول في حياته . لأن هذا العالم المصنوع من الخيالات المثيرة وفر له مهرباً مما يحاصره رغماً عنه في شارع بينكيث . وكان من الممكن أن يتحول إلى حالم يتجنب العالم الحقيقي . يعبر عن خيبة أمله وما أحبط في داخله وما يمور داخله من رغبات عدوانية عن طريق الخيال الذي يحقق فيه رغباته . ولكن القدر تدخل مرة أخرى . فقد قرر عمه أن يتدخل مستنداً إلى مبدأ من مبادئه . فإن آرثر كان قد أصبح شديد الهدوء فجأة وبصورة غير متوقعة . ولذلك فإن ذلك لينجارد كان متى أمسك به جالساً يقرأ في غرفة نوم الأطفال . أخذ منه الكتاب وأمره بالخروج للعب . على أساس أن القراءة يمكن أن تدمر عينيه . وسرعان ما تعلم آرثر أن يخبيء كتاباً في مخزن الفحم ، حتى يستطيع أن يلتقطه وهو في طريق خروجه إلى الفناء الخلفي للمنزل . وقد عثر على مكان هادىء على ضفة القنال ، وأمضى فترات بعد الظهر طول الصيف وهو يلتهم روايات ميريت ودوك سميث . كان قد اختار نقطة تقع بين شجيرة كثيفة وبين أحد الأسوار ، بالقرب من أحد الجسور . وفي أول مرة ذهب إلى هناك عصر ذات يوم ، جاء جندي أمريكي مصطحباً فتاة من المنطقة . ثم رقدا في حفرة حيث لم يكن من الممكن رؤيتهما من الطريق المزدوج الذي يمر على طول القنال ، وشرعا في تبادل القبلات . ولم يجرؤ آرثر على التحرك خشية أن يراه الجندي . ولكنهما كانا مشغولين عما هما فيه تماماً . ورأى آرثر يد الفتاة تتحرك نحو بنطلون الجندي . . . وبعد لحظات ،

سحبت الفتاة رأسها . وتبادلت أيديهما بعض النقود ثم نهض الاثنان ، وانصرفا في اتجاهين مختلفين . جلس آرثر في مكانه ، مصعوقاً . كمن ارتج عليه . لم يكن — في كل أحلام يقظته الملتهبة — قد تخيل مثل هذا الموقف . كان هو — في خيالاته — من يقوم بخلع ثياب الفتاة السلبية . ولا يحدث أبداً أن تنقض الفتاة على أزرار بنطلونه . وبدا له بشكل ما . أنه تصرف لا حدود لانحطاطه ، أن تفعل فتاة مثل هذه الأشياء للرجل .

احتاج آرثر شخصاً ما ليتحدث معه . ولكي يخبره بما شاهده . ولكن لم يكن له أي أصدقاء قريبين إلى نفسه . وحينما عاد إلى البيت ، لم يكن في المنزل سوى آجي . كانت تغسل الصحون . وكان لا بد لآرثر أن يخبر شخصاً ما . فحطم العادة التي تملكته طوال سنوات ، ووضع ثقته في آجي . قال :

« إيه . . لن تخمني أبداً ما رأيته الآن لتوي عند منحنى الشاطىء » .

« قل ما رأيت » .

وأخبرها . ونال ثوابه الذي كان ينتظره على شكل اتساع عينيها دهشة وإعجاباً . وقالت :

« أووه . الشياطين الأقذار . لقد سمعت عن ليز موريجان هذه . ولكن لم أكن أعرف أنها يمكن أن تفعل ذلك ! » .

كانت آجي تكبره بثلاثة أعوام . وكان على الدوام يجدها حالية من الجاذبية . ولكن دهشتها كانت اعترافاً بذكائه وإكباراً له . قال لها :

« يجب ألا تقولي للآخرين » .

« ولم لا ؟ » .

« لأن بوسعك أن تراهني على أن تيد وجيم سوف يحكيان للعجوز . وحينئذ سيكون علينا أن نواجه جحيمه اللعين » .

وهنا رأت آجي وجاهة فكرته . فحافظت على السر . وكان هذا هو بداية الود الحميم الغريب الذي نما فيما بينهما بعد ذلك .

لم يكن السبب الذي دفع العم ذلك إلى إخراج آرثر من المنزل هو

السبب الذي أعلنه : الخوف من أن يضر آرثر عينيه بالقراءة . فان بولين ، في هذه الفترة ، كانت قد أصبحت عشيقته منذ ما يقرب من ستة شهور ، وكانا يريدان أن يخلو لهما المنزل عصر كل يوم من أيام السبت . وقد أحس آرثر بأن شيئاً ما كان يجري من وراء ظهره ، ولكنه كان يظن أن من يحظى بهبات بولين وعطاياها إنما كان هو جيم ، ابن عمه ، أو ربما أحد الأصدقاء الكثيرين من صبيان المدرسة .

وكان ما رآه على ضفة القنال قد أوصله إلى درجة عنيفة من الادراك الحسي والشعور بالجنس . كان يعرف الفتاة معرفة بسيطة ، وكانت معروفة في المنطقة باسم « ليز الحرباء » . وإن كتابتي الآن لهذا الاسم المستعار تجعلني أعي نقطة لا بد من وضعها في الاعتبار بوضوح ، متعلقة بالبيئة التي عاش فيها آرثر ليتجارد في طفولته ، وهي نقطة قد تفلت من أيدينا حينما تسرد القصة وسط ركام كثير من مصطلحات علم النفس التحليلي الموضوعي وأساليبه . كان هناك موقف سائد بين الصبيان من زملائه في المدرسة ، كان هو عكس تزمت آرثر وتحفظه الأخلاقي العنيف . هذا الموقف نوع من التلذذ بالبذاءة ، والابتهاج بالكلام في موضوعات من الطبيعي أن تجعل المرء يشعر بغثيان خفيف . وقد سألته ذات يوم أن يضع قائمة بالأشياء التي كرهها في طفولته ، وحينما عدت بعد ساعة واحدة ، كان قد كتب اثني عشرة فكاهة قذرة ، والنتيجة السائدة في كل واحدة منها هي أن الجنس كان يعامل بوصفه شيئاً مهيناً بصورة فعلية ، شيئاً يحط من قيمة الإنسان ، مرتبطاً بالغثيان ، وبالبراز ، وبالقاذورات والمزابل ؛ وأكثر الفكاهات نموذجية من بين ما كتبه ، فكاهة تدور حول زوج معدوم الخبرة في شهر العسل ، حينما تدفعه زوجته إلى أن « يأتي شيئاً قذراً » أصابه الاسهال ، فتبرز في الفراش برازاً كالمخاط . وقد تقدم أحد علماء النفس الروس البارزين برأي يقول فيه إن مثل هذه القصص إنما تعبر عن موقف « ثوري » من المجتمع ، وأنها تمرد الرجل الفقير ضد من يقهرونه . وأنا أميل إلى الموافقة على أن هذه القصص

تعبر عن نزعة شكية جوهرية . لا تؤدي إلى الشك في المجتمع وحده والاحتجاج عليه ، وإنما تؤدي إلى الشك في الحياة نفسها . إن الملوك والملكات يذهبون إلى الفراش ، ويأتون نفس الأفعال « القذرة » والمقززة التي يأتيها خمار مخمور في بيت من بيوت الدعارة . وعلى ذلك ، فانهم بشكل أساسي ليسوا أفضل من الخمار . إنه « ليز الحرباء » وهي « تمتص » جندياً أمريكياً ، هي ببساطة الطبيعة الانسانية دون قناع . إن الوقار الإنساني ، ليس سوى وهم من الأوهام .

ولكن آرثر ليتجارد كان يشعر باحساس غريزي بالتفوق على بيئته ، وقد افترس الموقف الكامن وراء مثل هذه الحكايات في جذور احساسه بالاحترام لنفسه ، وأثارت فيه رغبة خارقة في الرفض . وقد عجزت هذه الرغبة عن أن تضع في اعتبارها المشاعر التي أثارتها لديه قصص طرزان وكابتن جون كارتر وأبطال ميريت ، ولكن ، كانت هذه الأشياء بالطبع مجرد قصص خيالية . أما « ليز الحرباء » فكانت حياة حقيقية ... وربما كانت شقيقته تفعل نفس هذا النوع من الأشياء مع أصدقائها الخشناء الطوية . لقد كانت سيئة مثلهم تماماً ، رديئة بقدر رداءتهم . وقد أثبت ما بدا على آجي من رعب غير مصدق أنها كانت تتخذ الموقف الصحيح إزاء كل هذا . ولكن رغم هذا ، فان آجي ، كانت أقل جاذبية من بولين بكثير .

في تلك الليلة ، استيقظ آرثر من أحلام مخيفة مفزعة . كان يرقد الآن على حافة الفراش ، بعد بولين . أما ماجي وألبرت فكانا ينامان على الطرف الآخر . وكان العم ديك قد نقل ليدنام على سرير من أسرة المعسكرات نصب في الطابق السفلي ، ونقل جيم إلى سرير آخر مشابه في الحجرة الأخرى . ورقد آرثر في الظلام مستيقظاً ، ممزقاً بين عواطف متصارعة : شعور بالقهر والقلق ، الاشمئزاز والرهبة . كانت بولين تنام مولية إياه ظهرها ، ووضع هو ذراعه حولها ، وبدأ يلمسها . وبعد لحظة ، غمغمت بشيء ما ، واستدارت لتنام على ظهرها . [illegible] تريدني فقط أن أنام [illegible] أن أتقرب

تيه وجيم النوم في مكان آخر . كانت قد أقلعت عن ارتداء سروالها الطويل أثناء النوم . ولما كان خصرها عارياً ، فقد أدرك آرثر أن قميص نومها قد اتخذ طريقه منزلقاً فوق جسدها . أخافته الفكرة وأثارت قلقه ، وخبت معدته ... وترك إحدى يديه تتحرك ، كما لو كانت تتحرك دون إرادة منه ، لكي تستقر على فخذها . وفي نفس الوقت تحركت يدها حتى وصلت إلى محله ، ولمسته . وقد قال لي إن نتيجة هذا . كانت أقوى عاطفة غلابة في سيطرتها كان قد عرفها حتى ذلك الحين . لم تكن هذه الحركة بالنسبة له نوعاً من التقدم الجنسي بل كانت إشارة إلى التعاطف وعلامة على القبول صدرت من تجسيد الأم التي كانت قد رفضته من قبل . لقد ابتعدت الآن عن الذكور الآخرين ، واستدارت إليه . كانت عاطفته الآن من القوة بحيث أنه أراد أن ينفجر باكياً . ورقد هو في مكانه ساكناً لمدة طويلة في حالة نشوة كاملة ، لا يكاد يجرؤ على التنفس حتى لا تصحو . لم تطرأ على ذهنه أية فكرة عن امكانية أن يرد على ملاطفاتها ، فقد بدا له هذا عملاً خالياً من التهذيب . رقد في مكانه ساكناً لمدة طويلة ، يتنفس بانتظام . وبعد قليل ، استيقظت من نومها — نصف استيقاظ فحسب ، وتبينت ما كانت تقوم به . فأدارت إليه ظهرها مرة أخرى . ولكن هذا لم يهمه . كان الشيء الوحيد الذي أزعجه حينذاك هو كيفية مواجهته لها في الصباح . ولكن كان من الواضح أنها قد نسيت ما حدث ، ولم تكد تنظر إليه بينما كانت ترتدي ملابسها ، وهي تثب فوق الأرضية الباردة .

كانت هاتان الحادثتان ، اللتان حدثتا في غضون بضع ساعات — المشهد الذي رآه على ضفة القنال ، ثم الملاطفة في الفراش — كانتا الخط الفاصل بين طفولة آرثر ليجارد ومراهقته . حقاً إنه لم يكن قد جاوز العاشرة من عمره ، ولكنه لأغراض عملية ، لم يعد طفلاً ، أو أنه قد كف عن أن يكون طفلاً بعد . لقد أصبح تعلقه المرضي بپولين تعلقاً جنسياً بالتحديد ، وقد عنى هذا ، بدوره ، أن موقفه تجاه ما كان قد رآه على ضفة القنال لم يعد موقف الرفض ، فقد

أصبح بوسعه أن يعترف بوضوح بجاذبيته . فلو أن العم ديلئيام عرجه من المنزل عصر يوم السبت ذاك من شهر يوليو عام ١٩٤٣ ، فربما كان تطوره قد اتخذ سبيلاً مختلفاً كل الاختلاف . لقد كان جديراً بأن يوغل في انجذابه داخل عالم خيالات « ما تين » واستمر على رفضه لكل أفكار العشق بشقيقه . كان جديراً بأن يظل قابعاً في عالم الأحلام حيث يصبح هو « كابتن جون كارتر » يقاتل المحاربين القادمين من المريخ ، وحيث لا مكان لأفكاره عن نشاطات بوابلن الجسية .

ولكن عالمه الخيالي لم يفقد — بالطبع — شيئاً من سحره ولا من جاذبيته وظلت « أميرة المريخ » نموذجاً أساسياً لخياله : فقد كانت أحلامه يقظته تبدأ دائماً بالاستيقاظ فيجد نفسه فوق السرير المصنوع من « الحشائش الصفراء الشبيهة بالطحالب » والذي تمتد مسافة أميال عديدة . وشمس « بارسوم » الدافئة تسطع فوق جسده العريان . كانت الفكرة قد تملكت كل مسامه : أن يستيقظ فيجد نفسه راقداً في خلاء غريب ، مختلف عن الأرض اختلافاً كاملاً : بحاره الغريبة ، ومملكته الغريبة ، وحيواناته الغريبة ، وكلها بعيدة بعداً لا نهائياً عن دون مجهول .

[illegible]

جلب ينطلونه إلى أسفل ، فوجد أن الهواء البارد وإحساسه به على جسده العاري قد زاد من استثارته . لم يكن قد وصل – حتى ذلك الحين – إلى مرحلة العبث بأعضائه التناسلية ، فقد كان ما يزال يشعر بشيء من التأثم إزاء هذا ، وكان هذا هو أحد الأعمال التي يمارسها الصبيان « القذرون » في المدرسة . وكان يكتفي بأن يرقد على بطنه ، ويضغط بأعضائه التناسلية على الأرض ويحرك ردفيه .

ولكنه ظل حذراً فيما يتعلق ببولين نفسها ، كان خائفاً من أن تكتشف أعماله – فقد كان يخامره شعور بأنه لا بد أن يخمن كل الناس ما كان يفعله – ولذلك فإنه لم يحاول أن يتقدم بأي شكل في مجاورته لها على الفراش . ولكن استثارته الجنسية تجددت حينما اشترى العم ديك لبولين وآجي أول « طقم » من الملابس الداخلية النسائية : حمالة الصدر والسروال الداخلي الصغير . ولا شك أن آجي كانت موضوعاً لبعض الشكوك الغامضة ، ولكن صدرها كان مسطحاً تماماً . (أما ماجي التعيسة الحظ فقد ماتت بنوبة ربو مزمنة في شتاء عام ١٩٤٩ ، وكانت تشكو من عدد متنوع من الأمراض منذ طفولتها) . وكان آرثر ، في غمار نشاطاته الواسعة النطاق ، قد لاحظ أن تهيجه الجنسي يصبح أقوى ما يكون حينما تخلع فتاة سروالها الداخلي الطويل ، أو حينما تسمح لرجل بأن يخلعه لها ، وقد بدا له هذا المشهد بوصفه مشهداً مثيراً وخالياً من الرقة أو الأدب إلى درجة تفوق بكثير أي مشهد يتلوه . إن السروال الداخلي الطويل المصنوع من نسيج القطن السميك الذي كانت بولين ترتديه منذ أيام الذهاب إلى المدرسة لم يكن يمثل أي أهمية ، كان هناك شيء ما في نسيج الحرير أو الريون هو ما يستثيره . وحينما شرعت بولين في ارتداء السراويل الطويلة المصنوعة من الريون – التي كان من الواضح أن العم ديك يفضلها هو الآخر – فإن تهوسه بها – بأخته – أصبح أكثر تحدداً بالمجال الجنسي . وكثيراً ما كان يحدث أن يستيقظ في منتصف الليل ، متظاهراً بأنه يريد الهبوط إلى الطابق السفلي لكي يذهب إلى المرحاض ، ثم يأخذ سروالها

الداخلي الطويل من فوق المقعد حيث كانت قد تركته بعد خلعها له . وفي الطابق السفلي كان يرتدي السروال ، ثم يمر بيده فوق معدته وأسفل بطنه ، مستهيماً بإحساس النعومة الذي يطرأ على الجسم تحت ملمس الحرير ...

ولكن بولين لم تكن غائبة عن الوعي كما تصور – فقد ثارت شكوكها حينما حدث ذات صباح أن وجدت سروالها الداخلي الطويل تحت المقعد بدلاً من أن يكون فوقه . وكان من الواضح أن آرثر قد نام وهو مرتد سروال أخته ولم يستيقظ إلا بعد أن لاح نور الصباح . وقد استطاع أن يخلع السروال وهو في الفراش ، ثم ركله بعيداً وقذفه على الأرض ، آملاً ألا تلاحظ النتيجة . وذات ليلة كانت هي ما تزال مستيقظة حينما تسلل من الفراش ، وبينما هو في الطابق السفلي قامت لتفحص ملابسها . سألتها عن شعورها حينما افتقدت سروالها الداخلي بين الملابس فقالت :

« إسمع ، لقد أحسست بأن هذا نوع من المجاملة والتقدير لنفسي ، إنه تصرف لا يؤدي إلى أي ضرر لي . أليس كذلك ؟ » .

وقد حدث في هذه الفترة تقريباً أن اكتشف أنها كانت تنام مع العم ديك . وكانت بولين قد سردت علي هذه الحكاية بالفعل : كيف دخل آرثر إلى المطبخ فوجدهما في وضع يبعث على الارتياب . وابتعد أحدهما عن الآخر على الفور . ولاح عليهما شعور بالأثم لم يخلف في عقله شكاً في صحة انطباعه الأول عن الموقف . وطوال اليومين التاليين ، تحاشى العم ديك أن ينظر إلى عينيه .

وارتج على آرثر وعجز عن الكلام . كان قد اعتاد على فكرة أن بولين تسمح لأصدقائها من الصبيان بأنواع مختلفة من اللمسات ، ولكنه صدم صدمة حقيقية حينما اكتشف أنها تفعل نفس الشيء مع العم ديك . وقد بلغ به السخط إلى درجة أنه عجز عن إرغام نفسه على ذكر الواقعة أمامها . ولكن ، بعد ليلتين ، استيقظ في الليل لكي تمد يدها فوقه مرة ثانية . بينما هي تهمهم وتغمغم بكلمات غامضة في نومها ، ودفعته فكرة أنها تظنه العم ديك إلى نوبة

عاتية من التهيج العنيف : كان يختلس شيئاً قصد به شخص آخر . كان فخذاها مفرجين وشفتاها تتحركان حركة خفيفة ... وفي الصباح التالي تحاشا أن ينظر أحدهما الى عيني الآخر أثناء ارتدائهما ملابسهما . ومع هذا . فقد بدا لآرثر أن الجليد القائم بينهما قد تحطم ... ولكن تفسيره هذا لم يكن صحيحاً بشكل كامل . كما عرفت من بولين .

وهناك سبب آخر . فشل آرثر في أن يضعه في اعتباره . فقد كانت بولين في الرابعة عشرة من عمرها فحسب : وكان ذلك ليتحارد يعرف أنها لو أخضعت لفحص طبي جسدي بواسطة جراح تابع للشرطة . لأمضى هو السنوات الخمس التالية في السجن . وقد كلفته فكرة أن آرثر قد يذكر للناس ما رآه . كلفته أرق ليلتين متواصلتين . وفي اليوم التالي للواقعة التي وصفتها منذ قليل سأل بولين :

« هل تكلم معك بشأنها ؟ »

« كـــلا »

« اذن فتحدثي أنت إليه . أنت تعرفين كم يقدرك ويحبك . قولي له إنهم سيضعونك في اصلاحية للفتيات لو أنه ذكر هذا الموضوع لأي مخلوق . »

وعلى هذا . فحينما كان آرثر يجفف الصحون ذلك المساء . انضمت إليه بولين في المطبخ . وأخذت منشفة أخرى . لم يتكلم أحدهما برهة من الوقت . ثم قالت له :

« إنك لن تخبر أحداً بالأمر . أليس كذلك ؟ »

ولم تكن به حاجة إلى أن يسألها عما تقصده . هز كتفيه وقال : « أظنني لن أخبر أحداً » . فمرت هي بيدها فوق شعره . وهي علامة حب كانت مفهومة بينهما منذ الطفولة . وقالت له :

« أنت [illegible] طيب »

سألها السؤال الذي كان عالقاً بذهنه منذ [illegible]

« [illegible] »

ابتسمت وقالت :

« أوه . كلا . ليس عجوزاً . »

وفيما بعد ذلك المساء . تبعها العم دبك إلى الخارج حينما خرجت لتحضر جميع الملابس المغسولة المعلقة على أحد الحبال . سألها :

« ماذا قال ؟ »

« أظن أن الأمر سيكون على ما يرام . »

« هل وعد بذلك ؟ »

« حسناً . لا . ليس بالتحديد . »

« حسناً . حاولي واجعليه يعد بذلك . كوني لطيفة معه »

وقد فسرت بولين تلك العبارة الأخيرة بطريقتها الخاصة . وقد حصلنا على بقية القصة من آرثر ...

لم تكن هذه التجربة بالنسبة لآرثر . تجربة خبرها تماماً . وإنما بدت له في صورة تعويض . تعويض السنوات الثلاث والرفض لأن تضمه بتكبث . لقد تحولت إليه الأرض الأم ممثلة بوجهها وعاطفة تعاشق جسمي . كانت نشوته حادة حدة هائلة . فشعر أنه لو كان طافياً فوق بحر من الشكر والهدوء . [illegible] ما كان العم [illegible] لأخته ؟ وماذا كان يهمه لو أن كل [illegible] في الشارع كان يعلم نفس الشيء ؟ لقد كانت [illegible] وكانت الحياة حلوة . وكل شيء سيصبح على ما يرام في النهاية إذا [illegible] [illegible]

وكانت بولين هي الأخرى [illegible] من [illegible] كانت الآن [illegible] له [illegible] مع العم دبك

الفصل السادس

حينما تحدثت مع بولين حول الواقعة التي وصفتها منذ قليل ، كان من الواضح لي أنها لم تراودها أية فكرة عن أهمية هذه الواقعة في تطور آرثر . لم تكن تلك الواقعة بالنسبة لها سوى إضافة أخرى الى الألعاب الجنسية التي كانت تمثل جزءاً كبيراً من أفكارها بصورة طبيعية . لم تكن واعية بأنها قد خلقت نوعاً من الانهيار الأرضي السيكولوجي عند آرثر . إن كل العقول الانسانية تسير على حبل مشدود بين التفاؤل واليأس ، الثقة والشك . إن العقل الصحيح ، إذ يقع في شرك ظروف سيئة ، يبحث عامداً عن الأوزان المقابلة التي توازن تمرده ورفضه . وكان آرثر قد عثر على هذه الأوزان في صورة روايات « إدجار رايس بورو » و « ا. ميريت » . وقد شنّت « ذاته الأخرى » الحملات على كوكب المريخ بصحبة جون كارتر ، ويوليسيز باكستون ، وجاسون جريدلي ، بينما ظل آرثر ليتجارد الذي تعرفه أسرته وأساتذة مدرسته مغروساً في أوحال شارع بيكيت والتجسس على العشاق من وراء الأغصان المتشابكة . وقد كان من المحتمل أنه كان في سبيله الى الوصول إلى شخصية منقسمة مثل « والتر ميتي » الذي وصفه « تيربر » قانعاً بأن يقبل ذاته « الحقيقية » باعتبارها ذاتاً سيئة الحظ ولا تأثير لها . ولكنني أعتقد أن علاقته الجديدة مع بولين قد غيرت كل هذا وحولته عن مساره .

ولكن ، يدخل هنا عنصر ثالث ، لم يكن حتى ذلك الحين قد لعب دوراً هاماً : وذلك هو تعرّضه للاصابة بمرض الصرع . وقد كان هذا موضوعاً وجدته راغباً عن الكلام فيه ، معرضاً عنه الى درجة غريبة . وقد افترضت

أن إعراضه هذا كان بسبب احساسه ببقايا الخجل والشعور بالعار الذي حمله في داخله من أيام المدرسة : اذ لا يمكن أن يكون من الأمور السارة أن يصرع المرء ثم ينهار في وسط ملعب مزدحم بالزملاء أو وسط درس للتاريخ ، ثم يستيقظ فيجد نفسه محاطاً بوجوه يعلوها تعبير ينم عن الفضول الممتزج بالاشمئزاز .

حدث بعد بضعة أيام من مناقشتنا معاً لخيالاته المتعلقة بالكائن المريخي أن نشرت جريدتي اليومية صورة لكوكب المريخ كانت محطة الفضاء الروسية قد التقطتها للكوكب الأحمر عن قرب . وأخذت الجريدة معي لكي أطلع آرثر على الصورة . نظر إلى الصورة القاتمة نظرة عابرة ، ثم قرأ العنوان الكبير بسرعة : « الروس يقولون : لا حياة على المريخ » ثم قذف بالجريدة على الأرض في اشمئزاز ، ثم قال :

« بلهــاء . »

سألته : « لماذا ؟ هل تعتقد أن ثمة حياة في المريخ ؟ »

« أنا « أعرف » أن هناك حياة . »

كنت منذ بعض الوقت أتساءل عن مدى السيطرة التي تمارسها عليه خيالاته من الغزاة السود . وكان هذا موضوعاً اتفقنا — بلباقة — على ألا نناقشه . وبدت لي هذه الفرصة مناسبة للاقتراب من الموضوع . سألته :

« كيف تعرف ؟ »

وكان ما وصفه — بطريقة عاقلة واضحة — أشبه بنوع غريب من الحلم أو الرؤيا .

قال إنه كان جالساً على ضفة القنال عصر ذات يوم عادي « من أيام السبت » ، حينما كان أغلب شبان البلدة قد ذهبوا الى مباراة في كرة القدم . وكان في هذه اللحظة يرسم خريطة لقطاع من منطقة « مارتين في مملكة « جيداك » — فرسم سلسلة من البحيرات المترابطة في منطقة جبلية . تربطها مجار للمياه ذات تيار سريع تستمر حتى تختفي تحت الأرض . وكان من حين الى حين ، يشير إلى

واحدة من روايات مارتين المغلفة بغلاف من الورق المقوى الرخيص والتي كان يحملها على الدوام في كيس أدواته المدرسية . وفي ذلك الأصيل بوجه خاص ، كان يشعر واعياً بنوع من الانغماس المتميز في لعبته ، وبإحساس بالصمت والتركيز . وفجأة بدأ يشعر بشيء ما . (سألته أن يكون أكثر تحديداً في وصفه لذلك الشعور ، فقال : « إنه شعور برعشة ، والارتجاف ») . برز من داخله شعور هائل بالرضا . وحينما نظر إلى خريطة مملكة « جيدالك » مرة أخرى أجتاحه إحساس غريب بأنه إنما « يتذكر » هذه الخريطة . صدم حينما تبين أن هذا كله لم يكن محض خيال : إنما كان حقيقياً . كان يحس بأن تلالاً سوداء ترتفع من فوقه ، وبمرتفعات صخرية تتخلل التلال ، وعلى سطحها علامات خضراء زجاجية لأشجار كانت أغصانها وأوراقها سوداء كبيرة الحجم ، ذات ثمار عظيمة حمراء وقرمزية ؛ وفي الوقت نفسه اشتم رائحة الهواء بوضوح ، وكانت رائحة متميزة ولا يمكن إخطاؤها ، وسمع صوت المياه المتساقطة . اجتاحه إحساس بالكشف والتعرف . احساس بأنه يقبض على شيء « حقيقي » تماماً . وحينما خبا هذا الإحساس — أو الرؤيا — وتلاشى ، ظل لديه إحساسه بحقيقة ما رآه وشمه وسمعه . وبينما كان يسير عائداً إلى شارع بينكيث ، وسط الجموع التي ترتدي ملابس بألوان رداء فريق نادي « مانشستر يونايتد » ظل يفكر : « إذن فإن « هذا » ليس حقيقياً على أي حال » . وكان يقصد بكلمة « هذا » الحقيقة الواقعية من حوله .

سألته : « ألست واثق من أن « المريخ » كان هو ما رأيت ؟ »

« أوه ، نعم لقد كان المريخ بالفعل »

« ألا يمكن — على سبيل المثال — أن تكون رؤية من نوع ما مرت بك وأنت على وشك الاصابة بنوبة صرع ؟ »

زمجر في وجهي صائحاً : « كلا ! لماذا تريدون أيها الناس أن تحددوا كل شيء « إلى أسفل . لا لشيء » إلا لأنكم تعجزون عن فهمه ؟ »

قلت متواضع : « أنا آسف . لم أكن أقصد أن أحاجب رأيك إلى الأرض .

ولكن يجب أن تعترف أنه من الصعب عليّ أن أفهم . »

« أعتقد أنها ... ما زالت ، أنها حق تماماً . »

« هل مرت بك هذه الحالة مرة ثانية ؟ . »

« مرة واحدة ، أو مرتين . »

ولكنه كان قد أصبح الآن غير راغب في الكلام عنها .

ضغطت عليه بشأنها فيما بعد ، حينما كان قد نسي رفضه القديم وسخطه . وأصبح من الواضح لي أن هذه « الرؤيا » كانت حدثاً ذا أهمية عظيمة في عامه الحادي عشر . كان تفسيره الخاص هو أن قوة داخلية ما لديه قد استيقظت ، فأعطته فرصة أن يلقي نظرة عن بعد — تليباثية — على كوكب حقيقي . ويؤكد سلوكه التالي هذا التفسير : لقد استعار كتباً عن النظام الشمسي من المكتبة ، ودرس الكثير من المعلومات عن كوكبي المريخ والزهرة — وقد شعر في البداية بخيبة الأمل حينما تبين أن « المريخ » الحقيقي لا بد أن يكون أكثر برودة بكثير من « المريخ » المذكور في الروايات والقصص . طالما أن بعده عن الشمس يزيد عن بعد الأرض عنها بما يقرب من أربعين مليوناً من الأميال ، ثم طرأ له أنه حتى لو كان هذا صحيحاً ، فليس هناك من سبب يمنع نباتات المريخ وحيواناته قد كيفت أنفسها مع درجة الحرارة المنخفضة هذه حتى تلاءمت معها ، تماماً مثلما أنها قد تكون كيفت نفسها مع التنفس في جو مختلف . وبهدف أن يضع فرضية بديلة ، كان على استعداد لأن يعترف بأنه من المحتمل ألا تكون رؤياه مرتبطة بكوكب المريخ ، وإنما بكوكب الزهرة . ولكنه على كل حال ، لم تخالج ثقته ذرة شك واحدة في أنه قد رأى ، أو تذكر ، مكاناً حقيقياً .

من وجهة نظري ، تقدم نظرية اصابته بالصرع ، أقرب تفسير إلى الحقيقة . وقد حدث بعد عدة أسابيع أن أطلعته على خطاب من خطابات دستويفسكي يصف فيه أحاسيسه قبل اصابته بنوبة الصرع : الاحساس الثقيل بضيق التنفس ، والانقباض ، يتلوه احساس مفاجئ ، بالسعادة المطلقة والراحة

والتخفف من كل الهموم ، يخالطه إحساس ببصيرة داخلية عارمة . وقرأ آرثر الخطاب ، ووافق متحفظاً على أن تجربته كانت ، في بعض الأحيان ، تشبه هذه التجربة ، ثم غير الموضوع . فتحققت من أنه ما زال من المهم له جداً أن يصدق أن « رؤياه » كانت مرتبطة بكوكب حقيقي آخر . كان هذا الاعتقاد يعطيه إحساساً بالتفرد المتميز ، وبأنه « مصطفى » أو « مختار » على نحو من الأنحاء .

وأنا أميل أيضاً إلى الاعتقاد بأن علاقته الجديدة ببولين قد لعبت دوراً مهماً في هذه التجربة . لقد تسبب قبولها له بفيضان من المتعة والبهجة والتفاؤل ، وبفورة من الثقة بالنفس أدت إلى تدعيم خياله ، وتقوية إحساسه بالتماثل الكامل مع أبطال مارتين . وقد اعترف صراحة أيضاً ، بأن تهويمه الحسي ببولين قد أدى به الى تنمية قدرة غير عادية على التركيز . كان يذهب الى الفراش أولاً ، ويظل مستيقظاً في انتظارها . وكانت هي دائماً ما تخلع ملابسها بعد أن تطفىء نور المصباح . ولكن كان هناك غالباً شعاع من النور ، قادم من غرفة النوم في المنزل المقابل ، يجعله قادراً على رؤية جسدها . وكانت دائماً تترك سروالها الداخلي لكي تخلعه في النهاية . ودائماً ما أدى خلعها الفعلي للسروال إلى نفس الرجفة اللذيذة الممتزجة بالاحساس « بعدم الرقة » التي كان يشعر بها حينما يراقب أزواج العشاق على ضفة القنال . وحينما تصعد إلى الفراش ، كان يرقد مستيقظاً ، تنتابه أحياناً حالة من الاشتهاء المكبوت تجعله يشعر بأنه يطفو سابحاً في الهواء ، منتظراً أن ينتظم تنفسها لكي يدرك أنها قد غرقت في النوم . وحينئذ كان يستطيع أن ينزلق خارج الفراش ، وأن يتحسس طريقه حتى تلمس يده نسيج الحرير الصناعي الناعم فوق كومة ملابسها . ولم يكن يجد صعوبة في البقاء مستيقظاً ، قوي التركيز على هدفه . وكان أكثر ما يدهشه ، هو أنه بدلاً من أن يشعر في الصباح التالي بالألم والاجهاد ، كان في العادة يشعر بالنشاط وبأنه مشحون بالطاقة . فيلاحظ مناظر الشارع وأصواته بإحساس بالابتهاج كان غريباً عليه كل الغرابة . وقد نما لديه اعتقاد بأن أكثر

الناس ينامون أكثر من اللازم ، وأن الإنسان الذي يحاول حقاً أن ينمي طاقاته وأن يطورها يستطيع أن يتخلى عن هذه القيود وأن يلقيها بعيداً عن نفسه

وقد لاحظت بولين أن شقيقها قد نمت لديه ثقة جديدة بنفسه . لم يعد يختفي مختبئاً في الأركان والزوايا محاولاً أن يخفي الكتاب الذي يقرأه ، أو أن يبعد عنه بعصبية أي شخص يحتك به . وقد ظن العم ديك أن الوقت الطويل الذي يقضيه خارج المنزل يساعد على تحسين صحته . ومن الصعب أن نتوقع منه أن يخمن أن ابن أخيه الغريب كان يتجه بالتدريج الى الاصابة بعقدة السوبرمان (عقدة التفوق على الآخرين) ، وأن يزداد احساساً بالثقة من تفوقه الساحق على من يحيط به من الناس . كان آرثر مقتنعاً بأنه – بشكل ما – يعيش في وقت واحد ، عدة أشكال مختلفة من أشكال الوجود . أو شكلين على الأقل : أحدهما على الأرض ، والآخر على المريخ أو على الزهرة . وكانت « النظرات السريعة الشبيهة بنظرات الرؤيا » التي يلقيها على الكوكب الآخر تحدث حينما يكون وحيداً في حالة من الهدوء والسكينة تحقق له قدراً حاداً من التركيز . وأحياناً ما كانت هذه اللحظات تأتي حينما يكون على حافة النوم . لقد قرأ ، وأعاد قراءة رواية « يوروز » ثم رسم خرائط تفصيلية وأشكالاً مجسمة لتاريخ مارتين .

وقد كان هذا الاحساس الجديد من الثقة بالنفس هو ما دفعه لكي يجتاز الحدود المؤدية إلى الجريمة الحقيقية : فقد أمده هذا الإحساس بالقوة الاضافية المطلوبة لتحويل الخيال إلى فعل .

كان الصيف الحار لعام ١٩٤٩ قد تحول إلى خريف ممطر ، ولم تعد الفرصة متاحة لآرثر لكي يستمتع بوحدته المترعة بأحلام اليقظة مع مارتين . وقد اعترض العم ديك على مسألة أن يقرأ في حجرة النوم بحجة أن هذا سيؤدي الى الاسراف في استهلاك الكهرباء . وكان يذهب من حين الى حين الى قاعة القراءة في المكتبة المحلية ، ولكن لم تكن الفرصة متاحة هناك

للاستمتاع بالخصوصية في جو من الوحدة ، وكانت رؤية الفتيات الصغيرات ، في خروجهن ودخولهن تستثير نوعاً من الخيالات الجنسية التي تحطم فوقعة الوهم الرقيقة . وجاء شهر نوفمبر صقيعي البرد كئيباً . وقد حدث في أواخر شهر نوفمبر من عام ١٩٤٩ أن ارتكب أول عملية سطو في حياته .

كان قد عاد من المدرسة الى البيت لكي يجد المنزل خالياً . وحينما جلس أمام نار المدفأة ، شعر بالتعب ، والنفور من كل شيء والضجر . كانت النار خابية ضعيفة ، ولكنه لم يستطع أن يبذل الجهد المطلوب للاتيان بالمزيد من الفحم — وكان العم دبك يصر على تزويد كتل الفحم بالسخام المبلول (تراب الفحم) حتى تستمر الكتل في الاشتعال طوال النهار . ووجد نفسه يتمنى لو أن الفصل كان صيفاً حتى يتمكن من الخروج للتجسس على ضفة القنال . كان الضجر يرعبه أكثر من أي شيء آخر . لأن الضجر كان يبدو له كنوع من الاستهزاء بما يزعمه لنفسه من قوى غير عادية .

كان أحد أصدقائه القلائل في المدرسة صبياً يدعى « دنكان ماكيفر » . كان صبياً مصاباً بقصر النظر ، وله ذراع ضامرة بفعل اصابة روماتيزمية قديمة . ولكنه كان أيضاً مدمناً على قراءة القصص العلمية ، وكان يمتلك مجلداً يضم بعض أعمال ميريت كان آرثر يسميه بطريقته الخاصة : « ازحف ، أيها الظل ، ازحف » . وكان هو وآرثر يتبادلان اعارة الروايات الرخيصة ، وأحياناً يتقايضانها . وكان والدا دنكان في حالة مالية أفضل من غالبية أسر بقية زملائه في المدرسة ، وفي الحقيقة كان دنكان قد دخل إحدى المدارس الخاصة لمدة سنة كاملة . وقد تذكر آرثر الآن — في جلسته الضجرة تلك — أن دنكان قال له انه سيذهب إلى السينما في مانشيستر بعد الخروج من المدرسة ، لأن أمه كانت ستأخذه بالسيارة إلى هناك لكي تتسوق بعض الحاجيات من السوق . وكان يعرف أن لدنكان شقيقة تدرس في إحدى مدارس السكرتارية وهي في سن تقارب العشرين ، وأن والده غالباً ما يكون خارج المنزل طول الليل . وكان معنى هذا أن هناك فرصة طيبة لأن يكون منزل رفيقه خالياً في هذه

اللحظة . وكان آرثر قد ذهب إلى هناك مع دنكان ذات يوم في عودتهما من المدرسة وقد رآه آرثر وهو يستخرج مفتاحاً للباب الخلفي للمنزل من كوة صغيرة في جدار السلم الصغير . وكانت هناك خميلة كرز في الفناء الخلفي للمنزل ، ذات أغصان متسلقة على تركيبة خشبية مرتفعة ، حتى أنه كان من الصعب أن يرى أحد الجيران في المنازل المجاورة ما يجري في هذا الفناء . وكان دنكان قد أخبره بأن لديه صندوقاً للكتب في غرفة نومه ، وأن هذا الصندوق ليس من الصعب العثور عليه .

وحالما بدأ آرثر في فحص فكرته ، مستمتعاً بذلك ، شعر بنوع من التهيج الرطب في معدته ، وتذكر أن حكاية صندوق الكتب يمكن أن تكون برهاناً يخدع به الآخرين . إذ كان عليه أن يذهب حاملاً أحد الكتب ، زاعماً أنه قد نسي أن دنكان لا بد أن يكون خارج المنزل . كان الغسق وشيكاً ؛ وفرص الامساك به قليلة .

اختفى الضجر على حين فجأة ، وشعر مرة أخرى بالتهيج والتوتر الذي اعتاد أن يشعر به حينما يرقد في الفراش ، منتظراً أن تغرق بولين في النوم .

كان منزل دنكان على بعد ميلين ، فاستعار آرثر دراجة يملكها جيم ، فوصل إلى هناك بعد عشر دقائق . ترك الدراجة عند طرف الشارع وسار إلى المنزل . لم تكن هناك مصابيح مضاءة . صعد الدرجات المؤدية إلى الباب الأمامي ودق الجرس . ولم تأته أية اجابة . دار حول جانب المنزل — تغطيه حافة السور الخشبي — وطرق على الباب الخلفي . عالج « أكرة » الباب ، فوجدها مغلقة . ذهب إلى الكوة ، فوجد المفتاح معلقاً وراء بابها . كان قلبه الآن يضرب ضربات مؤلمة ، ولكنه شعر باهتياج مبتهج هائل وهو يدير المفتاح في قفل الباب ، ثم وهو يدفعه فاتحاً إياه .

كانت أرضية المطبخ مفروشة بأبسطة من المشمع الأخضر والأبيض ، لفتت نظره . أما الآن ، وقد وقف داخل المطبخ ، فقد سحره كل شيء وحلب لبه ، الثلاجة الكهربائية الكبيرة ، وفرن المطبخ الضخم ذو اللون

الأبيض اللامع ، وحوض الغسيل المزدوج . أغلق الباب وراءه بعناية وهدوء ، ووضع المفتاح في جيبه . فاذا جاء أي شخص إلى المنزل ، كان بوسعه أن يختبيء ، ولن يكون ثمة دليل على أنه كان هناك .

خرج من المطبخ إلى البهو . كانت ساعة حائط قديمة تدق دقاتها الرتيبة بسلام في الزاوية . كان المكان دافئاً ، وكانت هناك أجهزة التدفئة المائية ظاهرة عند أحد الجدران . استرق النظر من باب مفتوح فرأى حجرة تغطي الأبسطة أرضيتها ، وفيها «بيانو» ضخم ، ثم دخل الغرفة ونظر من النافذة . كان ضوء النهار ما زال منتشراً ، ولكن الظلمة كانت تهبط بالتدريج . كانت هناك بعض الصور فوق البيانو ، لدنكان ، ووالديه ، وفتاة شاحبة جميلة ، من الواضح أنها لشقيقة دنكان . ذكرته بآجي .

كان احساسه بكونه داخل منزل غريب ، هو أكثر ما عرفه من الأشياء إثارة في حياته ، وكان التهيج الجنسي الذي شعر به عارماً . أسكرته الروائح الطيبة ؛ فطلاء الأثاث تفوح منه رائحة اللافندر ، وكانت هناك بعض المواد المرطبة للجو موضوعة فوق مائدة البهو . وحتى عدم وجود أية رائحة في بعض الحجرات قد أسكره ، وأدهشه كشيء رائع ، بعد الروائح العفنة المنتشرة في شارع بينكيث .

صعد إلى الطابق العلوي قافزاً درجتين في كل خطوة . وعند أعلى السلم كان باب غرفة من غرف النوم مفتوحاً — من الواضح أنها كانت غرفة نوم دنكان ، لأنه كان يستطيع أن يرى صندوق الكتب مفتوحاً وكعوب الكتب الملونة ذات الأغلفة الورقية بادية داخله . فتح باب الغرفة التالية ، فرأى غرفة نوم كبيرة مزدوجة ، كان من الواضح أنها غرفة والدي دنكان . وكان من الواضح أن أحدهم قد نام على الفراش ، ولا شك أن مسز ماكيفر كانت قد أغفت قليلاً قبل أن تخرج لكي تأخذ ابنها من المدرسة . لم يكن في وسع آرثر ان يصدق عينيه . كان من الواضح ان الملاءات مصنوعة من الحرير الأخضر . وكان للحرير معنى جنسي (فيتيشي) لديه . وكان الآن متهيجاً إلى

درجة أن كان عليه أن يقاوم ما شعر به من إغراء يدفعه إلى أن يخلع ملابسه وأن يصعد إلى الفراش .

خرج من الغرفة ، وفتح باب الغرفة التالية . كانت هذه « حماماً » فرش على أرضيته المشمع الأخضر بلون ماء البحر وتفوح فيه رائحة عطرة . وكانت قطع الصابون وردية وزيتونية ، وقد سره هذا إلى درجة أنه غسل يديه في الحوض بالماء الدافيء . كانوا في شارع بينكث يستخدمون قطعاً ضخمة من الصابون الأخضر ، يقتطعون منها شرائح صغيرة .

قال لي إنه حين بلغ الحمام ، كانت كل مخاوفه قد اختفت وتلاشى معها توتره . كانت هناك أمكنة كثيرة في هذا المنزل يمكنه الاختباء فيها إذا دخل أحدهم إلى المنزل ، بل ربما أمكنه أن يظل مختبئاً حتى يناموا جميعاً ثم يتسلل إلى الخارج . وكان وجود الأبسطة السميكة يؤكد له ان بوسعه أن يتحرك دون أن يصدر عنه أي صوت ودون أن يسمعه أحد . اختلس نظرة إلى سلة حفظ الملابس المستعملة قبل غسلها لكي يرى إن كانت هناك أية ملابس داخلية نسائية . ولكن لم تكن بالسلة إلا بعض أغطية الفراش .

جفف يديه بعناية في منشفة كانت معلقة في الحمام ، ثم أعادها بعناية إلى نفس الوضع التي كانت عليه فوق قضيب معدني دافيء . ثم خرج من الحمام لكي يجرب باباً آخر . بدت له الغرفة التالية مخصصة لنوم الضيوف . ذلك أنها رغم الفراش المزدوج الذي تحتويه ، لم تكن هناك علامة على وجود من يشغلها ، وكانت أدراج الصوان خالية . ولكن حجرة النوم التالية ، التي تطل على الحديقة الأمامية ، كانت هي حجرة شقيقة دنكان بشكل واضح . مرة أخرى ، كانت الحجرة تضم سريراً مزدوجاً (وقد دهش آرثر للاسراف الذي يدل عليه تخصيص سرير كبير لشخص واحد) ومرة أخرى كانت أغطية الفراش من الحرير الأخضر . كان هذا أكثر مما يطيق احتماله . فخلع ملابسه وصعد إلى الفراش . وبينما كان يفعل هذا ، اجتاحه احساس وصفه لي بأنه كان « احساساً رائعاً بالاحتفال » . كان هذا هو سريرها ، وكانت قد

غادرته منذ ساعات قليلة . وربما كانت تنام عارية وسط ملاءات وأغطية من هذا النوع ؛ وإلا فما الغرض من استخدام ملاءات وأغطية من الحرير ؟ كان ملمس الفراش بارداً ، فراح يتقلب فوقه ويرتعد كما لو كان قد قفز في ماء بارد . أهاجته فكرة تصوره لجسدها العاري ، فراح يضغط بأردافه وفخذيه على الغطاء المفرود من تحته . وعلى حين فجأة تماماً ، بلغ ذروة نشوته الجنسية العنيفة ، وبنفس القوة والتميز والوضوح ، شعر بشخصيته المستمدة من كائنين مارتين ، وأحس بالسهول الشاسعة والجبال الصخرية التي كانت هي بيته الحقيقي . وقد امتزج هذا الشعور باحساس اشبه بالملوسة بأنه يمارس الحب مع شقيقة (دنكان التي لم يعرف اسمها) . رقد في مكانه لمدة خمس دقائق بعد أن كانت نشوته قد خبت وتلاشت ؛ شاعراً شعوراً غريباً بالثقة والأمان . دقت ساعة البهو لكي تعلن الربع بعد الخامسة . هبط من الفراش في حالة أقرب إلى الدوار ، وارتدى ملابسه ، وبعناية فائقة ، أعاد الفراش إلى حالته الأولى ، ففرد الأغطية ونظم الوسائد .

وقد حدث بينما كان يفعل هذا أن سمع المفتاح يدور في الباب الأمامي ، فاجتاحه فجأة برد الخوف . خرج من حجرة النوم ، وهو يشكر الله لوجود الأبسطة التي خنقت صوت خطواته ، ومشى على أطراف أصابعه على طول الممر المواجه للغرف في الطابق العلوي . سمع صوت اغلاق الباب . ولكن لم يكن بوسعه أن يرى القادم . لم يكن من الممكن أن يكون القادم هو دنكان وأمه ، فانه لم يكن قد سمع صوت السيارة ؛ إلى جانب أن الوقت كان ما يزال مبكراً جداً . وأياً كان القادم ، فقد كان وحيداً . ولذلك فمن المحتمل أنه كان إما والد دنكان أو شقيقته . سمع صوت اغلاق باب الثلاجة الكهربائية ، ثم قرقرة اللبن وهو يصب من الزجاجة في أحد الأكواب . وبعد دقائق قليلة ، سمع همهمة صوت نسائي يتغنى ببعض ألحان من أغنية شائعة تدعى : « خليج جالواي » . شعر بالارتياح ، فلو أن أسوأ ما تمكن من الاحتمالات هو ما سيحدث ، فسيكون بامكانه أن يتعامل مع فتاة

حتى لو كان معنى هذا هو أن يهاجمها .

لم يحدث شيء في الدقائق الخمس التالية ، وانخفض معدل ضربات قلبه وبدأ يتساءل إن لم يكن من الممكن أن يسير على أطراف أصابعه فيهبط السلم ثم يخرج من الباب الأمامي . فتح باب غرفة النوم المخصصة للضيوف ، لكي يوفر لنفسه مكاناً يتراجع إليه في حالة الطوارىء ، ثم سار على أطراف أصابعه إلى قمة السلم لكي يقدر الموقف . وكان بوسعه أن يسمع أصوات تحركاتها في حجرة الجلوس . ثم خرجت من الحجرة . وتراجع هو إلى الخلف . عبرت خطواتها البهو وبدأت في صعود الدرجات . توقع أن تنظر إلى أعلى فتراه ، وربما تصرخ . فأسرع إلى الغرفة الخالية وأغلق بابها وراءه بأسرع ما أسعفته جرأته على ذلك . عبرت الباب الذي كان يقف وراءه ، واتجهت إلى حجرتها . سمع صوت مفتاح النور . فقد كانت الظلمة على وشك أن تظلل كل شيء – وسمعها وهي تنزل الستائر . وبعد ذلك كف عن الاهتمام بالاصغاء الى ما يصدر عنها من أصوات . كانت مثانته قد امتلأت بالماء ، وأصبح همه الرئيسي هو كيف يمنع نفسه من أن يفرغها في بنطلونه .

خرجت من حجرتها واتجهت إلى الحمام . سمع صوت فتح الباب واغلاقه ، وكان من الواضح أنها لم تشك في شيء ، لأنها كانت ما تزال تغرد ببعض مقاطع من أغنية « خليج جالواي » . وأخيراً ، سمع صوت اغلاق باب الحمام . فشعر بارتياح عظيم . طرأت له فكرة أنها من المحتمل أن تكون الآن تخلع ملابسها ، فأسرع يخرج من الغرفة ، ووضع عينه على ثقب مفتاح باب الحمام . ولكن لم يكن بوسعه أن يرى أي شيء ، فقد كانت تقف في مكان بعيد عن مجال الرؤية . عند هذه النقطة ، كان من المعقول أن يغادر المنزل ، فلو أي لص منازل آخر كان جديراً أن يفعل هذا . ولكن هذه هي النقطة التي تختلف فيها آرثر ايجاره عن أي لص منازل عادي . كان متهيجاً حسياً ، وشعر بنوع من الأمان والقوة . فلو أن باب الحمام لم يكن مغلقاً بالمفتاح أو المزلاج من الداخل ، فربما حاول أن يهاجم الفتاة في الحمام . وقد ارتبط

صوت تدفق المياه بالداخل في ذهنه بصورة للفتاة وهي تدعك ثدييها بالصابون، وجعله هذا يشعر كما لو كان حيواناً متوحشاً استبد به الجوع .

دار حول نفسه ، فرأى أن باب حجرة نومها ما يزال موارباً ، وأن ملابسها قد وضعت على الفراش. لم يكن قادراً على أن يصدق حسن حظه ، فسار على أصابع قدميه إلى داخل الحجرة . كان قميص نوم وردي – سبق له أن رآه ملقى على الفراش – قد اختفى ؛ وفي مكانه كان هناك ثوب أزرق ، وقميص داخلي يتدلى منه جورب حريري . رفع القميص الداخلي فاكتشف أن الجورب الآخر كان مشتبكاً بفتحة ساق سروال داخلي حريري صغير ، وعلى الفور ، فك أزرار بنطلونه ، وراح يضغط السروال على أعضائه المتوترة . وتسببت برودة السروال في بلوغه ذروة نشوته بشكل سريع – على الفور تقريباً – وبقوة وعنف جعله يشعر بإغراء أن يستلقي على السرير .

وحالما تلاشت نشوته ، شعر بالرعب . ولم يكن ذلك خوفاً من أن يلقى القبض عليه ، وإنما خوفاً مما كان قد عقد نيته عليه : أن يهاجم الفتاة في الحمام . أما الآن، وقد عاد إلى الاسترخاء، فقد شعر بسخف فكرته . وأراد أن يخرج من المنزل ، وأن يتركها لحمامها . ولكنه قبل هذا ، فتح درجاً من أدراج الصوان في غرفتها ، وأخذ سروالاً داخلياً يماثل السروال الأول الذي وجده على الفراش ، ثم عاد إليه فأدخله بعناية في القميص الداخلي ، بل إنه طوى الجورب ودسه داخل فتحة ساق السروال ، ثم هبط الدرج ، فرأى أن باب حجرة الجلوس كان مفتوحاً والنور الكهربائي مضاء . كان هناك مكتب صغير في أحد الأركان، وكان هو يريد تذكاراً آخر لزيارته . اختلس نظرة داخل المكتب فرأى صندوقاً صغيراً أزرق اللون للبطاقات وضع في حفرة صغيرة حفرت في الخشب ، فوضعه في جيبه ، ثم اتجه إلى المطبخ ، وفتح الباب ثم أغلقه خلفه وأعاد وضع المفتاح في مكانه . كان الآن آمناً . وحتى لو عاد دنكان وأمه ، فإن في وسعه أن يزعم أنه قد جاء لكي يبدل الكتب . ولذلك فقد سار بجسارة حول المنزل حتى خرج إلى الباب الأمامي . وحينما بلغ منتصف

طريقه في الشارع ، عبرت به سيارة فتوقفت أمام المنزل الذي غادره لتوه ، وهبط منها رجل اتجه إلى الباب المزدوج الذي يؤدي إلى مأوى السيارة . كان قد سبق والد دنكان إلى الخروج بدقائق قليلة .

شعر بالانتصار شعوراً هائلاً حتى لم تكن به رغبة في العودة إلى المنزل . ولكنه كان من الناحية الجسدية يشعر برد الفعل . ركب الدراجة حتى ضفة القنال ، وجلس في مخبئه ، رغم أن الظلام كان قد هبط والبرد قد اشتد ، وظل جالساً هناك وقد أغمض عينيه ، يحاول أن يعيش التجربة كلها من جديد مرة أخرى ، وبينما كان يضغط السروال المسروق برفق على فخذيه العاريين ، شعر – على حين فجأة – مرة أخرى ، بالثقة واليقين من أنه ينتمي إلى عالم آخر ، كوكب آخر مختلف .

وقبل أن يعود إلى البيت ، احتفر حفرة في الأرض الرطبة بمطواة كان يحملها ، ووضع فيها بعناية كنزه : السروال المسروق وصندوق البطاقات . فتح الصندوق لينظر بسرعة إلى ما بداخله ، فبدا له أنه يحتوي على ميدالية علقت بسلسلة ما ، أغلقه ، وجاء بقطعة مسطحة من الحجر غطى بها الحفرة وأهال عليها التراب ، ثم عاد إلى البيت . كانت ليلة باردة ساطعة السماء ، وكان يشعر بصوت عامل غريب في أذنيه (وقد وصف هو هذا الصوت في مرات أخرى بأنه : غناء) ممتزج بإحساس من السعادة والراحة . لقد شعر بأنه يتصل بذاته الأخرى ، عبر ملايين من الأميال تمتد في فضاء بلا نهاية .

* * *

لا بد أن أقاطع نفسي في هذه النقطة ، لكي أقول شيئاً من وجهة نظري الكلية إلى ما كان يسيطر على أرنر لينجارد من أفكار ومشاعر . لقد مر في وقت كنت فيه جديراً بأن أحاول تفسير هذه الأفكار والمشاعر المختلطة بشكل كلي على أساس التصور الحسي ـ الخضوع لعقدة أوديب ، وما إلى ذلك . ولكني ـ وكما ذكرت في بداية هذا التقرير ، كنت قد وصلت إلى القبول المتزايد بالترجيح بآراء بعض علماء النفس التي تقول بوجود ، قوة

ثالثة » — وهؤلاء العلماء هم فرانكل وكاروزو وماسلو وكارل روجرز — الذين يعترفون بأن لدى الإنسان ما يمكن أن يدعى باسم « الاحتياجات الغريزية الأسمى » . إن طريقة العمل أو الحركة الأساسية للحياة بالطبع ، هي الانقباض ثم الانفراج ، امتصاص الطاقة ثم بثها ، مثل الشهيق والزفير في التنفس . وهناك دون شك كائنات إنسانية كثيرة ، نستطيع أن نقول عنهم إنهم لا يهتمون كثيراً بما يفعلون طالما أنهم يفعلون شيئاً ما . ولكن أكثر ذوي الحساسية والحكمة من الناس يفضلون القيام بالنشاطات التي « تستحق » القيام بها — أي أنهم يفضلون النشاطات « الخلاقة » بشكل ما . وهذه تمثل حاجة ملحة ، تماثل في قوتها قوة الدافع الجنسي .

فلنطرح القضية بهذا الشكل : إن فرويد وأكثر أتباعه يرون المرض العقلي باعتباره نتاجاً للاحباط الذي تسببه البيئة لبعض الاحتياجات الأساسية ، والحاجة الجنسية هي الاحتياج الرئيسي بين تلك الاحتياجات . إن الكائن الإنساني الكامل بالصورة المعتادة يجب أن يشبه الآلة الكاملة العادية فيطيع — بشكل ما — القوانين الطبيعية التي تحكم وجوده . والأمراض العصابية تنتج من حبات الرمال أو الصدأ التي تتسلل إلى الأجهزة الداخلية للآلة . أي أنها تأتي من الخارج . ولكنني أصبحت أرى بوضوح متزايد أن ثمة نوعاً آخر من الأمراض العصابية ، يأتي من الداخل . إن الكائن الانساني يشعر بالحاجة إلى التطور ، إلى النضج ، وإلى « التحقق من امكانياته » . فاذا شئت أمكننا القول بأنه يشعر بالحاجة إلى أن يكون أكثر شبهاً بالآلهة (أو بالإنسان — وهو نفس الشيء) . وإذا كان من الصدق أن يوجد في داخل كل رجل سمين رجل آخر نحيف يناضل من أجل الخروج ، كذلك فان في داخل كل رجل كئيب ملول ، رجلاً آخر ، خلاقاً ولامع الذكاء، يناضل من أجل الخروج ، مثل فروج صغير داخل بيضته ، أو فراشة داخل شرنقتها . فاذا أحبطت الظروف تطوره ، فانه قد يتخذ أشكالاً ومراحل غريبة .

ومن الواضح أن الدوافع الجنسية لدى آرثر لنجاردن ، قد أدت دوراً

هاماً في مرضه ، ولكنني أعتقد أن هذه الدوافع لم تكن سوى جزء من هذا المرض ، بل إنني أعتقد أنه لا يمكن أن نفسر ، حتى عاداته أو تهوسه الفيتيشي بالسراويل الداخلية ، من خلال الأفكار الفرويدية وحدها ببساطة . وإن وصفه لانغماسه الكامل في عالم مجلة « بانش » السنوي ليظهر ذلك جلاء . كان ما أراده هو وجود أكثر حرية وثراء . فضلاً عن الشقيقتين اللتين رأى صورتيهما في مجلة « بانش » واللتين كانتا جديرتين بأن تستخرجا منه أفضل ما فيه . فحينما أشار إلى صغراهما — تلك التي دعاها باسم « انجيليتا » أي « الملاك الصغير » ، هذا الإسم المشحون بالمعاني الكثيرة — قال إنه لو كان قد استطاع أن يرفع ثوبها فينظر إلى ما تحته ، لكان قد رآها مرتدية سروالاً طويلاً من الحرير الأزرق أو الوردي . لماذا ؟ ولم لا تكون هذه السراويل ، على سبيل المثال ، من الحرير الأبيض ، طالما أن بولين كانت ذات مرة قد ارتدت سروالاً داخلياً طويلاً من هذا اللون كان ملكاً لأمها ؟ أيكون هذا ، ربما ، لأنه قد ربط بين الحرير الأبيض وبين بولين ، وبين لعبة الأطباء والممرضات التي أثارت غضبه إلى حد بعيد ؟ إن الأزرق والوردي هما اللونان اللذان يرتديهما الأطفال الرضع ، ألوان البراءة . والحرير إذا ما قورن بالقطن أو الصوف ، كان ناعماً ، سحياً ، بارداً . بل إن ذكره للسراويل القصيرة التي كانت ترتديها « جين » التي رأى صورتها في جريدة « ديلي ميرور » ليبين النقطة نفسها . كان الجنس قد تحول عنده إلى شيء « نقي » وخال من الأذى لارتباطه بالملابس الداخلية الجميلة وبالفتيات الجميلات . وهذا هو السبب الذي جعل قراره بالانغماس في خيالاته العميقة قراراً بالغ الأهمية .. لقد كان يضع « دوافعه الغريزية الأسمى » عامداً في موضع غير مؤثر ، يجردها من فعاليتها ، مستخدماً خياله لكي يخفف من توتراته العدوانية وعواطفه المدمرة .

كان هذا نفس السبب الذي جعل خيالاته عن كانتي مارتين تزداد حدة واتساعاً ، عندما بعد أن أقام علاقة جنسية مع بولين ، بدلاً من أن تختفي هذه الخيالات أو تصبح أكثر ضعفاً . لقد كانت ممارسة الجنس مع بولين ، وحب

أن يتضح في أذهاننا أن هذه الممارسة لم تبلغ أبداً مرتبة الجماع الفعلي – مصدراً هاماً للراحة والتخفف من جانب واحد ، ولكنها كانت من جانب آخر ، ممتزجة بالاحساس بالأثم . لقد لعبا معاً مثل الأطفال الأشقياء . ولقد أخبرتني بولين – بافتقارها المعتاد إلى الاحساس بالحرج – أخبرتني بالتفصيل عما كان من أمر علاقتهما بعد تلك المرة الأولى . لقد أصبح مقبولاً أنه قد نال الاذن بأن يضع يده بين فخذيها في الفراش ، وكان غالباً ما يغرق في النوم ويده في ذلك الوضع (أهي علامة تلقائية على الرغبة في حمايتها ؟) . ولم تقدم هي من جانبها بأي تقدم نحوه من الناحية الجنسية ، باستثناء ما كان يحدث رغماً عن ارادتها في نومها . وربما كان هذا قد حدث اثنتي عشرة مرة خلال عـــام ١٩٥٠ . ولم يحاول آرثر – في أيـــة مرة – أن يقوم بجماع جنسي . ولقد سألته عن السبب في هذا ؛ فقال إنه كان يخاف أن يوقظ الشخصين الآخرين النائمين معهما على سرير واحد . وأنا أعتقد أن السبب كان هو الشعور الداخلي بوجود « تابـــو » ، نوع من التحريم المقدس ضد الفسق بالمحارم . كانت بولين تجسيداً لشخص الأم ، وكانت تلاطف أعضاءه الجنسية كما قد تلاطف شعر طفل رضيع ، وكان هو يلمس أعضاءها لأنه كانت تمثل له مصدر الحياة الغامض المبهم . ولكن دوره في علاقته بها لم يكن دور الذكر العدواني ، وإنما دور الطفل . وكان معنى هذا أيضاً أنه كان من المقدر لموقفه إزاءها أن يزداد غموضاً بالتدريج ، وتعقداً وإثارة للشكوك ، كلما تقدمت به السن . كان الطفل آرثر ليتجارد يتحول إلى مراهق له أحلامه الخاصة . لم تكن بالنسبة له أماً مثلت لذهنه مصدراً للحب الذي لا يوضع موضع الشك أو التساؤل ، وإنما شقيقة كثيراً ما أنزلت به الأذى وجعلته يشعر بالتعاسة . ولقد مثلت خيالاته المرتبطة بالكابتن مارتين « إحتياجاته الغريزية الأسمى » أما احتياجاته الجنسية العادية فقد أصبحت واقعة تحت ضغط نزعته الفيتيشية – تهوسه بالملابس الداخلية – بصورة متزايدة . كان من المقدر له أن يبتعد عنها .

وقد قالت لي بولين إن آرثر كان أكثر قلقاً وعصبية بصورة مطردة

الازدياد في خلال العام التالي ، وأن موقفه ازاءها كثيراً ما كان يبدو موقفاً قلقاً ومتباعداً غير مستقر . وكان هذا أمراً حتمياً ولا يمكن تجنبه . كان آرثر قد شرع في الاحساس بما يأخذه عليها وما ينتقده فيها . كانت قد سمحت لنفسها بأن تمتصها بيئتها ، وبأن تصبح جزءاً من هذه البيئة . أما هو فكان قد أراد أن يسيطر على تلك البيئة – ولكن ليس بالطريقة الواضحة – أي أن يكسب المال ويصبح شخصاً ناجحاً . كان قد أصيب بأخطر أنواع الفيروسات القاتلة . ولو أن مدرسيه في المدرسة قد عرفوا بأمر اصابته تلك ، لكانوا قد ضحكوا منه . ولكنهم كانوا سيقعون في الخطأ .

وبعد بضعة أيام من حادثة سطوه الأولى ، فتح آرثر كتاب « ذكريات شرلوك هولمز » عند القصة المعنونة : « المشكلة الأخيرة » . كان قد قرأ الكثير من أعمال كونان دويل ، وكان قد وجده مثيراً . ولكنه لم يجد فيه ما كان يجد في أعمال بوروز أو ميريت – من سحر أخاذ – واستمر ذلك حتى قرأ وصف هولمز لشخصية « موريارتي » :

« صاح قائلاً : آي ، هذا هو العبقري الأول وأعجوبة الخلق ! . إن الرجل يسود لندن ويتخلل كل مسامها . ولم يسمع عنه أحد . وهذا هو ما يضعه بمفرده – فوق قمة سامقة في سجلات الجريمة . إنني أقول لك يـــا واطسون ، بكل جدية ، بأنني اذا استطعت أن أهزم هذا الرجل ، اذا استطعت أن أحرر منه المجتمع ، فانني سأشعر بأن حياتي العملية قد بلغت سمتها وذروتها . . إن حياته العملية كانت من نوع غير عادي . إنه رجل من أسرة طيبة وقد تلقى تعليماً ممتازاً . وقد حبته الطبيعة موهبة وملكة رياضية خارقة . وحينما كان في العام الحادي والعشرين من عمره كتب مقالاً عالج فيه نظرية المعادلات ذات الحدين ، وهي مقالة نالت شهرة في كل بلدان أوروبا . وحينما تقدم في العمر ، نال مقعد أستاذ الرياضيات في إحدى جامعاتـــنا الصغرى . وأصبح أمامه مستقبل عملي لامع ظاهر لكل ذي عينين . ولكن الرجل كان يحمل نصفات وراثية من أكثر الصفات شيطانية . كانت خاصية

اجرامية تجري في دمه ، وهي الخاصية التي بدلاً من أن تخفف قدراته العقلية من حدتها أو تعدل مسارها ، زادتها وطورتها بغير حدود .

إنك تعرف يا واطسون أن أحداً لا يعرف المراتب العليا من عالم لندن الاجرامي كما أعرفها أنا . ولمدة سنوات طويلة ماضية ، كنت شاعراً على الدوام بوجود قوة ما تقف وراء العناصر الشريرة . قوة منظمة بعيدة المنال ، تقف منذ الأزل في طريق القانون ، وتحمي بدروعها الأشرار مرتكبي الجرائم ... ولقد حاولت عبر السنين أن أنفذ خلال القناع الذي يخفيها ، وأخيراً جاء الوقت الذي عثرت فيه على خيطي وتبعته ، حتى أوصلني ، بعد ألف انحناءة ماكرة ، إلى موريارتي ، الأستاذ السابق للرياضيات الذي يتمتع بالشهرة العريضة والاحترام الوافر .

إنه نابليون الجريمة ، يا واطسون . إنه المنظم وراء نصف الشر ، ووراء كل ما تجهل أصوله من جرائم في هذه المدينة الضخمة . إنه عبقري ، فيلسوف ، مفكر تجريدي ، إنه يمتلك عقلاً من أحسن الأنواع . إنه يجلس ساكناً دون حركة ، مثل عنكبوت قابع في مركز نسيجه ، ولكن لهذا النسيج ألف خيط وخيط ، وهو يعرف جيداً كل ارتعاشة تحدث في كل خيط منها ... »

كان آرثر ليتجارد يقرأ القصة في الغرفة الأمامية الباردة ذات يوم مطير في منتصف شهر ديسمبر . وحينما بلغ هذه النقطة ، بدأ يرتجف ، وشعر بأن شعره كما لو كان يحاول أن يقف منتصباً . وكان ما يصدر عن آجي من أصوات وهي ترفع صحون الإفطار في الحجرة الملاصقة له، يذكره بأنه لا بد سيستدعى لكي يساعدها في غسل الصحون . فتسلل من الباب الأمامي للمنزل ، وأغلقه خلفه . وهرع إلى ضفة القنال ، ثم دخل إلى مبنى عار صغير يفوح برائحة البول المتخمر . جلس وسط الزجاجات المحطمة وموانع الحمل الجلدية المستخدمة ، رافعاً ياقة سترته لكي تغطي أذنيه ، فقرأ بقية القصة ، ملتهماً كل كلمة من كلماتها . وحينما انتهى منها ، قهقه ضاحكاً . كان هولمز قد مات . لقد دفع حياته ثمناً لمواجهة العنكبوت العظيم الجالس في مركز نسيج الجريمة في

لندن . وعاد ثانية إلى بداية القصة ، وأعاد قراءة وصف موريارتي حتى حفظه عن ظهر قلب ، ولكنه في ذلك الحين ، كان البرد قد بلغ منه مبلغاً دفعه إلى الخروج لكي يسير على طول ضفة القنال ، عاقداً « كوفيته » حول رأسه لكي تمنع عنه القشعريرة القاسية . نظر إلى صفحة المياه في القنال المغطاة بالقاذورات وفضلات شحم السفن ، وإلى علب الصفيح الصدئة المتناثرة فوق الطريق المزدوج . وإلى الملابس المغسولة القذرة ترفرف على حبالها في الأفنية الخلفية الضيقة . لم تعد هذه الأشياء كلها تقبض صدره أو تسبب له الضيق . كان نابليون الجريمة يفرد نفسه — كالثعبان — ببطء في داخله ، ناهضاً ، كاشفاً عن هويته للمرة الأولى ، ولم يعد لكل ما يراه الآن أية أهمية .

لقد بدا له كشيء غير قابل للتصديق أن يستطيع كاتب مثل كونان دويل ، أن يقف بهذه الدرجة من الوضوح إلى جانب القانون والنظام وتوقير المجتمع ، ثم يكون قادراً على أن يدرك نفسية هذا المجرم العبقري مثل موريارتي ... « ميول وراثية من أكثر الأنواع شيطانية . خاصية اجرامية تجري في دمائه ... » فكر في تمارينه على الانتصاب الذاتي مع سراويل بولين الطويلة ، وفي تمدده السطو على منزل دنكان ، وفجأة اتضح له الأمر . لقد كان مجرماً بالفطرة . « حل يجري في دمه سم من نوع ما . ولكن ، أكان سماً حقاً ما يجري في دمه ؟ » كان موريارتي يمتلك ذهناً أعظم من كل مواطنيه وأقرانه . ذهناً أعظم من ذهن هولمز بالتأكيد . إن هولمز لم يكتب أبداً أي شيء أكثر من ملاحظة عابرة فوق علبة لفائف فارغة ، ولا أصعب من علامة غامضة ، على رماد السجائر في منفضة سجائر قذرة . وقد كان باستطاعة موريارتي أن يرى حقيقة المجتمع حقيقة أن المجتمع قد خلق من أجل حماية الأثرياء واستغلال الفقراء . وإن ما يدعى قانوناً للمجتمع إنما هو قانون الغاب ، وقد كان هو إلى جانب الأثرياء .

ولم يكن لدى آرثر أي اعتراض على الأثرياء بوصفهم أثرياء . كان يحتقر إلى حد كبير الناس الذين يستحمون في الحامية من مساء كل يوم على العم دنكان ، وحنه العمة إلزي . ولكنه كان قد تبادل الحديث مع أم دنكان ،

فلم تبد له في صورة نموذج لنوع إنساني أسمى من العمة إلزي . ولم يكن الناس من حوله في نظره أفضل من الماشية إلا بقدر قليل ، كانوا جميعاً مغروسين في نفس الوحل ...

أما ما خلب لبه في شخصية موريارتي فهي قدرته على البقاء مجهولاً من كل الناس : « الرجل يغزو لندن ويتخلل كل مسامها ، ولم يسمع باسمه أحد . » وكان ولدا عمه ألبرت ونيد قد وقعا في مشاكل مع الشرطة ، نيد بسبب سطوه على محل لبيع أجهزة المذياع وسرقة جهاز تسجيل صغير . وألبرت بسبب تخريب الممتلكات العامة — تحطيم أحواض الاغتسال في المراحيض العمومية ، وحفر الثقوب في مقاعد الحافلات . إن هذا النوع من الجرائم ، كان نوعاً غبياً يدعو إلى الرثاء .

كان قد أصبح الآن مشبعاً بالرطوبة والبرد . ولكنه كان متهيجاً لدرجة أنه لم يشعر بالرغبة في العودة إلى البيت . وقف فوق جسر حديدي ، ومضى يرقب قطرات الماء وهي تصنع دوائر صغيرة على صفحة مياه القنال في سقوطها عليها . كان عليه أن يواجه حقيقة أنه ما يزال أصغر جداً من أن يصبح على القور مثل موريارتي . كان هذا شيئاً يكمن في مستقبل شديد البعد . ولكن الوقت لم يكن غير مناسب أبداً لكي يبدأ حملته . إنه ملتزم بأن يدرب نفسه ببطء وعناية وحذر . لقد كان مصيره وقدره أن يصبح مجرماً فذاً لا نظير له .

فما الذي يميز المجرم الفذ عن العاجز العادي ؟ قوة الارادة وبعد النظر . كان يتمتع بميزة واحدة هائلة فيما يتعلق بالمجتمع : تلك هي ميزة السرية والخفاء . كان مثل الغوريلا . قادراً على أن يضرب حيث لا يتوقع أحد . ثم ينسحب قبل أن يشعر به مخلوق .

ولا شك أن كثيرين ممن يمرون بعامهم الثاني عشر يحلمون بأحلام يقظة مشابهة . ولكن الظروف في حالة آرثر لبنجارد ، قد أمنت له أن يحقق أحلامه . لقد كان محروماً من الناحية العاطفية ، وكان يكره بيته ، وكان يحيا في عالم من الأحلام . وكان مدركاً بالفعل الحقيقة أنه مختلف عن كل من قابلهم في

حياته ، وأنه يمتلك ذاتين ، إحداهما تعيش على كوكب آخر . إنه لم يكن منتمياً إلى « هذا » الكوكب . وقد عرف الآن السبب . لقد ولد حاملاً لميول اجرامية وراثية من أكثر الأنواع شيطانية .

إن التجارب الجنسية الأولى لآرثر لبنجارد قد انتزعته من الطفولة إلى المراهقة بقسوة زادت من حدة المشاكل العاطفية العادية . ومن الممكن التغلب على مثل هذه المشاكل في العادة ، على أساس أن للكائن الإنساني رابطة شخصية قوية واحدة — واحدة على الأقل . فكلما تأكد وضعه بوصفه عضواً متناغماً في أسرة تسودها علاقات دافئة ، كلما زادت سهولة عثوره على حل لمشاكله . ولسوء الحظ ، كانت الرابطة الشخصية الوحيدة لآرثر ، قد شرعت في التحلل بالفعل . كان قد بدأ يرفض بولين . فإنها كانت عشيقة ديك لبنجارد . وكانت قد قبلت الخلفية الاجتماعية التي تميزها وورينجتون ، وسمحت لنفسها بأن تصبح جزءاً متسقاً مع هذه الخلفية . وكانت قد بدأت تعمل في سن الخامسة عشرة ، فعملت مساعدة بائع في محل قريب لبيع المنسوجات الصوفية . فارتبطت في جولاتها الخارجية بمجموعة من الفتيات يضحكن ضحكات صارخة مرتفعة ، ويتبادلن أحاديث لا نهاية لها عن « الأولاد » والمطربين الشعبيين ، فرانكي لين ، وفيك دیمون ، وفاتس دومينو . أصحاب أغاني ال « بوب » المشهورين . وذات يوم من صيف عام ١٩٥٠ ، أمسك ديك لبنجارد بولين في مدخل المنزل ، في حالة جماع جنسي مع أحد أصدقائها القدماء . وكانت آثار ذلك الحادث صاخبة مريرة ، وكان من الممكن سماع كل تفاصيله في كل حجرة من حجرات المنزل . كيف كان الشاب — وهو رئيس فرقة كرة القدم في المدرسة — يضع سروالها الصغير في جيبه . عصفت الغيرة بديك لبنجارد عصفاً جنونياً ، ولكنه لم يسمح لنفسه بأن يظهر غيرته للعيان . وظل يقول : « لم أكن لأهتم لو أنها حاولت أن تكون محتشمة . ولكن ... ولكن أن تفعل ذلك مع وقيع مرتخي الركبتين مستندة إلى الجدار .. ليس هذا سوى قذارة ، كما لو كانا كلبين . » واتسم آرثر في

سخرية . ولكنه شعر بدفقة حامية من الغيرة سرعان ما تحولت إلى غضب ممتزج بالاشمئزاز . مستندين إلى الحائط مثل كلبين ... وقد هرب الفتى بسروالها في جيبه . كانت بولين تتحول لكي تصبح عاهرة الحي ...

وقد حدثت مشاجرتهما الأولى بعد ذلك بوقت قصير . وكان موضوع المشاجرة هو « جون جورج هاي القاتل الذي كان يستخدم حوضاً مليئاً بالحامض » . الذي نفذ فيه حكم الاعدام في عام ١٩٤٩ . كانت إحدى صحف يوم الأحد قد بدأت في نشر سلسلة من المقالات عن القتلة . وبعد أن قرأت بولين المقال المكتوب عن « هاي » قالت إنها لم تستطع أن تفهم السبب الذي يجعل القتلة يبدون كما لو كانوا يصبحون بعيدين عن البشر وعن الانسانية . فقال آرثر إنها إذا كانت تعني بالإنسانية الغباء والتخلف فانه يظن أنها على صواب . وقال إنه على قدر ما يمكنه أن يرى فان هاي لم يتصرف إلا بطريقة تنم على حسن الذوق والتخطيط السليم . لقد كان يحب الملابس الجميلة والسيارات السريعة ، وأنه لم يكن بوسعه أن يحصل على تلك الأشياء بالعمل في أحد المصانع . ولذلك فقد قرر أن يتخذ من القتل عملاً له – قتل عدد قليل من أبناء الطبقة المتوسطة الذين لا قيمة لهم على أي حال . واستمر فقال إن القوانين وضعت بهدف حماية الأثرياء وقهر الفقراء . فلماذا لا يتعين على هاي أن يكيل لهم بنفس الكيل وأن يدفع لهم حسابهم بنفس العملة ؟

ووقعت بولين في خطأ رفع حرارة المناقشة وتحويلها عن مسارها عند هذه النقطة . فقالت له إنه أصغر من أن يفهم شيئاً في هذه الأمور . وأثار هذا غضب آرثر . فأصبحت حججه أكثر جموداً وقطيعة فقال لها إذا كانت الحياة مقدسة فلماذا تأكل اللحوم والأسماك ؟ وهل هي تظن حقاً أنه لا غبار على قتل خنزير أو بقرة . وأنه من الشر أن يقتل إنسان أياً كان لا يقل غباء عن الخنزير أو البقرة ؟ فقالت بولين بحرارة إن أغبى الناس وأكثرهم بلادة يستطيعون أن يتمتعوا بالشفقة وحسن التقدير . فقال آرثر إنها امرأة نموذجية ، تناقش بمشاعرها وعواطفها بدلاً من الاعتماد على عقلها . وهنا أشارت بولين

إلى قضية « هيث » وسألته كيف يستطيع أن يبرر قتل امرأتين قتلاً سادياً مشبعاً بالتلذذ . هل كانتا « تستحقان » ذلك ؟ وهز آرثر كتفيه ، وقال إنه لم يقل بأنهما كانتا تستحقان القتل ، ولكنه يستطيع أن يفهم السبب الذي دفع هيث إلى فعل ما فعل . كانت إحدى الفتيات جميلة ، وهناك رجل أرادها واشتهاها ، فلماذا ينبغي أن يلعب اللعبة الاجتماعية البلهاء التي تقضي بأن يدعوها إلى الطعام وأن يشتري لها علب الشيكولاتة وأن يقول لها إنه يحبها ؟ إن الرجال كانوا أساساً مثل الذئاب . إنهم قد يخبرون فتاة بأنهم يحبونها ، ولكن ما يريدونه منها حقاً هو أن يجعلوها تخلع سروالها .

وكان هذا أكثر مما تحتمله بولين . لقد أدركت ما كان يرمي إليه . فقالت له إنه خنزير مقزز . وأنه ربما انتهى إلى مثل نهاية هاي وهيث . ثم اندفعت خارجة من المنزل .

وغضب آرثر وملأه الأسى . فحتى شقيقته كانت تقف ضده . ورأى أن كل النساء متشابهات : ماشية عاطفية . وقال لنفسه إنه لن يسمح أبداً بأن تستعبده إحداهن .

وكنت أنا شغوفاً بأن أكتشف ما حدث في هذا الالتحام . كان آرثر . المتوحد الخالي من الشفقة ، قد رأى نفسه فجأة من خلال عيني شقيقته بولين باعتباره شخصاً أصبح مليئاً بالكبرياء ، والتعصب والشر . وكانت هذه أزمة من نوع ما ، وأزمة خطيرة بالنسبة لصبي في الحادية عشرة من عمره سألته عما فعل . وفي البداية قال إنه لا يستطيع أن يتذكر . فسألته :

« هل غرحت فقعلت شيئاً ؟ » .

« كـلا » .

« هل تحولت إلى آخر بعيداً عن التعاطف ؟ » .

قال والهجة بالغة الحدة مشبعة بالازدراء : « لا » .

« هل أحدثت نقرأ ؟ » .

« أظن فعلت هذا » .

وقد أثرت الموضوع مرة أخرى في مناسبة تالية . وفي هذه المرة اعترف بأنه أخذ كتابين من أحب الكتب إلى قلبه : « سبعة خطوات تؤدي إلى الشيطان » و « أميرة المريخ » وخرج إلى مخبأه على ضفة القنال — وليس إلى مخبأه المعتاد وراء الشجيرات ، وإنما إلى مخبأ أكثر بعداً . وراح يقرأ بشكل محموم لمدة ثماني ساعات . وفي هذه المناسبة كان الاحساس بالرغبة في الهروب أكثر قوة مما شعر به من قبل . لقد راح يتخبط بين صحاري المريخ وغاباته ، وراح يخطط المؤامرات ضد كل شيطان مريد . وفي لحظة ما في خلال تلك الساعات الثماني ، قطع الحبل السري الذي كان يربطه ببولين . كان هناك عالم من المغامرة والرعب يمتد إلى ما وراء إدراكها الأنثوي . وانه لم يلتق أبداً بأي مخلوق كان في وسعه أن يدخل هذا العالم . فالأولاد في المدرسة الذين يقرأون روايات المغامرات هم أيضاً قد ظلوا بعيداً عن ذلك العالم ، إلى جانب أن أكثرهم كانوا ضعافاً خائري العزم . والولد الوحيد الذي كان قد قرأ كل أعمال بوروز — وهو دنكان — كانت عيناه ضعيفتين وذراعه ضامرة مشلولة . كان لآرثر رصيد عظيم لأنــه لم يكن ضعيفاً فاتر الهمة أو خائر العزم . وهذا هو السبب الذي كان يجعله معجباً بأصدقاء بولين الرياضيين ، بينما كان يمقت غباءهم . فلا القوة وحدها ولا الخيال وحده يستطيع أن يكون كافياً في حد ذاته . وكان من الضروري أن يمتلك الاثنين : القوة والخيال معاً .

وجعلته القراءة حول موضوع « هاي » يقرر أنه لا بد ان يدرس وسائل مختلف المجرمين . وهكذا راح يمضي أمسيات طويلة في المكتبة المحلية . ليقرأ مجلدات كثيرة من سلسلة كتب « المحاكمات البريطانية الشهيرة » . كان يستطيع أن يستعير هذه المجلدات فيحملها إلى البيت . ولكن الأسرة كانت ستراها ، الأمر الذي كان سيدفعهم إلى التساؤل عما يدعوه فجأة إلى قراءة قضايا القتل الحقيقية . ولم تكن هذه هي الطريقة الصحيحة التي يتبعها أستاذ في الجريمة للاستعداد لحياته العملية . ولذلك فقد قرأ هذه الكتب على مائدة في المكتبة — فقرأ قضايا هيث ، وبرينشارد ، وبورك ، وهير ، ومونسون ،

وداوز وغيرهم . وقد أصبح واثقاً من رأيه القائل بأن أكثر المجرمين ليسوا سوى هواة حمقى غير بارعين . وحتى هاي ، بدراسته دراسة فاحصة ، ظهر في صورة الأبله الغر . كانت طريقته ذكية وتبعث على الاهتمام — القتل يمهد في الاستيلاء على ممتلكات الضحية ، والتخلص من الجسد عن طريق إذابته في الأحماض : وهذه فكرة جديرة بموريارتي . ولكن الرجل نفسه بدا في صورة الأبله الغر ، مظهره أكبر بكثير من مخبره . إلى جانب أن كان من يدعي ملكية ممتلكات ضحية عن طريق تزوير وثائق نقل الملكية ، إنما يخلق بذلك رابطة تربطه بالضحية . ويصبح من المقدر أن يلقى عليه القبض آجلاً أو عاجلاً . لم يكن لدى آرثر أي اعتراض على القتل بهدف الكسب . ولكن جرائم هاي ولاندرو كانت حقاً غير جديرة بمن يشبه موريارتي العظيم . لقد كانا أشبه بالهواة .

ولم يكن هو يفكر في الجريمة بهدف الكسب ، وإنما من أجل الجريمة في ذاتها . كانت مجرد كلمة « جريمة » ، تسحره وتخلب له . كانت تشبه كلمة « سحام » أو « مخاط لزج » . وكانت طريقته للتعبير عن رد الفعل ضد هذا المجتمع الغبي الذي كرهه وأبغضه إلى حد بعيد .

وقد استطاع فيما بعد أن « يعقلن » هذا الاحساس ازاء المجتمع فيحوله الى نوع من الفلسفة ، وربما كان هذا هو الموضع الملائم لوصف فلسفته . كان قد قرأ كتاباً يدعى : « ما بعد المدن » لكاتب اسمه ريتشارد جيفريز . يصف فيه تاريخاً مقبلاً يتم فيه تدمير مدينة لندن الصناعية ، لكي تحل محلها الحقول والغابات . وقد كتب آرثر يقول في مذكراته في السجن : « حينما قرأت هذا الكتاب ، أصبحت مقتنعاً بأن الحضارة كلها ليست سوى خطأ فادح . » لقد غطت الحضارة وجه الأرض بالمدن القذرة ، فهل يكون من المدهش أن تزايد في المدن أعداد الفئران ؟ وقد تحولت الأرض بهذا الشكل إلى مستنقع مدن قذر مليء بالأوساخ . ثم سار كل شيء في طريق خاطىء منذ اخترعت الآلة . وانتقل الناس للاقامة في المدن ، وتزايد عدد السكان . وأصبحت الحياة نوعاً من

السباق بين الفئران .

وقد راق لآرثر ليتجارد أن يحلم بالعودة إلى العصور الوسطى — انجلترا ريفية تتكون من الغابات ومجاري المياه الصافية والقرى الجميلة . وما كان الأمر ليهم أحداً ، إذا كان الناس أغبياء مثل ابن عمه جيم ، وأصدقاء شقيقته بولين ، لأنهم سوف يعيشون حياة صحية بسيطة ، فيلجأون إلى البيوت في الليل بعد عودتهم من الحقول . وكانت نتيجة الحضارة هي جعل الناس الذين لا قيمة لهم أقل قيمة ، بحشوهم وتغذيتهم بالمرفهات والتسالي الرخيصة . وكانت الجريمة ببساطة طريقة للاحتجاج ضد هذه الحضارة البائسة القذرة المزدحمة . كان لا بد من وجود عصابات كبيرة من المجرمين — وهذا هو الوضع المثالي — يقودهم عقل فذ ، وقد كرسوا أنفسهم تماماً لالقاء حبات الرمال داخل آلة المجتمع . وقد كانت هناك مجموعة كبيرة من المساكن الباذخة تشيد على حافة البلدة ، ودار كبيرة للسينما تشيد ، وحانة تغمر واجهتها الأضواء الملونة . وفي كل مرة ينجح فيها مشروع مثل هذا تتخذ خطوة أخرى في اتجاه سيادة الحياة في الضواحي الشبيهة بالمدن . وكان حتى الأبله مثل ألبرت قد شعر باحتياج غريزي إلى تحطيم المصابيح الطويلة ذات الأنوار الساقطة ، وحفر الكلمات القذرة على واجهات المساكن الجديدة ، وتمزيق مقاعد دار السينما . وذات يوم ، سوف يتم تنظيم هذا الاحتجاج الغريزي وقيادته على يد نابليون الجريمة العبقري . ولا بد حينئذ من نسف مجموعة المساكن بالديناميت في اليوم التالي لاكتمالها . ولا بد من قتل كل من سيكونون في السينما بقنبلة غاز سام حتى تتحول دار السينما إلى متحف لأنواع الرعب والفزع . ومقدار قليل من سم السيانيد يوضع خلسة في أحد براميل البيرة سيضمن أن تفلس الحانة على الفور . ولا ريب أن كل شيء سيكون بمثل هذه السهولة ....

• • •

في سن الثانية عشرة كان آرثر ليتجارد قد أصبح غلاماً يافعاً نحيفاً ، ذا عينين جاحظتين تدلان على اصابته بالغدة الدرقية ، وعادة خفيفة من التهتهة

والتلعثم في النطق . كانت الممارسة المستمرة والمسرفة للعادة السرية قد جعلته شاحباً ، وكانت بشرته دائماً تطفح بكثير من الثآليل أو الدمامل الصغيرة . لم يكن هناك من أحبه حباً كبيراً . وكان مدرسوه في المدرسة يفسرون جهامته وصمته على أنه نوع من الغباء . ولما كان يعيش أكثر ما يعيش في عالم من الخيال ، فانه لم ينتبه إلى المحافظة على نظافته إلا أقل انتباه . وكان دائماً ما تفوح منه رائحة بول عفن . وحينما يكون وحيداً ، كان من عادته أن يعبث بأنفه أو فيما بين أصابع قدميه ثم يتشمم أصابعه . وكان يحلم في يقظته بأن يصبح رئيساً لمنظمة اجرامية تختطف أفرادها أجمل فتيات البلدة ، فيأتون بهن إلى حجرته ، ويتركونه لكي يخلع عنهن ملابسهن ثم يغتصبهن واحدة وراء الأخرى .

كان تهوسه بالجريمة تهوساً جنسياً بشكل أساسي . كانت الجريمة ، مثل الجنس ، تتضمن ما هو محرم ، لقد تضمنت الاختلاس وأخذ ما ليس له عنوة من خلف ظهر الجميع ، وتضمنت القدرة على دخول اماكن لم يكن من المفترض لك أن تدخلها أبداً . وبهذا المعنى تصارعت أحلامه بأن يكون نابليون الجريمة مع رغباته الحقيقية — أن يدخل المنازل . فقد كانت ميوله الحقيقية تتجه نحو السطو على المنازل والاغتصاب .

كيف بدأ موريارتي المستقبل في تدريب نفسه على الجريمة ؟ لقد شعر آرثر بأن جوهر الجريمة هو أن يظل بعيداً عن الأنظار ، لا يعرفه ولا يكتشفه أحد ، وأن يظل يقظاً يتفحص ما حوله بعناية بحثاً عن الفرص المناسبة . وكان بحاجة إلى عذر مناسب يتعلل به للذهاب إلى المنازل ودق أجراسها . وفي البداية فكر في توزيع الصحف على البيوت . ثم اكتشف أن هذا لن يفي بالغرض الذي يقصد إليه ، فموزعو الجرائد من الصبيان يتجهون إلى الأبواب الأمامية فيدفعون الصحيفة من خلال فتحة صندوق الخطابات ، ولكنه حينما رأى اعلاناً في واجهة محل للبقالة يطلب صبي لتوصيل طلبات الزبائن إلى المنازل ، شعر بأن هذا العمل يحمل المزيد من الفرص . ولشدة دهشة آل ليتجارد كلهم ، عرفوا أنه قد تسلم الوظيفة

كان العمل يتضمن ركوب « دراجة حاملة » فيأخذ عليها صناديق البقالة إلى المنازل في المنطقة . كان يطرق الباب الخلفي للمنزل ، ويتناول الثمن ، و « بقشيشاً » ضئيلاً . وفي اليوم الأول لاستلامه العمل ، وجد ورقة كتبت عليها مذكرة وثبتت بدبوس على الباب الخلفي لمنزل أحد الزبائن تقول : « أرجو أن تترك البقالة في المرحاض الخارجي . سوف أدفع الثمن فيما بعد . » وكان في هذا وعد بفرصة مناسبة . فقد كان معنى هذا أنه من المحتمل أن يكون المنزل خالياً — إلا إذا كانت المرأة تظاهرت بأنها بالخارج لكي تتجنب دفع ما عليها . حاول أن يفتح الباب بحذر . فوجده مغلقاً . ذهب إلى المرحاض حاملاً الصندوق المصنوع من الورق المقوى . وفي منزل آل ليتجارد كان مفتاح الباب الخلفي يترك دائماً على رف صغير في المرحاض الخارجي إذا ما كان المنزل خالياً . ولكن لم يكن ثمة مثل هذا الرف في ذلك المرحاض . ولكنه بالبحث الدقيق عثر على مفتاح مدسوس في شق صغير بين مسند الباب والجدار .

كان يشعر الآن بالاحساس المألوف — القلب يضرب بعنف ، والأحشاء سائبة ، والتوتر الجنسي الذي يجعل أعضاءه الجنسية تنبض . ذهب إلى الباب الخلفي ، وهو ما يزال يحمل صندوق البقالة ، لكي يخدع أياً من الجيران إذا كان أحدهم يرقبه . وضع المفتاح في الباب ، ودخل المنزل . وعلى الفور تقريباً ، صرخ صوت طفل من الطابق العلوي يقول : « أهذا أنت يا ماما ؟ » فانسحب إلى الخلف دون تردد ، وأغلق الباب ، وأخذ المفتاح — وصندوق البقالة — إلى المرحاض .

كانت محاولته الثانية في السطو على المنازل فاشلة . ولكنه استمر في البحث عن الفرصة الملائمة . وسرعان ما لاحظ المنازل التي لم يكن لها جيران يطلون عليها ، وسجل ملاحظته في ذهنه لكي يتذكر تلك المنازل باعتبارها موضوعاً لفرص محتملة . ولكن الحظ كان يقف ضده . ففي المناسبات القليلة التي لم يكن يتلقى فيها رداً على طرقاته ، لم يستطع أن يعثر على مفتاح . رغم أنه كان يجد الفرصة للبحث في المرحاض الخارجي ، أو في مخزن الفحم ، أو في

مظلة الحديقة . وفي خلال ستة شهور قضاها كصبي لنقل الطلبات إلى المنازل في محل البقالة ، لم يتحقق له سوى نجاح واحد في الدخول إلى أحد المنازل . وقد وصف لي هذه المرة في أثناء المرحلة الأخيرة من التحليل ، بعد أن كف عن محاولة اخفاء الطبيعة الجنسية لدوافعه .

ففي منزل على بعد شارعين من شارع بيكث ، كانت هناك امرأة شابة متزوجة ذكرته ببولين — ذات صدر ممتلىء وفم عريض سميك الشفتين وشعر أسود . كان لها طفلان ، في السادسة والسابعة من العمر تقريباً ، وزوجها يعمل في البحرية التجارية . وكانت دائماً حفية ودودة ، وتعطيه في كل مرة شلناً كبقشيش ، أي ما يزيد ستة بنسات عن المعدل العادي .

وفي صباح أحد أيام السبت ، ذهب إلى المستشفى لكي يفتحوا له دملاً صغيراً قبل أن يبدأ العمل . وفي طريقه إلى الخروج ، قابل المرأة المتزوجة داخلة إلى المستشفى مع طفليها . طرأ له ، أنها لا بد ستقضي في المستشفى ما لا يقل عن ساعة — فقد كانت غرفة الانتظار مزدحمة . وملأته فكرة قدرته على سرقة شيء من ملابسها الداخلية بتهيج محموم . أسرع عائداً إلى المحل ، فوصل إلى هناك مبكراً أكثر من المعتاد . ونظر إلى مذكرة الطلبات ، شعر بخيبة الأمل ، عندما لم يجد اسمها في المذكرة . ثم قال له صاحب المحل : « هناك طلب آخر . » وناوله طلباً مكتوباً على ورقة صغيرة . وكان هذا هو الطلب الذي يبحث عنه . كان المفروض أن يعد الطلبات حسب ما هو مكتوب في المذكرة وبترتيب كتابتها ، وبدلاً من هذا أعد الطلب الأخير على الفور . لاحظ صاحب المحل ذلك فسأله :

« ماذا تفعل ؟ »

فأجاب ببراعة : « فكرت في أن أعمل اليوم من الآخر إلى الأول ، لمجرد التغيير . »

وقبل الرجل هذا التفسير . ووضع آخر طلبين أو ثلاثة في سلة الدراجة الأمامية ، ثم انطلق بها وكان قد انقضى ما يقرب من نصف ساعة منذ رأى

المرأة في المستشفى .

كان الباب الخلفي مغلقاً كما توقع . ولم يسمع إجابة على طرقاته . اخذ مواد البقالة التي يحملها إلى المرحاض الخارجي ، ولكنه فشل في العثور على المفتاح بعد بحث طويل . بعد ذلك ذهب لينظر في مخزن الفحم .. وبالصدفة عثر على المفتاح في علبة فارغة من علب المربى . وصف آرثر كيف انفجر ضاحكاً وقد غمره الارتياح . فقد كان يخشى أن تكون المرأة قد أخذت معها المفتـــاح .

عاد بعد ذلك إلى الباب ، وأولج فيه المفتاح . أدار المفتاح في الباب ، وفي تلك اللحظة سمع أصوات الأطفال بالخارج ، وأصوات الخطوات في المدخل . أخرج المفتاح ، وحينما فتحت البوابة ودخلت المرأة منها قال على الفـــور :

« لقد وضعت طلباتك من البقالة تواً في المرحاض . »

« أوه : هذا كرم شديد منك . لقد جئت اليوم مبكراً جداً . »

غمغم ببضع كلمات حول أن لديه الكثير من العمل الذي ينبغي القيام به ، وبينما أخذت المرأة تبحث في حقيبة يدها ، اتجه هو إلى مخزن الفحم وألقى المفتاح في العلبة الفارغة وهو يقول : « أوه ، ليس هذا هو باب المرحاض . » ثم دخل إلى الباب التالي وحمل صندوق البقالة . كان قلبه يدق بعنف حتى لقد وجد صعوبة في الاجابة على ابتسامتها وهي تمنحه البقشيش . وكان من الصعب أن يسيطر على ارتجافة يده .

أمضى فترة الصباح مذهولاً بما حدث ، وأخذ يلعن نفسه ويلعنها . وجعله إيمانه بالسحر الإنتقالي يميل إلى الشك في أنها بشكل ما قد عرفت أنه كان ينوي أن يسطو على منزلها ، فعادت مسرعة إلى بيتها . وبدا له الفشل في صورة علامة على أفول نجم حظه . وشعر بالغضب وفتور الهمة .

ولكنه بعد الظهر بقليل ، رأى المرأة تقف عند محطة انتظار السيارة العامة ، والطفلان يرتديان ملابس الأحد . وبينما استمر هو في عمله لكي يهيء أخذ

الطلبات متأملاً في هذه الفرصة الثانية . أسرعت هي نحو المحل ، وطلبت علبة من الشاي من نوع « إيرل جراي » وقالت :

« من حسن الحظ أنني تذكرت الشاي . فأنا أصطحب الطفلين إلى جدتهما حيث سيبقيان هذه الليلة . وهي لا تستطيع أن تجد هذا النوع حيث تقيم . »

وفجأة . اتضح له أن الأقدار كانت تقف إلى جواره رغم كل شيء . كان هناك الكثير من الوقت . فمن المحتمل أنها لن تعود إلى المنزل قبل ساعات .

بعد ساعة واحدة . كان قد فرغ من تسليم الطلبات . فهرع عائداً إلى منزلها . كان هناك عدد قليل من الأطفال يلعبون في الشارع . ولكن أحداً منهم لم ينتبه إليه أقل انتباه . وحينما وصل إلى الباب الخلفي . اكتشف أنه مغلق — فمن الواضح أنها غادرت المنزل من الباب الأمامي . للحظة شعر بالغضب ، كانت الأقدار تغيظه من جديد . وحينئذ عادت روح الشر لكي تعيد تأكيد وجودها . لم يكن هناك أحد من حوله ، ولم يكن تسلق البوابة الخلفية ليستغرق أكثر من برهة خاطفة . وكان هناك زوجان عجوزان يقيمان في المنزل المجاور — كان قد ذهب الى هناك أيضاً لتسليم طلبات البقالة — ولم يكونا جديرين بملاحظة أي شيء .

كان يخشى ألا يكون المفتاح في العلبة الفارغة . وإذا كانت قد غادرت المنزل من الباب الأمامي فمن المحتمل أن تكون قد أغلقت الباب الخلفي من الداخل بالمزلاج . ولكن المفتــاح كان في مكانـــه . ذهب إلى الباب الخلفي وحاول أن يولج المفتاح . ولكن كانت ثمة عقبة في طريقه . وفجأة تبين الأمر : إن المفتاح الذي وجده في مخزن الفحم كان مفتاحاً اضافيـــاً للطوارئ . ولكنها كانت قد تركت المفتاح الأصلي في الباب من الداخل . فكانت إذن كل محاولاته لدفع المفتاح إلى الثقب محاولات غير مجدية . فالمفتاح الموضوع بالداخل ثابت في مكانه .

كانت نافذة المطبخ مغلقة هي الأخرى . ولكن كان بوسعه أن يرى أن

مزلاجها لم يكن مثبتاً بصورة جيدة . وكان هناك مبنى آخر صغير خلف المرحاض الخارجي . ذهب فنظر داخله فاكتشف أنه كان مأوى للدراجة أحد الطفلين . وعلى الأرضية كانت هناك أعداد من أحذية الطفلين الموحلة . وإلى جوار الأحذية ، وفوق ورقة منتزعة من إحدى الصحف كانت هناك سكين من سكاكين المطبخ استخدمت في ازاحة الوحل الجاف عن نعال الأحذية .

كان يعرف كيف يفتح مزاليج النوافذ عنوة — فقد كان عليه أن يفعل ذلك من حين لآخر في شارع بينكيث حين تكون العمة إلزي قد نسيت أن تترك المفتاح في المرحاض . انزلق نصل السكين إلى أعلى بين ضلفتي النافذة ، ثم ضغط على مقبض المزلاج إلى الناحية العكسية . انفتح المزلاج بسهولة ، وبعد لحظة كان يقف في المطبخ ، وهو يغلق النافذة من خلفه .

لم يكن هذا المطبخ مثيراً مثل المطبخ في منزل آل دلكان ، وإنما كان بصورة أساسية شبيهاً بمطبخ منزلهم في شارع بينيكيث . ولكنه كان أكثر ترتيباً ونظاماً . ولم تكن تفوح منه رائحة الدهن العفن والصراصير المقتولة أو المختبئة . كان الأثاث في غرفة الجلوس جديداً ، وكانت هناك قطعة من القماش المصنوع من مادة قطيفية وضعت على المائدة .

خلع حذاءه وراح يصعد الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي — فقد كان يخشى أن يسمع الجيران صوت خطواته وتحركاته عبر الجدران غير السميكة . وكان المنزل من تلك المنازل التي تضم حجرتين للنوم . وكانت الحجرة التي تطل على الفناء الخلفي هي حجرة الأطفال بشكل واضح ، فقد كانت هناك دمية لدب لطيف ودمية أخرى على شكل عروس صغيرة راقدتين على الفراش . أما الحجرة الأخرى فقد كانت حجرتها ، وعلى ظهر أحد المقاعد كان هناك قميص داخلي بلون الخوخ .

حينما بلغ تلك اللحظة كان في حالة تشبه حالة الحمى . مرة أخرى كان يسبح في غرفة مثل السمكة . وحيداً في منزل أناس آخرين . أمام فراش امرأة غريبة حاذقة . كان هدفه الأول هو درج صوان ملابسها الصغير الشبيه

بالمنضدة . وكان هناك ما كان يرجوه تماماً . كانت المرأة . مثل أكثر النساء الشابات المتزوجات تهتم اهتماماً بالغاً بشكلها حين تخلع جونلتها وملابسها الخارجية . كانت هناك سراويل وقمصان داخلية من كل الألوان الممكنة . أخذ هو كل ذلك من الدرج واحداً بعد واحد وبسطها على الفراش . ثم ذهب لكي يبحث في سلة الثياب المتروكة للغسيل . (كان يحكي لي كل ذلك بعد حدوثه بسبعة عشر عاماً . وكان قادراً على أن يصف لي بالضبط تفاصيل حجرة النوم . وألوان السراويل ، كان قد أغلق عينيه أثناء الكلام . وقد بان عليه أنه يرى كل شيء بعين خياله) . في تلك السلة اكتشف سروالاً من الحرير الأسود ، وقد قلب على ظهره . وحينما رفعه بين أصابعه . تبين له كان مبتلاً قليلاً . تفوح منه رائحة عضو المرأة التناسلي اللذي عرفه من ثياب بولين الداخلية . رفعت هذه الرائحة حالة هيجانه إلى ما يشبه الحمى . فوضع السروال على الفراش . وخلع كل ملابسه ورقد فوق السروال . كانت نشوته فورية وعنيفة ورقد في مكانه لمدة عشر دقائق أخرى ، واضعاً خده على قميص داخلي حريري . دالخاً أو كالسكران . ثم انقلب على ظهره وهو في غيبوبة أشبه بالحلم . كانت السماء خارج الحجرة شديدة الزرقة ، تطفو وسطها سحب كالزبدة . ترددت في أذنيه صيحات الأطفال — الصادرة من الشارع فشعر بالسلام الشامل والسكينة الكاملة يغمرانه . سعيداً سعادة سامية وطاغية . لم يكن من المنتظر أن تعود المرأة قبل ساعات . وحتى ذلك الوقت . كانت حجرة النوم هذه ملكاً له . تسلل بين الأغطية . وغرق في سبات عميق .

حينما استيقظ كان جائعاً . هبط السلم وهو عار ما يزال — وكانت هذه لمسة أخرى من لمسات الاغتصاب والسطو والابتذال — فذهب إلى صوان المطبخ . عثر على بعض الجبن وعلبة من علب الشطائر الجاهزة . وكانت هذه الأخيرة في نظره نوعاً من أنواع الترف . فإنهم في البيت لم يكونوا يتناولون مثل هذه الشطائر إلا في عيد الميلاد أو في احتفالاتهم بأعياد ميلاد أبناء الأسرة . أكل [illegible] القنينة [illegible] مكانها [illegible] صعد إلى الطابق العلوي

مرة ثانية .

خطرت له الآن فكرة أعادت إليه الحمى . كانت تلك الملابس مجرد بديل لها . ولكن ماذا لو استطاع أن يمتلكها هي امتلاكاً فعلياً ؟ إنها ليس من المحتمل أن تعود إلا في وقت متأخر . وحينما تعود ، سوف تنام بالتأكيد . يمكنه إذن أن ينتظرها حتى تنام ، ثم يهاجمها . إن ضربة قوية ثقيلة واحدة بمطرقة يمكن أن تفقدها الوعي ، ثم يمكنه بعد ذلك أن يفعل معها ما يشاء ... كانت المشكلة الوحيدة هي أين يختبيء حتى تغرق في النوم . ولكن هذه المشكلة لن تكون من الصعوبة بمكان . كانت هناك حجرة نوم الأطفال ، وليس من المحتمل أن تدخل هذه الحجرة حينما تعود إلى البيت وحيدة ، بعد أن تترك الطفلين عند جدتهما .

كان الوقت يمر بسرعة . قام فأعاد كل الملابس بعناية إلى الدرج ، وقد طواها بشكل أنيق كما كانت . وفي درج سفلي ، عثر على حزمة من أوراق النقد من فئة الجنيه مخبأة في قاع الدرج داخل علبة صغيرة من علب أسطوانات الشعر التي تستخدم في التصفيف . أخذ ورقتين وترك الباقي في مكانه . ثم عاد فصعد إلى الفراش ، ورقد هناك وأخذ يرقب السماء وهي تصطبغ بحمرة الشفق الوردية بعد أن كانت زرقاء معتمة . هبط السلم بعد أن سادت الظلمة ، ثم خرج إلى الفناء لكي يعيد المفتاح إلى مكانه في العلبة الفارغة في مخزن الفحم . ثم دار في المنزل كله ، من الداخل ، حاملاً منشفة لكي يمسح كل شيء لمسه بيده ، مستخدماً مصباحاً أخذه من الدراجة لكي ينير له طريقه . وأخيراً ، وحوالي الساعة العاشرة ، دخل حجرة الأطفال . فرقد على بساط صغير فرش على الأرضية . وإلى جواره ، وضع مطرقة كان قد أخذها من مخزن الفحم .

كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحاً حين تبين أنها لم يكن في نيتها أن تعود إلى البيت . سألته عن شعوره حينما اتضح له ذلك فأجابني :

« شعرت بأني خدعت . »

« ولكن ألم تشعر أيضاً بأنك قد تحررت من شيء ما ، تخلصت من هم ما ؟ »

نظر إلي مدهوشاً وقال :

« ولماذا أشعر بذلك ؟ لم تكن هناك أي مخاطرة . »

« ولكنك ربما كنت قد قتلتها بالمطرقة . »

ابتسم ابتسامة لامبالية وقال :

« أستطيع القول بأن هذا كان محتملاً . فلم أكن خبيراً خبرة كافية في تلك الأيام . »

وهكذا انتهى حادث السطو الثاني دون أن يؤذي أحداً . ترك كل شيء في نظام ، وأعاد المطرقة إلى مخزن الفحم ، حيث لا بد أن تستخدمها ربة البيت في اليوم التالي غير مدركة بأن هذه المطرقة كادت تكون أداة قتلها . كانت كل غنائمه سروالاً داخلياً واحداً وورقتين نقديتين من فئة الجنيه . أراد أن يأخذ السروال الأسود من سلة ثياب الغسيل ، طالما أنه كان مشبعاً برائحة جسدها ، ولكنه خشي أن تفتقده المرأة . خرج بهدوء من الباب الأمامي ، وسار على قدميه إلى شارع بينكث حيث كان الباب الخلفي قد ترك من أجله مفتوحاً . كان هذا المنزل ، من بعض الجوانب ، منزلاً مناسباً لاقامته فإن أحداً لم يسأله حتى أين كان ذلك المساء .

كانت الأمور تخضع لحالة من الفوضى في منزل آل لبنجارد . وكان ديك لبنجارد قد أصبح معرضاً لحالات من الغضب العاصف ، وفي إحدى غضباته تلك شج جبهة آجي بقبضته وفي مرة أخرى ، قذف العمة إلزي بمقعد صغير وطار المقعد من النافذة . وكانت بولين هي السبب . كانت فتاة جميلة في السادسة عشرة من عمرها ، فأصبحت شديدة الجاذبية للرجال . ولما كانت لا تستطيع أن تنام مع العم ديك إلا مرة واحدة كل أسبوع ، فإنها لم تر فائدة من أن تظل مخلصة له ، وخاصة أنها كانت تعرف أنه ما زال محتفظاً بعلاقته مع العمة إلزي . وأصبح الرجال منجذبين إلى القسم المخصص لبيع الصابون في

محل « وولورث » الذي انتقلت إليه بولين ، حيث كانت تعمل . وراحوا يطلبون منها الخروج معهم فيدعونها إلى الطعام أو إلى الذهاب للسينما . وكان أحد هؤلاء الرجال ، في أصلع الرأس ، لوحته الشمس يدعى « جورج جولدهوك » كان قد عمل زمناً في المسرح . وآخر كان يدعى « ايوجين تيرلر » ، وهو مالك « الجراج » الذي استطاع في النهاية أن يقنع بولين بأن تخرج معه . وكانت بولين تنام مع الرجلين في الفترة نفسها . وقد سرها أن تجتذب رجلاً أكبر سناً منها . وقد احتال ديك لينجارد على بولين حتى دفعها إلى الاعتراف بأنها على علاقة جنسية مع جورج جولد هوك بأن وصفه بأنه « عنين عجوز » . وحينما صاحت بولين : « كلا . إنه ليس كذلك » كشفت صيحتها أنها تعرف الحقيقة أكثر من عمها . واعتمد جورج جولدهوك على آرثر بوصفه معاوناً له في أمره . وكان يعيش في شقة فوق « جراج » للسيارات . وكانت بولين تمضي المساء معه هناك مرة واحدة كل أسبوع على الأقل . وحينما كان يحدث ذلك ، كانت الأسرة تظن دائماً أنها خرجت إلى السينما مع آرثر ، الذي كان يغادر المنزل معها ، ثم يعود معها في وقت متأخر من الليل ، وهما يتناقشان في موضوع الفيلم . وكان آرثر يذهب إلى السينما فيمضي أمسيته فيها وحيداً ، ثم يحكي لها قصة الفيلم في طريق عودتهما إلى البيت . وكان بوسع ديك لينجارد أن يذهب فيشاهد الفيلم بنفسه ، ثم يعود لكي يستجوبها . وفي مرة واحدة ، تبع العم ولدي أخيه ، ولكن آرثر لاحظه فحذر بولين . فدخلا إلى السينما معاً ، وبعد نصف ساعة ، تسللت من مدخل جانبي وذهبت إلى عشيقها . وسرعان ما بدأ جولدهوك في معاملة آرثر بوصفه صديقاً وموضعاً للثقة ؛ فقد كان رجلاً ذكياً بما فيه الكفاية لكي يكتشف عقلاً جيداً كامناً وراء البثور وحب الشباب . ولم يحاول الرجل ولا بولين أن يبذلا أي جهد من أجل اخفاء الحقيقة عن آرثر . وقد حدث ذات مساء أن ذهب إليهما آرثر وكانا ما يزالان في الفراش . فجلس أمام السرير على أحد المقاعد يتبادل الحديث مع جولدهوك بينما كانت بولين ترتدي ثيابها . وفي

مرة أخرى ، بلغت الغيرة من ديك لينجارد مبلغاً كبيراً وتسلطت عليه حتى رفض أن يسمح لبولين بمغادرة المنزل . فذهب آرثر لمقابلة جولدهوك ، وأمضيا الأمسية يحتسيا البيرة معاً ويتبادلان الحديث .

وقد كان جولدهوك ذا تأثير هام على آرثر — كما سأوضح بعد قليل . وقد قتل في حادث ، حينما انزلقت كتلة اسمنتية من سلسلة الرافعة التي كانت تحملها إلى سطح مبنى كان ما يزال يشيد فسقطت على سقف السيارة التي كان يقودها . وقد رآه آرثر داخل السيارة قبل أن تنقل بعد الحادث . وقد انفصل نصف وجهه عن الرأس ، وتمزق الكتف الأيسر من شدة الصدمة . وشعر آرثر بنوع غريب من الرضا ، رغم أنه كان قد أحب جولدهوك . فها هو عاشق آخر من عشاق بولين قد انتهى نهاية عنيفة ... فإن رئيس فريق كرة القدم في المدرسة كان قد قتل في صدام مع محراث آلي . وشعر آرثر بالفأل الحسن الذي يسدد خطاه وينتقم له من خصومه .

كانت غيرة ديك لينجارد قد أصبحت مصدراً مزمناً للضيق المستمر وكانت العمة إلزي قد ضبطته كثيراً وهو يعبث بنهدي بولين أو ردفيها حتى لم يعد في وسعها أن تشك أدنى شك في ماهية العلاقة التي تجمعهما . ولشكل غريب تماماً ، استقبلت ما عرفته بهدوء . وذات يوم ، كان العم ديك يتشاجر مع زوجته ، فأشار آرثر إلى الموضوع قائلاً : « لست أدري كيف يمكنك أن تتجاهلي ما بينه وبين بولين العزيزة ... » ولكن قبل أن يتمكن من إكمال عبارته قاطعته العمة إلزي بحدة وقالت : « اخرس أنت . إن عمك رجل طيب . ولا ينبغي أن تنسى ذلك . » فأجابها :

« كذلك كان هتلر . » وهو يطلق إحدى فكاهاته الثقيلة .

وأعيدت هذه الملاحظة على مسامع العم ديك لينجارد ، الذي قرر ألا يرد على آرثر على الفور ، وإنما قرر أن ينتظر حتى تتوح له فرصة ...

وذات يوم أخبر جورج جولدهوك بولين بأنه يتوقع أن يتم طلاقه من زوجته قريباً ، وأنه يقترح أن يتزوج بها . وقد سردت على بولين القصة الكاملة

للأحداث التي تلت ذلك، بصراحتها التي أصبحت معتاداً عليها . فقد قررت أن أفضل وقت تلقي فيه بهذه الأخبار كالقنبلة في وجه العم ديك هو اللحظة التي تلي جماعهما الأسبوعي . وفي عصر يوم السبت التالي، خرجت العمة إلزي . وكانت بولين تجفف صحون الغداء في المطبخ حينما دخل عليها العم ديك . اقترب منها وراح يلاطفها بطريقته المعتادة . فحل قفل حمالة صدرها من خلال الصدار الصوفي الخفيف الذي كانت ترتديه ، ثم دس يديه من فتحة الصدار العلوية وراح يتحسس نهديها العاريين وسألها :

« ما رأيك في الحكاية ، انتهيت يا حبيبتي ؟ »

أومأت برأسها دون أن تتكلم . فقال لها :

« نعم . أنت حبيبة طيبة . » ثم رفع ثوبها ، وجعلتها دغدغاته متهيأة تماماً . قال لهـا :

« دعيك من الصحون . هيا إلى أعلى . »

تبعته طائعة إلى الطابق العلوي ، بينما كان هو يحل حزامه ويتخلص من بنطلونه وهو في طريقه إلى أعلى . وفي غرفة النوم جامعها على الفور ، في حالة من التهيج الوحشي . وبعد ذلك رقد واضعاً رأسه على صدرها ، بينما راحت تربت على صدغه غير الحليق . قال :

« إيه ، حبيبتي . إنك تسببين لي الكثير من وجع القلب ، كما تعرفين . لا أعرف ما سأفعل حينما ترحلين . »

« لا بد لي أن أتزوج ذات يوم ، كما تعرف . »

قال : « إيه ، أعرف . » بكآبة متجهمة .

« هل ستحاول أن تمنعني ؟ »

هز رأسه بحزن وقال : « إيه ، لا . إنني أستطيع أن أفهم ذلك . وأعرف أنني لا أستطيع أن أحتفظ بك إلى الأبد . »

« افترض ... أنني أردت أن أتزوج بسرعة شديدة . »

« بسرعة شديدة ؟ » وهب جالساً في مكانه . وقد تحقق من أن الحوار

قد وجه عن تصميم سابق إلى هذا الاتجاه . ثم أضاف قائلاً : « بسرعة .. كيف ؟ »

« جورج جالدهوك يريدني أن أتزوجه في أغسطس . »

« ماذا ؟! هذا الأصلع الرأس ، العين ! »

كان هذا أسوأ نقد ممكن . فقد كان جورج جولدهوك في نفس سن ديك لينجارد . وقد وضع ديك نفسه في وضع سيء . وكان هو يعرف ذلك . وقد كان المعتاد أن يفقد حينئذ أعصابه ثم يضربها — وقد كانت رؤيته لعجزها العاري وهو يزداد احمراراً تحت صفعاته من الأمور التي استمرت في امتاعه منذ زمن بعيد — ولكنه إذا كان قد وافق على أنه لن يقف في طريقها فقد كان من الصعب أن يتراجع . فاتخذ موقف القائل بأن جورج جولدهوك سوف يكون زوجاً أشبه بالكارثة ، فأشارت بولين إلى أنه يمتلك دخلاً خاصاً . وأنه يمتلك منزلاً يؤجره بالغرفة في بلدة « بوتل » . وكان هذا أمراً أكثر إساءة — فقد كان ديك لينجارد حساساً إزاء مسألة فقره . فقال :

« طيب ، إنك لن تتزوجيه ما دمت الوصي عليك . وهذا قول صريح . »

« كم أنت وصي ظريف ! ومن حسن الحظ أن كل الأوصياء لا يشبهونك في شيء . »

استمرت المشاجرة لبعض الوقت . وانفجر ديك لينجارد باكياً وجثا على ركبتيه . كان رجلاً بالغ القوة . وكانت بولين تعرف ما يجعلها أكثر حرصاً من أن تمعن في اثارته . فتظاهرت بالموافقة على أن تغض الطرف عن المسألة مؤقتاً ، جاثياً على ركبتيه محتضناً ركبتيها . أدرك ديك لينجارد أنها لم تعد تقبله بسهولة ، ولكن جزءاً من تكوينه العضوي رفض له أن يحقر نفسه ، وانتهى بهما الأمر إلى الفراش مرة أخرى . ولكن هذا لم يكن سوى صلح مؤقت . ذلك أنها لم ترد في طيبتها عن الاعتراف بأنها قد كانت ترى جولدهوك وتقابله . وخطر لديك لينجارد أنه من المحتمل أن يكون جولدهوك قد مارس امتياز أن يخلع ملابسها بأكثر مما فعل هو نفسه . اجتاحته نوبة غيرة مفعمة بالألم . متى كان

في مقدورها أن تراه ؟ وراح الرجل يراجع تحركاتها مراجعة دقيقة . وأدرك فكرة أنه لم تكن ثمة أية فرصة لها سوى فرصة واحدة : أمسياتها في السينما مع آرثر . استجوبها عن هذا الاكتشاف ، فانتهت إلى الاعتراف بالحقيقة . وكانت هذه نقطة سوداء أخرى توضع أمام اسم آرثر .

أصبح العداء المستقطب في داخل المنزل واضحاً وصريحاً . كان الجميع يدركون ما يقوم من توتر جنسي بين بولين وعمها . وكان مما يبعث على الارتياح أن يغيب أحدهما في مواعيد الطعام . وذات يوم قال العم ديك لآرثر بتجهم إنه يعرف خديعة آرثر له فيما يتعلق بمسألة جورج جولدهوك . هز آرثر كتفيه وقـــال :

« إنها شقيقتي . ولا يصح أن تتوقع مني أن أقف إلى جانبك ضدها ، أليس كذلك ؟ »

حدق ديك لينجارد في آرثر ببرود ، لم يكن قد اعتاد أن يرد عليه ذكور المنزل وقال :

« سوف تنال ما تستحقه . فاحفظ كلماتي . »

قال آرثر : « سوف أحفظها . »

وأرسلته بولين برسالة إلى جورج جولدهوك ، لتشرح له ما حدث في المنزل . وقدم له جولدهوك كأساً من البيرة ، وأخذ في حديث طويل من جانب واحد عن السيطرة على النفس الأمر الذي جعل آرثر يشعر بالازدراء المشبع بالتعاطف . وفي النهاية قال آرثر :

« إذا كنت تريد أن تتزوجها ، فأنت تعرف الطريق . اجعلها تحمل . »

نظر إليه الرجل وقد امتلأ بالأمل ، وقال :

« أتظن أن هذا يؤدي إلى النتيجة المرجوة ؟ »

وكان آرثر على وشك أن يقدم أسبابه ، عن أن الطفل يمكن أن ينسب إلى ديك لينجارد . وأن هذا سيجعله على استعداد لأن يفعل أي شيء لكي يتجنب حدوث هذا — ولكنه قرر أنه قد يكون من الأفضل أن يظل جولدهوك معتقداً

عن العلاقة بين بولين وبين عمها . فانه قد يقرر أن يتخلى عنها . فحتى من لا أخلاق لهم من الرجال يمكن أن يصبحوا أخلاقيين بصورة غريبة حينما يواجهون الفسق بين المحارم . وبدلاً من هذا . أكد له أن ديك لينجارد قد يسمح لها بأن تتزوج بدلاً من أن يعولها كأم غير متزوجة . وفي نفس ذلك اليوم في وقت متأخر ، عرض آرثر فكرته على بولين ، فبدا عليها أنها وافقت لها .

وكان آرثر يواجه المتاعب . فانه كان قد كبر على تمزيق مقاعد السيارات العامة والسرقة من المحلات الشعبية وأصبح يسرق أشياء أكبر وأثمن قيمة . وقد قبض عليه أثناء محاولته الخروج من محل لبيع الأدوات المكتبية حاملاً آلة كاتبة ذات حقيبة . وفي أواخر شتاء عام ١٩٥٠—١٩٥١أصبح ضابط الأحداث شخصاً مألوفاً في منزل أسرة لينجارد . وفي هذه الفترة ارتكب آرثر خطأه الأول . كان قد غير عمله الذي يمارسه في عطلة نهاية الأسبوع من محل البقالة إلى محل لبيع آلات التليفزيون — وسوف يذكر المزيد عن ذلك بعد قليل — وسرعان ما اكتشف أنه كان من السهل أن يختلس بعض النقود من خزانة المحل . كان المحل يبيع اسطوانات الحاكي والأدوات المنزلية إلى جانب أجهزة المذياع والتليفزيون . وكان من السهل بالنسبة لآرثر أن يسجل المبلغ غير الصحيح على ورقة التسجيل في الخزانة ذات الآلة الخاصة ، ثم يضع الزيادة في جيبه .

وذات يوم ، نظر صاحب المحل إلى أرقام الحسابات التي سجلها آرثر ، فاكتشف أن الأخير قد سجل قيمة أقل من ثمن أنبوبة من أنابيب التليفزيون كان قد باعها لأحد الزبائن . وبالمصادفة ، دخـــل الزبون المحل مرة أخرى في تلك اللحظة فأخبره صاحب المحل بالأمر . وبالطبع ذكر الزبون المبلغ الذي دفعه في الحقيقة بالتحديد . ولم يكن آرثر في المحل في تلك اللحظة . وبدأ صاحب المحل يراقبه مراقبة دقيقة ، وسرعان ما تبين أنه كان يأخذ من الخزانة جنيهين تقريباً في كل يوم سبت . وهكذا ، ففي عصر أحد أيام السبت ، وبينما كان آرثر على وشك أن يغادر المحل طلب منه صاحب المحل أن يقلب جيوبه .

ورفض آرثر بوقار من شعر بالاهانة . واستدعى صاحب المحل شرطياً كان يمر أمامه ، فأفرغ آرثر جيوبه راغماً ، فتكشف الموقف عن أنه كان يحمل ما يقرب من جنيهين زيادة على أجره الأسبوعي ، فأدرك الآن السبب الذي دفع صاحب المحل إلى التظاهر بأنه يحتاج إلى بعض العملات الصغيرة فسأله في وقت باكر من النهار :

« ألديك أي نقود يا آرثر ؟ »

فأجاب آرثر :

« ليس معي سوى نصف جنيه . »

وحتى في ذلك الموقف المفاجىء ، حافظ آرثر على رباطة جأشه وعلى صفاء ذهنه . لقد عرف أن حمله للجنيهين ليس دليلاً ضده . كان يستطيع أن يقول إنه قد عثر عليهما في الشارع ، أو أنه لم يكن يعرف كم يحمل من النقود حينما سأله صاحب المحل ، فلا يكون بوسع أحد أن يكذبه أو أن يبرهن على العكس . ولكن صاحب المحل أخرج بكرة ورق التسجيل من الخزانة الآلية . لقد كان الرجل يراقب آرثر مراقبة دقيقة بينما كان يتظاهر بإصلاح أجهزة المذياع في الحجرة الخلفية من المحل ، وكان قد سجل مذكرة بكل عملية بيع أو تبادل للسلع والنقود حدثت في أثناء ذلك ، وأقر آرثر بأنه قد هزم ، واعترف بالسرقة .

سأل الشرطي صاحب المحل : « هل تريد أن تدفع القضية إلى مرحلة أبعد من ذلك ؟ »

فأجاب صاحب المحل - الذي لم يكن متعصباً - بأنه لا يريد ذلك . ولكنه ذهب إلى ديك لينجارد وقال له إنه سيرفع الأمر إلى قاضي التحقيق إذا رفض العم أن يضرب ابن أخيه « علقة » محترمة . وخضع آرثر للامر الواقع في صمت ، وهو يغلي غضباً لما لحقه من مهانة ، ولكنه كان أكثر غضباً من بلاهته التي وصلت إلى درجة أن يسمح لهم بوضع أيديهم عليه واكتشاف سرقته . وراح صاحب المحل يراقب عملية الضرب راضياً بينما كان الحزام الجلدي الثقيل

يهوي على ظهر آرثر المحني اثنتي عشرة مرة ، ثم قال :

« هذا يكفي . سوف يلقنه هذا درساً نافعاً . » ثم سار مبتعداً عن المنزل .

وغادر آرثر المنزل وبقي بالخارج حتى منتصف الليل ، ومضى يتمشى على ضفة القنال ذهاباً وعودة ، وهو يصر على أسنانه ويلعن كل شيء ويقسم أن ينتقم .

ولكن هذا لم يؤد إلى أي تحسن في الموقف المتعلق بپولين . وذات يوم فقد ديك لينجارد سيطرته على أعصابه إزاءها ، وكاد يكسر معصمها في قبضته ، وظل معصمها متورماً ومكدوماً طوال أسبوع بعد ذلك . وبلغ عدم اهتمام پولين بالأمر إلى حد أن خرجت عصر يوم السبت التالي . وأمضت الأمسية في الفراش مع أيوجين تيرنر (الذي كانت تلتقي به في علاقة متقطعة عارضة ، وغالباً ما كان لقاؤهما الجنسي يتم في المقعد الخلفي لسيارته) . وبينما كان يصطحبها إلى البيت بالسيارة قالت :

« يمكنك أن تنزلني عند الباب الأمامي للمنزل . »

جفل الرجل وقال لها : « هل جننت ؟ »

ولكنها أجابته : « كلا . » انما كانت في حالة عناد وتصميم على شيء ما . ورآها ديك لينجارد من نافذة الطابق العلوي ، وهبط لكي يقابلها لدى دخولها من الباب الخلفي . فانفجر في وجهها قائلاً :

« أيتها العاهرة القذرة الصغيرة . إنك لست أفضل من بغي متهيجة ! »

« يمكنك أن تتكلم ! » كذلك أجابته وهي تحدق باحتقار في اتجاه أزرار بنطلونه . وكان هذا أكثر ما يمكنه احتماله . قبض عليها ، وجرها إلى حجرة الاستقبال ، ورفعها ووضعها راقدة على بطنها فوق ركبتيه ، بينما جذب سروالها إلى أسفل . توقعت أن يضربها ضرباً مبرحاً ، ولكن كان كل ما فعله في الحقيقة هو أن أخذ يتحسس جسدها .

كان الآن يتنحب وقد ملأه الغضب مفعماً بالرغبة وهو يقول : « أيتها البغي القذرة . أتظنين أن بوسعك أن تفعلي ما تشائين ؟ »

وقد حدث في تلك اللحظة أن دخل آرثر إلى الفناء الخلفي . نظر إليهما عبر النافذة ، وتوقف متجمداً . رآه العم ديك فصاح فيه : « وأنت ، يمكنك أيضاً أن تقودها ! » . استدار آرثر إلى الخلف ، وخرج من حيث جاء . وحينئذ جثا ديك ليتجارد على ركبتيه ، وحمل بولين — العارية من خصرها حتى قدميها — تجلس على مقعد ذي مسندين ، وراح ينتحب على ركبتيها . ولم ترفض هي ذلك الوضع ، فقد كانت مسرورة بأن تفلت من الضرب مقابل عدم رقصها . ولكن حينما وقعت عيناه على سروالها ، وقد ظهرت عليه بقع لا يخفى عليه أمرها ، وهو ملقى على البساط في الحجرة ، أنّ في تعاسة حقيقية :

« كيف أمكنك أن تفعلي بي هذا ؟ » وقد شعر بوضوح أن شيئاً مفزعاً ، لا يمكن الرجوع عنه أو اصلاحه ، قد وقع . كان ديك ليتجارد ، يحبها حباً صادقاً ، ولكن بطريقته الخاصة .

* * *

بعد يومين صدم آرثر حينما ظهر ضابط الأحداث في المدرسة وطلب أن يراه . كان الضابط (امرأة) رمادية الشعر ، في منتصف عمرها ، وكانت هي نفسها التي تعاملت مع ألبرت . وكان ما قالته هو أن صاحب المحل قد قرر أن يتقدم باتهام ضده . وشعر آرثر بالمهانة مرة أخرى وقال :

« لا يمكنه أن يفعل ذلك . لقد وعدني . » ووصف لضابطة الأحداث عملية الخلع التي خضع لها كعقاب .

قالت الضابطة : « كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أنه قد غيّر رأيه . أو ربما كان شخص آخر هو من حمله على تغيير رأيه . »

أدرك آرثر الحقيقة وقال : « العم ديك ! »

وكان هذا صحيحاً . كان ديك ليتجارد قد ذهب إلى صاحب المحل ، وقال له إنه سيسدي خدمة عظيمة للجميع إذا هو سار في قضيته باتهام آرثر بالسرقة . وقال له إن آرثر لا يمكن التعامل معه أو معالجته على الإطلاق . وهناك أيضاً ما يدعو إلى الاعتقاد — ولو أنني لا أملك عليه دليلاً — بأنه قال

لصاحب المحل أيضاً إن آرثر على علاقة جنسية كاملة بابنة عمه آنجي . وقد كان هذا حقيقياً ، كما سأوضح بعد لحظة . وكان صاحب المحل رجلاً أخلاقياً أثارته فكرة الفسق ، فوافق على أن يتقدم باتهامه ضد آرثر .

وأنا أميل الى الشك في أن ديك ليتجارد ما كان ليتخذ هذه الخطوة — مع الاعتراف بأنه كان ظالماً في اتخاذها — لو لم يكن قد أصبح نصف مجنون بسبب الغيرة على بولين ، فاعتقد بأن آرثر كان يتآمر من أجل تزويجها . وقد كانت هذه فعلة لا معنى لها ، لأن آرثر باعتباره متهماً من الدرجة الأولى — كان سيوضع بالتأكيد في اصلاحية للأحداث ، ولكنه من جانب آخر ، كان من المؤكد أن يبوح بما يعرفه عن بولين . وربما كان ديك ليتجارد قد شعر بالأمان من هذا الجانب ، طالما أن بولين لم تعد قاصراً ، وأنه سيكون من الصعب اثبات أنه قد أغواها منذ أربع سنوات . كان قد أصبح يكره آرثر الذي بدا شديد التباعد مليئاً بالازدراء ، وأراد له أن يشعر بأنه آثم إلى درجة لا تطاق .

ونجحت الخطة ، ووقف آرثر أمام محكمة الأحداث في اليوم الحادي عشر من شهر مارس ، ووضع تحت المراقبة لمدة عام . وقال رئيس المحكمة لديك ليتجارد بجفاء :

« إن ولدك (ألبرت) تحت المراقبة بالفعل ، وربما كان المثال السيء الذي ضربه قد أثر على هذا الشاب . وإن من عملك أنت ومن واجبك أن تتصرف بالقسوة الكافية لكي تمنع المزيد من أعمال خرق القانون . » وكان ديك ليتجارد قد صرح للمحكمة بأن آرثر كان غير قابل للعلاج ولا يمكن التعامل معه على الاطلاق — صموتاً ، مكتئباً ، عصياً ، حنقاً ، متجهماً .

وامتلأ قلب آرثر بالغضب ، لم يكن بامكانه أن يصدق أن كل تلك الاهانات البلهاء كانت تلحق به حقاً . هو نابليون الجريمة في المستقبل . أما ديك ليتجارد فقد حقق حلماً هاماً من غرضه — فقد جعل آرثر يشعر بقوة « التماسك الاجتماعي » ، وجعله يشعر بالاثم إلى درجة لا يمكن اغتفارها .

وكانت النتيجة هي اشتعال الحرب الشاملة في منزل الأسرة في شارع

بينكث – وامتلأ آرثر بغضاً ومقتاً لديك لينجارد وأخذ يحلم بقتله . لم يكن سوى القتل هو ما يصلح الشعور بالمهانة. وأصابته كراهيته الجديدة بالاهمال . فارتكب خطأ لا بد أنه جعل عمه يفرك يديه في اغتباط . فقد سرق آرثر مسدساً من شقة كان يضع فيها جهازاً من أجهزة التليفزيون . وأعتقد أنه لا يمكن أن يكون هناك شك في أنه قد سرق المسدس لكي يقتل عمه . وقد كان آرثر متحفظاً معي في هذه النقطة ، ولم أحاول أنا أن أضغط عليه . ولكن من معرفتي بآرثر ، أستطيع أن أخمن أن نيته كانت تتجه إلى الاحتفاظ بالمسدس مخبأ لفترة طويلة معقولة ، حتى ينسى أمره ، ثم يخطط لعملية القتل بعناية . ولكنه لم يكن يملك ذخيرة تصلح للمسدس .

ولسوء الحظ افتقد أصحاب الشقة مسدسهم بعد ساعات قليلة من السرقة . وجاءت الشرطة إلى بيته وسألته عنه . ولا بد أن آرثر قد تبين الآن أن خطته لقتل عمه قد طاشت وأخطأت هدفها . وكان لا بد له أن يلقي بالمسدس في القنال على الفور . ولكنه كان واثقاً من أنه لن يعثر عليه في مخبئه على ضفة القنال . غير أنه كان يفكر دون أن يضع في اعتباره عائلة لينجارد . فان آجي ، في الحقيقة ، كانت قد زارت مخبأه وراء الأشجار ، وكانت قد أخبرت جيم بأمره (كانت هي وجيم على صلة وثيقة ببعضهما) . وكان جيم الآن متزوجاً وله طفلان – وهو في التاسعة عشرة من عمره – ولكن حينما جاء والده إليه لزيارته ، أخبره جيم بأمر المخبأ الذي يخفي فيه آرثر غنائمه . واصطحب ديك لينجارد شرطياً ، فبحثا معاً وراء كل شجيرة على ضفة القنال في مسافة تمتد ميلاً كاملاً بعد شارع بينكث . وأسفر البحث عن اكتشاف حفرة كان من الواضح أنها استخدمت حديثاً وبانتظام ، فقد كانت الأرض عندها مسطحة بشكل مريب . وأسفر الحفر عن العثور على قطعة مسطحة من الحجارة غطيت بالتراب بعناية ، وكان تحتها صندوق من الصفيح دفنه صاحبه بعناية بالغة ، وبقدر عظيم من الحرص . وفي الصندوق كانت هناك ستة سراويل ، وعدة قطع من الحلي والهدايا الصغيرة ، إلى جانب المسدس المفقود . ومن بين

الهدايا الصغيرة كانت هناك الميدالية المعلقة في السلسلة الذهبية التي أخذها آرثر في عملية سطوه الأولى ، فانه لم يحاول أبداً أن يبيعها .

كانت ربات البيوت في المنطقة يشكين من سرقة ملابسهن الداخلية من على حبال الغسيل . وكانت السخرية هي أن واحداً من السراويل التي عثر عليها في مخبأ آرثر لم يكن قد سرق من على أحد حبال الغسيل . ولكن كان من الأسهل ألا يقال شيء في هذا الصدد . وقد تعرف بعض أصحاب أجهزة التليفزيون التي كان آرثر يصلحها في أمسيات أيام السبت . تعرفوا على بعض الهدايا الصغيرة . (ولكن الميدالية ذات السلسلة لم يتوصل أحد إلى أنها أخذت من منزل والدي دنكان ، وعلى قدر ما يعرف آرثر . فان الوالدين لم يفتقداها أبـــداً) .

وربما كان موقف آرثر المتجهم وغير المتعاون في المحكمة عاملاً هاماً في تقرير طول الحكم الذي صدر ضده . ولو أنه كان أكثر تعاوناً فربما أفلت بحكم لا يقضي بأكثر من مدة فترة وضعه تحت المراقبة . ولكن الحكم قضى بسجنه عامين في « إيرلستاو » وهي إصلاحية للأحداث بالقرب من مانشستر .

وكانت هذه فترة رفض أن يناقشها معي . ولم أدهش لهذا . فان « إيرلستاو » تتمتع بسمعة أنها أقسى مدرسة اصلاحية من نوعها في شمال انجلترا . وربما كان لنوع الشبان الذين قابلهم هناك قد ملأه بالازدراء والبغض . وقد أخبرني بالفعل : أنه على الرغم من تحريم الضرب . نظرياً هناك ، فانه قد ضرب مرتين في الأسبوعين الأولين لوجوده هناك . ومن الواضح أن المسؤولين عن المدرسة يؤمنون بأن هذا النوع من التعامل لا يؤدي إلى أي ضرر . فهو ينتزع من الطفل رغبته في القتال ، ويجعله يطمح إلى أن يحيا في سلام بأي ثمن . ولكن ، إذا كانت لدى آرثر لينجارد أية فرصة لكي يتوقف تحوله إلى مجرم . وأنا أشك في أن هذه الفرصة كانت موجودة أصلاً . فانها قد تلاشت نهائياً في أثناء الشهور الستة التي قضاها في مدرسة إيرلستاو . وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن آرثر لينجارد من جانب معين كان شخصاً جيد

التوازن إلى درجة معقولة قبل أن يذهب إلى إيرلستاو . ولكنه كان غير متوازن حينما غادرها ، كان مشبعاً بالكراهية، والخوف، والتصميم الوحشي على أن يجعل أحدهم يدفع الثمن . وقد نجح في هذا . ولكن الكراهية والعنف ، بقيا ، حيث كان قد نضج غراسهما من قبل .

* * *

بعد ستة شهور ، هرب بأن تسلق إلى السقف صاعداً فوق مظلة مشيدة في الحديقة ثم فوق أحد الجدران . وسرق دراجة عاد بها إلى وورينجتون – إلى شقة جورج جولدهوك . وذهبت الشرطة إلى ديك لينجارد ، الذي نصحهم بالبحث في شقة جولدهوك . وأعيد آرثر تحت الحراسة في خلال ست عشرة ساعة من هربه . ولكن ضابطة الأحداث تدخلت ، ووقف آرثر مرة أخرى أمام محكمة الأحداث ، مستعداً لسماع زيادة الحكم عليه بالسجن لسرقة الدراجة ، ولكن ، لشدة دهشته، أمر رئيس المحكمة ديك لينجارد بأن يدخل المتمرد معه إلى البيت، وبأن يبذل جهداً من أجل أن « يجعله مستقيماً » . وكان على آرثر أن يقطع على نفسه عهداً – في وقار – بأن يبتعد عن المشاكل . ولكي تكمل دهشته راح القاضي ، وهو رجل عجوز متورد الوجه أبيض الشعر ، كما لو كان إحدى شخصيات ديكنز ، راح القاضي يغمز له بخبث . وقد عرف آرثر فيما بعد أن هذه كانت هي آخر ما نظره القاضي من قضايا ، فقد كان عليه أن يحال إلى التقاعد في هذا اليوم ، وأراد أن ينهي حياته القضائية بعمل من أعمال البر والشفقة .

وبعد ثلاثة شهور ، كان ديك لينجارد قد دخل السجن ، لأسباب أوضحتها من قبل . لقد وجد آرثر أن الانتقام كان بالغ السهولة حينما وضع يده على الهدف المقصود . فقد سألته الباحثة الاجتماعية عن أمر حمل بولين ، الذي كان قد أصبح واضحاً . (لم يكن هذا بالطبع من شأنها ، وإنما كانت مدفوعـة ببساطة بحب الاستطلاع) فأخبرها آرثر بما يعرفه ، وثارت أخلاقيات الباحثة الاجتماعية وشعرت بالعار ، وخاصة حينما وصف لها آرثر بولين وقد جلست

على مقعد ذي مسندين ، بينما كانت كف الوصي عليها ، البدينة اللون المشعثة الشعر ، تتحسس ردفيها العاريين . وافترضت الباحثة – مخطئة – أن بولين قد اغتصبت على الدوام – ورغم إرادتها – منذ كانت في الثانية عشرة . وألقي القبض على ديك لينجارد في أثناء خروجه من إحدى مباريات كرة القدم ، حيث كان قد أمضى أمسية كئيبة لم تبعث إلى قلبه الرضا . ولم يحاول أن ينكر أنه كان أول عشاق بولين حينما كانت في الثانية عشرة من عمرها ، فقد اعتقد أنها قد اعترفت بهذه الحقيقة بالفعل . كما أنه لم ينكر أنه قد أنفق بضعة مئات من الجنيهات كانت أم آرثر تركتها لطفليها . وكان من حسن حظه أن أثبت فحص فصيلة الدم أنه لا يمكن أن يكون والد طفل بولين ، وإلا لكان قد حكم عليه بعشر سنوات بدلاً من ثلاث . ولكن يصعب القول بأن هذا قد أدى إلى أي اختلاف ، فقد كانت حريته لا معنى لها عنده .

وأمرت العمة إتزي بولين بأن تخرج من المنزل ، ولم تكن لدى المرأة أية شكوك في أن زوجها كان بريئاً ، ولا لوم عليه على الاطلاق .

الفصل السابع

في اليوم الذي وصف لي فيه آرثر حادثة سطوه الثانية – والتي سجلتها في الفصل السابق – سألته بطريقة عارضة :

« من الذي علمك التنويم المغناطيسي ؟ »

كانت هذه هي المرة الأولى التي ذكرت فيها هذا الموضوع بصراحة ، وكنت قد لاحظت أنني كلما كنت احاول أن أحمله على الكلام عن علاقته بابنة عمه آجيس ، كان ينظر إلى أصابعه ثم يغير الموضوع . ولكنني قدرت الآن أنه كان مستعداً لأن يكون صريحاً . أزعجتني اجابته وأدهشتني . قال :

« آجـي . »

« ابنة عمك آجي ؟ كيف ؟ »

لقد اعتادت أن تعالج الصداع الذي كان يصيب ماجي بأن تربت على جبهتها . وكانت ماجي تصاب بنوبات صداع مرعبة قبل أن تموت . »

« أكنت قد قرأت « مارفو الساحر » في ذلك الوقت ؟ »

« أوه ، أجل . قرأت ذلك الكتاب وأنا في العاشرة . »

كان « مارفو الساحر » كتاباً أفضل في حقيقته مما قد يوحي به عنوانه . وقد كانت إحدى قصصي المفضلة في سنوات مراهقتي قصة : « المطاردون والمطارَدون » التي كتبها « بالوير ليتون » ، وكان من الواضح تماماً أن « جابلر برمي » مؤلف قصة « مارفو الساحر » قد تأثر بكتاب ليتون تأثراً قوياً . وراوية القصة عضو في « جمعية البحوث النفسية » وهو الذي يطلب منه أن يستقصي أمر الأرواح التي تسكن منزلاً لأحد القساوسة في مدينة « يوركشاير » . ويعثر

الباحث – الراوية – في صومعة لأحد القساوسة على مخطوطة قديمة – يزيد عمرها على مائة عام تصف رجلاً خبيثاً كان قد قدم إلى المنطقة لكي يقيم فيها . وكان قد أظهر أنه يمتلك قدرات شريرة مختلفة ومتنوعة . وكان « الساحر » قد أجبر مؤلف المخطوطة على معاونته في أبحاث سحرية معينة . وحينما أفلح المؤلف أخيراً في الهرب ، صمم الساحر على أن تزور روحه منزل القس في كل ليلة ، في حياته ، ومن بعد موته . وينجح الراوية بعد هذا في الاتصال بالأرواح الطيبة ، المولعة بافشاء الأسرار . وينجح في تبادل الحديث معها عن طريق المائدة المتكلمة ، فيكتشف أن الساحر ما يزال حياً . (وربما كانت هذه الفكرة قائمة على فكرة مستمدة من كتاب « ماتورين « ميلموث ») . ويعثر على الرجل في مدينة بودابست بالمجر ، فيقع هو نفسه تحت تيره . فالساحر يمتلك قوى هائلة ؛ ومن حيله المفضلة أن يجعل الصخور تصطفق والأشجار تنشق نصفين بتركيز إرادته عليها . ويمضي الراوية مع مارفو في رحيل دائم حول العالم مثل فاوست ومفيستوفوليس ، فيمران بمغامرات من كل نوع . ولكن مارفو يلقى دماره في النهاية على يد فتاة شابة جميلة وقع في هواها ، ثم تبين أنها ساحرة منافسة كانت متنكرة . ولكن أهم ملامح الكتاب هي دروس مارفو في التنويم المغناطيسي ، وهو موضوع من الواضح أن المؤلف قد فكر فيه ملياً وأوفاه حقه من الدراسة . كان يقول :

« لكل من الناس روحان ، هدف التنويم المغناطيسي هو تحويل إحداهما ضد الأخرى . وأكثر الناس قابلية للتنويم هم من لا يملكون شيئاً يفعلونه . لأن ضجرهم وما يتملكهم من ملل يجعلانهم مستعدين لتقبل ما يوحي به إليهم . »

وقد كان لهذا معنى معين عند آرثر . فحينما كان في الحادية عشرة من عمره وكان قد بدأ يسرف في ممارسة العادة السرية – اكتشف أنه لا يستطيع أن يبول في مرحاض المدرسة إذا كان هناك من يقف إلى جانبه . وكان بوسعه أن يدرك أن هذا العجز مرجعه إلى أن وجود الشخص الآخر جعله « واعيا

بذاته » . فلا يكون لهذه الذات المحدقة في نفسها ، الواعية بوجودها ، قدرة على التحكم في عضوه لكي يسمح بخروج البول . وسرعان ما أدرك دلالات هذه الحقيقة . فاذا استطعت أن تجعل شخصاً ما يعي بذاته وعياً مسرفاً ، فانه لن يجد صعوبة في التبول فقط ، وإنما سيجد أنه من الصعب أن يفعل أي شيء طبيعي أو مما اعتاد أن يفعله . فان المدرس في المدرسة ، إذا نظر إلى يديك من فوق كتفك وأنت تكتب ، فسوف يبدأ خطك في التعثر ويصبح مشوهاً ، وتشعر بيدك وقد تصلبت وامتلأت بالتردد . وذات يوم قال له أحد أصدقائه في المدرسة :

« إنني أحب أن أصغي إلى صوتك ، فانك تتمتع بلهجة مضحكة تماماً . » (وهي لهجة لندن بالطبع) .

فوجد آرثر نفسه يتعثر في كلامه ويتهته في حديثه . ولكنه استطاع أن يرد هدية زميله بأن قال له :

« ولكن ما يبهجني قبلك حقاً هو طريقتك في المشي . إنك تذكرني بشقيقتي . »

« كيف ؟ »

« حسناً ، إنك تهز ردفيك كالفتاة . إسمع ، أمشي أمامي الآن وسوف ترى ما أعنيه . »

وسار الصديق أمامه ، ثم احمرّ وجهه خجلاً ثم قال :

« إنك على حق . ولكني لم أتبين هذا من قبل أبداً . »

وبعد هذا ، أصبحت مشية الصديق متّرددة ، واعياً بنفسه أثناء المشي ، يهز سير المرأة بشكل واضح ، وكلما لاحظه أحد ، كلما ازدادت حالته سوءاً .

وطوال أسابيع ، تسلى آرثر بقدرته على اثارة الايحاء الذاتي لدى الآخرين . فقد قال لزميل له في المدرسة كان سينتقل إلى حجرة دراسية أخرى :

« لا يمكنني احتمال تلك الحجرة . فالمقاعد هناك مصنوعة من خشب الصندل ،

سنكتشف أنها ستجعلك تحس بالحكة المستمرة وتجعلك تشعر باحساس غريب ومضحك عند ركبتيك . »

ولشدة ابتهاجه ، خرج زميله من الحجرة وقد التهبت ركبتاه من كثرة حكهما بأظافره ، وأرسل والداه مذكرة إلى المدرسة يطلبان فيها أن يسمح له بالجلوس على مقعد من نوع آخر . وربما أعطى قلمه للزميل الجالس إلى جواره وقال له :

« ثمة شيء غريب ومضحك في هذا القلم . إنه يجعلك تشعر بأن أصابعك لينة كالماء وضعيفة . »

ويجرب الصديق القلم لمدة قصيرة ثم يقول : « أجل ، هذا شيء غريب ، أليس كذلك ؟ »

ولكن الشيء الغريب هو أن يشعر آرثر نفسه ، حينما يستعيد القلم ، بأن أصابعه قد أصبحت لينة وضعيفة هو الآخر عندما يحاول الكتابة به . وقد يسأل صديقه :

« ألا تشعر بحكة في حاجبك ؟ »

« كلا . لا أظن ذلك . »

ولكن : بعد لحظة يبدأ الصديق يحك حاجبه بعنف وإصرار .

ووجد أن هذه الحيلة تؤتي أفضل ثمارها في اجتماع الصباح . حيث كان ناظر المدرسة يصر على أن يجلس الجميع صامتين ساكنين بضع دقائق من أجل أن « يفحصوا ذواتهم » بعد أداء صلاة الصباح . وكان كل من يضبط وهو يتبادل الهمس أو يتململ في مكانه يلقى عقاباً شديداً قاسياً . وركز آرثر انتباهه على صبي شديد الاحساس بذاته له هيئة الفتيات وسلوكهن . وبينما كانوا ينتظرون دخول مكان الاجتماع ، قص عليه آرثر فكاهة عن « ماشي » القدمة من الحساء الذي له مذاق ريث البراغيث . وضحك الصبي . فقال له آرثر :

« ما كان لي أن أحكي لك هذه الفكاهة . »

« ولم لا ؟ »

« لأنني أجد نفسي دائماً أتذكر الفكاهات بينما المفروض أن نفحص ضمائرنا وذواتنا في الاجتماع . ونكاد محاولتي للامتناع عن الضحك تقتلني . فاذا لم أضحك . أبدأ في حك كل جسمي وأتململ في مكاني ... »

وفي فترة الصمت من ذلك الصباح ، التقت عيناه بعيني صديقه فهز رأسه بجدية . وعلى الفور ، انفجر الصديق في قهقهة عنيفة . ورفع الناظر عينيه ممتلئاً بالغيظ والاحساس بالعار . وتورد وجه الصبي ، محاولاً أن يحبس ضحكته . ثم لاحظ آرثر وهو يحك جسمه انه يحك جسمه هو الآخر . بحذر أولاً ، ثم بعصبية . وأجفل الجميع حينما زأر فيه الناظر قائلاً : « روس ، أكتب السطر التالي خمسمائة مرة : يجب ألا أتململ في الاجتماع ! » .

وقد اهتم آرثر اهتماماً عميقاً بملاحظة الطريقة التي كانت آجي تتمكن باستخدامها من معالجة نوبات الصداع التي كانت تصيب ماجي بأن تقف وراءها ثم تربت على جبهتها . كانت تستخدم دائماً الحركة ذاتها . واضعة يديها في مركز الجبهة ثم تتخذ ضرباتها الخفيفة اتجاهاً خارجياً في منحنى صاعد حتى تتبع اليدان خط منبت الشعر . وسأل آجي لماذا كانت تستخدم تلك الحركة فأجابته :

« لا أعرف . كنت أربت على جبهتها أولاً في خط مستقيم ، ولكنها قالت لي إنها تشعر بتحسن أفضل حينما أستخدم هذه الطريقة . »

قال : « حاولي أن تستخدمي الطريقة الأخرى في المرة القادمة — ولكن انقلي أصابعك إلى أسفل قليلاً . »

وكان حاضراً حينما جربت آجنيس الطريقة الجديدة ، ولكن ماجي جفلت على الفور وقالت :

« أوه ، لا تفعلي ذلك . هذا يجعل الصداع أسوأ . »

سألها آرثر : « لماذا ؟ »

« لا أعرف . أظن لأن الضربات تتخذ اتجاهاً مخالفاً ! »

وذات مساء كان مع ماجي في المنزل بمفردهما . ولاحظ أنها كانت تعبث

بحافة إحدى الصفحات بينما هي تقرأ مجلة نسائية . قال بتعاطف :

« هل تشعرين باقتراب اصابتك بنوبة من نوبات صداعك ؟ »

« كلا ، لماذا ؟ »

« يمكنني دائماً أن أتنبأ بوقوع هذه النوبة . فانك قبلها تعبثين بحافة الصفحة . »

« أهذا صحيح ؟ أكنت أفعل ذلك الآن ؟ »

« أجـــل . »

وفي خلال خمس دقائق كانت عينا ماجي قد أظلمتا من الألم . دفنت وجهها بين يديها وقالت :

« أوه ، ألم مروع . كم أتمنى لو كانت آجي هنا . »

« يمكنني أن أفعل ما تفعله لك آجي ، فقد علمتني الطريقة . »

« هل أنت واثق ؟ »

لم يكن واثق الثقة حينما اتخذ مكانه خلفها ، ولكنه لم يظهر ريبته . وضع يديه بقوة في منتصف جبهتها ، وحركهما إلى الخارج في خط منحن . وقال بنعومة :

« هاك ، أترين ؟ أنت الآن أحسن حالاً . أليس كذلك ؟ بعد لحظة ، دون شك . »

« أجـــل . »

وبعد خمس دقائق ، كان الصداع قد تلاشى .

بلغت سعادة آرثر بقدرته الجديدة حتى أنه كان ينتهز كل فرصة لانفراده بماجي لكي يجعلها تصاب بنوبة صداع عن طريق الايحاء ، ثم يعالجها منها . وكلما تكرر قيامه بهذا العمل ، كلما أصبح الأمر أكثر سهولة . أما ما سره أكثر السرور ، فهو أن ماجي التي تكبره بخمسة أعوام ، قد بدأت تعامله بالاحترام الواجب أن تؤديه إلى طبيب . فتعطيه نصيباً أكبر قليلاً من الحلوى حينما يكون عليها أن تهيء طعام العشاء .

وذات يوم ، بينما كان جالساً في مواجهتها ، يقرأ إحدى روايات طرزان

تثاءبت ماجي ومددت جسمها . فانفتح صدارها الصوفي الرمادي ، وكشف عن جزء من خصرها حينما انكمش وابتعد عن جونلتها .

سألها بتعاطف : « الصداع ؟ »

« كــــلا . »

ولكنها ، بعد خمس دقائق ، كانت تتأوه وتضغط على جبهتها . فقال لها :

« أتعرفين ، لقد دلني شخص في المدرسة على طريقة أفضل بكثير لعلاج نوبات الصداع . »

« وما هي ؟ »

« قرص حلمتيك . »

« إنك تجرجر رجلي ! »

« كلا ، جربي بنفسك ! »

رفعت ماجي يدها في شك ، وقرصت حلمتها العريانة من خلال الصدار .

« أليس هناك تأثير ؟ »

« كــــلا . »

وقف وذهب فوقف وراءها وقال : « والآن ، استرخي . »

(كانت هذه دائماً هي اشارة البدء للتربيت على الجبهة) .

قالت : « هذا أفضل . »

ضغطت يداه على جبهتها لحظة وراحت تدلك جبهتها جهة الخارج للحظة ثم امتدت إلى أسفل حتى عثرت على نهديها – صغيرين ومسطحين – وبدأت تقرصهما .

قال : « أهذا أفضل ؟ »

« لا أعرف ... » كذلك أجابت على سؤاله وفي صوتها رنة ارتياب واضحة

« إنك لست هنا ... »

كانت حلمتاها دقيقتين جداً ، وكان الصوف سميكاً جداً . قال :

« اخلعي هذا الصدار . »

كان يعرف أهمية املاء الأوامر ، وجعلها تنفذها . رفعت ماجي صدارها حتى أصبح فوق نديبها الصغيرين . انحنى آرثر إلى الأمام وضغط ببطنه على ظهر المقعد لكي يهدىء ما شعر به من توتر ، ثم راح يقرص الحلمتين برفق وقــال :

« هاك ، هذا أفضل بكثير . أليس كذلك ؟ »

قالت : « أووووه ! » وخرج زفيرها في تنهيدة طويلة .

« أفضــــل ؟ »

« رائــــع ! »

« أترين ؟ هذه الطريقة أسرع بكثير من التربيت على الجبهة . أليس كذلك ؟ »

« أجل ، أسرع بكثير . »

كان من المؤسف أن ماجي لم تكن تجذبه جسدياً . وإنما كان متعلقاً تعلقاً غير واع بشقيقته . وكان جديرة بأن يدفع الكثير من أجل أن يسمح له بأن يقرص حلمتيها . ولكن الفرصة لم تتح له أبداً لكي يفعل ذلك . وكانت بولين تبدو غير قابلة للاقتراب . سألها ذات مرة :

« أتشعرين بصداع ؟ »

« صداع ؟ كلا . بالطبع لا . »

وكان هذا هو كل شيء . وكانت ماجي تعاني من مرض الصفراء . وقد قال الطبيب إن أجهزتها الداخلية عاجزة عن التخلص من سمومها . وكان جسدها يفوح برائحة الضعف والمرض . وقد كان يستطيع تهدئتها بأن يفك صدارها . وكان مما يمنحه احساساً فمتعة أن يأمرها

« [illegible] صدارك . »

« ذات مرة [illegible] في المنزل قال لها

« من الأفضل أن تخلعيه . »

[illegible]

الخشب . ولم يكن السبب هو أن ماجي لم تكن تثيره جنسياً ، وإنما بدا له ما في الموقف من ابتذال أكثر اثارة . فأعضاؤه مكشوفة ، بينما فتاة تتأوه برقة وهو يعبث بصدرها . أما فكرة أن يرفع ثوبها فيضع يده بين ساقيها فقد ولدت لديه احساساً بالرفض والاشمئزاز . لم تكن ماجي تثير اهتمامه ، وإنما كانت هيمنته عليها هي ما يعطيه المتعة والبهجة . وقد فكر في أنه قد يكون من الممتع أن يضربها ، ولكنه لم يتخيل هذا السلوك أبداً . وبعد شهرين لزمت ماجي فراشها ، وماتت في خريف عام ١٩٤٩ . وحينما وقف آرثر لكي ينظر إلى وجهها وهي راقدة في النعش — وقد بدا الموت بالغ الوضوح عليها — دهش آرثر حينما شعر بحزن مفاجيء يملأه من الداخل جعل الدموع تنهمر على خديه. فاكتشف — حينذاك — مدهوشاً أن امتلاك الهيمنة على شخص ما ، يمنحه هو أيضاً هيمنة عليك . إنه لم يحب ماجي أبداً ، وقد شعر دائماً إزاءها بنوع من الرفض والاشمئزاز ، ومع هذا فان احتكاكه بجسدها خلق علاقة أو رابطة بينهما . ولكن كان قد نسيها تماماً في اليوم التالي لموتها . وقد جاء هذا النسيان كنوع من الارتياح . فان حزنه كان قد أخافه ، إذ لم يكن من الممتع أن يشعر بالضعف .

كانت قصة « مارفو » قد جعلت آرثر يهتم بموضوع التنويم المغناطيسي . وكان ابن عمه ألبرت قد قرأ هذه القصة أيضاً ، وذات يوم ، حينما كانت آجي في الحجرة ، اقترح آرثر أن بوسعه أن يحاول تنويم ألبرت .

كان قد حقق اكتشافاً ممتعاً ومثيراً للاهتمام . كان كلما أسرف في القراءة راح يتثاءب ، وامتلأت عيناه بالدموع . وكان ، في بعض الأحيان ، إذا حدث هذا ، ضم أصابع يديه اليمنى واليسرى بعضها إلى البعض ، ثم يضغط براجم أصابعه على جبهته . وذات يوم حاول أن يبعد يديه الواحدة عن الأخرى وهما في هذا الوضع ، بينما كان يحكم من تماسك أصابعه . وحينما فعل ذلك شعر باحساس غريب من الخفة في جمجمته . كانت الشمس تسطع عبر النافذة .

فانعكست أشعتها على قطعة محطمة من مرآة منصوبة على واجهة صوان كبير في الحجرة المواجهة له . وفجأة خيل له أن هذا الضوء قد تخلله ظل عابر بعرض النافذة للحظة واحدة . وكان معنى هذا أن الضوء قد « استلبه » لعدة دقائق وأغرقه في لحظة سبات عابرة رغماً عن إرادته .

قال لألبرت أن يشبك أصابع يديه وأن يضع اليدين متشابكتي الأصابع فوق قمة رأسه . ثم قال له أن يشد بيديه إلى أسفل بكل ما يمكنه من القوة . وبعد لحظة . كان وجه ألبرت قد تورد فقال : « إنني أشعر بالتعب . »

« لا بأس ، استمر . »

وحينما ثبتت عينا ألبرت دون حركة بسبب التوتر . بدأ آرثر يحرك يده في حركة دائرية بطيئة أمام عينيه ، ثم قال بنعومة :

« حسناً . هذا جميل . يمكنك الآن أن تسترخي . »

واسترخى ألبرت ، ولكن عينيه ثبتتا على يد آرثر . قال آرثر :

« والآن ، قف . »

وقف ألبرت . فسأله آرثر :

« أيمكنك أن تسمعني ؟ »

قال ألبرت : « أجل . »

« حرك يدك اليمنى . » ولمس اليد المقصودة ، لأن ألبرت كان عاجزاً عن أن يميز بين يمنى اليدين ويسراهما . فحرك ألبرت ذراعه اليمنى . قال آرثر :

« يدك اليمنى تريد أن تظل مرتفعة في الهواء ، ولكنك لا تريد ذلك . حاول أن تمنعها من الارتفاع . »

تركت اليد مكانها في جنب ألبرت ، وبدأت ترتفع . وبدأ الانزعاج على ألبرت ، وحاول أن يرغمها على الهبوط . وتمنع للحظة ، ثم ارتفعت اليد مرة أخرى حتى أصبحت ممتدة متعامدة على جسده في زاوية قائمة . قال آرثر :

« حاول بقوة أكثر . »

وازداد وجه ألبرت احمراراً . قالت آجي :

كان آرثر منزعجاً ومندهشاً من نجاحه بقدر ما كانت آجي . ولم يكن بوسعه أن يعرف أنه قد وقع اعتباطاً على واحد من المبادىء الأساسية للتنويم المغناطيسي — وهو مبدأ اجهاد القدرة على الانتبـاه أو اجهاد العضلات — ثم الاستفادة من لحظة السبات أو الركود المؤقتة . فان الذات الواعية ، الذات التي تملي على الجسد أوامرها في العادة ، تغرق في النوم للحظة عابرة وتصبح العينان زجاجيتين ثابتتين ؛ وفي هذه الحالة ، يستطيع المنوّم أن يصدر الأوامر إلى « الغريزة » لدى الآخر ، متجاهلاً الذات الواعية أو عابراً فوقها ، في غفلة منها .

لم تكن لدى آرثر أية فكرة عن كيفية اخراج ابن عمه من سباته اللاإرادي ، ولما فرقع بأصابعه أمام عينيه لم يؤدّ هذا إلى نتيجة . ولكن ، بعد بضع دقائق ، هز ألبرت رأسه بعنف وأفاق لنفسه .

وحينما فكر آرثر فيما حدث ، بدأ يدرك المبادىء الكامنة وراءه . كانت حالة سباته هو القصيرة راجعة إلى الاجهاد — إجهاد عضلات عينيه ، وما تبعه من اجهاد تسلل إليه بسبب توتر ذراعيه . إن اللاجهاد قدرة عزلك عن العالم الخارجي ، ولذلك تكف عن ملاحظة ما يدور حولك وما يوجد من أشياء . وبمعنى ما ، تصبح في الوقت ذاته ، مستيقظاً ونائماً . إنها حالة تشبه رقادك في الفراش ، ولكن مع المحافظة على قدرتك على الحركة واطاعة الأوامر .

وقد أربكت هذه التجربة ألبرت لدرجة أنه سمح لآرثر بأن يكررها عدة مرات . وجرب آرثر عدة وسائل مختلفة . وكان بوسع الوعي الحاد بالذات أن يؤدي إلى نفس التأثير القائم على اجهاد الانتباه وانهاكه . وكانت الحيلة تقوم ببساطة على جعل الآخر واعياً إلى درجة حادة بجسمه . كان ألبرت يؤمر بأن يجلس على مقعد ، ثم بأن يضع يديه على ركبتيه ، العاريتين ، ثم يقول له آرثـر :

« والآن فكر في أطراف أصابعك . يمكنك أن تشعر بركبتيك تحت أطراف أصابعك . أيهما أكثر دفئاً ، أطراف أصابعك أم جلد ركبتيك ؟ أيمكنك أن تشعر بوجود الخطوط الضئيلة في بشرتك؟ أيمكنك أن تحس بالشعر الخفيف تحت

أطراف أصابعك ، أيمكنك أن تحس بجلد ركبتيك بشكل بصمات أناملك ؟ »

وكانت هذه الطريقة تستغرق وقتاً أطول مما تستغرقه الطريقة الأولى . فقد كان على آرثر أن يظل قادراً على الاستمرار في الايحاء بالأحاسيس والمشاعر المختلفة حتى يصل ألبرت إلى حالة تركيز جنونية على جلد أطراف أصابعه ، فيصل إلى درجة من الوعي بالذات تشبه غليان سائل ما داخل إناء مغلق بإحكام وهو النوع الحاد غير الصحي من الوعي بالذات الذي شعر به آرثر وهو يحاول أن يتبول بينما وقف إلى جانبه شخص ما . وحينما بلغ ألبرت هذه المرحلة ، كان بوسع آرثر أن يكتفي بأن يقول له إن ركبته تحكه لكي يجعل منالاً ، فان الحكة تصبح حينئذ كفجوة ملئت بطاقة محصورة محبطة لا وظيفة لها . وبعد تدريب قليل ، أصبح بوسع آرثر أن يفرض على ابن عمه حالة السبات بعد ما يقرب من عشر دقائق من الايحاء بالاقتراحات المتوالية . وحينما حدث هذا كان يستطيع أن يأمر ألبرت بأن يفعل أي شيء . وفي إحدى التجارب ، قال له أن يشعل عوداً من الثقاب ثم يمسكه رافعاً لهبه تحت أحد أصابع يده اليسرى . وأطاعه ألبرت ، وظل يحدق في اللهب في حالة من التكذيب السلبي الناعس ، حتى نفخ آرثر في عود الثقاب فأطفأه . وكانت بولين تحضر العديد من هذه التجارب فسألته لماذا يفعل هذا ، فقال ألبرت إنه لا يعرف وأضاف :

« كنت أعرف أنني أفعله ، وحاولت أن أمنع نفسي . ولكن يـدي استمرت في فعله . »

وقد حدث كل هذا فيما بين صيف عام ١٩٤٩ وصيف عام ١٩٥٠ . وقد تمت حادثة السطو الأولى التي ارتكبها آرثر في شهر نوفمبر من عام ١٩٤٩ ، بعد موت ماجي بوقت وجيز . ولم يكن قد مر وقت طويل بعد هذا حينما اكتشف أن بولين كانت قد أصبحت عشيقة لعمها ديك لينجارد . وفي ربيع عام ١٩٥٠ تسلم عمله في محل التليفزيون ، ثم وقعت حادثة السطو الثانية — حينما تأمل عملية الاغتصاب — في شهر يوليو من نفس العام . وقد حدث في نفس هذا الوقت تقريباً أن بدأت بولين تنام مع جورج جولدهوك . وأصبح

آرثر الرسول بينهما .

وقد كان لجورج جولدهوك تأثير هام على آرثر من سيبلين . فقد كان هو الذي قال لآرثر إن التليفزيون يمكن أن يكون المصدر العظيم للنقود الكثيرة في المستقبل ، وأنه ليس بوسع آرثر إلا أن ينشغل بما هو أسوأ من أن يصبح مهندساً لاصلاح أجهزة التليفزيون . وقد كان من الممكن أن يتجاهل آرثر هذا الاقتراح لو لم يكن يمعن التفكير في كيفية القيام بالسطو على المنازل بأقل قدر ممكن من المخاطرة . إن العامل الذي يقوم باصلاح أجهزة التليفزيون يستطيع أن يحصل على الاذن بدخول بيوت الناس — وبوجه خاص بيوت الناس التي تشبه بيت دنكان ماكيفر ووالديه — وطلب آرثر من المكتبة المحلية أن تأتي له بكتاب في هذا الموضوع (موضوع اصلاح أجهـزة التليفزيون) . ومن الأدلة التي تثبت ذكاءه الفطري اللامع قدرته على فهم الجوانب الأساسية من هذا العمل واتقانها في أسابيع قليلة — وقد ألهمته وشجعته فكرة القيام بأعمال السطو بأقل قدر ممكن من المخاطرة — ثم استطاع أن يقنع عملاً قريباً من منطقة سكنه لبيع واصلاح أجهزة المذياع والتليفزيون بأن يوظفه في وظيفة عامل اصلاح على أساس أن يعمل نصف يوم فقط . وقد سبق أن وصفت نتيجة حصوله على هذه الوظيفة . وفي الوقت الذي وضع فيه آرثر تحت المراقبة في شهر مارس من عام ١٩٥١ كان قد أصبح أحسن عمال اصلاح التليفزيون خبرة في وورينجتون . (ويجب أن نضع في اعتبارنا أن تلك الأيام كانت هي الأيام الأولى من عمر جهاز التلفزة وقبل أن يكون شائعاً في مثل شيوع الراديو) . وبعد وضعه تحت المراقبة على الفور تسلم عملاً تابعاً لمحل لبيع واصلاح أجهزة التليفزيون في المنطقة الوسطى من مانشستر — بعد أن حصل على إذن بذلك من ضابطة الأحداث . وقد أتاح له هذا العمل — كما كان يأمل — فرصة الدخول إلى بيوت أبناء الطبقة الوسطى وإلى حجرات الفنادق . كان الناس يدهشون ويسعدون حينما يقول لهم الصبي ذو الثلاث عشرة سنة أنه قد أرسل لكي يصلح جهازهم ، وكانت ربات المنازل يقدمن

له الشاي والكعك . وكان بعضهن يقلن له أحياناً : «سأخرج إلى السوق أغلق الباب وراءك حينما تغادر المنزل» .

وفي الغالب كن يجدنه في المنزل ما يزال حين عودتهن ، ولم يكن من الممكن أن يخطر ببالهن أنه من المحتمل أن يكون في تلك اللحظة مرتدياً سروالاً حريرياً أخذه من سلة الملابس القذرة المتروكة للغسيل . وكان كثيراً ما يستمتع بالوقوف وتبادل الأحاديث مع ربات البيوت ، وهو يغلي من داخله بفكرة أنه من المحتمل أن يكون في نفس اللحظة مرتدياً شيئاً يحتك بأعضائه التناسلية وكان هذا الشيء ، قد احتك من قبل بأعضائها . وفي مثل تلك اللحظات ، كان يرفع حقيبة أدواته أمام بطنه لكي يخفي ما قد يبدو من انتصابه المتزايد . كان هذا نوعاً من الاغتصاب الرمزي مرة أخرى ، يجلب معه إليه إحساساً غامضاً وسرياً بالقوة وبالتفوق .

وكان جورج جولدهوك هاماً لسبب آخر . فقد عمل لبعض الوقت في المسرح ، بوصفه عضواً في فرقة المطربين الخمسة التي عرفت باسم «الميلو ديز» . ولكن طموحه الخاص الخفي كان يتجه إلى أن يكون عضواً في «جمعية السحرة» . ولكن قدراته على استعراض أعمال السحر لم تصل به أبداً إلى مستوى المحترفين — أو أنه على الأقل لم يستطع أن يقنع أي مدير لأي مسرح بأن قدراته قد وصلت به إلى ذلك المستوى — ولكنه كان يمتلك معرفة جيدة بالنسبة للهواة في فن الهروب ، بالطريقة التي كان الساحر «هوديني» يمارس بها هذا الفن . وتظاهر آرثر بأنه قد وقع في أسر المشاكل المعقدة لعملية الهروب من الصناديق الزجاجية المغلقة المملوءة بالماء ، أو من الخزائن المحكمة الاغلاق إلى درجة لا تسمح بنفاذ الهواء . ولكن كان ما سحر آرثر حقيقة ، معرفة جولدهوك بأمر الأقفال والخزائن نفسها . وكان جولدهوك سعيداً باستعراض مهارته في فتح الأقفال . وأطلع آرثر على كيفية فتح أي قفل عادي من طراز «ييل» باستخدام أداة بسيطة مصنوعة من قطعة مثنية من السلك وشريط قصير من ورق السيلوفان . إن القفل لا يثبت أبداً تثبيتاً جيداً؟

في مصراع الباب ، ومن الممكن أن تولج قطعة من السلك ذات شكل خاص تحت لسان القفل أو فوقه ثم تدار في الاتجاه الصحيح . فاذا كان الباب محكماً احكاماً ماسياً ، استطاعت الشفرة المصنوعة من ورق السيلوفان الصلب أن تلائم حافتها مع حروف اللسان داخل القفل حتى تفتحه . بل إن آرثر استطاع أن يضيف إلى هذه المعلومات ابتكاره الخاص : فقد صنع ثقباً طويلاً ضيقاً يمر في وسط شريط ورق السيلوفان بالطول ، حيث تولج قطعة السلك لكي تقويه من الداخل ، ويكتسب السلك مرونتها من الخارج وقدرتها على التكيف مع حروف لسان القفل . وأطلعه جولدهوك على كيفية إستخدام مفتاح مصطنع لفتح الأقفال العادية ، وكيفية انتقاء المفتاح المناسب . وقد نظر جولدهوك إلى جلوس آرثر طوال ساعات أمامه على مائدة واحدة في فحص الأقفال وتجربة المفاتيح . نظر جولدهوك إلى هذا التصرف باعتباره نوعاً من المجاملة المهذبة والكرم من جانب آرثر .

وفي اليوم الذي قتل فيه جولدهوك ، أسرع آرثر إلى شقة عشيق أخته ، ودخلها مستخدماً مفتاحاً احتياطياً كان قد نسخه من مفتاح الشقة التي تحمله بولين معها فأخذ مجموعة جولدهوك من المفاتيح والأدوات الأخرى . وقد وقع هذا بعد اسبوع بالضبط من وعده الذي قطعه أمام القاضي بأن يظل بعيداً عن المشاكل لمدة لا تقل عن عام . ولم يشعر ساعتها بأنه كان يتخلى عن وعده ، فقد كانت لديه النية الكاملة في البعد عن المشاكل .

* * *

وكان اغواؤه لابنة عمه آجي ، هو أول عمل مخطط ومحسوب من هذا النوع يقوم به . وقد تم هذا العمل في صيف عام ١٩٥٠ ، في الوقت الذي كان يعمل فيه صبياً في محل بيع التليفزيون . وقد لعبت شقيقة دنكان دوراً هاماً في خيالاته الجنسية . وبعد فترة ، لعبت آجيس دوراً مشابهاً كانت ، وهي في الخامسة عشرة من عمرها ، فتاة شاحبة لا جاذبية فيها . وكانت على صلة وثيقة جداً بآرثر منذ شهر يوليو عام ١٩٤٨ ، حينما أسر إليها بالمشهد الذي رآه على ضفة القناة .

كانت تنام على نفس الفراش مثل بولين وآرثر وألبرت . ولكنها كانت تحتل المكان الواقع إلى جنب بولين من الناحية الأخرى . أما ألبرت فكان ينام عند الطرف الآخر للفراش .

حدث ذات مساء أن عاد آرثر من محل البقالة الذي كان يعمل فيه . لكي يجد المنزل ممتلئاً بالبخار . كانت آجي تقوم بغسل الملابس . وكان هذا العمل يتضمن وضع قطع الملابس القذرة في قدر كبيرة من النحاس مع الماء والصابون . ثم اشعال الموقد تحت القدر حتى يغلي الماء جيداً ، ثم تقلب الملابس بعصا طويلة من النحاس . ولم تكن آجي ذات جسد قوي . وبعد نصف ساعة من هذا العمل . كانت مسترخية على المقعد ذي المساندين ، وشعرها ملتصق بجبهتها في خصلات مشعثة مبللة . كانت تقرأ في مجلة « الاعترافات » وبينما كانت تقرأ . راحت تقرص ثديها الأيمن بيدها اليسرى . ومن المحتمل ألا يكون لهذا التصرف الأخير أية دلالة جنسية ، فان عرقها الغزير جعلها تشعر بحكة في جلدها . سألها آرثر تدفعه رغبة في المعرفة :

« ماذا تفعلين ؟ »

« أقـرأ . »

« تقرصين نفسك . »

« أوه . ذلك ! »

« أتشعرين بصداع ؟ »

« كلا . لماذا ؟ »

« كنت أفعل هذا لأختي إذا أصابها صداع . وكنت أفعله بطريقة أحسن من طريقتك . »

« حقـاً ؟ »

كانت هذه هي المرة الأولى التي سمعت فيها آجي بأن آرثر كان يفعل « ذلك » لأختها . سار آرثر حتى وقف وراء مقعدها . فتحركت آجي إلى الأمام في انزعاج وقالت :

« أوه . كلا . لا أريد شيئاً من هذه الحيل التنويمية . »

« لن أحتال عليك في شيء . إنما هي عملية مريحة حينما تشعرين بالتعب . اجلسي . عودي إلى الجلوس . »

مد يده ولمس صدرها ، وقال :

« أين حمالة صدرك ؟ »

« في الغسيل . »

كان في الحقيقة قد لاحظ أنها لم تكن ترتديها ، وكانت هذه الملاحظة المبكرة هي التي ألهمته الفكرة . شعر بتوترها وانزعاجها ، فضغط عليها حتى لامس ظهرها ظهر المقعد . قالت :

« لا تنومني . فاهم ! »

« كلا . إنما أنا أعمل فقط ما اعتدت أن أفعله لماجي . ولم يكن ذلك تنويماً . أليس كذلك ؟ »

« كلا . لا أعتقد ذلك . »

كان صدارها من القطن الخفيف (وقد كانت ذاكرة آرثر دقيقة دائماً في مثل هذه الشؤون) . فلما راح يربت عليها ويدلكها من فوق الصدار ، انتابته نفس الحالة التي كانت تنتابه حينما كان يربت صدر ماجي ، وأصبحت حركاته بطيئة وتلقائية . استرخى جسدها وقالت :

« أجل . هذا لطيف . »

وضع يده بين ثدييها ، وراح يدلك بقوة في اتجاه الخارج ، وكانت الحركة مختلفة تماماً عن الملاطفة الجنسية . وبدأ تنفس آجي يصبح هادئاً وعميقاً ، وحينما أصبحت مسترخية استرخاء كاملاً شرع هو يقرص حلمتيها ، ثم سألها :

« هل هذا لطيف ؟ »

« ممم م م م . »

كانت هذه همهمة الرضا الكامل والارتياح . فقال لها :

« ارفعي صدارك . » ثم جذبه فأخرجه من حزام جونلتها ، فرفعته دون

احتجاج ، ولكن جسدها كان مبللاً بالعرق حتى أن يده كانت تنزلق عليه ، فكانت هذه الحركة مرضية بدرجة أقل من التربيت على الصدر من فوق الصدار . ولكنه استمر لبضعة دقائق أخرى حتى سمعا صوت خطوات عند مدخل المنزل .

وتقدمت العلاقة بينهما ببطء ، باعتبار أن فرصهما كانت قليلة للانفراد في المنزل المزدحم . ولكن قبل أن يحل الخريف ، كانت قد تعودت على أن تسمح له بالوقوف وراءها ، والتربيت عليها ، ثم قرص حلمتيها . وسرعان ما كفت عن الاعتراض على فكرة التنويم . وحينما كان يربتها كان يقول لها :

« ضعي يديك على ركبتيك . استرخي وربتي ركبتيك بأطراف أصابعك . أيمكنك أن تحسي بلمس جوربيك تحت أطراف أصابعك ؟ »

واكتشف أن تربيته هو عليها كان يشتت تركيزها ، فكانت تصل إلى درجة التركيز بسرعة أكبر بدون مساعدته بالتربيت . أصبحت العينان ثابتتين . ثم قال لها :

« هاك . يمكنك أن تسترخي استرخاء تاماً . إنك تشعرين كما لو كنت تغوصين في فراش سميك من الريش . إنك تغوصين إلى عمق أبعد ، وأبعد ، وأبعد . عيناك تغمضان . هاك . هل هذا لطيف ؟ »

« أجل » كذلك قالت ، وكان صوتها لا يكاد يسمع .

ورفع صدارها الصوفي ، وجذب حمالة صدرها إلى أعلى — ولم يكن ذلك صعباً فوق نهديها الصغيرين . وبدأ يقرص الحلمتين قائلاً :

« أيجعلك هذا تشعرين بالاسترخاء ؟ »

« أجل . »

« اخلعي حمالة صدرك . »

ومد يده وراءها وخلع الحمالة . ثم قال لها

« والآن اخلعي صدارك . »

ثم ساعدها على خلعه من رأسها . كان ملمس بشرتها دافئاً . فقال

« إنك تشعرين بالدفء الشديد ، أليس كذلك ؟ »

« أجـــل » .

« من الأفضل أن تخلعي جونلتك أيضاً . حلّي الرباط . »

اتجهت يدها إلى وسطها دون تردد ، وسقطت الجونلة إلى قدميها . ولم تكن ترتدي قميصاً داخلياً . وكان جورباها مشدودين إلى أعلى برباطين من المطاط مربوطين في عقدتين بدائيتين . كانت السراويل الطويلة الحريرية مألوفة لديه ، ولكن رؤية السروال حول جذعها وردفيها أثارت فيه شهوة عنيفة . وضع يديه حول وسطها .

« كلا ، يا آرثر . »

كان صوتها ضعيفاً متوسلاً ، وشعرت بقدر هائل من الخضوع والذلة .. وعرف أنه قد انتصر .. كان يشعر بإحساس بالقوة لم يشعر به من قبل وهو يرقبها . نظرت إليه ، في انتظار حركته التالية . أشار إلى البساط الذي صنع في المنزل من الخرق القديمة وقال :

« أرقدي هنا . »

« كلا . قد يأتي أحدهم . »

« أرقدي . »

جلست على الأرض وقد ظهرت عليها التعاسة .. عرفت ما سيحدث بعد هذا ، فقبلته بطريقة فلسفية ..

وفي اللحظة التي بلغ فيها ذروته سمع شخصاً ما يدخل الحجرة الأخرى ، فامتلأ بالأمل في أن يدخل الشخص القادم أياً كان فيراه في وضع السيطرة والقوة هذا ، راقداً بين فخذي آجي المتباعدين في وهن. ولكن لم يدخل عليهمـــا أحد ، فارتديا ملابسهما دون إزعاج . شعر بأنه نظيف وسعيد إلى درجة غريبة. كانت المغامرة جديرة بنابليون الجريمة مناسبة له . وبدا على آجي أنها قد قبلت وضعها الجديد على علاته ودون اعتراض ، كما لو كانت جواداً يمتطيه مالك جديد.

* * *

ليس هناك أية امكانية في الشك في أن آرثر لينجارد كان سادياً بشكل أساسي . ولكن ساديته لم تتطور أبداً حتى تبلغ مرحلة الاستمتاع بالألم . كان بحاجة إلى أن يشعر بنفسه في وضع السيد ، وفي ظل ظروف مختلفة . كان من الممكن ألا يؤدي هذا الشعور إلى كبير ضرر . فلو أنه قد أتيح له متنفس طبيعي ما لاحتياجه إلى السيطرة – كمنظم مثلاً أو في الانشغال بنوع ما من الأعمال المشروعة – لكان من الممكن أن يكون هذا الشعور ميزة مرموقة . وكانت آجي شخصية من النوع التي يمكن أن تجعلها زوجة جيدة لأحد رجال الأعمال – بصبرها ، وإخلاصها القوي ، وطول تحملها للعذاب . ولكن رغبات آرثر الجنسية كانت الآن دائمة ومستمرة وعنيفة حتى أن فكرته الوحيدة كانت هي كيفية إشباع تلك الرغبات . وكان معنى هذا أن تلك الرغبات قد قطعت الطريق على ما كان من البداية متنفسه الخلاق الحقيقي : الخيال . فمن الصعب أن تحيا حياة بطولية فوق كوكب المريخ إذا كنت في حالة انتصاب دائم . فتجرد كل فتاة تقابلها في الشارع من ثيابها – في عقلك . وقد قال لي انه في الأيام التي تلت « إغواءه لآجي » ، كان في حالة رغبة دائمة . فقد حدث بعد نصف ساعة من ارتدائهما ملابسهما أن كانت الأسرة مجتمعة تشرب الشاي . فراح يفكر في منظرها وهي تخلع سروالها وتنزعه من قدميها ، ففقد كل رغبة له في الطعام على حين فجأة . لم يكن هناك ما يهمه خلا الجنس . وحينما صعدت آجي إلى الطابق العلوي لغرض ما بعد نصف ساعة . تبعها إلى أعلى . جعلها ترقد على السرير ، رغم أن المنزل كان مملوءاً الآن بالناس ، وكان من الممكن أن يقاطعهما أي شخص في أية لحظة . قال لي آرثر :

« قررت أن علي أن أفعل في هذا الصدد شيئاً ما . كنت أريدها طول الوقت . في البداية ، كنت أحاول أن أتفق معها على بعض الإشارات المحددة لكي نخرج خارج المنزل أو نصعد إلى الطابق العلوي . ولكنها كانت تتظاهر بعدم الفهم . وحينئذ عرفت الحل . كان الحل كامناً في قصة « دارفو » الذي كان يعمل « ملاتكيت » ... فجأة ثم يطعن الراحا وهو ... في الطريق الخلي

أتذكر ذلك ؟ لقد قال لبلانكيت أنه حينما يرفع يده أمامه ، كما لو كان يشير لهم لكي يطلقوا من سيرهم ، فان عليه أن يطعن الراجا — وقد قال له هذا وهو تحت تأثير التنويم المغناطيسي . وهذا هو ما يدعى بالايحاء الى ما بعد التنويم . إنهم يستطيعون أن يفعلوها مع أناس يقومون بأشياء عادية للغاية — مثل اشعال لفافة تبغ ، أو عبور غرفة من ناحية إلى ناحية فيفعلون شيئاً كنت قد أمرتهم بفعله وهم تحت تأثير التنويم المغناطيسي عندما تشير إليهم باشارة محددة . وهكذا فقد فكرت أن أفعل الشيء نفسه مع آجي .

وقد حدث بعد يومين أن جعلتها ترقد على السرير بعد أن جامعتها على الفور . ولذلك فإنها لم تشك في شيء ، لأنني كنت قد تخلصت من رغبتي باشباعها . كان يروق لها مني أن ألمسها ، وأن أربت عليها ، فكانت تهر كالقطة . وقد فعلتها في هذه اللحظة . جعلتها تقوم ، ورحت أقول لها إنها متعبة وأنها تريد أن تنام . ولما كانت قد غرقت تماماً في النوم ، لم تتحرك حتى حينما غرست دبوساً في لحمها . فقلت لها انها إذا رأتني أحك طرف أنفي باصبعين ، فان عليها أن تنتظر حتى أغادر الغرفة ، ثم تتبعني . »

« تتبعك إلى أين ؟ »

« إلى أي مكان . فاذا كان الجو دافئاً ، ذهبت وتبعتني ، إلى ضفة القنال . كنا نفعل ما نشاء في نفس المكان الذي راقبت الكثيرين من قبل يفعلونه فيه . وكان هذا لطيفاً . ولكن إذا كان الجو بارداً ، كنت أذهب ، وتتبعني ، فقط إلى المرحاض الخارجي ، أو إلى المكان الواقع وراء مخزن الفحم . »

« ولكنها لا تستطيع أن ترقد في مرحاض . »

« كلا . كنا نفعل ما نشاء بالطريقة التي رأيت العم ديك يفعلها مع بوللي .. ولم يكن الأمر أبداً يستغرق وقتاً طويلاً . »

« ألم يكن هناك خطر من أن تحمل ؟ »

« كان لديها مالعان من المطاط . وبعد ذلك كانت تحتفظ في داخلها بهذه القطعة من القماش أو القطن المبللة بشيء ما ... أظنها كانت تبللها بسائل الكينين

أو بمحلول الخل الذي يؤدي إلى نفس الغرض . »

« هل كنت تحبها ؟ »

« أوه ، لا . إنما أعتقد أنني أصبحت مغرماً بها . »

« هل قبلتها ؟ »

« أحياناً . كانت لطيفة في التقبيل . »

« هل كانت ترضيك وتشبعك تماماً ؟ »

« أحياناً . وقد فكرت أنه من المؤسف أنه لم تكن هناك أشياء أخرى أستطيع أن أؤديها لها . كانت المشكلة هي حكاية القوة تلك ... كنت أستمتع بأن أخيفها أحياناً . . »

من المناقشة السابقة ، التي كنت قد سجلتها على جهاز التسجيل ، سيكون واضحاً السبب الذي منعني من الاستزادة من الاقتباس من كلماته مباشرة . كان عقله ينتقل إلى مسار آخر وإلى موضوع آخر من جملة إلى جملة . وكانت هناك أيام يبدو فيها في حالة أفضل من غيرها . ولكن في غالب الأيام . كانت قدرته على التركيز محدودة إلى أقصى حد . فاذا ما صار طبيعياً ، دون أن يحاول الاشتراك في مناقشة فكرية ، أصبح مستوى تعبيره عن نفسه منخفضاً للغاية .

وسوف يلاحظ أيضاً أن علاقته بآجي لم تكن علاقة طيبة ، رغم تأكيده بأنه « قد أصبح مغرماً بها » .

أما الحقيقة فهي أنها كانت تستخدم استخداماً خالصاً بوصفها أداة للتأكيد الذاتي . وليس من الضروري أن تكون مثل هذه العلاقة علاقة سيئة — فهناك الكثير جداً من الشخصيات السادية التي تزوجت زواجاً سعيداً من شخصيات ماروكية — إذا ما كان من المسلم به أنها علاقة يصحبها نوع من الدفء العاطفي . ولكنه لم يكن يملك ما يقدمه . فحينما سألته عن خطر الحمل ، أجابني بقوله : « كانت تملك مالعين » . ولم يقل : « كنا نملك » كما هو جدير بمعظم العشاق أن يقولوا . ثم قال : « كان من المؤسف أنه لم تكن أشياء أخرى أستطيع أن أؤديها لها » إن المرات العديدة التي بلغ فيها ذروة نشوته

وهو فوقها لم تكن تستطيع أن تمنحها أي إشباع. كانت تستخدم بوصفها أداة. وقد عرفت هي ذلك. وقد اعترف آرثر بأنها كانت قادرة على أن تبلغ هي الأخرى ذروة نشوتها بشكل طبيعي لو أنهما كانا قادرين على أن يذهبا إلى الفراش سوياً أو مارسا الجنس دون خوف من تطفل أو مقاطعة. وأخيراً فإن هناك اصراره على أنه كان يجب أن يجعلها تخلع سروالها «كنوع من التفكه». لقد شعر بالألم لاستخدامه إياها بهذه الطريقة. «كنت أستمتع بأن أثير مخاوفها». كذلك قال. وكان هذا هو اشباع حاجة أو دافع جنسي كان بصورة كاملة نزعاً من إرادة القوة والسلطة. وقد كانت هذه النقطة هي النقطة التي بدأت علاقتي بآرثر لينجارد في التغير.

وإنني لأرى الآن أن هذا التغير كان أمراً حتمياً لا يمكن تجنبه. فحينما عرفته لأول مرة، كان عاجزاً مثل طفل، واقعاً في فخاخ مخاوفه الخاصة. وكانت علاقتي به بصورة كلية علاقة أبوية، من ذلك النوع من العلاقات الذي يقوم بين الطبيب والمريض. وحتى حينما عرفت أنه قد قتل «إيفلين ماركيز»، لم تكن هناك أية أسئلة مثارة حول الاعتراض الأخلاقي من جانبي إزاءه. ولماذا يمكن أن تكون مثل هذه الأسئلة؟ كانت جريمة القتل التي ارتكبها مجرد برهان آخر على مرضه وعلى حاجته إلى المعونة والمساعدة. وفي كتابتي هذا التقرير، أبعدت عامداً كل الاشارات إلى نظرياتي السيكولوجية – وهي النظريات «الإنسانية» أكثر منها فرويدية – لأنها في الحقيقة لا تؤدي إلا إلى اختلاف ضئيل في أثناء تقدم عملية العلاج الفعلي. ولكن هناك جانب واحد لا يصدق عليه هذا. لقد آمنت دائماً بثبات بأن مهمة الطبيب النفسي هي أن يطابق بين نفسه وبين مريضه ما وسعته المطابقة وأن يحاول أن يجد بينهما نوعاً من التماثل، وأنه لا ينبغي أن يكون هناك أي ميل إلى الشعور بالتفوق. وإنما مجرد محاولة للتعاطف الشامل. ولم يكن هذا صعباً في حالة لينجارد. لقد كادت زوجتي تنفجر باكية حينما سردت لها كيف راقب آرثر وشقيقته بولين جسد أمهما وهو ينقل من المبنى المحترق، وكيف قال له أحد أبناء عمه في أثناء

إحدى المشاجرات: «لن يعود أبوك أبداً. لقد مات».

وقد كان هو واعياً بحدة اهتمامي به وبتعاطفي معه – تعاطفاً لا شك فيه ولا تشوبه شائبة من النقد كما لو كان نوعاً من حب الأم لابنها – وفي الأيام الأولى للعلاج، استجاب هو لعاطفتي نحوه بشكل غريزي. فبعد سنوات من الحياة في وحدة مطلقة كالذئب الطريد، كان يشعر بالجوع إلى التعاطف والفهم.

إن غالبية المرضى العقليين لا يكونون قادرين على اثارة الاهتمام أو الاعجاب، فمشاكلهم تنبع من التفاهة الشديدة ومن عدم الكفاءة ومن العجز. ويمكن أن ينطبق هذا على المرضى الأغبياء منهم والأذكياء على حد سواء. وقد صنع وصف آرثر لانغماسه في خيالات إدجار رايس بوروز علامة تحول في علاقتنا، أو ما يمكن أن أصفه بأنه كان تعميقاً حاداً لاهتمامي به إلى جانب مضاعفة تعاطفي معه. لقد سحرني وصفه لرؤاه المبكرة الغريبة لكوكب المريخ، بل إنني خططت لبحث صغير حول هذا الموضوع: توسيع أفق الخيال ومضاعفة حدته من خلال حالة صرع متوسطة. وقد كانت هذه هي الحالة الأولى من نوعها التي قابلتني أو سمعت بها طوال حياتي العملية. وبشكل حتمي، بدأت أشعر بالتطابق بيني وبينه والتشابه القائم بيننا. ولقد كانت السنوات الباكرة الأولى من حياتي بالغة الصعوبة، ولكنني كنت سعيد الحظ إذا ما قورنت طفولتي وصباي بطفولة آرثر وصباه. لقد كان لي في مدرستي مدرسون أكفاء ساعدوني على الوصول إلى الدراسة الجامعية. أما آرثر فقد كان وحيداً في مواجهة العالم وضده. وحينما فكرت في ميله الخيالي إلى أن يطابق بين نفسه وبين «جون كارتر» شعرت بالاعجاب وبالتعاطف بنفس القدر.

كانت هذه هي فترة «شهر العسل» في علاقتنا. كنت أمضي ساعات طويلة معه كل يوم، ثم أقوم بتسجيل مذكراتي إلى ما بعد منتصف الليل، وكنت أقرأ هذه المذكرات بصوت مرتفع لزوجتي. وقد اتفقت معي: كانت هذه المذكرات تضم المادة الملائمة لدراسة موضعية (دراسة حالة قائمة) يمكن أن تكون عملاً كلاسيكياً من أعمال العلاج النفسي. وفي هذه المرحلة،

عقدت العزم على أن أسمي الدراسة باسم : « الحالم » .

وقد استجاب آرثر لهذه الحدة والعمق في الاهتمام . وبدأ يتكلم بحرية وباهتمام . وفي عصر اليوم الذي وصف لي فيه أول حادث سطو قام به ، كاد الأمر يبدو كما لو كنا قد تبادلنا دورينا . كنت أصغي مثل طفل مسحور ، راشفاً كل كلمة من كلماته كالماء القراح ، مطالباً بكل تفصيلة زائدة ممكنة . ولاحظت أنه لم يشعر بأي خجل في الاعتراف بأنه قد فكر في مهاجمة شقيقة دنكان في الحمام ، بل ربما كان هناك نوع من الزهو والكبرياء . ثم جاءت اللحظة الحرجة التي وصف فيها استخدامه سروالاً داخلياً لفتاة لكي يصل إلى ذروة نشوته . حينذاك انقطع التيار ، وتوقف مرات عن الحديث ، وراح ينظر إلي بشك . رحت أطمئنه بإيماءات رأسي وابتساماتي . وبعد ذلك ناقشنا الحكاية مناقشة ذهنية مجردة ، وأخذ هو يحلل « حالته » بطريقة موضوعية وفي انفصال كامل عنها كما لو كانت حالة غير عادية من الاصابة بالتهاب الزائدة الدودية . وقد ابتهج لأنني استطعت أن ألمس ما في حالته من تعقيدات ، لأنني كنت بادي الانفعال بمنطق تطوره . كان أشبه بفنان يشير لجمهوره إلى المميزات الخفية لرائعته الفنية الفريدة . ومضى فأخبرني بعملية السطو الثانية التي قام بها بنفس الانفعال ، فأصبحنا الآن أشبه بزميلين في مؤامرة واحدة . وأما وصفه للتأثير الضخم الذي لحقه من موريارتي ثم من هاي بعد ذلك فقد أثارني وأثار انفعالي أكثر من أي شيء آخر حتى ذلك الحين ، فتأكد لدي اعتقادي بأن آرثر لينجارد يمثل بالنسبة لي الحالة المرضية التي يمكن أن تشغل حياتي بأسرها — لأنه بدا لي في صورة أهم كائن إنساني يمكنني أن ألتقي به طوال حياتي وأكثر من يمكن أن أراه من الناس اثارة للاهتمام . وهنا وصلت إلى النقطة التي رحت أحاول فيها — مضطراً — أن أمنعه من القفز إلى الأمام والاشارة إلى أحداث لاحقة ، لأنني أردت أن أتوقف عند كل لحظة من هذا التحليل وأن أنقذ كل تفصيلة من الضياع . وطوال أسابيع لم أفكر ولم أتحدث عن شيء إلا عن لينجارد وبشأنه ، كنت كمن يسير في الهواء طائراً على سحابة . مثل العاشق .

وحينما وصف لي أحلام يقظته التي كان يحلم فيها بإنجلترا ريفية « بعد فناء للمدن » رأيت فيه رمزاً لشيء جوهري في الإنسان المتحضر الحديث .

وبدأت تغيرات معينة تطرأ على موقفي إزاءه حينما تحدث عن استخدامه لعمله في مجال التليفزيون بوصفه فرصاً للسطو على المنازل . إنني لا أتحدث عن الرفض الأخلاقي . ولكن كان قد أصبح من الواضح فجأة أنه قد اتخذ حينذاك قراراً سوف يثبت مستقبله في اتجاه معين . وشعرت بأنه قد ارتكب خطأ في هذه النقطة . وأكدت هذا تلك الفترة التي قضاها في مدرسة اصلاحية « إيرلستو » . وقد حدث في هذه اللحظة أن عاد شعوري بالشفقة إلى السيطرة علي من جديد . كان مثل بطل إحدى المسرحيات التراجيدية قد وقع في الاختيار الخاطىء ، فلا بد أن تتتالى النتائج الحتمية والتي لا يمكن تجنبها . كنت أريد أن أهز رأسي وأن أقول : « كلا ، لقد كان ذلك خطأ ... » ، فقد كان الآن قد سقط في شرك كالشبكة المعقدة من صنعه هو ، مهما يكن من الممكن أن يأتيه من الأعمال .

وقد كان هو نفسه واعياً بذلك . وكان في وصفه لعملية إغواء آجي عنصر من الثقة المفرطة بالنفس والرغبة المرضية في تأكيد الذات ، وقد زحف هذا العنصر على أسلوبه في الحديث وطريقته في التعامل مع الآخرين . كان قد كف عن تقبل تأييدي غير النقدي له وموافقتي الكلية على كل ما يسرده علي من أعماله . حينذاك رأيت الخطر — وهو أنه قد يشرع في تصنيفي « معهم » ، ووضعي في صفوف أعدائه المتخفين المتربصين به — فخرجت على سياق الحديث لكي أعيد تأكيد اهتمامي به . ومع هذا فقد شعرت بالانزعاج والقلق حينما تركته ذلك المساء . لقد كان يعرف أن حياته قد اتخذت مساراً خاطئاً بعد « إيرلستو » ولكنه لم يكن راغباً في مواجهة هذه الحقيقة . وكان يحتاج إلى مساعدتي لكي يقنع نفسه بأنه قد استمر في بذل أقصى ما يستطيع . وكان هذا موقفاً يصعب علي فيه الاختيار . وقد تعاطفت أنا معه بعمق لأنني رأيت مشكلته بوصفها مشكلة دوافع خلاقة أحبطت وخاب مسعاها . وقد فهمت منطقه في محاولة

التعبير عن تلك الدوافع من خلال الجريمة . ولكن كان من الواضح أمام عيني أيضاً أن الجريمة (أو العدوان الجنسي) هو بطبيعته نفسها ، طريقة لانجاز التعبير الخلاق عن الذات تؤدي إلى هزيمة هذه الذات وتحطيمها . يستطيع الفنان أو المتصوف الديني أن يستمر في البحث عن تعبيره الخلاق مطمئناً إلى الموافقة والتأييد الكاملين من جانب المجتمع . أما آرثر لينجارد فلقد قرر أنه يستطيع أن يمضي في طريقه دون مثل هذه الموافقة أو التأييد . وكانت النتيجة هي الانهيار العقلي . وقد ثبت زيف تفكيره من خلال حقيقة أنه كان يثق بي الآن ويعتمد على موافقتي وتأييدي .

كان هناك بديلان لا ثالث لهما . فإما أن يستمر في الثقة بي متخذاً شخصية الابن الضال العائد إلى الجماعة تائباً نادماً منيباً ، وإما أن يتوقع مني أن أستمر في معاملة اعترافاته بنوع من الموافقة السطحية أو الشكلية . وكنت أعرف الكثير عن آرثر لينجارد مما يجعلني أشك في أنه سيعقد عزمه على الاختيار الأخير . كان قد طال به الوقوف بمفرده حتى أصبح من الصعب أن يجثو على ركبتيه أمام المجتمع طالباً الصفح — أو حتى أمامي أنا .

تحققت من صدق نظرتي في خلال الأيام القليلة التالية . لم يعد يحاول أن يكسب فهمي وإدراكي المتعاطف معه . وعلى العكس ، بدا لي أنه يحاول أن يظهر نفسه — ونشاطاته — في أسوأ ضوء ممكن ، كما لو كان قد أراد أن يدفعني دفعاً إلى إظهار علامة ما من علامات الرفض . ولم يكن من الصعب بالنسبة لي أن أتجنب هذا ، فلم يكن علي إلا أن أذكر نفسي بأنه يمثل أهم حالة يمكن أن تعرض لي في حياتي العملية . وحاولت أيضاً أن أرغمه على الدخول في مناقشات حول دوافعه ، أو ببساطة في مجادلات فلسفية حول التنويم المغناطيسي أو علاقة المجتمع بالفرد الموهوب .

وبدا أن هذه الطريقة يمكن أن تؤتي ثمارها . كانت فترة « شهر العسل » قد انتهت . ولكن بدا أن هناك فرصة جيدة لأن تكون هذه العلاقة

الجديدة مرضية بما فيه الكفاية من وجهة نظري . كان دوري الجديد هو دور الكاهن المعجب — وإن كان المرتعب المفزع — الذي يصغي إلى اعترافات رجل العصابات الكورسيكي الخشن الغليظ .

لم أكن مسرفاً في التفاؤل . كنت أعرف — وكذلك عرف هو — أن كل محاولاته السابقة لاقامة ارتباط وثيق بينه وبين أناس آخرين قد أخفقت ولم تكن محاولات ناجحة . وكان أملي الوحيد ، هو ألا يفضل — مؤقتاً وللفترة الراهنة على الأقل — أن يواجه تلك الحقيقة ولا أن يعترف بها .

ولا بد لي أن أضيف ، أن هذا كان التجسيد لواحدة من المشاكل الرئيسية التي واجهتها علاقتنا في غضون تقدم عملية التحليل وتطورها . كان شخصاً ماكراً شديد العدوانية . وحينما كان مريضاً ميالاً إلى الانتحار ، سمح لي بأن أفتح النعل وأغرس فيه مشرطي وأن أجعله يتكلم بحرية . وبالتدريج أعاد إليه الحديث المستفيض توازنه العقلي . وبدأت العلاقة المفترضة بين الطبيب والمريض تتحول إلى شيء كريه لا نفع فيه . كان بصورة أساسية يشعر بأنه أسمى مني وأكثر تفوقاً . فأعاد إليه الحديث عن أيام طفولته احترامه لنفسه وثقته الزائدة بها . ورأيت أنا — وأدركت — ما كان يجري في ذلك الحين — ذلك أنه قد توقع مني أن أشعر بالاعجاب لما أبداه من عمق سيطرته على نفسه ولما أثبته من قدرة على المكر . وقد كان من المؤكد أنني شعرت بأنه يمثل أكثر ما تعاملت معه من الحالات المرضية أهمية . فجعله هذا يشعر بالاطراء والرضا عن الذات ، ولكنني لم أقع في خطأ التقليل من تقدير ذكائه أو بخس قدره الحقيقي . فقد كان من المحقق أن يدرك — آجلاً أو عاجلاً — أنني كنت أدرسه بوصفه « حالة مرضية » وباعتباره شيئاً غير طبيعي . كان أمامي بديلان واضحان لا ثالث لهما : أن أحاول اقامة نوع من السيطرة عليه ، وأن أحتفظ بعلاقة الطبيب بالمريض ، أو أن أعطيه انطباعاً بأنني قد وجدته جديراً بالاحترام والاعجاب لذا وجدته

جديراً بالاهتمام من وجهة النظر الطبية والعلاجية . وسرعان ما وجدت أن السبيل الأول سيكون طريقة غير عملية . فقد كانت صورته الماكرة المعرضة عن البشر قد تأسست نهائياً وأصبحت هي صورته البعيدة الغور في أعماقه والمتأصلة بجذورها في داخله .

ومع ذلك فقد كان من الواضح أننا لا بد أن نبلغ نقطة تحول أخرى حينما يتحقق — وهو لا بد متحقق — من أن كشفه الذاتي عن نفسه سوف يضعه بالتأكيد كلية بين يدي . وقد كان علي أن ألعب دوري كمستمع فقط . وأن أحاول الاستجابة لأهوائه المتقلبة . وكانت مناقشة علاقته تأتي موضوعاً من موضوعات جدلنا المستمر . كانت هذه العلاقة، إذا ما قيست بالمقاييس الانسانية العادية ، علاقة القلابية بشكل كامل . ولكنه لم يكن يشعر بذلك . كانت هذه العلاقة بالنسبة له تعبيراً « ضرورياً » عن الرغبة في القوة والسلطة . تلك الرغبة التي تتنكر لكل أنواع التنفيس الأخرى ؛ وقد توقع مني أن أضع نفسي في مكانه . وإنه لمن الخصائص الأساسية لعلم النفس الإنساني أن يحاول الطبيب ، قدر ما وسعته المحاولة : أن يكون هو المريض . وبذلك كان من الضروري أن أتخلى عن ميلي الطبيعي إلى نقد آرثر ليتجارد ، وأن أحاول أن أتخذ مكاني فيما وراء عينيه . ولكن في هذه الحالة بالتحديد . كان من المهم أن أمضي حتى إلى مرحلة أبعد من ذلك نحو التطابق والتماثل بيننا . لقد كان يعجب بنفسه . فكان من الضروري أن أعجب به . ولم يكن هذا سهلاً : ليس بسبب أي ميل أخلاقي من جانبي ، ولكن ببساطة لأنه كان بوسعي أن أراد رؤية موضوعية منفصلة . لقد شرحت من قبل بالفعل نظريتي القائلة بأن دوافع الإنسان الخلاقة تماثل في أهميتها احتياجاته الحيوانية الأساسية . أي الجنس والطعام والأمن . ويجب علي الآن أن أضيف شيئاً قد لا يمكن بدونه فهم هذا التأريخ لتلك الحالة المرضية . هناك لحظات معينة تمر بالعقل يصبح العقل فيها مشحوناً بطاقة هائلة وتتزايد حدة مداركه فيتفتح ويصبح وكأنه قد « اكتمل » وأصبح شامل الوجود ، مثل رؤية القمر المكتمل في السماء .

لقد كتب يتس يقول :

« حينما يقاتل رجل قتال اليائسين
يسقط شيء » من عينيه بعد أن طال عماهما
« إنه يكمل عقله الذي كان ناقصاً » ،
ويقف لبرهة وقفة مسترخية هائلة
وتدوي ضحكته ، ويغمر قلبه السلام » .

إن تلك اللحظات التي « تدوي فيها ضحكة الإنسان ويغمر قلبه السلام » لهي أكثر ما يمكن أن يعبر بالإنسان أهمية . ولكن يبدو أن ثمة حركة تلقائية في عقل الإنسان ، حركة فعالة « تمنع » القمر المكتمل من الظهور . إنني أملك منشاراً كهربائياً دواراً يغطي نصله غطاء مانع . وحينما يعمل المنشار ، يزاح الغطاء إلى الخلف ، كاشفاً عن النصل . ولكن حينما يتوقف ، يغطي الغطاء النصل إذ يدفعه لولب إلى الأمام .

ويبدو أن للعقل الإنساني مثل هذا اللولب . ففي لحظات التوتر الحاد أو الخلق الابداعي ، يزاح الغطاء إلى الخلف ـ كاشفاً عن « القمر المكتمل » . وحالما نسترخي ونعود إلى الحياة « الطبيعية » مرة أخرى ، يعود اللولب إلى وضعه المعتاد ، ويكون علينا أن نكتفي بالوعي الجزئي من جديد .

وكل من عاش مثل تلك اللحظات التي يكتمل فيها القمر ، يكافح في سبيل أن يحظى بالمزيد منها وأن يحققها مرات أكثر تعدداً . وقد عاش آرثر ليتجارد مثل تلك اللحظات حينما كان يرتكب جرائم معينة — إذ يبلع حجرة نوم غريبة — أوحينما كان يمسك رأس آجي بين يديه بينما هي راكعة أمامه . . .

ولكن لا بد أن يكون واضحاً وضوحاً كافياً — وبشكل تلقائي — أن الجريمة (أو العدوان الجنسي) هو بطبيعته طريقة من طرق الوصول إلى لحظات اكتمال القمر . ولكنها تؤدي إلى هزيمة الذات بشكل كامل . طالما أنه يمثل نوعاً من تجاهل المجتمع والتخلي عنه . ولكن يستطيع الفنان والشاعر والموسيقار ، بل والمتصوف الديني نفسه ، أن يجهدوا من أجل الوصول إلى

مثل تلك اللحظات مؤيدين بالموافقة الكاملة من جانب المجتمع وتأييده ، بل يمكنهم أن يحظوا بإعجاب المجتمع بعملهم هذا . أما آرثر لينجارد فقد كان مغروساً في حالة عاطفية غير ناضجة ومتوترة اعتقد في أثنائها أنه في غير حاجة إلى موافقة المجتمع وتأييده . وحينما حاولت أن أدفع بالمناقشة إلى موضوع الفن – أو على سبيل المثال ، إلى التساؤل عن السبب الذي منعه من كتابة خيالاته عن الكاتبتين مارتين في شكل روايات ، مثل ميريت ويوروز – كان رد فعله دائماً هو هو . صوت قبيح من أنفه يدل على الشك الشديد . ماذا حدث لمن اشتهروا من الشعراء ؛ لقد فقدوا إلهامهم . لقد كانت موافقة المجتمع وتأييده أقرب إلى أن تخنق رجلاً بارزاً جديراً بالاحترام من أن تلهمه . وهكذا ظل غارقاً في رفضه واشمئزازه . ولكنه بتقدمه في العمر ، أصبح من المحقق أن يزداد توتره ...

* * *

كانت محاولاته لإقامة اتصال دائم بالآخرين محاولات فاشلة ومخفقة على الدوام . لقد ذكرت بالفعل ما كان من أمر علاقته مع جورج جولد هوك ، وهي العلاقة التي انتهت بموت هذا الأخير ، ثم بايوجين تيرنر ، عشيق بولين الآخر ، الذي انفصلت هي عنه وقطعت علاقتها به بعد الحادثة التي وقعت في المطعم مع آجي .

ولم تكن هذه الحادثة الأخيرة من الحوادث النموذجية التي تدل على شخصية آرثر لينجارد . فلم يكن من عادته أن يكون مفاخراً بانتصاراته ؛ وكان يفضل أن يبحث أموره بمفرده . وقد حاول في بعض المرات أن يسرد انتصاراته على الآخرين ، ولكن هذا لم يكن بدافع أن يحظى بإعجابهم ، وإنما كان ذلك بدافع يكاد أن يكون الرغبة في أن يرى إن كان بوسعهم أن يفهموا ما يرويه لهم . وقد انتهت العلاقة الوثيقة الوحيدة التي أقامها من هذا النوع ، بالخيانة .

الفصل الثامن

حينما عاد آرثر من اصلاحية ايرلستو ، أمره ديك لينجارد بالنوم في الفراش الموجود بالحجرة الأمامية وهو الفراش الذي كان جيم ينام عليه والذي خلفه عليه ثيد من بعده . كان ثيد قد تزوج منذ فترة قصيرة ، بعد أن حملت منه فتاة من الجيران . وكان ديك لينجارد يعرف كل شيء عن علاقات آرثر بآجي – ولم يحدث أي مشادة بسبب ذلك الاكتشاف ، ولكن ديك لم يكن يفوته أن يلاحظ تلك العلاقات – ومن المحتمل أن يكون قد شك في وجود علاقة بين آرثر وشقيقته بولين . (وفي الحقيقة ، فان آرثر وبولين كانا قد أصبحا حليفين لصيقين مرة أخرى من خلال حكاية جورج جولدهوك) .

وحينما ذهب ديك لينجارد إلى السجن ، وذهبت بولين لكي تضع طفلاً في أحد البيوت المخصصة للأمهات غير المتزوجات ، انتقل آرثر إلى الطابق العلوي ، وأقنع ألبرت بالانتقال إلى الفراش الموجود في الحجرة الأمامية . ولكنه اكتشف على الفور أنه قد ارتكب خطأ عميقاً . فقد كانت قدرته على أن يمارس الجنس كل ليلة مع آجي ، كما لو كانا زوجاً وزوجته ، تعني الوصول إلى حالة من الفتور والألفة الباردة . أما العمة إرني ، هذه المتكيفة الأبدية مع كل ما يطرأ عليها ، فانها لم تعترض أدنى اعتراض . فقد لاح لها أن هذه العلاقة بين آرثر وآجي قد تنتهي بالزواج . وهكذا فحينما أصيب ألبرت بنزلة معوية في يناير من عام ١٩٥٢ ، وانتقل إلى الفراش الموجود بالطابق العلوي لبضعة أيام ، انتهز آرثر فرصة هذا العذر الوجيه ، وانتقل مرة ثانية إلى فراش الغرفة

الأمامية بالطابق السفلي . ولم تعترض آجي على هذه التنقلات الكثيرة ، فانها كانت قد قبلت جماعهما الليلي بوصفه شيئاً اضافياً أشبه بـ « الاكرامية » يمنحها الزبون للعامل المجتهد ، ولم يكن من المتوقع أن تستمر هذه الأوضاع طويلاً . ثم جاءت فترة قصيرة استأنفا خلالها جماعهما الليلي ، فقد كان من المضحك تماماً أن العمة إلزي قد وجدت لنفسها صديقاً يسليها بينما كان زوجها في السجن ، وحدث أن أخذها هذا الرجل هي وابنتها جين التي تبلغ عامين من عمرها في رحلة إلى « بلاك بول » لمدة أسبوع . وطوال ذلك الأسبوع نام آرثر وآجي في سرير العمة إلزي . وحينما عادت ، انتقل آرثر ثانية إلى الطابق السفلي .

لقد ذكرت من قبل أنه كان لآرثر مخبآن على ضفة القنال ، أحدهما كان مخصصاً للطقس الممطر ، في مخبأ مهجور منذ عام ١٩٤٠ ، وحينما كشفت الشرطة عن علبة الشطائر المصنوعة من الصفيح والتي كانت تحتوي غنائمه من عمليات السطو ، شعر آرثر بالراحة العميقة والاطمئنان لأنه لم يكن قد كشف عن أمر المخبأ الثاني لأي مخلوق . كانت هناك علبة شطائر أخرى من الصفيح وراء المخبأ المهجور ، وكانت تحتوي كمية من المجوهرات والنقود ، ملفوفة بعناية في عدد من السراويل الداخلية النسائية . وحينما خرج آرثر من اصلاحية إيرلستاو . تحاشى ان يعود إلى هناك لمدة أسابيع . كان يخشى أن تكون تحركاته مرصودة ، وكان واثقاً أيضاً من أن شخصاً ما ربما يكون موكلا بمراقبته لمعرفة إذ كان قد شرع في انفاق النقود عن سعة . وبعد أسابيع قليلة من عودته إلى شارع بينكيث ، عثر على وظيفة جديدة في محل لبيع أجهزة التليفيزيون واصلاحها في مدينة « ليفربول » — على بعد أربعين دقيقة بالسيارة العامة من وورينجتون . ثم استأنف بحذر شديد نشاطاته السابقة . ولم يكن الواقع هو احتياجه إلى النقود . وإنما كان السبب ببساطة هو أنه أصبح لا يستغني مطلقاً عن الاثارة الشديدة التي كان يحس بها عند دخول منزل أو شقة غريبة ، ودخول غرفة نوم امرأة لا يعرفها . كانت هذه هي اللحظة الوحيدة التي يشعر فيها بأنه

يعيش حقاً ، وبأنه كائن حي .

ومن الجدير بالذكر هنا أن أشير إلى أن « فيتيشية السراويل الداخلية » والتعلق الجنسي المرضي بها لم يذكره السيكولوجيون إلا فيما ندر ، ويكاد هذا الأمر يبدو أن يكون بدافع احساسهم بالحرج منه . إن كتاب ستيكيل الكلاسيكي والذي يقع في مجلدين كبيرين لم يناقش هذا الموضوع مرة واحدة . ومع هذا فمن المحتمل أن يكون هذا التعلق المرضي بالسراويل الداخلية هو أقل أنواع الشذوذ الجنسي (أو السلوك الجنسي الشاذ) ضررا وأبعده عن الخطورة . ولذلك ، فان آرثر لينجارد ، حينما اشترى بعض الكتب التي تعالج موضوعات الانحراف الجنسي من مكتبات الطبقات الشعبية ، وهي كتب متخصصة في حالات التهيج الجنسي الشاذ ، لم يستطع أن يعثر على أي ذكر لحالته هو المرضية ، فمال إلى الاعتقاد بأن هذه الحالة كانت خاصة به وحده ، وبأنه كان أكثر شذوذاً مما كان يعتقد عن نفسه في الحقيقة .

وحينما استأنف ، أعمال السطو » في الشهور الأولى من عام ١٩٥٢ . فانه نادراً ما كان يسرق شيئاً . فاذا ما لاحت له الفرصة حين يكون قائماً على اصلاح جهاز من أجهزة التليفيزيون ، فانه كان يتسلل إلى حجرة النوم ، ثم يستخدم أي سروال يستطيع أن يعثر عليه للاستمناء ، ثم يترك السروال في الحجرة . وطوال الشهور القليلة الأولى ، قرر ألا يأخذ شيئاً . فان الشرطة قد تقرر فجأة أن تفتشه ذات يوم حين عودته إلى المحل ، فاذا وجدوا بعض المجوهرات أو النقود في جيوبه فقد يعني هذا العودة إلى « إيرلستاو » . وكان هذا شيئاً قرر ألا يحدث مهما كان الثمن ، فاذا حدث وألقي عليه القبض مرة أخرى . فقد كان في عزمه أن يقدم » محاولة للانتحار ، تقنع القضاة بأنه سيكون أحسن حالا في البيت . فاذا فشلت هذه الخطة . كان يعتزم أن يجرح نفسه جرحاً بليغاً يرغم السلطات على إيداعه أحد المستشفيات . كان يفضل أن يرتكب جريمة قتل على أن يعود إلى الاصلاحية .

وبعد شهر أو نحو شهر ، فقدت نقوده . وأخذ يسائل نفسه أين يمكن

أن يبيع بعض ما خبأه من المجوهرات . كان عارفاً بأن أماكن بيع الأشياء المسروقة وشرائها لا تدفع إلا أثماناً منخفضة إلى درجة سيئة في مثل هذه الأشياء، وأن القائمين بمثل هذا العمل لا بد وأن يحاولوا أن يغشوا صبياً لا يزيد عمره على أربعة عشر عاما . ولكن هذه المجوهرات لم تكن ذات نفع له وهي مخبأة في علبة مدفونة من الصفيح .

وجاءه الحل بالصدفة. فقد حدث ذات يوم، أن عادت جين إلى المنزل حاملة حقيبة صغيرة ملأى بالحلوى ، وكانت الآن قد أصبحت طفلة في الثالثة من عمرها ممتلئة الجسم . وزعمت في البداية أنها قد عثرت على الحقيبة في الشارع ، ثم عادت فاعترفت بان رجلا عجوزاً هو الذي أعطاها الحقيبة بعد أن طلب منها أن تجلس على ركبتيه وأن تسمح له بتقبيلها . وأخيراً اعترفت بأن الرجل قد وضع عضوه بين فخذيها وهي جالسة على ركبتيه وجعلها تلمسه . ولم تكن ثمة محاولة للجماع ، بل إنه لم يحاول أن يخلع لها سروالها ، رغم أنه دس يده وأخذ يتحسس جسمها .

وكانت العمة إلزي بالخارج ، تمضي أمسيتها مع صديقها الجديد حينما وقع هذا . وكانت آجي هي التي أقنعت جين بأن تروي القصة . أما آرثر ، الذي وصل بعد ذلك بفترة قصيرة ، فقد شعر بالصدمة واشتد به الغضب لذلك . فقد كان عنيفاً في عدم تسامحه إزاء انحرافات الآخرين .

وحينما وصفت جين الرجل العجوز ، تعرفت آجي عليه على الفور وقالت إنه ، مستر تيبات ، الذي يعيش في الشارع التالي لشارعهم . وحينما تكون الشمس ساطعة ، كان يجلس أمام باب منزله المفتوح ، حينما يكون الأطفال خارجين من المدرسة ، وكان غالباً ما يتبادل معهم الحديث .

كانت فكرة آرثر الأولى هي أن يذهب إلى الشرطة . ثم طرأ له أنه لا يملك دليلا على ما سيقول ، وأنه لا يملك إلا أقوال الطفلة ضد الرجل العجوز . ولكن هذا زاد من غضبه . وظل يردد : « الخنزير العجوز القذر . إن أمثاله من الناس يجب أن يبادوا كالكلاب . » ولم يكن يعرف شيئاً عن القانون لكي يتبين

أن الشرطة كانت جديرة بأن تتخذ اجراءاتها على أساس من أقوال الطفلة . وقرر آرثر وآجي ألا يذكرا شيئاً عن هذه الواقعة للعمة إلزي . فاذا كان على أي شخص أن يذهب إلى الشرطة ، فمن الأفضل أن يكون آرثر هو ذلك الشخص الذي يمكن بهذا أن يكتسب ثقة الشرطة بالكشف عن منحرف ضال عجوز ...

وفي اليوم التالي في المدرسة ، اقترب آرثر من « جو بينهام » ، وهذا هو « بينهام » نفسه الذي قابله في « ناريزبورو » . ولم يكن بينهام صديقاً حقيقياً لآرثر ، فقد كان من النوع الرياضي ، ذا شعبية كبيرة وسط زملائه وشديد الغرور مزهواً بنفسه . ولكنه كان أيضاً إبنا لرجل من رجال الشرطة ، وكان آرثر حريصاً دائماً على تنمية علاقته به. وبأسلوب وقور خطير دال على الانزعاج قال آرثر لبينهام إنه بحاجة إلى مشورته . وشعر بينهام بالزهو ، فحكى آرثر عما كان بين جين والرجل العجوز . قال بينهام :

« أوه ، نعم ، إنني أعرف ذلك التيبات . إنه خنزير حقيقي . ولو كنت بدلاً منك لما أثرت ثائرته . »

« ولم لا ؟ » .

وأفهمه بينهام أن تيبات كان مجرماً خطيراً قديماً . واعترض آرثر بأن المجرمين الخطرين لا يزجون أنفسهم في مخاطرات لا ضرورة لها ولا يعرضون أنفسهم لأخطار لا نفع منها بالتعرض للفتيات الصغيرات . فقال بينهام إن تيبات كان « على شيء من الشذوذ والعته » . وبعد الغداء ، أخبر آرثر بالمزيد من التفصيلات عن تيبات ـ كيف أنه دخل السجن عدة مرات لارتكابه جرائم العنف ، وكيف شكت الشرطة في أنه المرتكب الحقيقي لجرائم أخرى لا حصر لها ولم يكن في وسعهم أن يبرهنوا على شكوكهم . ولكن الشيء الذي أثار اهتمام آرثر حقاً هو التعليق العابر الذي قاله بينهام عن أن تيبات كان موضع شك في ارتكاب جريمة اغتصاب . وطلب من بينهام أن يزوده بالمزيد من التفاصيل فقال :

« إن أبي لا يروي الكثير من التفاصيل ، ولكنني سمعته يقول لأمي ذات

مره إنهم عثروا على فتاة عارية تماماً ملقاة على ضفة القنال ».

والمضحك هو أنه كان من الواضح أن جوبيتهام لم يخبر أباه بما فعله ثيبات مع جين ، أو ربما كان قد قال له القليل ، ثم لم يتخذ الرجل أي اجراء بعد ذلك . فان مثل هذه الوقائع لم تكن شائعة في المنطقة بالاضافة إلى أن شيئاً لم يحدث للطفلة ولم يلحقها أي ضرر .

ووجد آرثر نفسه عاجزاً عن التركيز على عمله المدرسي . مجرم خطير حقيقي ! فكر في موريارت متربصا في مركز نسيجه العنكبوتي الضخم . ربما كان « داجر » ثيباتي هو أول اتصال هام حقيقي له بالعالم السفلي . فماذا يهم إن كان قد عبث قليلا مع جين ؟ وماذا يمنع ذلك إن كان هذا قد منحه شيئاً من الاثارة ؟ إن المجرمين يعيشون على أساس قوانينهم الخاصة . أما تصوره لهذا الرجل وهو يضرب فتاة من الخلف حتى يفقدها الوعي ، ثم يخلع لها كل ملابسها ويغتصبها ، فقد ضرب في داخله على وتر عميق من التعاطف والإحساس بالأخوة . فلو أن آرثر قد منح الفرصة ، لفعل نفس الشيء مع كل فتاة في وورينجتون .

وفي ذلك المساء ، تلقى آرثر صدمة أخرى حينما طلب من آجي أن تدله على المنزل الذي يعيش فيه ثيبات . وكان المنزل هو المجاور الملاصق للمنزل الذي ارتكب فيه آرثر عملية سطوه الثانية ، والذي انتظر في حجرة الأطفال في داخله لكي يهاجم الزوجة النائمة . وربما كان ثيبات في بيته في ذلك الوقت نفسه . (وقد عرف فيما بعد أن ثيبات كان في الحقيقة بعيداً في منطقة « وورم وودز سكرابز » .

كان اليوم التالي هو السبت ، وكان يوماً دافئاً مشرق الشمس . وظل آرثر يدور حول منزل ثيبات ويتسكع أمامه لمدة ساعة كاملة ، آملا أن يراه قبل أن يحين الوقت الذي يتعين عليه فيه أن يلحق بالسيارة العامة الذاهبة إلى ليفربول . ولكنه لم ير أحداً . وكان اليوم التالي أكثر دفئاً . وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر ، سار آرثر إلى شارع « بريسكوت رو » فرأى ثيبات جالساً خارج منزله

على مقعد مستطيل من المقاعد القابلة للطي ، مستمتعاً بأشعة الشمس .

شعر بخيبة الأمل عند النظرة الأولى : وجه سمين ، وأنف شديد الانحناء كمنقار الطائر ، وتجاعيد شاحبة رمادية (نتيجة السنوات التي قضاها في السجن) ، وكتفان مستديرتان ، وشعر رمادي ، وحذاء منزلي قديم في قدميه . وبدأ آرثر يشعر بأنه أكثر هدوءاً واقترب منه .

« مستر ثيبات ؟ »

رفع الرجل عينيه وابتسم بمودة كاشفاً عن أسنانه الصناعية ، متقمصا بلطف البلطجي المحترف الذي يرغب في أن يبدو في صورة الرجل الطيب الذي لا ضرر منه ولا يخشى أذاه . قال :

« ماذا يمكنني أن أفعله لك ؟ أيها الشاب ؟

« أيمكنني أن اتحدث معك ؟ »

« حسنا ، ها أنا . »

تشتت تركيز آرثر ، فقرر أن يمضي رأساً إلى هدفه . قال :

« لدي شيء أرغب في بيعه . »

« أوه ؟ وماذا يمكن أن يكون ذلك الشيء ؟ »

وضع آرثر يده في جيبه . ولكن ثيبات قال بسرعة :

« ليس هنا . تعال إلى الداخل . »

ودخل آرثر إلى حجرة أمامية شديدة الظلمة ، شديدة الشبه بالغرفة الأمامية في منزله ، ولكن هذه كانت مليئة بأقفاص الطيور الحسنة التغذية . ووضع آرثر يده تحت ياقة سترته ، وجذب منها خاتما من البلاتين مزودا بفص صغير من الماس . أخذه ثيبات وفحصه .

« سرقته » . كذلك أجاب . وكان قد قرر أن يقول الحقيقة . رغم أن هذا كلفه مجهودا هائلاً . واستمر ثيبات ينظر إلى الخاتم دون أن يتغير تعبير وجهه . قال :

« متى ؟ »

« منذ عام مضى . »

« هل تقول الحقيقة ؟ »

« أجل . »

« إذن فلماذا احتفظت به طوال هذه المدة ؟ »

« كنت في مدرسة من مدارس الاصلاحيات . » كذلك قال ، وقد شعر الآن بالفخر بهذه الحقيقة .

من الواضح أن تيبات كان يشك في صدق آرثر ويظنه كاذباً . وسأله مزيدا من الأسئلة ، ثم قال فجأة :

« من أرشدك إلي ؟ »

« ابنة عمي جين . »

« فماذا تعرفه ابنة عمك عني ؟ »

« إنها الفتاة الصغيرة التي جلست على ركبتك وجعلتك تتحسسها . »

جفل تيبات واهتز ثباته . وفجأة أصبح خطرا وعدوانيا . اكتست عيناه بنظرة متصلبة حادة ، وشعر آرثر بالفزع . سأله تيبات :

« ماذا تعني ؟ »

بذل آرثر مجهودا لكي يداري توتر أعصابه ، وقال :

« لا يهمني ذلك في شيء . أنت سألتني ، وقد أجبتك . »

بدا أن تيبات قد تأثر بهذه الاجابة . جلس على أحد المقاعد ومضى يحدق إلى الخارج من النافذة . ومن المحتمل أنه كان يفكر فيما يمكن أن يحدث ، وكيف يكون حاله ، إذا ما ألقي القبض عليه بتهمة التعرض الجنسي لفتاة صغيرة . وأخيرا قال :

« من هي هذه الفتاة ؟ »

وصفها له آرثر وقال له بالتحديد ما قالته جين حينما عادت إلى البيت .

قال تيبات :

« فما الذي جعلك تظن أنني هو ذلك الرجل ؟ »

« إبنة عمي آجي قالت إن الأوصاف التي ذكرتها جين تنطبق عليك »

« من المحتمل أن تكون مخطئة . أليس كذلك ؟ »

« أجل . هذا محتمل . »

أطبق صمت آخر طويل . (وكان وصف آرثر لهذا اللقاء الأول بالمستر تيبات تفصيليا ودقيقا كما هي عادته) . ثم قال تيبات :

« وهكذا قررت أنت أنني قد يمكنني مساعدتك في التخلص من بضائعك المسروقة ؟ »

« أجل . هكذا فكرت . وأنا لا أعرف أي شخص آخر يمكن أن يساعدني في ذلك »

ظهر الرضا على وجه تيبات بتلك الكلمات الاخيرة . ولا شك أنه قد شعر بالراحة والخلاص من عبء ثقيل . قال :

« وماذا لديك أيضا من هذه الأشياء ؟ »

« أوه ، شيء واحد آخر ، أو اثنان . »

« هاتها جميعا إلى هنا هذا المساء وسلمها إلي . سأرى ما يمكنني فعله »

« ولكن ماذا من أمر هذا الخاتم ؟ كم يساوي ؟ »

لو أن تيبات قد حاول أن يقنعه جيدا بأن الخاتم قليل القيمة أو لا يساوي الكثير ، لكان من الممكن أن تنتهي علاقتهما في التو واللحظة . فان آرثر لم يكن يروق له الكذابون أصحاب الكلام الناعم . وكان قد اعتاد وهو طفل أن يجمع الثياب الممزقة الملقاة على عتبات البيوت فيبيعها في محلات الملابس المستعملة وقد احتقر دائما ذلك النوع من الناس الذين يحاولون خداع الأطفال . ولكن تيبات لم يكن من النوع المتعالي . قال :

« لو أنك كنت تشتريه من أحد محلات المجوهرات والحلي ، لكان من الممكن أن يساوي ستين أو سبعين جنيها فيما أعتقد . ولكن أحد باعة الأشياء المسروقة قد يستطيع أن يتخلص منه في مقابل ما يزيد على العشرين . أو قل ، خمسة وعشرين . وهذا يعني أنه لا يمكن أن يدفع لي أكثر من عشرة أو اثني

عشر جنيها . يدفع « لي » أنا وليس لك أنت . إنه قد لا يدفع لك أكثر من عشرة شلنات . فاذا تحملت مخاطرة بيعه بنفسي ، فلا بد أن أحصل على نسبة ستين في المائة . »

« هذا أكثر من النصف . »

« أجل ، إنه كذلك بالطبع . أي مخاطرة تتحملها أنت ؟ إنك إذا وقعت في أيديهم فسوف تنال عاما آخر في سجن بورستال . ولكن إذا وقعت أنا في قبضتهم ، لكان من نصيبي عامان من السجن بتهمة التعامل في الأشياء المسروقة ، حتى ولو أخبرتهم بأنك أنت الذي سرقتها بنفسك . ألا يكون ذلك عدلا إذن ؟ »

كان تيبات سيكولوجيا ماهرا . كانت صراحته هي طريقة التعامل الصحيحة مع آرثر . فسرعان ما وافق آرثر على أن ذلك هو العدل . فقال تيبات :

« حسنا ، هات الأشياء إلى هنا هذا المساء ، في الساعة السادسة والنصف »

(وقد اكتشف آرثر أن الأسرة التي كانت تؤجر الحجرة لتيبات كانت تذهب إلى صلاة المساء من يوم الأحد في الكنيسة) .

وجاء آرثر بالبضائع كما وعد ، وفحصها تيبات بعينين ناقدتين . وقال عن بعض القطع : « يمكنك أن تلقي بهذا الشيء في القنال ، فهذا أفضل . إنه لا يساوي المغامرة . »

ولكنه قال عن صليب من الفضة عليه تمثال فضي للمسيح المصلوب ومزود بسلسلة فضية أيضا : « هذا جيد . إنه قد يأتي بخمسين شلنا في السوق المفتوحة . ومن المؤسف أن نبيعه خلسة ومن تحت الابط » .

وفي المساء التالي ، بعد أن هبط الظلام ، طرق آرثر بهدوء على الباب الأمامي لمنزل تيبات ، وقاده تيبات إلى الداخل ، ثم سلمه خمس عشرة ورقة من فئة الجنيه ، وقال :

« لا تبعثرها في كل مكان . ولكن خبئها في مكان ما ، ولا تنفق أكثر من عشرة شلنات في كل مرة . »

ثم فتح الباب مرة ثانية ، وغادره آرثر .

كان يشعر بالفخر والتهيج . كان تيبات أمينا ، وقد عامله كما لو كان زميلا له ، مجرما مثله ، وليس كطفل صغير . وكان تيبات هو وسيلة الاتصال التي يحتاج إليها .

وبعد ذلك بأسبوع واحد ، نفذ عملية سطو كان يتأملها ويفحصها منذ وقت طويل ، في مبنى كبير جديد يضم عددا كبيراً من الشقق السكنية في ليفربول . انتظر إلى ما بعد حلول الظلام ، ولاحظ أي النوافذ سطعت منه الأنوار وسجل – بعناية – ملاحظاته عن شقتين كان من الواضح أنهما خاليتان . وحينما كان حارس الباب يرشد شخصا ما إلى المصعد ، تسلل إلى الداخل . ولسوء الحظ ، رآه حارس البوابة حينما كان يسير في الدهليز السفلي الطويل . فصاح به :

« هاي ، أنت . أين تظن أنك تسير ؟ إلى أين تذهب ؟ »

« أنا أصلح أجهزة التليفزيون . لقد اتصل احدهم بنا ويدعى جينكينسون . »

كان آمناً من هذه الناحية . فقد سبق له أن أصلح جهازا للتليفزيون في مسكن جينكينسون هذا من شهر مضى . فاذا اصر البواب على اصطحابه إلى الشقة ، كان بوسعه أن يقول إنه يقوم بعملية الفحص والمراجعة العادية التي يجب على محل الإصلاح من عماله أن يقوموا به كنوع من المجاملة لزبائنه . ولكن البواب اكتفى بأن قال :

« الشقة رقم ١٢ » ثم تجاهله .

دق جرس الشقة رقم ١٢ ، وسأل الزوجة الشابة التي فتحت له الباب إن كان جهازها التليفزيوني قد طرأ عليه أي خلل جديد . فقالت له إنه سليم وشكرته . صعد السلم وعثر على الشقة الأولى بين الشقتين اللتين كان يعرف أن أنوارهما مطفأة . دق الجرس ولم يسمع أي أجابة . انتظر بضع دقائق ، ثم فتح حقيبة أدواته ، ورفع قاعها المزدوج ، وأخذ منها مجموعة مفاتيحه الصناعية . وبعد بضعة دقائق كان بالداخل . أضاء النور ومضى مباشرة إلى حجرة النوم . ولكن هذه الحجرة خيبت أمله . كان من الواضح أن الشقة يشغلها رجلان .

ولم تكن ثمة أشياء ذات قيمة ، ولم يكن هو ليهتم بأشياء من مثل آلة الحلاقة الكهربائية أو جهاز المذياع الصغير ذي الخشبية . ودون أن يضيع وقتا ، غادر هذه الشقة ، ومضى إلى الشقة الأخرى . وكانت هذه الشقة أكثر من سابقتها ارضاء لنواياه ورغباته ، كما لو كانت لتعوضه عن خيبة أمله الأولى . كان من الواضح أن الشقة تشغلها فتاتان ، تعملان نموذجين للتصوير والرسم كما بدا من صورهما على الجدران . هنا كان كل شيء معداً لكي يمنحه احساس الاكتفاء الكامل والاشباع الثري : شقة غير مرتبة وأقداح الافطار ما تزال على المائدة ومقلاة لحم الخنزير ما تزال في حوض الغسيل ؛ والسراويل الداخلية الطويلة المستعملة ملقاة على أرضية الحمام ، وأثواب النوم الليلية الغالية المصنوعة من « النايلون » ملقاة على الفراشين غير المرتبين . نظف أسنانه بفرشاتي الاسنان اللتين وجدهما في الحمام ، وشرب بقايا الشاي في الأقداح ، بل أكل قطعة من اللحم كانت مصنوعة ومتروكة إلى جوار أحد الصحون . وحينما غادر الشقة بعد نصف ساعة ، كان يحمل معه زوجين من السراويل الداخلية من أغلى ما وقعت عليه عيناه حتى ذلك الحين — فقد كانت السراويل مصنوعة من مادة حريرية رقيقة — وبعض المجوهرات . كانت هناك كمية كبيرة من المجوهرات ، ولكنه لم يأخذ إلا شيئا قليلا ، لم يكن من المحتمل أن تفتقده صاحبتاه قبل بضعة أيام .

أعطى السراويل لآجي ، وكانت تبدو جديدة ، فقال لها إنه قد اشتراها لها ، وكان مما يمنحه أحساسا بالمتعة أن يخلع أحد هذه السراويل عن جسدها قبل أن ينام معها . وأخذ قطع المجوهرات إلى تاجر تيبات ، الذي قال بصراحة إنها قد تساوي أكثر من مائة من الجنيهات ، ولكنه لا يتوقع أن يحصل على أكثر من عشرين . وفي المساء التالي ، حينما عاد آرثر لكي يأخذ جنيهاته الثمانية ، طلب منه تيبات أن يجلس لكي يتبادلا الحديث . ولشد ما دهش آرثر حينما راح تيبات ينصحه بألا يتخذ من الجريمة حرفة له يتعيش منها . وقال :

« حينما كنت صغيراً لم تكن هناك أشياء أخرى كثيرة يمكن أن تفعلها

إذا لم تقبل أن تتضور جوعا . ولكن هناك الآن فرص كثيرة أمامكم أيها الشبان في هذه الأيام . يمكنك مثلا أن تكسب الكثير من عملك في اصلاح أجهزة التليفزيون قبل أن تبلغ العشرين » .

وحينما كان آرثر يحكي لي قصته ، كان مقتنعا بأن نصيحة تيبات لم تكن سوى نوع من الاختبار النفسي الماكر . لقد كان تيبات — في نظر آرثر — أستاذا في فن الإجرام بطريقته الخاصة ؛ وكان على الأقل يتمتع بذكاء فوق المتوسط العادي بنسبة كبيرة . وقد رأى في آرثر مادة خاما من نوع غير عادي ، فاذا تلقى هذا الشاب تدريبا جيدا ، فربما أصبح في المستقبل مصدرا جيدا من مصادر الدخل . وهو يملك بالفعل غريزة المكر والحذر الصحيحة المطلوبة في هذا الميدان .

وكان تيبات يتمتع بالمهارة الكافية التي تمنعه من أن يبدو شديد الأمانة أو الاخلاص . وقد قال لآرثر إن الشكوك قد تراود الناس إذا ما رأوه يزوره من حين إلى حين وبشكل متقارب ، وبوجه خاص في وقت متأخر من الليل . فلماذا — ببساطة — لا يأتي معه بابنتي عمه آجي وجين ؟ إن الأمر ليبدو حينئذ بريئا براءة كافية . ووافق آرثر ، رغم أنه خمن أن الدافع إلى هذا الاقتراح لا بد أن يكون جنسيا . كان تيبات متعلقا بالفتيات الصغيرات — في سن الطفولة — تعلقا مرضيا شبيها بتعلق آرثر المرضي بالسراويل الداخلية . وكانت آجي عنيدة ، ولكن كان من السهل على آرثر أن يخضع إرادتها لارادته . أما جين فقد جاءت بسعادة لكي ترى الرجل اللطيف الذي أعطاها الحلوى . وحينما حدث بعد عدة أيام أن عادت إلى البيت وهي تحمل مزيداً من الحلوى ، خمن آرثر أنها قد ذهبت لكي تراه مرة ثانية . وحينما ذهب آرثر لزيارته ذات ليلة ، كانت الستائر مسدلة على النوافذ وكان بوسعه أن يسمع أصواتا بالداخل . ولما ظن أن من بالداخل ربما كان أحد زملاء الرجل من المجرمين أو من الوسطاء الذين يسعون بينه وبين زملائه ؛ فقد انتظر بالخارج لمدة بلغت نصف ساعة . ولكن لم تخرج من البيت بعد هذا سوى فتاة صغيرة تبلغ الثانية عشرة من عمرها

تقريبا . وقد اكتشف آرثر فيما بعد أن أحد أسباب احتياج تيبات إلى المال إنما كان ما يدفعه لكي يحتفظ بحريم بأكمله من شبيهات « لوليتا » من عشيقاته الصغيرات . كان مبلغ خمسة شلنات بالنسبة لأكثر أطفال المنطقة مبلغا ضخما ، وكان مما يسعد هؤلاء الفتيات ألا يخبرن آباءهن وأمهاتهن بما منحه للسير تيبات العطوف لقاء هذا المبلغ . ولم يقع تيبات أبداً في خطأ القيام بعملية جماع حقيقية ، وكان يحذر دائماً من أن يترك أي آثار لسائله المنوي على ثياب الطفلات . كان كل ما يطلبه هو العبث بالأيدي ، فإذا لم تكن الطفلة ذات خبرة ، كان يكفيه تماما أن يلاطفها ، وكان يستطيع أن يشبع نفسه دون أن تشعر بشيء أو تدري شيئا .

بعد أن رأى آرثر الطفلة ذات الاثني عشرة سنة تخرج من المنزل ، طرق الباب فسمح له بالدخول . وبدا على تيبات أنه في حالة نفسية هادئة راضية . راح يحكي ذكرياته عن حياته في صباه ، وتجاربه في السجن ، ورسائله في تجنب مراقبة الشرطة واكتشاف أمره . وغادره آرثر في ذلك المساء شاعراً بأنه رجل عجوز لا ضرر منه يمكنه أن يلقنه الكثير . وسرعان ما بدأ يتكلم تلقائيا عن طرقه الخاصة وعن أهدافه . كانا زميلين في عالم الجريمة ، فلماذا لا يثق أحدهما بالآخر ؟ وشعر بأنه بدأ يحكم قبضته على تيبات . وقد قال لي عن هذا الشعور فيما بعد :

« كان هذا كما لو كان الأرنب هو من يقبض على عنق الثعبان . »

ولكي يزيد من أحكام قبضته عليه ، سأله إن كانت آجي قد جلبته إليها . فأجابه :

« أجل . إنها فتاة صغيرة لطيفة . لماذا ؟ أهي ترغب في أن تربح خمسة شلنات ؟ »

« كلا . ولكنها ستسمح لك بأن تفعل معها ما تشاء . يمكنك أن تمضي معها إلى أبعد مما تفعل مع الأخريات . »

« متى ؟ »

ربما كان اهتمام تيبات بالأطفال ناشئا من الاحباط مع الكبيرات وحبه سعاه معهن أكثر مما قد يكون راجعا إلى الميل المرضي إليهن . قال آرثر :

« الليلة . إذا شئت »

« هل أنت واثق ؟ »

« واثق تماما . »

عاد آرثر إلى البيت وبحث عن آجي ثم عاد بها إلى تيبات . وجاءت هي من تلقاء نفسها ودون ضغط من جانبه، زاعمة لنفسها أنها مطلوبة لكي تكون « غطاء » لآرثر ، فقد كانت تعلم أن آرثر كان مشتركا في بعض عمليات السطو على المنازل . وحول آرثر الحديث إلى موضوع التنويم المغناطيسي . وأبدى استعداده لأن يطلع تيبات على الطريقة . وسمحت له آجي بأن يدفعها إلى النوم — وكان بوسع آرثر الآن أن ينجز هذا من خلال بضعة حركات من يديه ، كما لو كان ساحرا هنديا يستعرض مهارته على منصة المسرح . وأمرها آرثر بأن تخلع ملابسها ، ففعلت ذلك بسرعة وبطريقة طبيعية ، بينما راح تيبات يرقبها وهو يلعق شفتيه وقد ازداد لونه شحوبا . وجلس آرثر إلى جوار تيبات وأمرها بأن تقترب منه . وقال لتيبات أن يتحسسها . وجعلت يده ترتعد وهي تمتد إليها لكي تلمسها . وقال آرثر :

« أترى . إنها مستعدة . »

أمر آجي بأن ترقد على السرير . فرقدت طائعة . . .

وكان أن زاد تيبات من نصيب آرثر في ثمن المسروقات المباعة إلى النصف في المرة التالية . على الأقل . لقد قال هو ذلك

* * *

حدث في فترة متأخرة من ذلك العام ، أن كاد آرثر يقع في قبضة الشرطة . فقد عاد زوج وزوجته من السينما إلى منزلهما بينما كان هو داخل المنزل وكان لحسن الحظ قد اتخذ احتياطاته المعتادة : اغلاق الباب خلفه بعد دخوله ، وعدم ترك أية آثار واضحة تدل على الدخول . وقد مرت به لحظة من الألم

الوحشي حينما كان يبحث عن مكان يختبيء فيه . كان المرحاض قريبا منه ، بل كان أقرب مكان اليه ، ولكنه قرر ألا يختبيء داخله . وقد ثبت أن هذا كان قرارا حكيما ، فبعد لحظة دخل الزوج المرحاض بينما كان هو ينتظر متوترا وراء باب حجرة نومهما . ولم يكن لديه الوقت الكافي لاعادة ملابسها الداخلية إلى درج الصوان ، وكان قد بسطها أمامه على الفراش . وفي تلك اللحظة قرر أن هذه هي اللحظة المناسبة لمغادرة مخبئه والفرار من المنزل كله . جذب قبعته ذات الحافة الأمامية العريضة (كاب) فغطى بها عينيه تماما ، وأمسك بمطرقة ثقيلة كان يخفيها في حقيبة أدواته ، وهرع يهبط السلم . ولحسن حظه كانت المرأة في المطبخ ، سمعها تنادي : « إلى أين تذهب ؟ » بينما كان يخرج من الباب الأمامي . ولا بد أنها صدمت حينما خرج زوجها من المرحاض .

لقد اهتز هزة مؤلمة . كان قد حطم قاعدته الأولى : ألا يترك وراءه أبداً أية آثار واضحة . فان الشرطة قد تربط بين السراويل المنشورة فوق السرير بالسراويل الستة التي وجدت في علبة الشطائر التي أدت إلى القبض عليه .

وغضب تيبات حينما قال له آرثر إنه ينوي أن يبدأ قليلا ويختفي عن الأنظار لفترة من الوقت . وشرح له آرثر ما طرأ من ظروف . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يخبر فيها أحدا من تلقاء نفسه بأمر السراويل الداخلية . ولكن ذلك كان ضروريا من أجل توضيح ضرورة اتخاذه حذره . أصغى إليه تيبات بانتباه ثم قال :

« إذا سمعت نصيحتي ، فانك ستقوم بعملية أخرى على الفور . »

« لماذا ؟ »

« لكي تستعيد هدوء أعصابك . »

« ليس هنالك ما يتعب أعصابي ، إنما أنا على شيء من الحساسية »

ومله تيبات بعين تشبه عيني نبي من « العهد القديم » وقال :

« استمع إلى نصيحتي ، فاذا لم تفعل ، فلا تعد إلى هنا أبدا . »

لم يستطع آرثر في البداية أن يصدق أن تيبات كان جاداً في انذاره . وحينما اقتنع بذلك ، خرج شاعرا بالصدمة والمهانة . استبد به الغضب لدرجة أنه استقل سيارة عامة واتجه مباشرة إلى مبنى ضخم يضم عددا كبيرا من الشقق السكنية كان ينوي أن يسطو عليه ، فدخل بجسارة ، واتجه إلى أول شقة صادفته ولم ير ضوءا ظاهرا من تحت بابها . كانت خبرته الآن قد وصلت به إلى القدرة على انتقاء المفتاح الصحيح في دقائق قليلة ، والدخول في صمت . وقد حدث هذا في تلك المرة . ولكنه بعد أن فتح الباب استطاع أن يسمع صوت جهاز التليفزيون ، وشخصا يتحرك في حجرة أخرى . أغلق الباب بهدوء ، وقد استبد به الغضب وتملكه اليأس . ولو أنه قد قبض عليه لكان قد وشى بتيبات باعتباره الشخص الذي يشتري منه البضائع المسروقة . ولكنه عثر على باب آخر لا يبدو الضوء من تحته ، ومرة أخرى فتح الباب . ولكنه اكتشف أن سلسلة المزلاج كانت مثبتة من الداخل ، فمن الواضح أن شخصا ما كان بالداخل ، ولم يكن يريد أن يزعجه أحد . صعد الدرجات إلى الطابق التالي ، فسمع بعض الأصوات . كانت هنالك أسرة كاملة تسير قادمة نحوه في الممر ، ورجل في الخلفية يغلق أحد الأبواب بعناية . كان الوقت قد تأخر به جدا فلم يستطع أن يتجنب رؤيتهم له ، حاملا حقيبته . ولكن أحدا منهم لم يتنبه له على الاطلاق . وبينما كان ما زال بوسعه أن يسمع صوت الأطفال على البعد ، فتح الباب ودخل الشقة وأضاء الأنوار . وسار مباشرة إلى حجرة النوم ، فدخلها كما لو كانت حجرته الخاصة . كان متوترا لدرجة أنه لم يبال حتى بالملابس الداخلية . ورغم أنه قد نظر في الدرج بدافع من العادة ليس إلا . أفرغ علبة من المجوهرات في حقيبته . ثم ذهب إلى المائدة المخصصة لزينة الزوج ومضى يبحث في أدراجها واحدا بعد الآخر في نظام . فأخذ ساعة ذهبية ، وبعض الأزرار الذهبية لأكمام القمصان ، وبعض دبابيس الياقات . بل أخذ أيضا عصا ذات رأس فضي . ثم سار إلى باب الشقة ، وأطفأ الأنوار وأغلق الباب وراءه وسار خارجا من المبنى دون أن يتحدث مع البواب أو يسأله

عن هويته . وكان البواب يتحدث بالتليفون طالبا سيارة أجرة . وبينما كان يهبط درجات المبنى ، عبرت الأسرة الشارع أمامه في سيارة من نوع جاجوار وأرقامها « مارك ١٠ » . وكانت هذه هي أسرع عملية سطو قام بها ، وأربحها حتى ذلك الحين . وحتى تيبات أخذ يحدق مدهوشا معجبا بينما كان آرثر يفرغ كل محتويات الحقيبة على الفراش . وصاح به :

« يا إلهي ... هل سرقت مصرفا ؟ »

وكان الشيء الوحيد الذي شك في قيمته هو الساعة الذهبية ، وكان قد حفر عليها حرفان : « ب . ل » فقال آرثر : « حسنا ، سأحتفظ بهذه . » وتناولها فوضعها في جيبه دون أن يبدي تيبات أي اعتراض . وقد أهداها فيما بعد إلى بولين .

ولا بد أن تيبات أحس بأن آرثر يتصرف بجنون اليائس حينما يشتد به الغضب ، فأخذ يغمره بالثناء والمديح ، ومنحه خمسين جنيها نصيبا له من ثمن المبيعات .

سألت آرثر : « ولكن لنفترض أنه قد ألقي القبض عليك ؟ »

« لم يلق القبض علي » كذلك قال بلهجة مليئة بالاحتقار حتى أنني قررت ألا أتابع مناقشة الموضوع . ولكن كان قد قال لي في الحقيقة ما أردت معرفته . لقد قال لي إنه كان غاضباً من تيبات لدرجة أنه أراد أن يخاطر بالمشروع كله . ولكن لو أنه قد قبض عليه . فما كان من الممكن أن يحدث شيء لتيبات إلا إذا قبض على الشخص الذي كان يشتري من المسروقات أيضا . وقد أراد آرثر أن يتخلى عن الجريمة لمدة شهر أو شهرين ، ولكن حينما مارس تيبات ضغطه عليه ، خرج وهو يتمنى أن يقبض عليه ، أو على الأقل ، خرج بروح المقامرة القاتلة ، ونفذ العملية بطريقة من يلعب « الروليت الروسية » بمسدس لا تضم ساقيته ، سوى طلقة واحدة بينما اللاعب يسدد فوهة السلاح إلى صدغه .

كانت جرائم آرثر الأولى ذات دوافع جنسية ، وكانت هذه الجرائم تثيره لما تتضمنه من ملامح جنسية خفية . ولكنه كان قد أصبح محترفا الآن . مخاطرا

بأن يحكم عليه بالسجن لمدة عامين في احدى مدارس الاصلاحيات في كل مرة يقوم فيها باحدى العمليات التي لا يربح منها سوى بضعة جنيهات . وقد استمر في سرقة الملابس الداخلية النسائية ، ولكنه كان يفقد إحساسه بالحرية بشكل مستمر ، كان يفقد إحساسه بأنه ينفذ مشروعاً حراً ما زال في دور الاعداد والتخطيط . كانت ساقاه قد انغرزتا بالفعل — حتى الكاحلين — في نفس المستنقع الذي غرق فيه لاندرو وهاي . كان السطو قد تحول إلى عمل مربح بدلا من أن يكون عملية اغتصاب ترضيه وتشبعه جنسيا .

كان شيء ما قد تعفن وفاحت رائحته في علاقته بداجر تيبات . وكانت هذه الفترة بالتقريب هي الفترة التي بدأ يشك فيه ويفقد ثقته به . لقد شك في أنه كان يحتفظ لنفسه بأكثر من خمسين بالمائة من ثمن المسروقات . وشك أيضا في أن تيبات يمكن أن يهدده وأن يبتزه إذا هو حاول أن يقطع علاقته به . وفي شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، كان ما يزال أمام آرثر عام آخر يقضيه في المدرسة ، فقر قراره على أن يحاول أن يوفر ما يمكنه من النقود في هذا العام ؛ على أن يرحل إلى لندن في نهايته . إذ لم يكن في نيته أن يكون باقيا في دورينجتون حين خروج العم ديك من السجن .

سألته إذا لم تكن أية فتاة أخرى — غير آجي — قد اجتذبته إليها ، فأجابني :

« هذا يتوقف على ما تعنيه بكلمة « اجتذبتني » . كان هناك الكثير من الفتيات اللواتي رقن لي . ولكن أكثر الفتيات في المدرسة كن فتيات غبيات لحيمات كالخنازير . »

ألم تحاول أبدا أن تنوم أي واحدة أخرى إلى جانب آجي ؟ »

وقد كان هذا موضوعا لم يشأ أبدا أن يتحدث فيه . كنت آمل أن يخبرني بما كان من أمره مع زوجة المدرس المدعو جروزة ولكنه لم يذكر سوى أنه كان هناك صبي في المدرسة بهذا الاسم . وحينما كان يبدي أي اعتراض عن الكلام . لم أكن أحاول أبدا أن أضغط عليه لكي يتكلم ؛ فانه كان سيتكلم بالتأكيد ، عاجلا أو آجلا . ولكن جلساتنا التحليلية كانت أقرب إلى نهايتها

مما كنت أتوقع . ولم أكتشف أبدا من كان هذا الصبي المدعو جروز . وقد أخبرتني بولين بأنها سمعت أن آرثر حاول أن يغوي فتاة من خلال علاقته بأخيها ، ولكنها لم تكن تعرف أية تفصيلات عن ذلك . وربما كانت هذه الفتاة هي شقيقة دنكان ماكيفر .

ولكن حانت اللحظة التي أبدى استعداده فيها للحديث عن مستر جروز – أو « إيلين » كما كان يدعوها .

كان مدرس الألعاب الرياضية في مدرسته رجلا ضخم الجسم يتمتع بقدرة ظاهرة في الألعاب البهلوانية ، وكان الرجل أيضا مجنونا بلعبة كرة القدم ، وبصورة واضحة ، كانت مشاعر آرثر إزاءه غامضة وغير محددة . وقد قال لي إنه كان يعتقد دائما إن من المؤسف أن يستهلك مثل هذا الجسد الرائع في مثل تلك البلاهات التي لا معنى لها ، أو أن يمتلك هذا الأبله الغبي مثل هذا الجسد العظيم . وكان المستر جروز هو أحب المدرسين إلى قلوب التلاميذ في المدرسة ، وكان صديق بولين المدعو « والتر » (وهو الصديق الذي رآه العم ديك يجامع بولين عند مدخل المنزل) كان يقلد مستر جروز في مشيته المندفعة التي تبرز عضلاته .

لم يكن « درامر جروز » متزوجا حينما ذهب آرثر إلى المدرسة الكائنة في شارع « سلبدرود » . وفي عام ١٩٥٠ تزوج بفتاة من « ستول بوبث » ، وقد حضر حفل الزفاف كل أعضاء فريقي كرة القدم في مدرسة « سلبدرود » ، الفريق الأول والفريق الثاني ، وحيوه مهللين وهو يخرج بعروسه من الكنيسة . وكانت مسز جروز جميلة جمالا أشبه بجمال الطيور ، ولم يكن رأسها يبلغ ارتفاع كتف زوجها . وقال كل من قابلها من التلاميذ كم كانت جميلة وجذابة ولطيفة . كانت مدرسة للموسيقى ، وحينما أعلن في المدرسة أنها سوف تلقي دروسا في الموسيقى في فترة ما بعد الظهر قرر عدد من عمالقة الفرق الرياضية في المدرسة أن يتعلموا عزف البيانو . ثم تخلى أكثرهم عن المشروع في خلال أسبوع أو ما يقرب من الأسبوع .

وقد رآها آرثر في مكان واحد يجمعهما عن قرب للمرة الأولى حينما سأله مدرس الألعاب الرياضية إن كان يعرف شيئا عن أجهزة الجراموفون (الحاكي) ، فقد كان الجهاز الذي تستخدمه في درس التذوق الموسيقي قد تعطل . وسمح لآرثر بعدم الحضور في درس متأخر للألعاب الرياضية لكي يلقي نظرة على الجهاز . وسرعان ما اكتشف أن شخصا ما قد ألقى ذراع اللاقطة فوق إحدى أسطوانات التسجيل فحطم ابرة الالتقاط ، وقال لمدرس الألعاب الرياضية أنه من الممكن استبدال الابرة مقابل مبلغ زهيد ، لا يزيد على سبعة شلنات وستة بنسات . وأعطاه مستر جروز النقود ، وخرج آرثر من المدرسة فذهب إلى أقرب محل لبيع الأجهزة الكهربائية لشراء ابرة جديدة . وعاد آرثر حينما كانت المدرسة على وشك اغلاق ابوابها . وكان صف التذوق الموسيقي يصغي للمسز جروز وهي تتحدث عن بيتهوفن . كان أكثرهم من النوع الذي يزدريه آرثر من الصبيان ، ولكنه شعر بالتهيب والحرج وهو يضع الابرة الجديدة في الجهاز مكان الابرة المكسورة ، شاعرا بعيونهم جميعا مركزة عليه . وأخيرا التفتت إليه مسز جروز بابتسامتها الشبيهة بابتسامة الطيور وقالت :

« هل أصبح الجهاز معدا ؟ »

نظر إليها وشعر بصدمة . لقد أدرك على الفور أن نغمة صوتها الحادة القاطعة تخفي نوعا من التوتر العصبي . وحينما التقت عيناها بعينيه ، خفقت أجفانها للحظة قصيرة . أومأ برأسه دون أن يقول شيئا فسألته :

« أيمكننا إذن أن نجربه ؟ »

أدار مفتاح التشغيل ووضع الابرة على الاسطوانة دون أن يقول شيئا . تصاعد صوت الموسيقى بالغ الوضوح والصفاء فقالت :

« رائع ! هيه ، لقد أصبح أفضل بكثير مما كان من قبل . »

وقال لي آرثر معلقا على هذا : « ولا يمكنني أن أفسر السبب في هذا . إنما كان ذلك واحدا من تلك المصادفات الغريبة المضحكة . كان كل الأولاد الجالسين أمامها يعجبون بها ، ولكنها عرفت أنني لا أعجب بها . كانت تعرف

أنه لا فائدة من محاولة الاستعراض أمامي أو التأثير علي . كان بوسعي أن أرى ما ترمي إليه داخل رأسها . »

وأظن أنا أنه ربما كان الأمر متعلقا – بشكل ما – بالاعجاب الذي يكنه العقل الذي لا يدري شيئا من أمور الميكانيكا بالعقل الميكانيكي المدرب . لقد جعلتها كفاءة آرثر ومهارته في معالجة الجهاز تشعر بأنها أقل منه بشكل من الأشكال . سألته إن كان يروق له أن يبقى في الحجرة لكي يصغي إلى الموسيقى فقال بجفاء إن عليه أن يذهب إلى عمله .

بعد ذلك بأسبوع ، كان على آرثر أن يبقى في المدرسة لفترة من الوقت بسبب تعوده على التأخر في انجاز واجباته المدرسية . وفي طريقه إلى الخروج ، رآها في أحد الممرات . كان على وشك أن يتجاوزها بخطوته السريعة حينما استوقفته بقولها :

« أوه . إنك الصبي الماهر الذي أصلح الجهاز . أنا سعيدة جـدا بمقابلتك . »

« هل تعطل مرة أخرى ؟ »

« أخشى ذلك . هل تسمح ... ؟ »

كان قلبه يخفق بشكل غريب وهو يسير وراءها . كان شيء ما في حضورها جعله يشعر بالتوتر ولكن مع إحساس بالسيادة والتفوق . لم تكن تشبه آجي من الناحية الجسدية ، ولكن كان بوسعه أن يحس بأن بينهما شيئا مشتركا .

لم يستغرق أكثر من خمس دقائق لكي يحدد سبب التعطل في الجهاز . ففي الجزء الخلفي من جهاز الجرامفون كانت هناك فراغات خاصة يمكن أن تستخدم للاحتفاظ بمكبر اضافي للصوت أو لوضع جهاز للتسجيل ، وكانت هي قد وضعت مكبر الصوت الأضافي في الفراغ المخصص لجهاز التسجيل فقطعت بذلك التيار الكهربائي عن مكبري الصوت كليهما .

أشار لها إلى ما فعلته . وكان جهاز الجرامفون موضوعا على مائدة مرتفعة ، وكان عليها أن « تشب » على قدميها ثم تنحني إلى الأمام لكي تحدق في الفراغ

الخلفي وراء الجهاز . وحينما فعلت ذلك خرج طرف صدارها القطني من تحت حزام جونلتها ، ووجد هو أن بإمكانه أن يرى مقدار نصف بوصة من الطرف العلوي لسروالها الوردي المصنوع من النايلون . شعر بدفقة وحشية من الشهوة جعلته يريد أن يمد يده إلى أسفل لكي يلمس المادة الناعمة . ولاحظ أيضا أن بوسعه أن يرى – من خلال الصدار القطني الخفيف – الخطوط التي ترسم شكل حمالة صدرها تحت الصدار . واستمر في الاشارة إلى بعض الأشياء في الفراغ الخلفي للجهاز لكي يجعلها تستمر على وضعها . وسألته هي سؤالا آخر.. كان مستغرقا تماما في التحديق في خط النايلون الوردي الرفيع حتى أنه لم يلاحظ أنها قد رفعت جذعها ووقفت في وضعها الطبيعي . احتك كتفها بجسمه للحظة خاطفة ، واحتك ردفها بلحمه المتصلب .

لم يشعر بأي حرج . فقد أحس غريزيا – مرة أخرى – بأنه سيد الموقف . وحينما التقت عيناها بعينيه ، وهي تتحدث بطريقتها المتوترة العصبية السريعة ، حدق هو في عينيها مثلما كان يحدق في عيني آجي ، ضاغطا على أعصابها بهيمنة حضوره . كان أكبر منها طولا . وكانت ساقاها عاريتين ، وكان هو يفكر في أنه لو جرى بيده فوق ركبتها لكان بوسعه أن يلمس المادة الحريرية الناعمة التي تخفي ما بين ساقيها . وفجأة اجتاحه الاقتناع بأنهما لو كانا وحيدين في منزل دون خشية أن يقاطعهما أحد ، لكان في وسعه أن يجعلها تخلع ثيابها مثلما فعل مع آجي .

لم يكن يصغي إلى ما كانت تقول . وكانت هي قد خفضت نظرتها فلم تعد عيناها تواجهان عينيه . ولكنه قال :

« حسنا . علي الآن أن أنصرف »

ابتسمت له ابتسامة سريعة متوترة ثم مدت إليه يدها وضغطت على يده برفق وقالت :

« هذا لطيف منك جدا . أشكرك »

أهاجته لمسة يدها . كانت هذه هي الخطوة الأولى نحو الألفة المرتقبة . وعاد

إلى البيت وهو يفكر : « هذه المرأة لديها القابلية . إنها على استعداد .» كان هذا هو الشعور بالقوة والسيطرة يجتاحه مرة أخرى ، موريارتي يفرض إرادته .

لم يحدث شيء آخر طوال عدة أسابيع ، رغم أنه كان يراها مرارا من حين إلى حين ، وكانت تبتسم له دائما . وذات مرة توقفت لكي تتحدث إليه وقالت :

« من المؤسف أنك لا تحب الموسيقى . »

قال كاذبا : « بل أحبها . ولكني لا أحب الأولاد الآخرين في صفك . »

قالت : « ربما كان بوسعي أن أعطيك بعض الدروس الخاصة »

ثم فجأة التقت عيناها بعينيه ، فبدا عليها الارتباك . وبينما كانت تسرع مبتعدة قال :

« سيكون هذا لطيفا جدا »

وفي عصر ذات يوم مشمس ، كان يجلس في احدى حجرات الدراسة الخالية تقريبا ، يقرأ كتابا . وكان باقي تلامذة الصف يلعبون الكريكيت . كان يكره الألعاب الرياضية ، فقام بتزوير مذكرة باسم العمة إلزي ذكر فيها أنه يعاني من نوبات الصداع وأنه يجب أن يعفى من الرياضة . وكان الشخص الآخر الوحيد في الحجرة هو جريبنهام الذي كان قد التوى كاحله في اللعب فعاد لكي يستريح . قال بينهام :

« إن مسز جروز تحبك ، أليس كذلك ؟ »

« لا أعرف . ماذا يجعلك تقول ذلك ؟ »

« إنها تبدو ودية معك جدا »

« لا أظن هذا . لقد أصلحت لها جهاز الجراموفون مرتين »

وبدأ بينهام — الذي كان ما يزال منغمسا في صف تذوق الموسيقى — في الثناء عليها وامتداحها . كانت نظرته إليها مختلفة جدا عن نظرة آرثر الذي كان قد أحس إزاءها بنوع من التفوق . وكان بينهام يفكر فيها باعتبارها نموذجا رائعا للزوجة الأم ، الماهرة ، الرقيقة المتفاهمة المتعاطفة ، وأنها المرأة المناسبة

تماما التي كان يستحق درامر جروز أن تكون شريكة حياته . أما آرثر فكان يفكر في شريط النايلون الوردي الذي لم يزد عرضه على نصف البوصة والذي كان يدور حول خصرها وتوتر ما بين فخذيه . قال بطريقة كلبية :

« إنها تشبه كل النساء . إنها لم تخلق لغير الجنس . وإن ما تحبه حقا هو عضو درامر الكبير ... »

وشعر بينهام بالخجل والعار ، ولكنه كتلميذ في مدرسة ، كان معتادا على مثل هذا النوع من الحديث . وقال :

« لا أظن هذا صحيحا . لا أظن أنها من هذا النوع »

كان يجب أن يفكر فيها بوصفها امرأة نقية تفيض بالأمومة .

لم يكن من المألوف لدى آرثر أن يكون قادرا على الشعور بالتفوق الواضح إلى هذه الدرجة على بينهام . وقد فكر ساعتها في آجي التي تبدو للغرباء أيضا في صورة الفتاة الهادئة الحلوة العطوف — وهذا ما كانت عليه حقا . ولكنها أيضا كانت تذوب من الرغبة حينما يفرض آرثر حلمتها عبر صدارها . وبدأ آرثر يدرك بعمق التعقيدات المرتبطة بالشخصيات الأنثوية ، وبدأ يصرح لبينهام بما أدركه . وحينما رأى أن بينهام يتشكك في أقواله ، قال له إن مسز جروز ليست إلا امرأة من النوع الذي تسهل السيطرة عليه ، وأنها يمكن أن تكون قابلة للانقياد السهل والخضوع بيسر شديد لتأثير التنويم المغناطيسي .

ومثل جميع الناس الذين لا يعرفون شيئا عن التنويم المغناطيسي ، ظن بينهام أن هذه الكلمات الأخيرة من آرثر لم تكن سوى تفاخر كذاب إلى درجة مروعة . وقال له هذا بصراحة . وأعلن آرثر ، الذي لم يكن قد نضج بما فيه الكفاية لكي يتخلص من شعوره بالضيق إذا ما كذبه شخص آخر ، أعلن أنه سوف يثبت ما قاله بأن ينومها بالفعل .

ولم يكن قد فكر في هذا الأمر تفكيرا جديا ، كان لديه ما يكفيه من المشاكل التي تشغله مع آجي ومع داجر ثيبات . ولكنه كان قد ألقى بتحديه فعلا ، وقرر أن يفكر في تنفيذه بجدية . وكان من رأيه أن أكثر الناس لا يتحولون

إلا القليل من الأعمال لأنهم جبناء للغاية . ومهما كانت أخطاؤه وسقطاته ، فإن آرثر لينجارد لم يكن بالرجل الجبان .

كان يعرف أنها سوف تأتي إلى المدرسة في يوم الاثنين التالي . فتخلى عن دروس فترة ما بعد الظهر في المدرسة وسافر إلى بلدة « ويدنز » على بعد عشرة أميال . وكان من السهل أن يكتشف القطار الذي لا بد لها أن تستقله إلى المدرسة .

بدت عليها الدهشة حينما شاهدته على رصيف المحطة الخالية تقريبا وقالت :

« ماذا تفعل هنا ؟ »

« لا تخبري أي إنسان ، فالمفروض أنني مريض . لقد اعتذرت عن حضور دروس ما بعد الظهر لكي أقوم بعملية اصلاح في أحد أجهزة التليفزيون في « ويدنز »

« أوه ، هكذا ! »

ولاح له أن وجهها قد احمر قليلا ، وأنها لا تصدقه . وقبل أن يستقلا القطار قالت :

« إنك تصلح أجهزة التليفزيون ، أليس كذلك ؟ أتمنى لو ألقيت نظرة على جهازنا ذات مرة فالصورة تجري في الكادر على الدوام »

وبعد قليل كانا جالسين معاً في مقصورة خالية ، وقد استقرت بينهما علاقة ودية دافئة .

قالت : « سمعت أنك تعاني من نوبات الصداع »

قال بتسرع : « كلا »

ثم أدرك ما كانت تعنيه . كان قد تهرب من دروس الرياضة بأن زعم أنه مريض مزمن بنوبات صداع لا تهدأ . فقال مستدركا :

« لا أعاني نوبات الصداع في الحقيقة . لم يكن ذلك سوى عذر للافلات من الألعاب الرياضية . ولكنني أجيد علاج نوبات الصداع .

كان الأمر سهلا إلى درجة عبثية . فحالما وجه الحوار إلى موضوع التنويم المغناطيسي ، راحت تمطره بأسئلتها حوله ، وشرح لها المبدأ الأساسي — من

أن الأمر يرجع إلى الاجهاد الناشيء عن تركيز الادراك . قالت :

« إنني أغرق أحيانا في حالة من السبات وأنا أراقب من نافذة القطار أعمدة البرق وهي تمضي مسرعة إلى الوراء أو أصغي إلى صوت عجلات القطار »

« هذا حقيقي ، وهو أمر سهل . يمكنني الآن أن أنومك نوما خفيفا »

« أيمكنك ذلك حقا ؟ »

كذلك سألته وقد ظهر ما شعرت به من استثارة وخوف قليل ، وكانت هذه هي أفضل حالة يمكن أن تمر بالعقل من أجل أن يوحي لذاته بالاستعداد للغرق في سبات مصطنع ، طالما أن المستويات العليا من العقل مشتبكة في صراع مع المستويات الدنيا ، وأنها لذلك أكثر قابلية لتلقي الايحاءات الخارجية . قال :

« أتحبين أن أريك كيف أفعل ذلك ؟ »

« إذا كان هذا يروق لك » .

كانت نظرتها مفعمة بالخوف والتوسل . كانت تؤمن بأنه يستطيع أن يفعل ذلك . وقد اعترفت له فيما بعد أن عينيه الحاحظتين قليلا كانتا تسحرانها على الدوام من قبل . قال لها :

« لا تتوتري . استرخي فقط وأصغي بامعان إلى صوت العجلات . أنظري بقوة إلى أعمدة البرق وهي تمضي مسرعة إلى الوراء . استرخي »

كان يتكلم بهدوء وبطريقة ناعمة مقنعة ، وهو يرقب توترها يتلاشى ويختفي . بدأ يربت على جبهتها ويدلكها برقة من جانب إلى جانب . كانت تميل من حين إلى حين ، ثم تدفع بنفسها إلى الأمام ثانية . وحين يحدث ذلك ، كان يدفعها برفق إلى الوراء ، وليجعلها تستعيد استرخاءها العادي . كانت متعبة قليلا بالفعل ، بعد أن أنجزت عملها المنزلي اليومي واشترت حاجياتها من السوق ، وكان في نيتها أن تسترخي قليلا في خلال رحلتها إلى دوريتجتون . ظل آرثر يتكلم بنعومة :

« إنك تشعرين بثقل في ذراعيك وساقيك . إنك مسترخية تماما . إنك

تغوصين إلى الوراء ، إلى الوراء ، إلى الوراء ، تغوصين في فراش لين مـن الريش . إنك تشعرين براحة لم تشعري بها أبدا ولا بمثلها من قبل . لا يمكنك أن تسمعي شيئاً سوى صوتي . إنك تتنفسين بعمق ، بعمق ، بعمق ... »

كان يعرف قيمة مجرد ترديد الكلمات ، وبعد خمس دقائق من مثل هذه العبارات ، ظهر عليها أنها غرقت في النوم . ولكن منظر الاشارات الضوئية دلت آرثر على أن القطار كان يقترب من دوربنجتون . كان صوته الآن بالغ النعومة شديد الرتابة . وبدأ الآن عملية ايقاظها من نومها الاصطناعي . قال :

« سرعان ما سوف أوقظك . سرعان ما سوف أوقظك . حينما أصل في العد إلى عشرين سوف تستيقظين وأنت تشعرين بالسعادة والنشاط . حينما أصل بالعد إلى عشرين ، سوف تستيقظين على الفور ... »

وبينما كان القطار يندفع متباطئا إلى محطة دوربنجتون ، لاحظ أن ركبتيها قد انفرجتا بينما كان يهمس لها بعباراته . أخذ الطرف السفلي لجونلتها – وهي جونلة واسعة الذيل برتقالية اللون – بين أصابعه ، ورفعها . كانت ساقاها عاريتين . وكانت ترتدي سروالا أبيض اللون من النايلون . ومن خلال المادة الرقيقة ، كان بوسعه أن يرى شعر العانة . كان القطار يبطىء سيره . أسقط طرف الثوب ، وعد إلى عشرين . وربما لأن صوته كان متوترا ، فان عملية العد هذه لم تؤثر فيها . وجلسا في مكانيهما ، وشرع هو يبدأ العملية من جديد :

« حينما أصل في العد إلى عشرين ، سوف تستيقظين . واحد . اثنان . ثلاثة ... » وفي هذه المرة ، حينما بلغ العشرين ، تأوهت ، وجعلت برأسها ، وفتحت عينيها . بدا عليها الخوف حينما نظرت إليه . سألها :

« كيف تشعرين ؟ »

« رائع . لقد تجدد نشاطي تماما ! »

وبينما كانا يغادران القطار ، طلب منها ألا تذكر لزوجها أنها قد رأته . فوافقت على الفور . وكانت المدرسة على بعد مسافة قصيرة من المحطة تقطعها السيارة العامة في لحظات . سألها :

« أيمكنني أن آتي لكي أفحص جهاز التليفزيون بعد ظهر يوم السبت القادم ؟ »

« ليس هذا بالوقت الملائم . فان جيمس (زوجها) لا بد أن يصطحب فريق الكريكيت إلى بلدة مانت هيلينز وأنا أذهب معهم عادة »

« اعتذري بعذر ما في هذه المرة . قولي إن لديك صداعا مؤلما »

بدا عليها الشك . توقفت السيارة . قال :

« ما عنوانك ؟ »

« ستجده في دليل التليفون »

وقبل هو هذه الاجابة على أنها نوع من الاتفاق .

بدا له أن الأسبوع يزحف متباطئا لا يريد أن ينتهي . وكلما فكر في نفسه وهو يرفع ذيل ثوبها اجتاحه إحساس بقوة الارادة الحادة تتحول إلى نوع من النشوة . كانت تجلس في مكانها ، وعيناها مغمضتان ، بينما كان في وسعه أن يفعل ما يشاء . زوجة المدرس ، المرأة التي يصبو إليها نصف زملائه الأوغاد . وكان ما أثاره أكثر من أي شيء آخر ، هو أن فتحتي ساقي السروال المستديرتين كانتا قد انثنت أطرافهما إلى أعلى في اثناء ارتداء السروال ، ولم تعودا إلى وضعهما الطبيعي بفعل ضغط جسمها ...

بدا الطقس رماديا كئيبا في صباح يوم السبت ، كان يخشى أن يسقط المطر فتلغى المباراة . ولكن السماء صحت قبل العصر . وفي الساعة الثالثة كان يطرق باب منزل صغير جميل في بلدة ويدنيز ، حاملا حقيبة أدواته التي يستخدمها في اصلاح أجهزة التليفزيون – لكي يضلل أي جار فضولي قد يلاحظ مقدمه – وكان يرتدي سترة عمال طويلة زرقاء . ظن أنها تبدو متعبة ومتوترة الأعصاب حينما فتحت له الباب ، وشك في أنها تحمل أفكارا وظنونا خفية غير ما تبديه . سألها عما تشعر به فأجابت :

« تعبة أنا . فقد نمت نوما رديئا جدا »

وبعد ربع ساعة ، أخذ يعبث بجهاز التليفزيون الذي كان يعرض مباراة

في الكريكيت . ولم يكن هناك شيء متعطل أو تالف في الجهاز . ناداها إلى الحجرة التي كان يعمل بها ودعاها إلى مراقبة الجهاز لكي ترى إن كان قد تحسن . جلست متوترة الأعصاب ، ثم قالت :

« أجل . هذا يبدو أحسن . يجب أن تسمح لي بأن أدفع لك ... »

« كلا »

وسار حتى أصبح وراء مقعدها ، فهبت واقفة وقالت :

« كلا ، إنني لا أريد حقا ... »

قال مهدئا : « إنك متعبة ومتوترة الأعصاب . اتركيني أهدىء أعصابك . سوف تشعرين بتحسن كبير بعد أن تستيقظي »

كان عليه أن يتحدث بهدوء واقتناع لمدة بضع دقائق . وأخيرا سمحت له بأن يدلك جبهتها ، ولكنه كان يستطيع أن يشعر بمقاومتها . كانت متوترة الأعصاب لأن هذا يجري في بيتها ، ولم يكن ذلك شبيها بأن يحدث في قطار ، حيث كان كل شيء غريبا بشكل ما . وبعد عشر دقائق من الفشل المتكرر ، نفد صبره وقرر أن يستخدم طريقة الكارترويد ، حيث يجب أن يضغط على أحد الشرايين التي تحمل الدم إلى المخ بالقرب من الأذن ، فاذا ما حرم المخ من الدم ، تكون النتيجة نوعا من الدوار الفوري تقريبا . وفعل ذلك ، فاسترخت على الفور . والآن ، ورغم أنه كان محموما بالرغبة ، فقد كان مصمماً ألا يقع في خطأ واحد . واستمر في تدليكه لجبهتها لمدة عشر دقائق أخرى ، موحيا إليها بأن تغرق في سبات أعمق وأعمق ، كان يوصيها في أثنائه أن تسمع صوته . وبينما كان يفعل ذلك ، لاحظ أن فمها قد انفتح فتحة صغيرة وأن ساقيها قد تباعدتا قليلا مثلما حدث من قبل . وبدأ يشعر بالثقة في نجاحه .

بجفل حينما سمع جرس الباب ، ولكنها لم تتحرك . وبعد خمس دقائق أو نحوها ، تباعد صوت الخطوات على ممر الحديقة . وتقدم الآن لكي يشرع في تنفيذ خطته . أوحى إليها بأن المساء قد هبط ، وأنها متعبة وأن عليها أن تنام .

« إنك متعبة جدا . تريدين النوم في الفراش . إنك تقفين وتذهبين

إلى حجرة نومك . »

واتبعت إيحاءاته — أو اقتراحاته — وقادته إلى حجرة نوم نظيفة حسنة الأثاث . ولشد ما دهش حينما رأى سريراً لفرد واحد فقط . قال لها :

« والآن أخلعي ثيابك . إن زوجك في الحجرة ، وهو يساعدك في خلع الثياب . »

كان متوترا ومتهيجا وهو يساعدها على حل الأزرار التي كانت ممتدة على طول ظهر الصدار الذي دون أكمام . راقبها وهي تحل مشبك حمالة صدرها وتخلعها ثم تلقيها على أحد المقاعد . ثم وهي تحل ضمامة جونلتها . وخلعت الجونلة مع قميص قصير داخلي من القطن . وحينما رآها تقف أمامه في سروالها الداخلي . السروال الوردي الذي رآه من قبل . خلع ثيابه بسرعة ، وتحرك نحوها عاريا ، بينما هي واقفة في مكانها . تركته يقبلها . وقد قبضت إحدى يديها عليه . وتحركا إلى الفراش . ورقدت في مكانها ، سلبية دون حركة ، بينما رقد هو فوقها . وهي نائمة . وحينما اقتربت ذروة نشوته ، وجد نفسه يفكر في مقدار المتعة التي قد يشعر بها إذا قدر لزوجها أن يدخل إلى الحجرة الآن فيرى زوجته في هذا الوضع . تحرك جسدها خاضعة مطيعة مع إيقاع جسد رجل غريب ، مغروسا داخل القم الدافىء الذي تركه لزوجها ... كانت تلك واحدة من اللحظات النادرة التي شعر فيها بالثقة المطلقة والقدرة اللانهائية على الاستبصار ، والتي كان في أثنائها أقرب ما يكون إلى الصحة العقلية الكاملة .

وبعد أن بلغ ذروة نشوته ، مضى يتحرك في الحجرة ، ليفتح الأدراج وينظر إلى ما فيها . أما هي فظلت راقدة في مكانها ... وفجأة طرأت له فكرة بدت له مثيرة إلى درجة هائلة ، حتى لتكون قمة هذه الأمسية . عاد إلى الفراش وقال :

« حينما أبلغ في العد إلى العشرين ، استيقظي ... »

وكرر هذه الجملة اثنتي عشرة مرة . ثم رقد فوقها وبدأ يعد . وحينما بلغ العشرين بدأت تتنفس تنفسا ثقيلا . ثم فتحت عينيها ببطء . حدقت فيما حولها حينما

رأت وجهه فوق وجهها ، وقالت :

« أوه ، لا ! »

أهاجته هذه الصيحة فبدأ يتحرك فوقها بعنف ، وحاولت أن تتملص وتنزلق من تحته ، ثم غيرت رأيها ، وبينما كان يقترب من ذروته ، بدأت هي أيضا تتحرك ، وحينما بلغ الذروة ، أغمضت عينيها وأنت أنينا خافتا ، وقد ضمت ساقيها عليه بقوة ، بعد بضع دقائق ، تحرك عنها ورقد على الفراش إلى جوارها ، مدت يدها وجذبت الغطاء فوقهما معا ، ثم سألته :

« كم الساعة الآن ؟ »

وكان هذا شيئا مخيبا لأمله ، فقد كان ينتظر الكثير من الدموع ، وكلمات الندم والعتاب والتوسل ، ولكنه نظر إلى الساعة القائمة إلى جوار الفراش وأخيرا ثم قال لها :

« متى يجب أن يعود زوجك ؟ »

« ليس قبل ساعتين أو أكثر . »

كان ما أربكه هو أنها قد قبلت الوضع الذي ظن أنه يفرضه عليها ، وفجأة بدأ يشك في أن المسألة لم تكن كلها مفاجأة بالنسبة لها ، وكلما أمعن في التفكير في هذا الاتجاه ، كلما زاد الأمر وضوحا ، كانت تعرف بالتحديد ما كان يريده منها ، وكان هذا هو سبب شحوبها الشديد حينما وصل إلى المنزل ، كان ضميرها يقلقها ، وكان ذلك هو السبب الذي جعلها تبدي تلك الاعتراضات الأولى ضد أن ينومها ، وحينما استيقظت فوجدته فوقها ، كان الزمن قد تأخر جدا لدرجة لا تسمح لها بأن تفعل شيئا ، ولكن كان بوسعها أن تهدأ أو أن تستمتع بالعملية ، ولم تكن النتيجة من خطئها هي على كل حال ... من هذا الجانب كانت تشبه آجي ، فقد قبلت الوضع على علاته ، ها هي إذن ، تعطي جسدها لذكر آخر ، وكان الرجال على هذه الشاكلة ، إنهم يريدونك ، وأنت تسمحين لهم بالحصول عليك ، وبدأ آرثر يشعر بأنها هي التي حصلت عليه ، وأنه هو الضحية ، كانت هي تعرف نوع إحساسه حينما احتك ردفها بجسده

المنتصب ذلك اليوم في المدرسة .

شعر بالغضب منها ، أبعد الغطاء بخشونة ، وانتصب جالسا لينظر إليها ، ولم تحاول هي أن تغطي نفسها ، ثم مد يده وقرص أحد ثدييها ، رقدت مكانها ساكنة في سلبية ... وحينما تدحرج من فوقها ليرقد على الفراش ، فتحت عينيها ونظرت إليه وقالت :

« إنك شرير قليلا ، أليس كذلك ؟ »

« وأنت أيضا شريرة »

« أجل ، أعتقد أنني شريرة »

وكان في صوتها نوع من التسليم بأمر عادي ، وفجأة شعر بشيء من الشك ، وكان هذا سؤالا فضل ألا يطرحه عليها ، كان يتساءل : ألم يكن هناك آخرون غيره ..... ؟

وحينما عاد إلى دوربنجتون مستقلا السيارة العامة التي تتحرك في الساعة السادسة والنصف ، شعر بالتعب وتملكه الانقباض ، فإن مشهد الاغتصاب العظيم قد تحول إلى مؤامرة خبيثة لا ضرر منها ، كانت قد أرادت أن تغتصب ، وبعد أن أعطته الطعام ، أقنعته أن يمارس الجنس معها ثانية ، وتم ذلك في تلك المرة على بساط حجرة الجلوس ، كانت المرأة شبقة شبقا لا يشبع ، وكان في الموقف ملامح شبه بينه وبين علاقته بداجر ثيبات ، وربما كانت هذه الفكرة هي ما جعله يشعر بمزيد من الانقباض .

• •

ولكن دوافعه الجنسية كانت أقوى من أن تسمح له بأن يقطع علاقته بها . لقد جعلها تعطيه السروال الداخلي الذي خلعته في حجرة النوم ، وأخذه معه إلى المدرسة ، وكان يروق له أن يعبث به في داخل جيبه في أثناء اجتماع تلاميذ الصف ، وهو ينظر إلى مدرس الألعاب الرياضية .

أمضى معها أمسية أخرى ذات يوم من أيام السبت ، واغتصبها في ساحة مصطنع مرة أخرى ، رغم أنه كان من الواضح أنها كانت ستفضل لو ذهبت

إلى الفراش مباشرة . وإنما أراد هو أن يدعم من أثر سيطرته عليها . إنها قد تكون مصابة بالشبق الدائم ، النيمفومانيا ، ولكنها يجب أن تكون طوع أمره . وكان مما يخيب أمله أن يكتشف أنها لم تكن بحاجة إلى اقناع أو تنويم مغناطيسي لكي تلبي وتشبع كل اهوائه المختلفة . والتقيا ثانية مساء يوم السبت …

وفي عصر يوم الاثنين التالي ، كان عليه أن يتأخر لمدة ساعة عن موعد الخروج من المدرسة مرة أخرى . وحالما أنتهت هذه الساعة ، أسرع إلى حجرة الصف التي تعمل بها ، فوجد جو بينهام يسألها بعض الأسئلة . وانتظر حتى غادر بينهام الحجرة ، ثم دس يده تحت ثوبها وتسلل بها إلى أعلى .

« لا . ليس هنا . »

« إنه مكان جيد . مثل أي مكان آخر . »

وسمع صوت محرك سيارة . قالت :

« إنه جيمس ، ينتظرني ليأخذني إلى البيت . »

« أنا أريدك أولا . »

« أرجوك يا آرثر . ليس هناك وقت . »

قبض على كتفيها ، وقبلها في فمها بقوة ، ثم حدق في عينيها . بدت عاجزة أمامه وضعيفة .

قال :

« هيا . » وتبعته إلى المرحاض في نهاية الدهليز …

لقد كانت تختلف عن آجي في أنها كانت قادرة على الاستمتاع بالجنس في أي مكان وفي أي وقت .

وكانت أمثال هذه المواقف تشبعه أكثر بكثير من أمسيات أيام السبت في المنزل . والحق أن اصرارها على أن تمضي أمسيات أيام السبت بمفردها في المنزل كان سبباً في نوع من الصراع مع زوجها الذي كان يريدها أن تأتي معه لمشاهدة المباريات مع الفريق . ولكن هذا في حد ذاته كان انتصاراً صغيراً . وكان هذا الانتصار يرجع ببساطة إلى أنها تفضل الجنس على الرياضة . وقد قالت

لآرثر من تلقاء نفسها إن زوجها لم يكن ذا فائدة في الفراش ، وأنهما كانا يمارسان الجماع الطبيعي مرة كل شهر …

وحينما حانت إجازات شهر أغسطس توقفت المباريات . لكن كان لها بعض الأقارب في بلدة بوتل ، وفي بلدة نيو برايتون وفي بلدة ساوث بورت ، وكانت كثيراً ما تنتهز فرصة عطلات نهاية الأسبوع لكي تذهب لزيارتهم . وكان زوجها يقضي عطلات نهاية الأسبوع في البيت ، مع بعض تلاميذه المفضلين يتبادلون الأحاديث أو الألعاب المنزلية . وكان بوسع آرثر وإيلين جروز أن يعثرا على شاطىء منعزل أو حقل خال ليمارسا فيه الجنس .

ولكن ما أزعج آرثر حقاً وأثار مخاوفه كان استعدادها الكامل للتكيف مع أي وضع والتسليم بكل شيء . لم يكن بوسعه أن يشعر بأنه يسيطر عليها ، لأنها كانت تفعل كل شيء طواعية ودون قسر من جانبه . وحينما أخبرها بأن ابنة عمه آجي كانت عشيقته هي الأخرى ، استقبلت هذا الخبر بهدوء . فقال لها بنوع من الخبث الفكه :

« ربما كان علي أن آتي بها إلى هنا مساء ذات يوم من أيام السبت . »

« أجل . لم لا تفعل ذلك ؟ »

« ماذا ؟ ثلاثتنا في فراش واحد ؟ »

« ولم لا ؟ يمكننا أن نستخدم سرير جيمس — إنه كبير ويكفينا جميعاً . »

كان يبدو أنه من المستحيل أن يثير غضبها . ولكنه اكتشف حيلة واحدة على الأقل كانت تمنحه اشباعا عميقاً . فقد كانت قابلة للايحاء إلى درجة كبيرة . حتى لقد كان بوسعه أن يدفعها إلى التهيج الجنسي بمجرد الكلام . وقد كان يروق له أن يفعل ذلك في البار الموجود في المحطة . كان يجلس إلى جوارها أمام إحدى الموائد في الركن ثم يضع يده على ساقها ويتسلل بها إلى فخذها …

كان يتسلى برؤية النظرة العاتمة الحالمة تلوح في عينيها ، وأنفاسها تتسارع وتنقبض [illegible] عينيها [illegible] [illegible] وجهها [illegible] [illegible] ثم

تمرد فتفتحهما ببطء . وقد لاح فيهما الخوف ممتزجاً بالسعادة . وكان يمد يده بحذر تحت ثوبها ، ويتحسس نسيج النايلون المبلل بأصابعه .

وذات يوم تركها جالسة أمام المائدة وذهب إلى المرحاض . وحينما عاد كان هناك شاب يجلس أمامها إلى المائدة . ذهب إلى الواجهة الزجاجية وتظاهر بالنظر إلى أنواع الشطائر ، ثم التقت عيناه بعينيها – وكان الرجل يجلس بظهره إليه – وأشار برأسه إشارة واضحة نحو الباب ، فلحقت به بعد بضع دقائق على رصيف المحطة . سألها :

« ماذا يجري هناك ؟ » .

« لا شيء . لقد سألني إن كان يستطيع أن يجلس إلى مائدتي » .

« هل قلت له إنني معك » ؟ .

« كلا . لم أظن أن هذا قد يهمك » .

« لماذا لا تأخذينه معك إلى البيت » ؟ .

جفلت من كلماته وقالت :

« كيف يمكنني ذلك ؟ لا أريد هذا » ؟ .

« أجل يمكنك . ردي دعوته لك بأن توجهي له الدعوة على كأس » .

« لا أريد هذا » .

حدق في عينيها لبرهة طويلة ، وأخيراً استدارت عائدة فدخلت المقهى مرة أخرى . وانتظر هو على رصيف المحطة . وبعد خمس دقائق ، خرجت من جديد . وغادرا المحطة . وتبعهما هو إلى الخارج ، ورأى الرجل يفتح لها باب سيارة رياضية مكشوفة حمراء . ولم تلتفت هي إلى الخلف لكي تنظر إليه بينما انطلقت السيارة في طريقها .

وحينما رآها بعد بضعة أيام كان يتحرق شوقاً إلى سماع أخبارها . سألها :

« ماذا حدث » ؟ .

« ماذا توقعت أنت أن يحدث » ؟

« أين ذهبتما » ؟ .

« دعاني لشرب كأس . ثم قاد السيارة إلى الريف » .

« وليس إلى البيت » ؟ .

« كلا . كان في هذا مخاطرة كبيرة . ثم أخذني إلى أحد الحقول » .

« وهل كان لطيفاً » ؟ .

« أجل ، بالطبع » .

« هل أعطاك شيئاً » ؟ .

« كلا . بالطبع لا » .

« هذا غباء واضح . أليس كذلك ؟ ما فائدة أن تفعلي هذا إذا لم تفعليه من أجل النقود ؟ » .

« إنني ... إنني لا أعرف كيف أصل إلى ذلك » .

« ألا تعرفين ؟ حسنا . سوف أعلمك . لا تفعلي شيئاً أكثر من أن تقفي على إحدى النواحي المزدحمة في مانشيستر لمدة عشر دقائق » .

« ولكنني لست عاهرة » .

« أيروق لك أن تراهنيني » ؟ .

« كلا » .

سألته ألا وهو يحكي لي هذه الواقعة :

« هل راقت لك فكرة أن يمتلكها الغرباء » ؟

« أوه . لا » ، كذلك قال وهو يبتسم مكشراً عن أنيابه ، وشعرت بأنه يمثل دوراً مقنعاً . ثم قال :

« إنما راقت لي فكرة النقود التي كان يمكنها أن تجمعها » .

« هل أثبت جدارة » ؟

« بالطبع . لقد كانت شقة شقاً مرضياً لا يشبع . ولم يكن بوسع أي رجل أن يشبعها . كان بوسعها أن تضاجع كل رجال مانشستر ثم تظل تطلب المزيد . وعلى أي حال ، فقد كنت أعرف أن بوسعها أن تجمع عشرة جنيهات

في كل مرة .

« ولكنك لم تكن بحاجة إلى المال . فقد كنت قد وفرت النقود التي أعطاها لك داجر تيبات » .

هز كتفيه ، ومرة أخرى انتابني إحساس بأنه يريد أن يتملص . فقلت :

« إذن ، فماذا فعلت » ؟ .

« جعلتها تستأجر حجرة في مانشيستر ، وأطلعتها على الأماكن التي يمكنها أن تلتقط منها الرجال

« أنت جعلتها » ؟ .

« أوحيت إليها بذلك » .

« أتعني بعد أن نومتها » ؟ .

« هذا صحيح » .

كان يقاومني ، مرتداً على أعقابه إلى داخل ذاته . ولذلك ، فبدلاً من الضغط عليه لاجباره على البوح بالتفاصيل ، تظاهرت بأنني غير مهتم بالموضوع .

« وهل فعلت ذلك » ؟ .

أصدر من أنفه صوتاً قبيحاً زاعقاً يؤكد به ما حدث ثم أومأ برأسه . تذكرت ما كان بينهام قد قاله لي : « لقد كانت تتجه حثيثاً نحو الاحتراف ــ من تلقاء نفسها . » وبدا لي أن لينجارد كان يقول الحقيقة .

« وهل أعطتك النقود بالفعل » ؟ .

« لقد تأكدت من ذلك » .

« وماذا حدث لها بعد الطلاق » ؟ .

ابتسم مكشراً عن انيابه وقال : « جعلتها تعود إليه مرة أخرى ، صدق هذا أولا تصدقه . لقد قلت لك إنه كان شاذا غريب الأطوار » .

* * *

إنني لم أبدأ في الاحساس بأنني فهمت هذه القضية التي دارت بين آرثر لينجارد وإيلين جروز إلا فيما بعد ، بعد أن كتبت مذكراتي حولها .

لقد كان الاحساس بالانتصار والغزو إحساساً بالغ الأهمية لدى آرثر منذ أن نما في داخله ذلك الخيال التفصيلي الدقيق الذي جعله يتصور أنه يعيش على كوكبين في وقت واحد . كان قد أغوى ابنة عمه ، وسرق شقيقته من عدوه ديك لينجارد وخطط لهزيمة عدوه ونفذ عملية اسقاطه . وقد كان من الضروري أن تكون إيلين جروز واحدة من أهم غزواته ، وقد كانت كذلك بالفعل طبقاً لروايته هو . لقد أغواها عن طريق التنويم المغناطيسي ، ثم تخلى عنها في الوقت المناسب له وحولها إلى عاهرة .

ولكن ما مقدار الصحة في كل هذا ؟ كان علي أن أعثر على ايلين جروز نفسها لكي أكتشف الحقيقة ، وأن أقنعها بأن تتحدث بنفس الصراحة التي تحدثت بها بولين . ورغم أنني قمت ببعض عمليات البحث والتحري عنها ، فانني لم أنجح أبداً في اقتفاء آثارها أو العثور عليها .

ولكن الحقائق كانت منطابقة مع رواية أخرى للقصة . فقد كانت إيلين جروز امرأة شابة قوية الميل إلى الجنس بشكل واضح ، وواحدة من أولئك الفتيات المتعلمات المتوسطات الجمال اللواتي يبدو عليهن أن ناراً لا تخبو قد اشتعلت بين سيقانهن . ولا شك في أنه كان لها عشاق كثيرون قبل أن تلتقي زوجها . وحينما التقت به ، وقعت في خطأ الاعتقاد بأنه لا بد أن يكون عاشقاً رائعاً . رياضياً مفعماً بالرغبة الجنسية . ولكن في خلال زمن قصير ، اكتشفت أنه من الناحية الوجدانية متعلق بتلاميذه الصغار تعلقاً مرضياً ، وأنه يمارس الجنس معها بطريقة توحي بأنه يراها في صورة غلام من تلاميذه . وقد اقترحت هي أن تقوم بالتدريس في مدرسته لأنها أرادت أن تكون على صلة أوثق بأولئك الأولاد الأصحاء الذين سحروا زوجها وخلبوا لبه . وفي مثل تلك اللعبة لا بد من وجود اثنين من اللاعبين . أما عن آرثر لينجارد فإنه قد يكون ، وقد لا يكون أول من خدع مدرس الألعاب الرياضية . فهل استطاع حقاً أن ينومها

مغناطيسيا عصر ذلك اليوم من أيام السبت ، أم أنها كانت تتظاهر فحسب ؟ وهل كان آرثر هو الذي أمرها بلهجته المتسلطة بأن تبقى في بيتها مساء السبت التالي ، أم أنها هي التي قالت له أن يأتي لكي يفحص جهاز التليفزيون في ذلك اليوم وهي تنتوي أن تغويه بكل ما تملك من رغبة وطاقة ؟

لقد اعترف بأنه شعر بالصدمة حينما اكتشف أنها شبقة جنسياً شبقاً لا يرتوى . وأنا في البداية أسلم بأنه ربما لم يهتم بذلك . لقد كان يمارس الجنس مع زوجة مدرس الألعاب الرياضية ، وكان هذا هو كل ما يهمه في الأمر . ولا شك أنها شعرت في البداية أنه من الغريب الممتع أن تمارس الخيانة الزوجية مع أحد تلاميذ زوجها . ولكن امرأة ذات شبق جنسي لا يرتوي غير جديرة بأن تشبع نهمها من خلال علاقة بتلميذ صغير لمدة طويلة ، وإنما تفضل أن تعيش سلسلة من العلاقات المتتابعة مع عدد من « الطلائع » القوية . وحتى لو كانت سيطرة آرثر عليها عظيمة إلى الدرجة التي زعمها لي — وهذا أمر أشك فيه — فإن الرغبة المستعرة في داخلها ما كانت لتقتنع بهذا التلميذ الصغير . ولا بد أنه قد تبين ذلك حينما عاد من مرحاض المحطة ووجدها تجالس الشاب الغريب الذي التقطته بالصدفة . ومن المحتمل أن يكون قد اقترح بالفعل أنها يجب أن تخرج معه ، لأنه لم يكن متعلقاً بها من الناحية الجنسية إلى درجة الجنون ، صحيح أنها كانت ترضي لديه احتياجاً إلى السيطرة ، فإذا أمرها بأن تمنح نفسها لرجل آخر ، فسوف يظل قادراً على الشعور بالسيطرة والقوة . وربما كان يستطيع أن تتبع ذلك بأن يقتلها أو يأمرها بأن تحترف ، أو أن تستثمر ميلها الخاص بشكل احترافي . ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما كان يأمرها بأن تتبع ميولها الخاصة . لكي تثأر لنفسها من زوجها صاحب الجسد الرياضي .

ولكن المشروع فسد بين يديه فساداً كاملاً . فحاول أن ينقذ ما يستطيع انقاذه من احترامه لنفسه ، وانسحب بهدوء ، وكانت هذه تجربة مريرة مرارة كاملة ، وكان هذا هو السبب في رغبته في التملص المستمر والتحفظ الشديد وهو يرويها لي .

ورغم أن قصته مع إيلين جروز قد أشبعت عنده احتياجاً لا يهدأ إلى تأكيد الذات ، فإن علاقته مع ثيبات قد أنتجت احساساً متزايداً بالخجل والاحباط . ومن الناحية الحسابية المجردة ، كان يعرف أنه من المحقق أن يلقى القبض عليه إذا هو استمر في عمليات السطو . ولكنه درب نفسه على شيء واحد فقط : فلم يسمح لكراهية أبداً بأن تظهر في تصرفاته أو تعبيرات وجهه . لم يكن أمامه سوى أقل من عام واحد لكي يغادر المدرسة نهائياً ، وكان بوسعه أن يذهب إلى حيث يشاء حينما يحدث ذلك . كذلك فإن فترة وضعه تحت المراقبة كانت ستنتهي في الوقت نفسه : فيستطيع حينئذ أن يترك ثيبات إلى غير رجعة .

ولكن حدث بعد عيد الميلاد بوقت قصير أن تبين أن هذا لم يكن سوى حلم سخيف ومستحيل التحقيق . لم يكن في نية ثيبات أن يخسر مصدر دخله الجديد . كان رجلا عجوزاً ، وكان يعاني في الشتاء معاناة قاسية من نوبات الربو والتهاب الرئتين . وكان أول ما يقوم به آرثر من أعمال ، حالما يصل إلى حجرة ثيبات ، أن يفرغ في المرحاض إناء كان العجوز يملأه إلى منتصفه بمخاطه الأخضر اللزج ، ثم يكون عليه أن يجلس لكي يصغي بانتباه للرجل العجوز وهو يتحدث عن آلامه ، ويشكو لأنه لم يعد أمامه الكثير من الحياة يعيشها في راحة ، بينما يقطع شكاواه بالسعال والنحنحة ، ثم ينفث في حلقه شيئاً ما من حين إلى حين . ولكن ثيبات لم يكن ينوي أن يموت . وقد قالت مالكة منزله ، وهي سيدة عجوز ضخمة الجسم بالغة البدانة كانت ترتدي مشداً قوياً حول وسطها باستمرار ، قالت لآرثر إن ثيبات ظل على هذه الحال في كل شتاء منذ سنوات طويلة . وقالت له :

« أظن يكون أحسن حالا حينما يكون بالداخل . ولكن الضجر يتملكه من جلوسه هناك دون عمل يشغله » . وكان ثيبات يفكر في نفسه حينما يطعن في السن ، وقد اشتهى لو يقضي سنواته حينذاك في راحة وكان آرثر هو ما يضمن له ذلك . ولكن وقع في يوم الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٥٢ الحادث الذي وضع نهاية أحلام بقفة آرثر التي كان يحلم في أثنائها

بالافلات منه والهرب من قبضته .

كان اليوم يوم سبت ، وكان قد أمضى عصر ذلك اليوم في عملية اصلاح جهاز للتليفيزيون في مسكن بالطابق العلوي في شارع « جريب » بمنطقة وسط مانشيستر . كان مسكنا دافئاً ومترفاً ، قريباً من دار الأوبرا ، وكانت الأبسطة على الأرضية أكثر سمكا من أية أبسطة أخرى رآها في حياته ، وكان « البار » القائم في أحد الأركان يحتوي على زجاجات تساوي ما تحتويه منها أية حانة حقيقية . وكان هناك جهاز للتليفيزيون ، أحدهما في حجرة الجلوس ، والآخر في حجرة النوم ، وكان مالك الشقة رجلاً وسيماً رمادي الشعر في الخمسين من عمره تقريباً ، يشبه نوع الرجال الذين تظهر صورهم في اعلانات السيارات الغالية الثمن ، وتحت الصورة عبارة قد تقول : « لست بحاجة إلى مرتب مخرج سينمائي لكي تملك سيارته ... » . وكان خادم فخم المظهر قد فتح له الباب وقاده إلى الداخل ، أما الرجل الرمادي الشعر الذي كـــان اسمه على بطاقة الباب النحاسية « سايمون بالكس » فقد دعاه إلى كأس من البيرة ، ولكنه رفض ذلك ، فأطلعه الرجل على الجهاز المتعطل – وهو الجهاز الموجود في حجرة النوم ، وبينما كان يعمل في اصلاح الجهاز ، سمع الباب يصفر ، وصوت فتاة تقول :

« أنا آسفة جداً . لم أستطع أن أذهب بعيداً . سوف يفوتني القطار .....

« لن يفوتك القطار إذا أسرعت » .

« ولكن يجب أن أبدل ملابسي أولا » .

اختلس نظرة من باب حجرة النوم ، فرأى فتاة شقراء جميلة ، في نحو السادسة عشرة من عمرها ، تخلع معطفها بسرعة وتلقيه بعيداً . بينما كان يتطلع إليها . حلت اضمامة جونلتها ، ثم أسرعت تدخل حجرة النوم المجاورة للحجرة التي كان يعمل بها . سمع تفاصل حوار كان يدور بينما كان يعمله ، كان من الواضح أنها ابنة الرجل الرمادي الشعر أو ابنة اخته ، كانت تقيم هنا ، ولكنها كانت ذاهبة لكي تزور أمها . سحره صوتها ، كان صوتاً مدللا ، ثريا ، صوت فتاة درست في أحسن المدارس وعرفت سويسرا والريفييرا أفضل من معرفتها مانشيستر . سمعها تقول :

« أوه ، اللعنة . لقد قطعت حمالة كتفي . هذا ما ينالني من العجلة » .

قال والدها مهدئاً :

« لا تتعجلي . هناك الكثير من الوقت . أعطيني حقيبتك . سوف أخرج السيارة وأهيئها » .

ثم خرج . ولكن آرثر لم يعد قادراً على السيطرة على فضوله ، فخرج إلى الحجرة الأخرى – وكان قد ترك حقيبة أدواته هناك – وراح يتطلع إلى ما حوله . كانت الفتاة واقفة وقد أولته ظهرها ، مرتدية جونلة زرقاء قصيرة للغاية ، وكانت تجذب إلى أعلى ساقها جوربها الحريري الشفاف . كانت شهوة آرثر غلابة وعنيفة . أراد أن يقذف بنفسه عليها وأن يدفعها إلى السرير . ولكنها وقفت وسارت قليلاً فخرجت عن مجال بصره . عاد ثانية إلى حجرة النوم الأخرى . وبعد بضع دقائق سمع الباب يغلق . انتظر للحظة يتسمع ما قد يصدر من أصوات . وكان يبدو أن الخادم يغسل الأكواب في المطبخ . أسرع بالذهاب إلى الحجرة المجاورة . كانت الملابس التي خلعتها ملقاة على الأرض . كانت هناك جوارب ولكن لم تكن هناك ملابس داخلية حيثما كان يستطيع أن يرى . عبر الحجرة ونظر في صندوق الملابس المتروكة للغسيل . وكان هناك سروال حريري أبيض اللون . قفز قلبه من الابتهاج . التقط السروال ، كان مصنوعاً من حرير سخي ثقيل . كان على وشك أن يضع السروال في جيبه حينما سمع صوت اغلاق الباب . عبر الغرفة بسرعة ثانيا ، فاصبح في الحجرة الأخرى ، حجرة الجلوس ، منحنياً فوق حقيبة أدواته ، حينما دخل الخادم حاملا صينية ملئت بالأكواب المغسولة ، وراح يضعها تحت البار . عاد ثانية إلى حجرة النوم ، وراح يختبر جهاز التليفيزيون منتظراً في لهفة أن يغادر الخادم الحجرة ، لكي يستطيع أن يعود إلى السروال الطري الناعم الذي كان ملمسه الحريري ما يزال عالقاً بأطراف أصابعه ، ولكن الخادم بدأ في ترتيب حجرة الجلوس وتنظيفها ،

ثم بدأ في تنظيف حجرة نومها . وبعد ربع ساعة عاد الوالد إلى المنزل . سمعه يقول :

« لقد لحقت القطار بصعوبة ! »

وقبل أن يغادر حجرة النوم ، سمع الخادم يقول :

« هل ستكون بحاجة إليّ هذا المساء يا سيدي ؟ » .

« كلا ، شكراً لك يا روبرت . سأتناول عشائي بالخارج . يمكنك أن تخرج بعد أن تنتهي من ترتيب هذه الحجرة » .

« أشكرك ، يا سيدي » .

حينما غادر آرثر الشقة بعد عشر دقائق ، كان الخادم قد رحل بالفعل . وكان الرجل الرمادي الشعر قد تودد إليه ببعض الملاحظات الطيبة ، وجدد دعوته له إلى كوب البيرة (ورفض آرثر هذه الدعوة مرة أخرى) ولكن الرجل الأشيب منحه جنيهاً « بخشيشاً » .

وفي الساعة التاسعة من ذلك المساء ، فتح آرثر الباب الذي يفصل الطابق العلوي من المنزل عن بقية المبنى ، وصعد الدرجات . دق جرس الباب ، على سبيل الحيطة ، ولما لم يجبه أحد ، أو يسمع صوتاً ، راح يجرب مفاتيحه المصطنعة حتى عثر على المفتاح المناسب . دفع الباب ففتحه — ووقف وقد غشيت عيناه أمام الضوء القوي الذي كان يغمر البهو . كان الرجل الأشيب ، الرمادي الشعر ، جالساً على الأريكة وقد بدا عليه الهدوء والانشراح . قال :

« أجل ، كان لدي احساس بأنك سوف تعود » .

وقف آرثر في مكانه يحدق ببلاهة . كان قد شرب زجاجتين من البيرة في الطابق العلوي من أحدى السيارات العامة قبل أن يأتي إلى هنا — وكان قد رأى أن كمية قليلة من الكحول تزيد ثقته بنفسه ومن هدوئه واسترخائه دون أن تؤثر على قدرته على تقييم الأمور والحكم عليها . وكان يشعر في تلك اللحظة بهدوء غريب ، رغم أن الموقف كان مفاجئاً تماماً وغير متوقع . ولم يكن واضحاً أن الرجل يريد أن يهاجمه .

« من فضلك أغلق الباب وادخل ، هل تسمح » ؟ .

عمل عقل آرثر بسرعة . لو أنه هرب ، فربما طارده الرجل وأمسك به . أما إذا بقي هنا ، ثم استدعى الرجل الشرطة فيمكنه أن ينكر أنه دخل عنوة دون رغبة صاحب المسكن . وأنه ببساطة قد دق الجرس فسمح له بالدخول ... ولكن الرجل لم يكن يبدو عليه كمن ينوي أن يستدعي الشرطة .

كان الرجل يقول :

« أجل إنه شيء غريب ، ولكن يبدو أنني أتمتع بحاسة سادسة في مثل هذه الأمور . حينما نظرت إليك عصر هذا اليوم ، عرفت أنني سوف أراك مرة أخرى . ولكنني لم أتوقع أن يحدث هذا بهذه السرعة بالطبع » .

كان واثقاً من نفسه تماماً . وكان أضخم جسداً من آرثر ، وبنيانه أكثر قوة . قال :

« لقد طلبت المحل تليفونيا لكي أعرف اسمك . آرثر ليتجارد . يروق لي هذا الاسم . إن له لدلالة أدبية ... »

انزعج آرثر وقال : « هل تلفنت للمحل » ؟ .

« لا لشيء إلا لكي أقول لهم أي عمل ممتاز قمت به اليوم في جهازنا التليفزيوني » .

كان في سلوكه شيء ما أربك آرثر وأثار حيرته ، شيء لم يكن بوسعه أن يحدده . قال الرجل :

« فكرت أنه يمكنني أن أطلبك أنت بالتحديد إذا تعطل الجهاز مرة أخرى » .

وقف في مكانه ثم أضاف يقول :

« والآن ، هل يمكنني أن أقدم لك ذلك المشروب الذي رفضته عصر هذا اليوم ؟ » .

قال آرثر : « اشكرك » بعد أن قرر أنه كان على وشك أن يتخلص من

هذا الموقف رغم كل شيء » .
عبر الرجل الحجرة إلى البار . قال :
« أتحب كوبا من البيرة ؟ أم شيئاً آخر ؟ لم لا تختار بنفسك » ؟.
أشار إلى الزجاجات . كان آرثر ما يزال بعيداً عن الثقة بنفسه للدرجة أنه لم يكن قادراً على أن يعقد عزمه على شيء بعينه . قال بغموض ودون تحديد :
« أوه ، أي شيء » .
مزج الرجل عدداً من الأشياء بعضها بالبعض – وراح آرثر يراقبه بشيء من الذهول الجامد أو البليد – بينما راح الرجل يضيف عصير البرتقال إلى ماء الصودا ، وانتهى إلى رج المزيج في إناء فضي طويل بعد أن زوده بالثلج . وأخيراً صبه في كأس عريضة كبيرة رديئة اللون . وتذوقه آرثر فوجده حلو المذاق لاذعا ، وممتعاً للغاية . لم يكن في مذاقه ما يدل على الضرر . سأله الرجل فجأة :
« ماذا كنت تنوي أن تأخذ » ؟ .
شعر آرثر بالمفاجأة ، بعد أن باغته السؤال قبل أن يتهيأ له . وكرر الرجل سؤاله . وقرر آرثر أن الحقيقة لا يمكن أن تكون مهلكة في هذا الوقت . قال :
« سروال ابنتك » .
« ماذا » ؟ .
كان بإمكانه أن يرى أنه نجح في أن يدهش الرجل . قال :
« إنك لست جاداً » ؟ .
أومأ آرثر برأسه .
« ولكن لماذا ، بحق الله » ؟ ! .
شعر آرثر أن وجهه يصطبغ بالحمرة . قال الرجل :
« حسناً ، حسناً ، حسناً .... »
جرع آرثر جرعة طويلة . وظل الرجل يغمغم قائلاً : « أدرك ذلك ....
جاء فجلس إلى جانب آرثر ، فوق مقعد مرتفع من مقاعد البار . قال :
« أنت تجد أن هذا الجزء من الملابس جذاب جداً ، أليس كذلك » ؟

أومأ آرثر برأسه .
« أي الألوان تفضل » ؟ .
قال آرثر بخشونة ، وهو يشعر بقشعريرة تسري في بدنه :
« كان السروال الذي خلعته أبيض اللون » .
« آه ، إذن هكذا الأمر » .
أعد الرجل لنفسه كأساً آخر من الويسكي . قال :
« بالطبع ، السروال الذي خلعته . لقد بدلت ملابسها وأنت هنا . هل رأيتها » ؟ .
أومأ آرثر برأسه مرة أخرى . قال :
« خرجت من الحجرة لكي آخذ مفكاً للمسامير من الحقيبة ، وكانت هي تجذب جوربها إلى أعلى ساقها » .
كان يبالغ في تعبيره عن الحرج عامداً . فمن الواضح أن الرجل كان جديراً بأن يشعر بمشاعر أكثر طيبة إذا اعتقد أن آرثر لم يكن يريد أن يسرق سوى سروال داخلي . فحتى الأثرياء لا يروق لهم أن يفقدوا أشياء أكثر قيمة أو أغلى ثمناً .
ظن آرثر أنه قد جعل الرجل يفقد توازنه . كان من الواضح أنه شخص عطوف وثري ، ولم يكن ميالاً إلى ادانة الناس أو اتهامهم والاعتداء عليهم . وكان قد سحره هذا الرجل الشاب الغارق في احساسه بالحرج الذي اختلس النظر إلى ابنته البارعة الجمال وهي لما ترتدي إلا ملابسها الداخلية . وقد جاء ليسرق سروالها الداخلي كتذكار منها ، مثل عاشق يسرق دبوساً من دبابيس شعر حبيبته ... لا بد أن الأمر كله يبدو له حزيناً ومثيراً للشفقة والتعاطف ، وليس بالأمر الذي يتطلب استدعاء الشرطة .... ثم راح آرثر ، بلفتاته الصحيحة المعبرة عن الحرج والارتباك ، يحكي للرجل كيف دخل متسللا إلى حجرة نومها بعد أن خرجت هي من المنزل . فنظر في صندوق الملابس المتروكة للغسيل .
قال الرجل :

« أوه ، صندوق ملابس الغسيل . لم لا تذهب فتلقي نظرة » ؟ .

تبعه آرثر إلى داخل حجرة النوم . كان صندوق ملابس الغسيل فارغاً . قال الرجل :

« أظن أن روبرت نظف كل شيء قبل أن يغادر المنزل » .

نظر في داخل سلة مزخرفة زخرفة جميلة . ذات لون وردي منقط بالذهب وقال :

« آه . ها هو » .

ومد يده فأخرج السروال الأبيض ، ومده نحو آرثر على طول ذراعه ، ممسكاً به من رباطه المطاطي ، وقال :

« أجل : إنه مصنوع من مادة لطيفة جداً ، أليس كذلك ؟ حسناً ، أستطيع أن أقول إن ديانا لن تفتقده ولن تشعر بضياعه » .

مده إلى آرثر الذي أخذ السروال بارتباك . وقال :

« أشكرك » .

« هناك سراويل أخرى ، إن كنت ما تزال تشعر بأنك لم تشبع فضولك . فلنر » .

جذب درج صوان الملابس ففتحه ، وقال :

« ما رأيك في هذا » ؟

رفع في يده سروالا أسود اللون . للحظة شك آرثر أن الرجل يسخر منه أو يتفكه به . ولكن بدا على الرجل أنه جاد جدية كاملة . ثم قال :

« أنظر إلى هذه السراويل بنفسك . وخذ منها ما تشاء . يمكنني أن آتي لها بغيرها فأضعها في نفس المكان قبل أن تعود » .

بدا هذا الكلام لآرثر كأنه أوضح صورة من صور السخف العابث . إن اتساع أفق الناس وتفتح عقولهم شيء طيب جداً ، ولكن ... وبدأ يشعر بنوع من الارتخاء المشبع بالعطف نحو الرجل . قال :

« هذا عطف كبير منك ، ولكن هذا يكفي » .

« لأنها كانت ترتديه . كما أظن » ؟

أومأ آرثر برأسه . قال الرجل :

« وماذا تنوي أن تفعل به ؟ تشتمّه . كما أعتقد » ؟

احمر وجه آرثر خجلاً وأومأ برأسه . قال الرجل :

« لا ينبغي لك أن تشعر بالحرج . كل إنسان يشتمّ . أنا نفسي أفعل هذا مرة واحدة كل يوم على الأقل . هل ترتدي السروال حين تشتمّ ؟ ... »

سار إلى الحجرة الأخرى وآرثر من خلفه . جلس الرجل أمام البار ثانية وقال :

« يا له من أمر محزن ! وهناك ديانا . ربما كانت تصعد إلى الفراش مع ثري أبله نصف ذكي ، أو تحك أسفل بطنها على ظهر سيارة . أتعجب مما يمكن أن تقوله لو عرفت كم تريدها أنت وتتمناها » ؟ .

جفل آرثر من صراحة لغة الرجل وعريها المباشر ، ولكن هذه اللغة ردت إليه ثقته بنفسه وجعلته يشعر بمزيد من الهدوء . ضحك ، وأفرغ في فمه آخر شفة من كأسه . كان يشعر بسعادة غريبة ممتزجة بشيء من التهيج . سأله :

« ألا تهتم بأنها تنام مع البلهاء الأثرياء » ؟ .

« وماذا يمكنني أن أفعل ؟ أمها على شاكلتها تماماً . إحداهما تشجع الأخرى . وكلتاهما تتجاهلاني تماماً » .

كان هناك شيء ما في الطريقة التي تعلق بها عبارته الأخيرة ، مع حركة قصيرة من يده . أعادت بذرة الشك إلى عقل آرثر . ولكنه كان يشعر بسعادة هائلة تجوقه هذا ، وبسبب ما تحولت إليه كل الأمور عن توفيق وحظ حسن . حتى أن هذه البذرة من الشك لم تزعجه . قبل كأساً أخرى . وراح يراقب الرجل وهو يعد الكأس مأخوذ اللب . راح الرجل يسمي مكونات الكوكتيل بأسمائها . قال :

« هناك ، قليلاً من الفودكا (وقد بدا هذا لآرثر كثيراً من الفودكا) وشيئاً من سلاسيرانو الأبيض ، ولمسة من البراندي ، ولمسة أخرى من الكاهوري

وشريحة من الليمون ، وعصير البرتقال ، والثلج . رج ّ الجميع جيدا في آلة الكوكتيل . ثم أضف ماء الصودا لكي تملأ الكأس . »

وجد آرثر نفسه يفكر في ضخامة المتعة التي لا بد أن يشعر بها المرء إذا كان غنيا . ولكنه وقد التهب خياله . كان من السهل عليه أن يتخيل اليوم الذي سيكون فيه واسع الثراء . ستقول امرأة لزميلتها :

« آه أيتها الدوقة ، هل التقيت بالبروفيسور موريارتي ؟ هذا الرجل اللامع الذكاء ... »

بعد نصف ساعة . كان ينادي الرجل باسمه المجرد : « سايمون » ، وسمعه يناديه : « يا عزيزي آرثر ... » . وشعر بدافع يلح عليه أن يفاخر بعمليات السطو على المنازل التي قام بها ، وبقدراته في التنويم المغناطيسي ، ومن الواضح أن سايمون كان على استعداد لأن يصغي بانتباه واهتمام لكل ما يقوله آرثر . ولكن آرثر شعر بأن هذا قد يفقده الأرض التي كان قد ربحها بالفعل . وبدلا من حديث أعمال السطو ، راح يتحدث عن طفولته في شارع بينكيث ، وكيف أغوى جيم شقيقة آبي وهي في الحادية عشرة من عمرها ، وكيف أغوى ديك لبجارد بولين حينما كانت في الثالثة عشرة . كان بوسعه أن يرى أن حديث الجنس كان يجلب لب سايمون ويسيطر على مشاعره . وبدا عليه أنه يستمتع باستخدام الكلمات الوقحة المبتذلة السوقية حين يتحدث عن الجنس . وقد تحدث بحرية ملحوظة عن زوجته ، وراح يحكي حوادث خياناتها له بصراحة جعلت آرثر يشعر بأنهما يشبهان صديقين قديمين . ومن الواضح أن الرجل كان بالغ السعادة بما هيأه له آرثر من نظرة مختلسة إلى ذلك العالم الآخر الذي لم يكن يعرفه . وفي لحظة عابرة دق جرس التليفون ، فقال سايمون للمتكلم .

« كلا ، ليس في هذا المساء يا عزيزي . ولكني في الحقيقة ألغيت موعدا واحدا . قلت إنني أشعر بصداع مرعب . ولكن الأمر كان يستحق التخلص من هذا الموعد . فقد حصلت على صديق شاب ساحر ، بل هو أكثر الأصدقاء الشبان سحرا ، وهو يجلس هنا الآن معي ... »

وابتسم لآرثر ثم أضاف يقول : « حسنا . إلى الغد في الليل . ربما ؟ أجل . سأحكي لك الحكاية كلها ، بكل جزء منها إلى اللقاء يا عزيزي . »

عاد فجلس مرة أخرى إلى جوار آرثر . قال :

« هل أنت جائع ؟ ألم تأكل منذ العصر ؟ »

قال آرثر إنه لم يأكل ، فقال :

« حسنا ، فلنر ما يمكننا أن نعثر عليه في الثلاجة . »

ذهب إلى المطبخ ، وترك آرثر بمفرده . كان من الواضح أنه قد وثق به وقد بدا له أنه من المدهش أن يكون في شقة غريبة دون أن تكون لديه نية البحث في أصونة ملابس السيدات . كان قد شاهد بالفعل مجموعة سراويل ديانا الداخلية ورغم هذا ، فإنه كان يفضل – وقد أتيحت له هذه الفرصة الآن – لو فحصها من قرب أكثر وهو بمفرده . أخرج السروال الأبيض من جيبه ، فانتصب عضوه على الفور . تسلل إلى المطبخ فوجد سايمون يعد صحنا من السلاطة ، وهو يأخذ من الثلاجة الكهربائية علبا صغيرة من الورق المقوى فيستخرج منها شرائح من التنجر والخيار المملح فيضعها في صحن زوده من قبل بأوراق الخس والكرفس . وأكل آرثر وجبته أمام البار ، وبدا له أنه لم يذق أبدا شيئا أشهى من المايونيز الذي يشبه الزبد فوق البيضة المسلوقة . وهنا كان قد بدأ يتساءل إن لم يكن عليه أن يقيم صداقة دائمة مع سايمون . فلا شك أنه سيكون من الممتع أن يسمح له بالعودة إلى هذا المكان في أي وقت ...

كان سايمون يقول : « أخبرني بالمزيد عن أولاد عمك هؤلاء . ألم يحاول جيم هذا أن يلعب معك أبدا ؟ »

لحظة عجز آرثر عن الفهم . وقال :

« أوه ، لا ، لقد كان أكبر مني جدا . وقد تعودت أن ألعب مع أولاد من سني . »

ضحك سايمون وقال :

« لست أعني « ذلك » النوع من اللعب . وإنما أعني هذا »

ومد يده بمرح ، وقبض على عضو آرثر من فوق بنطلونه . قال آرثر :

« أوه ، لا . إننا لم نصل إلى هذا النوع من اللهو . »

« أبدا ؟ ولا حتى الأولاد في المدرسة ؟ »

لاحظ آرثر أن يد سايمون بقيت حيث كانت ، فقال :

« أوه ، أجل ، بعض الأولاد في المدرسة . وكنا نحن نسميهم : العرائس . »

أبعد سايمون يده ، وقال :

« وكنتم تكرهونهم ، كما أعتقد ؟ »

« أوه ، كلا . لم نكن نكرههم . ولكن ، أعني ... »

« هيه ؟ »

« حسنا ، إنه شيء لا معنى له قليلا ، أليس كذلك ؟ أن يكون الولد مع ولد آخر ؟ أعني أنك لا تستطيع أن تفعل الكثير مع ولد آخر ، هل تستطيع ؟

« ولم لا ؟ »

« حسنا ، أعتقد أنك تستطيع ... »

وابتسم سايمون بطريقته المليئة بالعطف والتي تدل على سمو مكانته ، ثم قال :

« ولكنك لم تفعل هذا أبدا ؟ »

« أوه ، أجل . فعلته مرات قليلة . » وكان يفكر في إيلين حروز .

« حقا ؟ ولكنك قلت منذ برهة ... »

« أوه ، ليس مع أحد الأولاد . وإنما مع بنت . في الحقيقة ، مع [illegible]وجة أحد المدرسين في المدرسة . »

تنهد سايمون وقال : « آه ، يا لها من زوجة محظوظة . »

فجأة ، مد يده ، وبدأ يفك أزرار بنطلون آرثر . ولم يشعر آرثر بأن لديه [illegible] اعتراض ، بعد أن امتلأ بالطعام والشراب . وقد كان بطبيعته مؤدبا . وحل [illegible]ايمون بنطلونه من وسط الأزرار حتى آخرها ، فانفتح البنطلون . ولم يكن

آرثر يرتدي ملابس داخلية . وكانت أعضاؤه الجنسية نامية جدا بالنسبة لسنه فقبض عليها سايمون بخشونة وراح يلاطفها بكلتا يديه . قال :

« آه ، ما أجمل الأولاد الصغار . إياك أن تخجل من جسدك يا عزيزي آرثر . إنه أجمل شيء في العالم . وهو يستطيع أن يمنحك متعة غريبة فذة . »

شعر آرثر بالحرج لأنه لم يكن قد غسله منذ مدة قريبة . ولكن لم يبد على سايمون أنه اهتم لهذا . أبعد آرثر عينيه عن الشعر الرمادي الناعم الذي كان خف كلما اقترب من قمة الرأس ، وراح ينظر عبر الحجرة . فكر كم تكون متعته لو أنها كانت ديانا بسروالها الأبيض وقميصها الداخلي الأزرق الشفيف الذي تحيط بأطرافه شرائط من المخرمات الرقيقة . قال سايمون :

« هل تحب أن تنام هنا يا آرثر ؟ »

« إيه ... حسنا ، أفضل أن أخرج . »

« أتحب أن تأخذ بعض النقود ؟ نقودا أكثر مما يمكنك أن تربحه في أسبوع من عملك في اصلاح أجهزة التليفزيون ؟ خمسين جنيها ؟ »

« أنا ... إيه ... أعتقد هذا . »

« حسنا . إذن فلنذهب إلى الفراش . لا أريد أن أشرب المزيد . فأنا أكاد أكون قد فقدت وعيي بالفعل . »

وحينما تعرى آرثر ، جاء نحوه ، وأمسكه ، وراح يقبله ...

واستغرق سايمون وقتا طويلا ، وشعر آرثر بحاجة ملحة إلى أن يقول : « اسمع ، هذا يكفي . لقد نلت ما أردت من متعة . وأنا لا أريد المزيد . » ولكنه رقد في مكانه ، متوترا بما ملأ صدره من رفض لموقفه . ولكن لم يبد على سايمون أنه لاحظ شيئا . ووجد آرثر نفسه يفكر : « إذن فهكذا يشعر المرء حين يكون فتاة ؟ والله جميل ! ... »

لم يبد على سايمون أبدا أنه يوشك أن يغرق في النوم . وبعد بضع دقائق بدا عليه في أثنائها أنه ينعس قليلا ، استيقظ ثانية وبدأ يهمس بكلمات الحب والاعزاز لآرثر . ثم قال

« كم تحب أن تكون في هذا الفراش مع ديانا ؟ »

« ماذا . ثلاثتنا جميعا معا ؟ »

« ولم لا ؟ أنت فوقها وأنا فوقك ؟ »

قهقه آرثر وقال :

« سيكون هذا ثقيلاً وصعباً عليها . »

« أوه . لا . أنا واثق أنها يمكن أن يروق لها هذا . »

كان بوسع آرثر أن يتذكر ذلك الصوت الرخيم المدلل ، وفاضت به رغباته مرة أخرى . همس سايمون :

« لن تستطيع أن تخمن أبداً . فربما استطعت أن أجعلك تغير عقيدتك »

« تغير عقيدتي ؟ » ولم يكن قد تبين أن سايمون كان مسيحيا .

« يمكنك أن تأخذ من سراويلها ما تشاء : وسوف احتفظ لك بما تخلعه منها . »

فجأة شعر آرثر بالاشمئزاز . إن هذا الوغد القذر لا يفكر في شيء سوى الجنس . كان سايمون يمسك عضوه مرة أخرى . وقال :

« اسمع يا ولدي العزيز . أيمكنك أن ترغم نفسك على أن تدفع هذا ... في ؟ »

شعر بالثورة تمور داخله .

« كلا . آسف . ولكن ... »

« ولكن ماذا ؟ »

« حسنا : إنك لست فتاة . بوسعي أن أولجه في ديانا بالسرعة الكافية »

« أرجوك أن تحاول . حاول فقط . »

« كلا »

وظل سايمون يرجوه طوال عشر دقائق . وأخيرا وافق آرثر . ولكنه حينما حاول أن يصعد إلى ظهر سايمون . لم يستطع أن يتخذ الوضع الصحيح . شعر بالرغبة في البكاء من العصب . قال :

« آسف ، ولكني لا أستطيع . إنني لم أفعل هذا من قبل . لا أستطيع أن أفعلها – ليس في هذه المرة على أي حال »

وأراد أن يحتفظ للرجل بشيء من الأمل ، قال :

« أتحب أن أعود إلى هنا ؟ »

« أجل . إنك ولد حلو . »

وأولج طرف لسانه في أذن آرثر . وبدأ آرثر يشعر بالغثيان .

غرق في النعاس ، وحلم بشقراء جميلة بدا له جسدها رائقا شفافا كالزجاج الثمين النقي أو مثل الكريمة التي توضع في دائرة حول كعكة عيد الميلاد . كانت فتاة حلمه تمتلك أجمل جسم رآه في حياته ، ونهداها بارزان . قبلته وقالت : « أحبك » وأراد هو أن يقول : « وأنا أيضا أحبك . » ولكنه شعر بغصة . دخل لسانها بين شفتيه ، ولمست يدها عضوه . استيقظ في تلك اللحظة . كان نائما وقد أعطى ظهره لسايمون الذي كان قد أحاط خصره بأحد ذراعيه وكانت يده تلمس عضوه . وتبين أنه كان منتصبا . ولكن تنفس سايمون بدا له أنه يدل على نومه . وبدا له الأمر بالغ الغرابة الآن ، وشعر بان هذه الأمسية قد وقعت منذ عهد بعيد . شعر بثقل في معدته ، وأراد أن يفرغها مرة أخرى . فكر في إيلين ، وكيف استطاع أن ينومها في القطار ، ثم نظر إلى قميصها الداخلي . وفكر في كيف وقفت آجي على البساط وخلعت سروالها للمرة الأولى ، ثم رقدت طائعة ، وثنت ركبتيها وفتحت ساقيها دون اعتراض . كزّ على أسنانه . فقد كان آرثر لينجارد ، العنكبوت الرابض في مركز نسيجه الجهنمي ، ولم يكن « عروسة » . لقد رقد بين فخذي آجي وتأرجح وسطهما . ثم جعلها ترقد مرة أخرى ففعلها ثانية وسروالها بين ساقيها ... وراقب إيلين وهي جاثية أمامه على ركبتيها ...

تحركت يد سايمون على جسده فوصلت معدته . كان يلاطفه ملاطفة اوتوماتيكية . أجتاحته موجة حديدية من الاحتقار العنيف . هذا الوغد الفاسد الثري القذر الباعث على الغثيان بعبارته « يا ولدي العزيز » . « يا آرثر العزيز » .

كيف « يحرق » على أن يناديه « آرثر » هكذا بتلك النغمة الساطية الوقحة ؟ لقد كان آرثر ليحارد ، الذي كانت روحه الحقيقية تحلق في سهوب المريخ الباردة ، وهذا الأبله القذر لن يلحظ أبدا أية قوة إرادة مرعبة تكمن وراء هاتين العينين ..

شعر فجأة بالبرودة والنقاء . لقد سمح لهذا الرجل بأن يمارس معه الجنس . بأن يستخدمه ، ولكن هذا لم يحدث إلا لأنه أراد ذلك . لا شيء إلا لأنه أراد أن « يهدهده » حتى ينام ، شاعرا بالأمان . وقد ارتكب خطأ غبيا بالتسلل إلى المسكن قبل أن يتأكد من أنه خال ليس فيه أحد من سكانه . وقد دفع ثمن ذلك الخطأ . لقد حصل أستاذ الجريمة على خبرة أخرى قيمة وثمينة . وقد حان الآن وقت الرحيل . ومن جانب آخر فإن هذا الرجل قد عرف هويته ، وعرف أين يقيم .

ودون تفكير ، وفي دوامة باردة من الفعل الخالي من الروية ، هبط آرثر من الفراش فذهب إلى الحجرة الأخرى . انحنى على حقيبة أدواته ، فعثر على المدق الثقيل الذي أتى به معه لمثل هذه الطوارىء . هدأ حينما شعر بالمدق في يده . وفجأة أصبح بعيدا بعقله عن كل شيء . هذا هو أوان البرهنة على حقيقة معدنه . عاد إلى حجرة النوم . كانت عيناه قد اعتادتا على الظلام الآن ، وكان ثمة شعاع من الضوء يتسلل من وراء الستائر هابطا من إعلان ضوئي في الشارع . إن بوسعه أن يحدد مكان رأس سايمون على الوسادة وأن يسمع تنفسه الهادىء الرتيب . ابتسم ، وشعر بدفقة دافئة مفاجئة من القوة ، من السعادة . رفع المدق بعناية وهبط بكل قوته . شعر بالأداة تخبط العظم . وشعر بالعظام تتكسر تحت وطأة الضربة . وبدا له أن سايمون يقفز في مكانه ، ثم رقد ساكنا . جذب آرثر الغطاء ثم سجاه فوق رأس سايمون ، وتحسس شكل الرأس تحت الغطاء . ثم ضربه مرة أخرى ومرة ثالثة . وغاصت الضربة الثالثة بالمدق إلى الداخل ، كما لو كان يضرب برتقالة لينة .

وفجأة شعر بشيء غريب ، شعر بإحساس شبيه بإحساس الطفل . أراد أن يقول : « أنا آسف . لم أكن أقصد هذا . كل شيء على ما يرام . أليس

كذلك ؟ » كبت داخله هذا الشعور وأحس بالغثيان . اندفع إلى الحمام وتقيأ حتى أفرغ كل ما كان في معدته . وركع في مكانه مسندا صدغه إلى الحوض البارد . وحينما شعر بالتحسن . غسل الحوض ، ثم أضاء النور . فاكتشف أن يديه كانتا ملوثتين بالدم : لم تكونا مخضبتين بالدم ، كما كان يتخيل يدي القاتل على الدوام ويتخيل صورتهما التي لا بد منها ، ولكنهما كانتا ملوثتين تلوثا بسيطا فقط . كما لو كان قد أمسك قطعة لحم من ذبيحة حديثة عند القصاب . اغتسل بعناية ، ثم ذهب فارتدى ملابسه . عثر على المدق ، فعاد وغسله في الحمام وجففه بإحدى المناشف قبل أن يعيده إلى الحقيبة . ولم ينظر مرة ثانية إلى الجسد المسجى في الفراش . وفتش المكان بعناية لكي يتأكد من أنه لم يترك شيئا وراءه . ووضع في حقيبته الكأس والشوكة والسكين التي استخدمها ، ثم أمضى خمس دقائق في مسح سطح البار وكل سطح ناعم آخر يمكن أن يكون قد لمسه . ولم يكن سطح جهاز التليفزيون هاما في هذه العملية ، فمن المتوقع أن تكون بصمات أصابعه عليه لأنه قام بإصلاحه في المساء .

كانت ساعة ما تدق الخامسة حينما كان يغادر الشقة . لم يكن قد بحث عن نقوده . وإنما أراد فقط أن يبرح المكان بأسرع ما يمكنه . وفي الخارج كان النور يشق الظلام بخفة . فشرع يسير عائدا إلى فوريجتون . وكان في منتصف الطريق إلى هناك حينما تذكر أنه كان قد أخبر تاجر نيبات بأنه ينوي أن يسرق شقة رجل أعمال ثري في « جريب ستريت » . لقد أخطأ موريارتي خطأ فادحا مرة أخرى .

الفصل التاسع

كان من الغريب أن يستيقظ في الصباح التالي فيتذكر أنه أصبح قاتلاً . وكان أول ما فعله هو أنه راح يراجع كل تحركاته قبل أن يغادر الشقة لكي يتذكر إن كان قد ترك أي شيء وراءه ، إن كان قد خلف أي دليل يرشد عليه . وحينما شعر بأنه لم يترك مثل هذا الدليل ، زال كل قلقه . ففي نور النهار الواضح لم يكن ثمة مجال للندم ، على العكس ، كان هناك إحساس معين بالفخار والزهو . كان لديه ما يبرر قتله بانكس ، فان الأرض جديرة بأن تكون مكاناً أفضل لو اختفى منها كل الرجال من أمثاله وماتوا . ولكن الشيء الذي أخافه حقاً ، وتسبب في إحساس بالتقلص في معدته ، شعوره بأنه يقلع الآن في وسط البحر بعيداً عن الشاطىء . بعد أن كف عن أن يكون طفلاً يستطيع دائماً أن يتراجع فيحتمي بعش آمن من الخيالات الوهمية . لم يكن قد فعل شيئاً حتى ذلك الحين فشعر بعد فعله أنه شيء لا يمكن التراجع عنه أو النكوص أو ايجاد العلاج له . فان أعمال السطو يمكن أن تفي بثمنها سنتان يقضيهما في إحدى مدارس الاصلاحيات إذا وصلت الأمور إلى أسوأ حدودها . ولكن ثمن جريمة القتل لا بد أن يكون سنوات عديدة يقضيها في السجن ، سنوات أكثر بكثير مما كان على استعداد لأن يقضي بعيداً عن العالم مهما كانت الظروف . إن عالم البالغين الشرس كان منفتحاً أمامه ينتظره ولا مناص من التقدم إليه ، ولا مهرب منه إلى الوراء .

كان مستعداً لأن تستجوبه الشرطة . فقد كان بوسعه أن يتوقع أن يكون

موضع شبهة بشكل طبيعي . فان الخادم يمكن أن يذكر أنه كان في الشقة عصر ذلك اليوم ، وأنه تركه وحيداً مع بانكس . ولا شك أن بانكس كان معروفاً بوصفه ممارساً للشذوذ الجنسي . وكان أول ما ينبغي عمله هو أن يتخلص من المدق الذي يمكن أن يفحص بحثاً عن آثار دماء . ولم يكن في ذلك مشكلة مستعصية . وفي خلال ساعة من استيقاظه كان قد أسقط المدق في القنال ، مع الشوكة والسكين . وحطم الكأس وألقى بشظاياه إلى جوار أحد الجدران . وكان قد قرر أن تكون حجته هي أنه قد أمضى الليلة في دار للسينما . وكانت الدار المحلية تعرض فيلم « هذا المسدس للايجار » الذي يمثل دور البطولة فيه « آلان لاد » وكان قد رآه مرتين .

ولكن هذه الحجة لم تستخدم على الاطلاق . ففي الأسبوع التالي ، قال له مالك محل اصلاح أجهزة التليفيزيون : « هل رأيت في الجريدة أن هذا الرجل بانكس قد قتل ؟ »

وشعر آرثر بأنه قد تصرف بذكاء لامع مدهش حين قال : « ماذا ؟ متى ؟ » وحينما سرد عليه مالك المحل كل ما ذكره من تفاصيل قال مختتماً حديثه :

« من المضحك تماماً أنه هتف لي بالتليفون لكي يخبرني بالعمل الممتاز الذي قمت به في جهازه . حتى أنه أراد أن يعرف اسمك . »

وقد عرف من مفتش الشرطة « كورتوك » في إدارة الشرطة السرية في « الشير » ، أنه بسبب هذه المصادفة السخيفة ، لم يشتبه في آرثر في موضوع هذه الجريمة على الاطلاق . فاذا كان بانكس قد هتف للمحل تليفونياً لكي يسأل عن اسم آرثر ، إذن فمن الواضح أنه لم يكن قد استطاع أن يقيم أي نوع من الصداقة مع آرثر في الوقت الذي أنفقاه معاً في الشقة ، فان أول شيء كان لا بد أن يسأله عنه في تلك الحالة هو اسم آرثر . وكان آرثر قد عاد إلى المحل بعد ما يقرب من عشرين دقيقة بعد أن غادر الخادم الشقة في الرابعة والربع ، ثم خرج لكي يقوم بأعمال أخرى . وكان بانكس شاذاً ، أو « واحداً من هؤلاء الشواذ جنسياً » كما قال مالك المحل ، وكان من الواضح أنه « وضع عينه » على

آرثر . وقال لي المفتش كورنوك : « إن جريمة قتل من هذا النوع لا يمكن حلها أو الوصول إلى نتيجة مقنعة بشأنها . لأن رجلا مثل بانكس تكون له اتصالات لا حصر لها . وهو بإقامته بالقرب من مركز مانشستر ، ربما كان قد التقط شخصا ما من أحد الشوارع ثم أخذه معه إلى بيته . »

لم تشتبه الشرطة إذن في آرثر . ولكن تيبات اشتبه فيه . وقرر آرثر ألا يذهب لزيارته في يوم السبت التالي للجريمة . وكانت هناك مناسبات سابقة أخرى عاد فيها صفر اليدين لأن الشقق التي كان قد قرر السطو عليها كانت مشغولة حين ذهب للتسلل إليها . وزعم آرثر لنفسه أن تيبات يمكن أن يفترض أن هذا قد حدث ثانية . كان من النادر أن يقرأ الصحف ، ومن المحتمل ألا يسمع عن وقوع الجريمة أبدا .

وفي مساء يوم الاثنين ، ذهب آرثر للقيام بعملية اصلاح أحد الأجهزة التليفزيونية بالقرب من منطقة « والتون لي » . وفي طريق عودته لاحظ منزلا لا يصدر عنه أي ضوء . وفي عشرين دقيقة كان قد جمع كمية من المجوهرات . وفي طريق عودته إلى البيت ذهب لزيارة تيبات ، متلهفا إلى التخلص من المسروقات .

نظر تيبات إلى ما حمله آرثر إليه بسعادة وقال :

« غنيمة صغيرة ثمينة . من أين حصلت عليها ؟ »

« من مكان ما في مانشستر .... »

« أوه ، أجل ، هذا المكان في جريب ستريت ؟ »

قال آرثر بسرعة :

« كلا . كان شخص ما في البيت ، فوجدت مسكنا آخر . »

ابتسم تيبات في وجهه إبتسامة مشفقة مليئة بالحزن ، وهز رأسه وقال :

« والآن ، اخرج بما عندك ، يا ولد ... لا يمكنك أن تكذب على صديقك العجوز ؟ »

« ماذا تعني ؟ » .

« أنت تعرف ما أعنيه يا ولدي . فانك لو كنت قد حصلت على هذه الأشياء في يوم السبت ، لكان عليك أن تأتي بها إلي أمس . »

« ليس عليك أن تكذب علي يا ولد . فأنا أقف في صفك . أنا أعرف ما حدث في يوم السبت . »

كان آرثر قد تهيأ للرد على الاتهامات ، ولكن هذا الأسلوب الودي الأبوي جعله يغفل عن حذره ويتخلى عن حرصه المزعوم . وكشف وجهه عما كان يخفيه . كان الرجل العجوز قد تقدم إليه بالاهتمام والتعاطف . قال :

« إنني لست مجرد الشخص الذي يتخلص لك من الأشياء التي تسرقها . أنا هنا لكي أوجهك إلى الطريق الصحيح . ولكي أكون واثقا – وتكون معي – من أنك بعيد عن المتاعب . هذه هي وظيفتي (كانت هذه بمثابة الأخبار الجديدة بالنسبة لآرثر) أعتقد أن الرجل أمسك بك داخل شقته فجعلك تخلع بنطلونك . هه ؟ »

ولكن آرثر لم يسرد عليه الحكاية الحقيقية كلها . وإنما قال له إن سايمون بانكس قد حاول ابتزازه ، وأجبره على الذهاب إلى السرير مهددا إياه بتبليغ الشرطة . وبعد أن اغتصبه بالعنف ، أمره بالعودة في الأسبوع التالي . وأومأ تيبات برأسه في وقار وقال :

« حسنا . لا أعتقد أن بوسعك أن تلومهم . فهذه هي الطريقة التي صنعوا بها . ولكن إذا سامحتني فيما سأقوله يا ولد . فانك ما كان يمكنك أن تفعل أسوأ من أن تظل على علاقتك بهذا الرجل . لقد كان ثريا . وربما كان قد أصبح صلة جيدة لنا ... »

من الواضح أنه كان يفكر في عمليات السطو . ثم أضاف يسأل آرثر :

« وماذا فعلت بالمدق ؟ »

« رميته في القنال . »

هز تيبات رأسه وأخذ يفرقع بلسانه . ثم قال :

« كان هذا خطأ . فلو أنهم قد اشتبهوا بك لسحبوا القنال على طول

عدة أميال . حسنا ، فلنأمل ألا يفعلوا . »

ثم راح يعطي آرثر مقالة طويلة من النصائح التي لا فائدة منها ، مثل تحذيره من أن لا يعترف للشرطة أبدا إذا هم استجوبوه ، ثم تمنى له حظا أفضل في المرة التالية . وحينما غادره آرثر عرف أنه قد ارتكب خطأً جديدا . فان تيباث لم يكن ليهتم حقا إلا بشيء واحد : أن يشدد قبضته على آرثر . ففي خلال الشهور التسعة التي مرت على اشتراكهما في « العمل » لم يلتق آرثر بأي صديق من أصدقائه . وما يزال جاهلا بكيفية أو وقت تخلصه من الأشياء المسروقة التي يأتيه بها . كان الرجل العجوز يعرف متى يفعل ما يريد أن يفعله .

ولكن نصيحة واحدة مفيدة برزت أمام آرثر من خلال الخطبة الطويلة التي ألقاها عليه تيبات : « إذا كنت تريد أن تضرب شخصا لكي تقتله ، فلا تستخدم مدقا . فالمدق يجعل الدماء تتناثر كما لو كانت تستخدم ساطورا . إن أفضل شيء في مثل هذه الحالة هي قطعة من الرصاص ملفوفة في قطعة من القماش السميك ، أو مجرد آلة من آلات العجين ذات مقبض كبير . وإياك أن تحمل شيئا يشبه « الشاكوش » أبدا . »

* * *

في شهر مارس من عام ١٩٥٣ ماتت مالكة منزل تيبات : ودهش آرثر لمقدار حزن تيبات عليها . وفي البداية أمل أن يكون في ذلك نوع من الخلاص . وحينما تحدث تيبات بطريقة محزنة عن احتمال اضطراره إلى الذهاب إلى أحد المنازل المخصصة للعجائز ، وجد آرثر أنه من الصعب أن يخفي ابتهاجه لذلك . ولكن الموظف المسؤول في المنطقة عن إدارة شؤون الأملاك العقارية رتب له بطريقة ما أن يبقى في المنزل ، ووافقت سيدة عجوز في المنزل المجاور أن تطهو له وجبتين كل يوم . وقال تيبات :

« وأعتقد أن آجي يمكن أن تأتي لكي تقوم بتنظيف المكان من حين إلى حين ؟ »

ولكن آجي كانت تبغضه . وقالت إن رائحته تجعلها تشعر بالغثيان . وتعاطف

آرثر معها ، ولكنه أقنعها بأن تساعده . فقد أراد أن يظل على علاقة طيبة بالرجل العجوز حتى تسنح له فرصة الهرب . وبعد أسبوع ، عادت آجي إلى البيت باكية وأعلنت أنها لن تعود إلى هذا الرجل مرة أخرى . فان تيبات قد أمسكها من عنقها وأجبرها على أن تأتي له فعلا قبيحا . وقالت إنها لم تكن تهتم حقا بأن يعبث فيما تحت ثوبها في كل مرة تقترب منه فيها ، ولكن هذا كان أكثر جدا مما يمكن أن تحتمل منه ، وقالت :

« إنه قوي جداً . إن له قبضة كالحديد . وكنت أخشى أن يكسر العظام في رقبتي . »

كان تيبات قد أصبح يشعر بالمجاعة الجنسية . كانت عمليات التحسس والتشمم التي لا تنتهي والتي كان يقوم بها أكثر جدا من أن يحتملها الأطفال الذين اعتادوا الجلوس على ركبتيه . وحتى حين أعلنت أنها ترفض أن يأخذها أحد لزيارته بعد ذلك .

وذهب آرثر لزيارته ولكي يوضح له الموقف . وتوقع من تيبات أن يفهم موقفه . ولكنه دهش حينما رأى الرجل العجوز يتحدث بمرارة مفاجئة وقسوة لا حد لها .

« إنهم جميعا سواء . كل ما يفكرون فيه هو أنفسهم . لا أحد يفكر في أي شخص آخر سوى نفسه . »

وأرعد في وجه آرثر قائلا :

« حسنا : إن عليها أن تعود . يمكنك أن تجعلها تعود . »

« وكيف يمكنني ذلك ؟ »

« لا تحاول خداعي بهذه الأسئلة ! »

وأصبح الرجل العجوز كما لو كان نابوليون يوبخ أحد جنرالاته ، وقال :

« يمكنك أن تجعلها تفعل ما تشاء منها . »

« إنك لا تريدني أن ألومها ثم آمرها بأن تلعقك . أتريدني أن أفعل هذا ؟ »

« بالطبع أنا أريد منك هذا أيها الأبله البليد ! ما الخطأ في ذلك ؟ ليس في هذا أي ضرر بها . كيف يكون تصرفك لو لم يكن هذا لأجلي أنا ... ؟ »

استمر الجدل الضعيف لفترة طويلة من الوقت ، وبدا أن ثيبات قد استسلم لعذابات ما يشعر به من اشفاق على النفس . وألقى ثيبات بتهديداته ولكن بطريقة خفية ، غير أن آرثر كان يعرفه جيدا إلى الدرجة التي تجعله يدرك أنه كان يعني هذه التهديدات تماما . وأخيرا قال :

« حسنا ، إذا جعلتها تعود إليك ، فهل ستتركها وشأنها بعض الوقت ؟ »

وزمجر ثيبات ولكنه وافق على ذلك . وحافظ آرثر على وعده ، فتوسل آجي ، وأوحى إليها بأنها يجب أن تشعر بالاشفاق على الرجل العجوز الوحيد الذي كان يبدو أكثر شبها من نسخة من أبيها ولكنه أكبر في السن جدا . وآتى هذا ثماره . ولمدة أيام قليلة ، حافظ ثيبات هو الآخر على وعده ، ثم أصر على أنه من واجب آرثر أن يجعل الفتاة « تفعل شيئا لأجله » . وحاول آرثر ، ولكن حالما بدأ يقترح على آجي ما أراد ، استيقظت الفتاة من سباتها في حالة اشمئزاز شديد ، ورفضت أن تعود إلى منزل ثيبات مهما كانت الظروف .

واستبد الغضب بآرثر ، وبدا له أن الأمر كله مضيعة للوقت . بل إنه فكر في الهرب إلى لندن مع آجي فيأخذ معه ما وفره من نقود — وهي الآن مبلغ لا بأس به . ولكن هذا المشروع لم يكن قابلا للتنفيذ ما دام ثيبات على قيد الحياة . فلم يكن لدى آرثر أي شك فيما يمكن أن يحدث . فان الشرطة سوف تتسلم خطابا من مجهول حول القاتل الحقيقي الذي قتل سايمون بانكس ، مع إشارة خفية لمسح القنال بحثا عن السلاح . ولم يكن عليهم إلا أن يعثروا على الشوكة أو على السكين — اللتين دمغ مقبضيهما بعلامة ترمز إلى زهرة متميزة — لكي يعرفوا أنهم قد عثروا على ضالتهم . ولم يكن آرثر عارفا بالقانون إلى الدرجة التي تجعله يدرك أن مثل هذا الدليل المستقى من الظروف المجردة وحدها لا يمكن أن يؤدي إلى ادانته .

ومضى يبحث خطط القتل ، ولكنها جميعاً لم تكن بالخطط الجادة . وكانت

الحقيقة الغريبة هي انه كان ينفر من العنف ، وكان لديه نوع من النفور الطبيعي من فكرة القتل في مجموعها . وكانت العقيدة التي خرج واقتنع بها من قراءة كل مجموعة « المحاكمات البريطانية الشهيرة » هي أن القتل دائماً خطأ يقع فيه المجرم . ولم يكن قتله لبانكس سوى خطأ عارض أرغم عليه . ولم يكن أمام ثيبات سنوات كثيرة يمكن أن يعيشها . فرغم أنه لم يكن قد تعدى الخامسة والستين فانه كان يبدو أكبر سنا من ذلك بعشر سنوات على الأقل . وراودته بعض الأحلام عن وضع غاز الاثير في الأنبوبة التي يشم منها ثيبات علاجاً في نوبات الربو التي تنتابه ، أو وضع بعض السموم في طعامه . ولكنه في الواقع العملي كان يعرف أنه يفضل أن ينتظر حتى يموت الرجل العجوز ميتته الطبيعية .

ولكن النهاية ، حينما آن أوانها ، كانت سخيفة وعبثية وغير متوقعة . ففي ساعة مبكرة من مساء اليوم الثالث من أبريل عام ١٩٥٣ ، أمضى ثيبات ساعة كاملة في محاولة اقناعه بأن يأتي بآجي لزيارته . وظل يقول : « دعني أتحدث معها ... » . وكان ثيبات في حالة نفسية جيدة ، إذ كان قد أقنع طفلة من جيرانه بأن تزوره . وكان قد رتب غرفته ونظفها ، وأخفى الوعاء الذي يبصق فيه مخاطه وأبعده عن الأنظار ، ورطب جو الحجرة بشيء من العطور الغازية المضغوطة (مخاطراً بذلك بان يصاب بنوبة ربو) وأخيراً أغرى فتاة في العاشرة من عمرها بأن تدخل حجرته . وكانت النتيجة مرضية للاثنين : فقد رحلت الفتاة بعد أن ربحت عشرة شلنات وصندوقاً من الشيكولاتة ، ووعدت بان تعود مرة أخرى . كانت الأمور تسير رخاء بالنسبة له . وحاول أن يقنع آرثر بأنه لا يريد من آجي إلا أن ترتب له الغرفة وتنظفها حتى يضمن أن تكون الزيارات المقبلة بمثل هذا القدر من النجاح . وكان الصيف الآن مقبلاً ، ورأى أن صحته كانت في تحسن مستمر ، وأنه يوشك أن يحيا حياة جنسية اكثر نشاطاً . وسأله آرثر بصراحة :

« لماذا لا تدفع لاحدى العاهرات ؟ إنهن لا يعترضن على أي شيء » .

وارعد ثيبات شاعراً بالمهانة وقال :

« وأدفع خمسة أو عشرة « أرباع » ! لست جديراً بهذا . وأنا على أي حال لا أحبهن » .

ثم وضع « بطاطسة » مسلوقة في إناء البيرة الذي يشرب منه لكي يأكلها فيما بعد . وأضاف يقول :

« لست واحداً من هؤلاء الأشخاص اللذين يتعرضون للأطفال . إنما أنا رجل عادي ، ولي رغباتي الطبيعية . وأنا لا أوذيهم أبداً أو أنزل الضرر بهم . كل ما أريده هو القليل من الحب . كلنا نحتاج إلى الحب » .

وكان من الواضح أنه مخلص في هذا الكلام . ولكن آرثر قرر أنه لن يقيض له أبداً أن يدرك أسرار خداع الإنسان لذاته . كان يعرف أنه لا توجد فرصة لعودة آجي إلى هذا الرجل ، إلا إذا أرغمها على ذلك قسرا . (الشيء الذي لم يكن ينوي أن يفعله) ، ولكن بهدف أن يحافظ على اعتدال مزاج الرجل ، وعد بأن يذهب إلى البيت لكي يبذل محاولة أخرى . غير أنه حينما وصل إلى المنزل ، كانت آجي قد دخلت إلى فراشها مصابة بنوبة صداع . وكان هذا عذراً كافياً . فعاد إلى منزل ثيبات ، وطرق على الباب لمدة عدة دقائق ، ولما لم يسمع أي أجابة ، دار حول المنزل لكي يطرق الباب الخلفي . وبينما كان يعبر بالمرحاض الخارجي سمع صوت ثيبات يناديه :

« أهذا أنت يا آرثر » ؟ .

« أجل » .

« هل آجي معك » ؟ .

« لقد نامت في سريرها بسبب الصداع » .

وسمع آرثر زمجرة احتقار . ودخل آرثر إلى المنزل وجلس منتظراً . وكان يتساءل دائماً أين يخفي ثيبات نقوده ، وكان يشك في حشية الفراش . وكانت الحجرة الآن خالية ، فرفع الحشية وتحسس تحتها . كان هناك قدر كبير من الأوراق البنية اللون ، كان الرجل قد وضعها هناك لسبب ما ، ولكن لم تكن توجد نقود . وفي تلك اللحظة سمع صوت اغلاق الباب الخلفي . فأعاد ترتيب

الحشية بسرعة وعاد إلى مكانه . ودخل ثيبات وقد بدا عليه الاجهاد والغضب وقال :

« زد النار اشتعالا ، أتسمح » ؟

وجلس على الكرسي ذي المقعدين ، وسقطت عيناه على الفراش . كان الترتيب الذي قام به آرثر قادراً على خداع أكثر العيون ، ولكن لا عيني ثيبات . قال الرجل :

« أهلا ، أهلا ، ما هذا » ؟

« ماذا » ؟

« أنت تعرف ماذا » ! وأشار إلى السرير .

« لا أعرف عم تتكلم » !

ثار غضب الرجل العجوز وقال :

« لا تفعل هذا معي . أنت تعرف بقدر ما أعرف أنا . لست غبياً . حسناً ، أصغ إلي . إن اليوم الذي ستلمح فيه داجر ثيبات يغفل عن شيء هو اليوم الذي ستراه في كفنه » ...

كانت نظرة عينيه المحمرتين البارقة القاسية تخيف آرثر دائماً ، واستمر الرجل يقول :

« لقد اشتركنا أنا وأنت معاً حتى الآن على خير ما يرام ، ولكن إذا حاولت أن تشرع في خداعي فسوف يكون هذا هو نهايتك » .

وشعر آرثر بأنه يجب أن يدافع عن نفسه – مهاجما – بحذر ، فقال :

« يبدو لي أنني أنا الذي ينبغي أن يقدم على الدوام الدليل على أنه شخص موثوق به ، بينما لا أملك أي طريقة لمراجعة ما تفعله أنت » .

« كلا ، ولكنك أيضاً لست قادراً على معرفة الطريق الذي تريد أن تسير فيه » ...

« لماذا لا تثق بي ؟ إذا أعطيتني العنوان ، لاستطعت أن أتخلص من كل شيء دون أن يكون عليك أن ترعج نفسك » .

وقف ثيبات ، وسار نحو آرثر وانحنى فوقه وهو يلمزه في صدره - وكانت هذه هي حيلته المفضلة حينما يريد أن يتسلل إلى قلب شخص ما . وقال :

« سأقول لك لماذا لا أثق بك . لأنني أعرف أنك لا تعاملني معاملة عادلة. لا تقل لي إنك لا تعثر أبداً على بعض النقود حينما تحمل بعض المجوهرات من مسكن ما . إن نساء كثيرات يحتفظن بما يوفرنه من نقود وسط ملابسهن الداخلية . ولكنك واثق تماماً من أنني لم أحصل أبداً على أي شيء من هذه النقود . أليس كذلك ؟ والمفترض أننا شريكان . أتتذكر هذا » ؟

ثار غضب آرثر . كان حقاً أنه كان يضع في جيبه أكثر ما يجده من النقود، ولكنه كان يشعر بأن هذه النقود إنما هي ملك خالص له . كانت علاقته بثيبات لا تتعلق إلا بالأشياء التي كانت بحاجة إلى البيع . قال :

« ولماذا تأخذ منها أنت أي شيء ؟ ليست لك أي علاقة بالنقود » !

« نحن شريكان ! فاذا كان هذا هو الموقف الذي ستتخذه مني ، فان نسبة الخمسين بالمائة ، التي هي نصيبك ، ستضيع منك في غمضة عين . لا تحاول أن تكـذب علي . لقد اعترفت الآن فقط . منذ الآن ، تحتفظ أنت بالنقود ، وأحصل أنا على شبه خمسة وسبعين بالمائة » !

أومأ برأسه لكي يؤكد كلماته ، ثم خطا إلى الخلف وجلس على السرير . ولكنه قفز من مكانه على الفور صارخاً ، وانطلقت من تحته كالقذيفة قطة كبيرة فخرجت من الباب الخارجي . ولم يكن آرثر قد لاحظ القطة جيداً في أثناء دخولها . كان قد ترك الباب الخلفي مفتوحاً حينما دخل إلى المنزل . فلا بد أنها تسكعت إلى الداخل ، فلما وجدت باب حجرة ثيبات مفتوحاً دخلت لكي تشترك في الدفء الذي أشاعته النار . كان منظر ثيبات مضحكاً للغاية بقفزته الوحشية ، حتى أن آرثر انفجر ضاحكاً . واحمر وجه ثيبات من الغضب وأرعد في زئير مخيف :

« لا أستطيع أن أحتمل القطط ! من سمح لها بالدخول » ؟

وكان يزعم دائماً أن القطط هي التي تسبب له نوبات الربو . قال آرثر :

« أنا لم أسمح لها بالدخول . لا بد أنها كانت تتسكع عند الباب الخلفي ، سوف أخرجها » .

وعثر على القطة جاثية عند الباب الخلفي فجعلها تنزلق من فتحة ضيقة فيه إلى الفناء . وحينما عاد وجد ثيبات يسعل ويبصق في الاناء المخصص لذلك . وكانت الحجرة ملأى بالدخان - إذ كان فتح آرثر للباب واغلاقه قد جعلا الدخان يتصاعد من النار ويملأ الحجرة بدلا من النفاذ من المدخنة . وأشار ثيبات إلى الرف الذي كان يحتفظ عليه بعلاجه الداخلي ، فناوله له آرثر . ووقف يرقب الرجل العجوز وهو يسعل ويبصق في الحوض ، جالساً على حافة الفراش . وضاعت محاولاته للكلام في نوبات الفواق والأنفاس الخشنة . وعلى حين فجأة تماماً ، طرأ لآرثر أن الرجل العجوز كان تحت رحمته . لقد كان أكثر قوة من آرثر بكثير لدرجة تمنعه من مهاجمته في ظروف عادية . ولكنه الآن ، وهو يسعل ويتقيأ المخاط في الحوض ، محاولا أن يضغط على أنبوبة الهواء المضغوط بيده الأخرى ، فانه كان عاجزاً بشكل واضح .

كان هذا واحداً من تلك القرارات التي تتخذ في لحظة واحدة ، والتي تتخذ دون أي حساب . كان قد كره ثيبات لمدة طويلة ولكنه ظل يكبت كراهيته حتى أصبح يبغضه بكل ذرة من كيانه . وكان يملك سلاحه في متناول يده . فحقيبته موضوعة وراء الباب - إذ كان قد جاء بشيء قليل من المسروقات قبل هذا - وفي داخلها « مفك » ثقيل ملفوف في منفضة صفراء . لا بد أن ضربة جيدة واحدة يمكن أن تحقق كل شيء . وتحرك بحرص شديد ، حتى لا يجذب انتباه الرجل ، فانحنى فوق حقيبته وأخرج « المفك » . وأمسكه مخفياً وراء ظهره واقترب من ثيبات ، وقد رسم على وجهه تعبيراً يدل على التعاطف المشبع بالقلق ، وقد منحه ثقل « المفك » كل ما هو بحاجة إليه من الثقة . وفي تلك اللحظة كان قد قرر أن يقتل ثيبات ، حتى لو كان معنى هذا أن يخوض معركة يعجن فيها جمجمة الرجل فيحولها إلى هلام معجون بالدم .

ولا بد أن ثيبات قد شعر بشيء يشبه اقتراب الخطر حينما كان المفك

يهبط على رأسه ، لأنه رفع عينيه إلى أعلى ، حتى أن الضربة أصابته على محجر عينه اليمنى بدلا من أن تهوي على قمة رأسه . ولشد ما دهش آرثر حينما رأى أن عيني الرجل ظلتا مفتوحتين ، وشرع في الوقوف ، وقد اندلق الحوض بما فيه فوق ساقي آرثر وحذائه . ووجد آرثر نفسه يضرب بشكل آلي ، بنوع من الرعب ، وهو يسائل نفسه إن كانت للرجل جمجمة معدنية . وبعد الضربة الثانية سقط ثيبات على الفراش ، ولكنه ظل يحاول أن يقسر نفسه على النهوض مرة ثانية . وصوب آرثر إلى الجبهة ، وضرب بكل قوته ، متسائلا إن كان بوسع ثيبات أن يطلق الصرخة التي كانت تبدو وهي تتحشرج محتبسة في حلقه . ولكنه كف عن عد الضربات . وبرز طرف الملك من المنفضة الصفراء ، فسال الدم ، وتوقف عن الضرب . كانت أجفان ثيبات ما تزال تخفق . وكان آرثر يشعر بالغثيان مرة أخرى . كان يخشى ألا يكون لضرباته التأثير المطلوب . وحتى الآن ، بينما كان الاجهاد قد أصابه ، كان الرجل العجوز ما يزال حيا . من الواضح أنه كان غير قابل للقتل .

ومرت عشر دقائق . وبدا أن الرجل العجوز قد فقد وعيه ، ولم يكن من الممكن سماع صوت تنفسه . وكانت الدماء قد جرت في الشق الذي أصاب جبهته فسالت على الغطاء الخفيف المفرود فوق الفراش ، وكانت الكدمات قد بدأت في الظهور . ومع ذلك فقد كان حيا . وفكر آرثر في أن يخنقه باحدى الوسائد ، ولكنه شعر بأن ذراعيه خاليتان من كل قوة . وكان المطر يضرب النوافذ في الخارج ، والريح هبت قوية ، وهبت معها دفقة من دخان نيران المدفأة فملأت الحجرة .

وهز آرثر رأسه فأفاق من سباته القصير . فجأة رأى أن ليس أمامه سوى فرصة واحدة . فاذا مات الرجل العجوز فسوف يكون هو أول من يشتبه فيه .. إلا إذا ظهر موته في صورة حادثة غير متعمدة . كان الوجه مكدوماً ولكنه غير مصاب بجرح بالغ ، والفضل في ذلك إلى المنفضة الصفراء . ولكنه إذا سقط بوجهه في النار ، فمن المحتمل تماماً أن يخنقه هذا الدخان الأبيض ، وإذ ذاك

تكون هناك فرصة طيبة لكي يلوح موته في صورة الحادثة غير المتعمدة .

كانت النار مشتعلة ، وكانت المدفأة واطئة تكاد تكون في مستوى أرضية الحجرة . وزودها آرثر بمزيد من الفحم ، ثم عبر الغرفة إلى السرير . كان خائفاً من أن يقاوم ثيبات مرة أخرى حينما يحاول أن يحركه ، وكان مستعدا هذه المرة لأن يستخدم « الملك » العادي ضده إذا لزم الأمر . ولكنه ثبت له أن هذا لم يكن ضروريا . جره من فوق السرير وعلى أرضية الحجرة ، ملاحظاً التخشب الغريب الذي أصاب ذراعه اليمنى (وهو الأمر الذي أستدل منه أن ثيبات قد أصيب من ضربات آرثر بنوع من النزيف الداخلي في المخ) ثم رفعه قليلاً وجذبه جذبة قصيرة حتى وصل به إلى المدفأة . كان أصعب ما في المهمة وضع وجهه في المدفأة . فرغم أن الجسد كان ساكنا خاليا من الحياة ، فانه بدا كما لو كان يمتلك إرادة خاصة به ، فدار حول نفسه مبتعداً عن المدفأة . ولكن آرثر أنجز غرضه أخيراً بأن جذب إناء المدفأة إلى الأمام باستخدام ملقاط ورغم أن الاناء انحرف إلى الخلف مرة أخرى حينما استقر رأس ثيبات فوقه ، فان الرأس ظل في مكانه .

وقف في مكانه ، يرقب الجسد الممدد عبر أرضية الحجرة ، وقد أحاط الدخان الأبيض بالرأس ، متوقعاً أن يسعل ويتحرك . وكان أيضاً يخشى أن تكون السيدة العجوز في المنزل المجاور قد سمعت الضجة فتنتابها الشكوك . وحينما ظل الجسد ساكنا ، اقترب منه ، وحاول أن يجس القلب ، ثم النبض من عند الرسغ . وعلى قدر ما كان يمكنه أن يعرف ، كان ثيبات ميتا . حاول أن يثني الذراع اليمنى إلى أعلى ، حتى يمكن أن يبدو أن الرجل قد حاول أن يحمي نفسه لحظة سقوطه ، ولكن الذراع رفضت أن تظل في الوضع الذي أراده ، وبدا أن الرأس يريد أن يتزلق مبتعداً عن الفحم غير المحترق . فقرر أن يترك كل شيء في مكانه . وقبل أن يبرح الحجرة ، تذكر غطاء الفراش . كانت هناك نقاط قليلة من الدماء على الغطاء ، فطواه بعناية ووضعه في حقيبته ، ثم مضى في طريقه إلى المطبخ ، ومنه إلى الباب الخلفي .

كان الوقت قد قارب منتصف الليل .

وحينما عاد إلى شارع بينكيث أحرق غطاء الفراش في مدفأة المنزل بزيت البرافين . ووضع بنطلونه في وسط الملابس القذرة المعدة للغسيل ، وغسل حذاءه في الحوض بالماء البارد . وفي الليل استيقظ عدة مرات ، وشعر بشيء ما يغريه بأن يذهب لكي يرى ما حدث لثيبات . ولكنه كان يشعر بشيء كالتقلص كلما فكر في الحجرة التي تركها وراءه . وفي الصباح التالي استيقظ وهو يشعر بالحمى والغثيان ، وظل يتقيأ لمدة نصف ساعة ، حتى بدا له أن معدته تتقلص في انقباضات عصبية متتالية . ثم رقد على فراشه في الغرفة الأمامية وأغمض أجفانه . وفي الساعة الحادية عشرة والنصف دخلت العمة إلزي إلى الحجرة وقالت :

« استيقظ . صديقك مات » !

« ماذا » ؟

« ثيبات العجوز . لقد وجدوه ميتاً » .

« ماذا حدث » ؟

« سقط في النار . يقولون إنه لم يبق في وجهه شيء » .

وأظهر التحقيق أن ثيبات قد سقط منهاراً في النار اثر نوبة ربو متوسطة . ولم يوجه إلى آرثر سؤال واحد .

وبدا له الأمر كله عادياً لم يصل إلى أية ذروة ساخنة . وكان لا بد له أن يشعر بالراحة الهائلة لتحرره من ثيبات . وبدلا من هذا ، شعر بالفراغ .

• • •

لقد بينت من قبل أن وصف آرثر لعملية اغوائه لآجي بدا كما لو كان يشكل نقطة تحول في علاقتي به . وقد حاولت ألا أسمح لهذا بأن يتضح : ضاعت جهودي لكي أجعله يشعر بأنني أفهمه وأتعاطف معه . ولكنني كنت أحس بأنني أسير فوق حبل مشدود ، وهو إحساس لم يكن بوسعي أن أدركه دراكاً كاملا حينما حاولت أن أعقله . فحينما كان قد وصف لي تعلقه

الجنسي المرضي ببولين ، وعملية السطو الأولى التي قام بها وخيالاته الوهمية وغرقه فيها ، وهي الخيالات المتعلقة بكوكب المريخ والكابتين مارتين ، كنت أشعر بأن عملية السرد التي يقوم بها كانت أشبه بعملية التطهر التي تخلفه أكثر قوة وصحة . وقد أشار إلي ذات مرة متضكها بوصفي « كاتب ترجمته » . وكان هذا صحيحاً إلى حد كبير . لقد بدا لي الأمر كما لو أن الكتاب الذي كنت أنوي أن أكتبه عنه سوف يكون في صورة الدفاع عنه ، اعتذاره عن كل ما قدمته يداه ، والتبرير النهائي ، أو التفسير الكامل لكل ما فعله . ولكن بينما استمرت جلساتنا في شهر أغسطس ، كف هذا عن أن يكون صحيحاً . كانت رغبته في الكلام تتضاءل ، وكان يميل إلى تكرار أشياء كان قد قالها من قبل ، أو إلى أن يضيع أمسيات بأكملها في الثرثرة حول ما يحب وما لا يروق له . كان يبدأ بهذا الشكل :

« أتعرف ما هي مشكلة الانجليز . أتعرفها ؟ إنهم أغبياء وكسالى . إنهم يفرطون في الثقة بأنفسهم ولكنهم لا يثقون في أي شيء آخر . هذا الشخص مثلا الذي كان يقوم على إدارة مدرسة إيرلستاو » ...

وطوال الساعة التالية يمضي في سرد الحكايات التي لا معنى لها عن ناظر المدرسة الاصلاحية ، قاطعاً حديثه كل دقيقة لكي يشير إلى أشياء كان قد تحدث عنها من قبل بالتفصيل . أو لكي يقرأ بعض ما يزعم أنها « فقرات فلسفية » من كراسة مذكراته . وكان يقضي أياماً متتالية في وصف كتب بوروز وميريت ، مقتطفاً صفحات بكاملها يقرأها من تلك الكتب من الذاكرة ، مصراً على أن هذا هو « الأدب الحقيقي » ، وليس « الهراء الدعي الذي يعلمونه في المدارس » . وحينما يبدو ساعيا إلى البحث عن براهين يثبت بها أقواله ، أو ساعيا إلى إثارة نوع من الجدل ، كنت أشعر بأنه يمثل دوراً معيناً ، وأنه يحاول أن يخفي شيئاً ما عن عيني .

• • • •

كان يبدو مراوغاً بصورة خاصة حينما كنت أحاول أن أقنعه بأن يتحدث

عن الفترة بين قتل ثيبات ومحاولة الاغتصاب في أواخر عام ١٩٦٣ . وقد اعترف بأنه كان مصابا بحالة انقباض قاسية طوال أغلب العام . وأعتقد أن ما حدث هو أنه قد دفع نفسه إلى بلوغ حالة من الاجهاد العاطفي . كانت السنة السابقة مزدحمة بأحداث أكثر جداً من أن يحتملها صبي في الخامسة عشرة من عمره ؛ ولم يكن يمتلك المصادر التي تمده بالعاطفة أو الإرادة اللازمتين لمواجهتها. وبذلك فبدلا من أن يجتاحه إحساس بالسعادة والتحرر بعد موت ثيبات ، غرق في حالة من البلادة المجهدة ، وشعر باحساس من اللامعنى وافتقاد الهدف . كان بحاجة إلى من يشعره بالراحة ويمده بالمتنفس الذي يحتاج إليه ؛ كان في الحقيقة بحاجة إلى بولين ، ولكنها لم تكن مقيمة في البيت بعد . ولم تكن آجي بديلا عنها ؛ بل إن سيطرته عليها كانت تعني أنه يشعر إزاءها بنوع من الاحتقار لها . وحينما حاولت أن أجعله يتحدث عن آجي ، أصبح مراوغاً ومتباعداً . كان مهتماً بفتاة أخرى ، ذكرته ببولين ، ولكنني لم أعرف اسمها أبداً ، أو ما إذا كان الاهتمام متبادلاً . ولكنني أفترض أنها لم تهتم به . وشعر حينئذ بالانقباض والتعب الدائمين ، وبدا أنه سيتحول إلى شخص هوائي تقوده المصادفات العارضة . وفي شهر فبراير ، سقط إثر نوبة صرع فجرح جبهته جرحاً سيئاً لدرجة أنه احتاج إلى ثمانية « غرز » لخياطة الجرح . ثم سكب بعد هذا ماء مغليا على قدميه فقضى عدة أسابيع عاجزاً عن السير . وقال لي إنه لم يرتكب المزيد من حوادث السطو في خلال عام ١٩٥٣ ، ولكنه اعترف بجريمتي اغتصاب كانت تفاصيلهما شديدة الغموض والتناقض حتى أنني قررت ألا أضمنهما هذا الكتاب : ويبدو أن ثمة شيئاً من الترابط والاحساس بالاثم في الحادثتين .

أما الجريمة التي أدت إلى القاء القبض عليه فقد وقعت في شهر ديسمبر . كان قد تعلق تعلقاً مرضياً بفتاة في الثالثة عشرة من عمرها تسكن في المنزل الملاصق للكنيسة الواقعة في نهاية الشارع، وهي فتاة شقراء نحيفة ضئيلة الجسم تدعى إيريس. كان قد رآها في بعض المحلات؛ وقد بدت له ببساطة جميلة جمالا

رقيقاً ، فبدأت تلعب دوراً في أحلام يقظته الجنسية . وشرع يتخيل أنه لا بد أن تكون ممارسة الجنس مع مثل هذه الفتاة في مثل سنها ، ممتعة للغاية . ولكنه كان عارفا بالخطر الكامن وراء ذلك . كان الآن في السادسة عشرة ، أي أنه قد بلغ السن التي تكفي لكي يعامل قانونيا معاملة بالغة القسوة . فقد كانت هناك حوادث عنف كثيرة جداً يرتكبها الشبان في منطقة مانشستر وكان القضاة يصدرون أحكاماً طويلة جداً .

واحتلت الفتاة أفكاره ردحاً طويلاً جداً من الوقت . وراح يراقب حركاتها عن كثب . وكان والدها يعمل في الليل في أحد المصانع الهندسية في بلدة سالفورد ، وبذلك كان يسمح لها باللعب في الخارج حتى وقت متأخر بعد الغروب . ونادراً ما كانت الكنيسة تستخدم في الأمسيات . فلو أنه استطاع أن يجرها إلى ما وراء الفناء الواقع خلف الكنيسة ، لأصبح في حماية جدار مرتفع ... ولكن المخاطرة بدت له كبيرة جداً . ثم بدا له أنه قد يستطيع أن يتأكد من الظروف مقدماً . وكانت ضابطة المراقبة ما تزال تتردد على المنزل — فقد كانت آخر مغامرات ألبرت تتضمن بيع كمية من الرصاص منتزعة من سقف إحدى الكنائس والتسلل عنوة إلى محل البقالة — وكانت تلاحظ دائماً أن آرثر يبدو عليه الاجهاد وأن صحته في تدهور مستمر . وعندما صرحت بهذه الملاحظة في المرة التالية قال آرثر بكآبة :

« لا عجب في هذا . فأنا لا أجرؤ على أن أطعم شيئاً في هذا المنزل » .

« ولم لا » ؟

« أحدهم يضع السم في طعامي ، فينتابني الغثيان بعد كل وجبة تقريباً » .

ولفترة من الوقت حملت الضابطة كلامه محمل الجد ؛ وسألت آجي إن كانت قد شاهدت العمة إزي وهي تنثر مسحوقاً أبيض على طعام آرثر . وأخبرت آجي العمة إزي بالأمر فواجهت ضابطة المراقبة بهذا الحديث وقالت شاعرة بالمهانة :

« إما أن يكون معتوها ، وإما أن لديه أسباباً تدفعه إلى الادلاء بالأكاذيب » .

وقالت السيدة العجوز ذات الشعر الرمادي :

« أوه ، ولكنني واثقة من أنه لا يكذب عامداً . إنه مصاب بمرض عقلي » .

وحينما أبلغ هذا التصريح لآرثر عرف أنه قد وصل إلى هدفه . وذات مساء ، بينما كان يسير في شارع بيكيت عند الغروب ، رأى الطفلة تقطف زهرات « سانت ميشيل » من الفناء اللذين يحيط ببناء الكنيسة . كانت بمفردها ولم يكن أي شخص قريباً منها . وقف يراقبها ثم قال :

« هناك زهرات أجمل من هذه في الفناء الخلفي » .

ابتسمت له وقالت :

« حقاً ؟ ألن يهتم أحد بذلك » ؟

« لا أظن هذا » .

« سأذهب لأنظر في لحظة واحدة » .

وأسرع هو عائداً إلى البيت . كانت حقيبة أدواته في حجرة الجلوس ، وكانت العمة إلزي وإحدى جاراتها جالستين هناك . كان من المحتمل أن تراه المرأتان لو أنه اندفع إلى الداخل فاحتمل الحقيبة . ولكن كانت هناك قطع مسطحة من الحديد على رف المطبخ ، فحمل واحدة منها ، وأخفاها في جيبه ، وعاد إلى الشارع . وكانت الطفلة ما تزال هناك . وقف على الجانب المقابل من الشارع لكي يراقبها . وفجأة ، اختفى شعوره بالضجر والتعاسة . كان هو الصياد ، يشحذ كل مواهبه وقدراته من أجل الانقضاض على الفريسة .

كان الظلام يهبط بالتدريج . فلو أنها بقيت لمدة عشر دقائق أخرى ، فربما خاطر بمهاجمتها أمام الكنيسة . انتظر لحظة ، ثم عبر الطريق . سار ببطء على طول الرصيف المرتفع ، ونظر إلى ما وراء الناحية . كانت واقفة وقد أولته ظهرها ، تحاول أن تكسر غصناً من شجرة غار صغيرة . أخرج قطعة من الحديد

من جيبه وقفز إلى الأمام . ولكنه لم يكن قد لاحظ القضيب الحديدي المنحني الذي كان بارزاً من زاوية مبنى الكنيسة مغروساً في الأرض — وهو نوع من الدعامات القديمة . وتعثر . ثم استطاع أن يستعيد توازنه ، ولكنها كانت قد حصلت على الوقت الكافي لكي تلتفت ناحيته . ولم يكن قد تبين من قبل أن بوسع طفلة أن تصرخ بمثل هذا الصوت المرتفع . رفع قطعة الحديد وضربها على جبهتها ، فسقطت على الأرض . ولكنه أصبح قادراً على أن يسمع شخصاً ما يصيح بالفعل : « ما هذا » ؟ وبعد لحظة صاحت امرأة تقول له : « إدريس » ! . وجرى إلى الجانب الآخر من الكنيسة فقفز فوق السور الواطىء الذي يفصلها عن الطريق الرئيسي . وأبطأ من خطوه عامداً بينما كان يسير في الشارع المضاء بالمصابيح ، وقلبه ينتفض ويضرب بعنف .

وحينما عاد إلى المنزل بعد نصف ساعة ، عرف أنه قد وقع في خطأ ما . كان هناك شخصان أو ثلاثة ينظرون إليه . وكانت الشرطة بانتظاره . وقالت العمة إلزي :

« ماذا فعلت بتلك القطعة من الحديد » ؟

« حديد ، لا أعرف عم تتحدثين » .

ولكن لم تكن ثمة فائدة . كان هناك خادم عجوز قد وقف يرقبه من إحدى النوافذ بينما وقف هو يرقب الفتاة منتظراً أن تذهب إلى الفناء الخلفي ، وقد رأى الخادم الانتفاخ في جيبه حينما كان يقف هناك ، ورأى أنه كان يرقب الطفلة . ولم تستطع الفتاة نفسها أن تتعرف عليه بوصفه الشخص الذي هاجمها — وقالت إن الهجوم والضربة حدثا بسرعة شديدة — ولكن كان بوسعها بالطبع أن تقول إنه نصحها بأن تذهب للبحث عن أزهار أجمل من الفناء الخلفي للكنيسة . وقد انتابتها الشكوك حينئذ ، لأنها كانت تعرف الفناء الخلفي معرفة أفضل بكثير من معرفته هو به ، وكانت تعرف أنه لا ينبت سوى بعض الأعشاب وشجيرات الغار الصغيرة .

* * *

وكفل له « التأمين » الذي اتخذه من قبل حماية كاملة . فقد شهدت ضابطة المراقبة بأنه كان يعاني نوعاً من الانهيار العقلي لمدة أسابيع قبل حادث الهجوم على الفتاة ، وأنه كان يرفض أن يأكل معتقداً أن طعامه كان يسمم باستمرار . واستخدم الدفاع مسألة « بيته وتربيته السيئة الحظ » كما استخدم قصة سوء ادارة العم ديك وسوء تدبيره لميراثه الضئيل واغوائه لشقيقته بولين ، وسرد الدفاع كل ذلك أمام المحكمة .. كان المبرر لسرد هذه القصة هو أن آرثر كان واقعاً تحت نوع من التوتر العقلي بسبب خوفه من اقتراب خروج العم ديك من السجن في « ستربنج وايز » . وقال القاضي إنه لا يستطيع أن يرى السبب الذي يجعل مثل هذا القلق يتخذ شكل مهاجمة طفلة بنية قتلها أو اغتصابها ، ولكنه كان متعاطفا معه بشكل عام . ولحسن الحظ ، لم تكن الفتاة قد لقيت ضرراً يذكر باستثناء دم بسيط في الجبهة . ووضع آرثر تحت المراقبة لمدة أطول ، بشرط واحد ، هو أن يخضع للعلاج النفسي .

الفصل العاشر

لم أحصل على قصة محاولة الاغتصاب من آرثر نفسه ، وإنما من ضابطة مراقبة الأحداث ، مس رامزي التي كانت قد تقاعدت بعد إحالتها إلى المعاش واستقرت في بلدة بلاكبول . كانت حكاية آرثر لهذه القصة مراوغة ومضطربة ، وكان بوسعي تماماً أن أدرك السبب في هذه المراوغة وذلك الاضطراب . فلم تكن هذه الحادثة مما يهم بأن يتذكره حتى ولو كان قد استطاع أن يخدع الشرطة بشكل من الأشكال .

وبدا لي أن هذا هو تفسير الفشل النسبي الذي لقيته جلساتنا في أثناء الأسبوعين الأولين من شهر أغسطس . لقد بدأت حياته العملية في التدهور منذ ذلك الحادث ، وفقد « أستاذ الجريمة » قدرته الحساسة ، فسمح لنفسه بأن يقبض عليه في أثناء قيامه بحادثتي سطو صغيرتين وفي أثناء محاولته لخداع بعض ربات البيوت . ثم وقعت « الجريمة العاطفية » ، وهي قتل فتاة ذكرته بشقيقته ، ثم ما تلا ذلك من قتل مزارع عجوز في أثناء محاولة السطو على منزله ، ثم الانهيار التدريجي . أجل ، لقد أمكنني في ذلك الحين أن أفهم ذلك الانهيار . لقد سقطت مطامحه العظيمة في شرك إحساسه بالضجر والحقيقة والواقعية المهينة . وهذا هو بالتأكيد ما يوضح السبب الذي دفعه إلى تمثيل ذلك الدور المتقن الذي كان يتظاهر فيه بأنه أكثر غباء من حقيقته ؛ فلا بد أن هذا الدور كان يزوده بقدر معين من الاقتناع باحساسه بأنه ما يزال الموهبة العظيمة التي يجهلها سجانوه ، كما لو كان صورة من « نيشاييف » القادر الذي يخطط للضربة الحاسمة التي سوف تقصم ظهورهم ...

كانت مهمتي الآن ، كما نيتها ، هي أن أحاول اقناعه بأن ينهض لمواجهة الحقيقة ، حقيقة فشله في تحقيق الحلم بأن يكون مجرماً عبقرياً . كان علي أن أجعله يرى أنــه كان ضحية للمجتمع كله ، وأن يوسع المجتمع حتى في هذه المرحلة المتأخرة أن يقدم لــه التعويض المناسب . كانت الحرب قد حرمته من والديه ومن كل مأوى آمن ، ومن طفولته ذات امكانيات الطبقة المتوسطة التي كانت حقاً من حقوقه بحكم مولده . فماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه كان قد بقي في « بارنيت » ، ولم تقم الحرب قط ؟ كان الأكثر احتمالاً أنه سيتفوق في المدرسة ، فيحصل على منحة دراسية من احدى الجامعات ، وربما حول خياله القصصي في اتجاه الكتابة . وكان علي أن أجعله يرى أنه لم يتأخر جداً وأن الزمن لم يسبقه نحو تحقيق تلك الخاتمة . وأن مثله الأعلى المتجسد في فكرة « أستاذ الجريمة » لم يكن سوى حلم يقظة في أحلام الطفولة ، وأنه يمكن فهم هذا الحلم فهماً كافياً في سياقه الزمني والمكاني . ولكن إلى أين قاده هذا الحلم في الحقيقة ؟ إلى هذا الزقاق المسدود من الصعلكة الاجرامية . لقد ارتكب جريمة القتل « أربع مرات . ولكنه كان في سن أقل من الرشد حينما قتل بالكس وثيبات ، كانت هاتان من جرائم ما قبل النضوج . وكان قد دفع ثمن قتل المزارع ثماني سنوات من حياته . وبذلك تبقى « الجريمة العاطفية » . كان ما فعله بشأن هذه الجريمة هو مسؤوليته الخاصة . وكان إحساسي الخاص هو أنه لو تم علاجه بشكل كامل فربما أمكن اقناعه بالاعتراف بهذه الجريمة . وبالنظر إلى تاريخه السابق ، فسوف يكون من المحتمل تماماً أن يقبل دفاعاً يقوم على أنه ارتكب تلك الجريمة حينما كان توازنه العقلي مختلاً بصورة كاملة . فاذا اعترف بها الآن — حينما كان الوقت ما يزال في صالحه — فسوف تكون هناك فرصة طيبة أمامه للافلات من حكم بالسجن لمدة أطول . وحينئذ ستكون أمامه الفرصة الملائمة لاعادة بناء حياته ، من خلال ابعاده عن أحلام اليقظة العصابية التي تجعله منقسم الشخصية مصابا بجنون العظمة والاضطهاد وحالات

الانقباض المبالغة . بل إنه لن يكون هناك ما يمنعه من أن يتزوج فينجب أطفالاً .

. . .

كان يوم الخامس عشر من شهر أغسطس يوماً عاصفاً مرعداً كئيباً . وكانت الشجيرات والأعشاب الطويلة التي تظلل المجرى المائي الصغير في نهاية حديقتي تتمايل بشدة تحت عصف الريح . جلست هناك على مقعد طويل في مقابل زوجتي ، التي كانت منهمكة في أشغال أبرتها . وكان من عادتي أن أتحدث معها عن مشاكلي ، وخاصة عن آرثر ليتجارد . وقد بدا لي أنني وهو كنا نسجل مرور الأيام منذ وقت طويل . وشعرت بأنه كان يكافح ضدي . قلت :

« لا يمكنني أن أفهم لماذا لا يثق بي » .

« ربما كان لا يضمن أن يثق بك » .

« لماذا » ؟

دق جرس التليفون في هذه اللحظة ، وأجاب عليه ابني الذي يبلغ من العمر عشر سنوات .

قال : « إنه مستر سليسور يطلبك يا أبي » .

لم أنظر إلى زوجتي وأنا أهب واقفاً . كنت أشعر بأنني مشغول الذهن .

قال فرانك سليسور — مدير سجن « روزهيل » : —

« أخشى أن تكون هذه أنباء خطيرة . لقد هاجم ليتجارد أحد الحراس . وكان علينا أن نضعه في قميص المجانين . أيمكنك أن تأتي إلى هنا فوراً » ؟

« هل الحارس بخير » ؟

« لقد نجا بأعجوبة . فقد طعن في مؤخرة عنقه » .

حاولت أن أتخلص من شعوري بالانقباض والألم وأنا أقود سيارتي إلى « روزهيل » . لم أكن قد رأيت آرثر ليتجارد منذ يومين . وكانت مقابلتي الأخيرة

معه غير مرضية . كنت أشعر بأنه ينكص على عقبيه هاربا إلى داخل نفسه ، وتساءلت إن كان السبب المحتمل هو أنني أسرف في مقابلته . ولذلك قررت أن أتركه لمدة أسبوع . لكي أتركه يفكر فيما كان قد حكاه لي ، وحتى يعقد عزمه على مقدار ما يريد أن يزيد من تفصيلات أخرى . وكان علي أن أقنع نفسي بهذا . كان لدي شعور ما يقول لي بأن هذه ليست سوى أحد أنواع المراوغة . وقد عرفت الآن أن غريزتي كانت على صواب .

كان مدير السجن ينتظرني عند البوابة . وبينما كنا نمر بنافذة غرفة الحجر ، رأيت أن المساجين الآخرين كانوا واقفين في مجموعات يتبادلون الأحاديث ، ولا يبدو أن أحدا منهم يتفرج على التليفزيون . ومن الواضح أن انفجار لينجارد الأخير قد زودهم بالمادة الملائمة للاشاعات والثرثرات التي لا تنتهي .

ذهبت لرؤية الحارس الذي كان راقداً في فراشه في منزل المدير . كانت السكين قد نفذت من الجزء اللين من الكتف وهتكت الياف العضلة . ولا شك أنها كانت طعنة مؤلمة ولكنها ليست خطيرة . كان اسم الحارس « هيامز » ، وهو رجل متوسط العمر كان على علاقة طيبة مع المساجين ويحبونه إلى درجة معقولة . وكان ينادي لينجارد باسمه الاول على سبيل رفع الكلفة .

وبدا لي أن آرثر قد سمح له بقراءة كراسة مذكراته — فقد كان لهيامز مطامح أدبية غامضة . ولكن حدث منذ ليلتين أن خرج آرثر من المرحاض فوجد هيامز يحاول أن ينظر في شيء ما كان آرثر قد كتبه ولم ينته من كتابته . فاختطف منه الكراس ونعته بالجاسوس . واعتذر هيامز وهدأت ثائرة آرثر . وفي اليوم السابق كان مكتئبا وهادئا ، ولكنه لم يتكلم كثيراً . ولكن كان من الواضح أن يستخدم قطعة صغيرة من الحجر الذي يستخدم في شحذ الأدوات القاطعة لكي يحول مقبض إحدى الملاعق إلى سكين . وقد غرس هذا النصل الذي استخدمه كسلاح في ظهر هيامز أثناء خروجه من حجرته حاملا صينية الطعام .

وكان هيامز يبدو شديد الشحوب والتعب ، وكانت أسباب هذا واضحة

ومفهومة . كان طبيب السجن قد فرغ لتوه من تضميد جرحه ، وأكد أن الجرح ليس خطيراً ، ولكن الحارس كان يعاني من الصدمة . سألت هيامز :

« هل رأيت أي شيء في كراسة المذكرات يفسر السبب في شدة غضبه » ؟ .

« كلا . إنما بدا لي ما قرأته شيئاً في صورة قصيدة باللغة الكاتبة اسمها « استعدادات من أجل جنازتي » . ولم أستطع أن أرى فيها شيئاً سيئاً » .

سألت المدير :

« ألا تعرف إن كان قد مزق القصيدة » ؟

« لقد حاول تمزيقها . ويبدو أنه شرخ الصفحات بالسكين . إنها هناك » .

كان القول بأن آرثر قد شرخ الصفحات بالسكين تقليلا لما حدث للأوراق . فقد بدا أنه تمكن من تحويلها إلى كومة من القطع الصغيرة ، اكثرها يبدو في صورة نثار الزجاج المكسور ، على شكل مثلثات طويلة مدببة . نظرت إلى الكومة ذات الشكل الغريب متزعجاً . فاذا كان قد أراد أن يدمر الأوراق فلماذا لم يلق بها في المرحاض ويسكب عليها الماء ؟ .

صدمت حينما رأيت آرثر لينجارد . كان وجهه مصاباً بأكثر من جرح وكدمة بشكل سيء . وقد استلزم الأمر استخدام ثلاثة حراس للسيطرة عليه . وقد أدوا مهمتهم بخشونة شديدة ، معتقدين أنه قد قتل هيامز — وكان آرثر راقداً على سريره وقد ربطت يداه وتصالب ذراعاه على صدره ، وقيدت قدماه أحداهما إلى الأخرى . ولكن عينيه كانتا كئيبتين في لون الرصاص . كان كل ما فيهما من ذكاء قد تلاشى . وكان يتنفس بطريقة غير منتظمة أنفاساً قصيرة متلاحقة . وحينما نظرت إليه عرفت أنه قد نكص غارقاً في عالم مظلم ما من عوالمه الذاتية الغامضة . ربما كان يتجول الآن في غابات المريخ » ؟

حاولت التحدث إليه ، ولكن دون جدوى . سألت الحراس عمن كان

معه في غضون الثماني والأربعين ساعة الأخيرة . ولكن لم يكن بوسعهم أن يخبروني إلا بالقليل ؛ فقد كان في أثناء هذين اليومين مكتئباً معتزلاً ، وكان من الواضح أنه يكتب أو يرسم جانبا كبيراً من الوقت . كانت بعض الرسوم متناثرة في الحجرة . وكان اكثرها لنساء ، بعضهن عاريات ، وبعضهن يرتدين ملابسهن . ولكن الشيء الغريب الوحيد في هذه الرسوم هو أنها كانت ممدودة في استطالة متعمدة ، حتى لقد كان من الصعب أن ألاحظ المنحنيات أو النتوءات في الأجساد المرسومة .

لم يكن يمكنني أن أفعل المزيد . فقلت للمدير أن يهتف لي تليفونيا إذا وقعت أية تطورات ، ثم قدت سيارتي إلى البيت في بطء شديد . ماذا حدث ؟ أين كان الخطأ ؟ أين كان الخطأ الذي وقعت فيه ؟

حينما عدت إلى البيت رحت أتأمل الرسوم ، محاولا أن أضع نفسي في مكانه . لقد كان يتحدث معي حديثاً طويلاً ، مرات كثيرة ، عن الجنس . وربما يبدو للبعض أن ما نقلته من حديثه كان مثقلا بتفصيلات لا غناء فيها ، ولكن صفحاتي السابقة ستبدو خالية من الجنس إذا ما قورنت بالتفصيلات التي سردها علي والحكايات التي زودني بها . كان يمعن في وصف التفاصيل الجسدية الدقيقة ، تفاصيل عن الروائح ، والمنسوجات ، وعن أعماله الفعلية التي كان يقوم بها . (ففي حكاية محاولته للاغتصاب ، على سبيل المثال ، نقل لي صورة عقلية لكل تفصيلة من التفصيلات الصغيرة : سروال الفتاة ، وقميصها الداخلي ، ونهديها ، وكثة شعر العانة ، وعدم نمو الجزء الخارجي من العضو التناسلي ، وشحوب فمها ، والعمازات الصغيرة على فخذيها ، بل أكد زعم أن زاوية عضوها التناسلي كانت مختلفة قليلا عن تلك التي عرفها عند آجي أو إيلين جروز) . وقد افترضت أن هذا الاسراف في تذكر التفصيلات — أو في ذكرها — كان راجعا إلى الاحباط ، فقد كان محروما من الجنس عدة سنوات سابقة . ولكن أمكن أن تكون هذه القدرة الغريبة على التخيل ، التي أعانته على أن يقرأ أمامي من الذاكرة صفحات كاملة من كتب ميريت ونوروز ،

قد استطاعت أن تحتفظ بكل تفاصيل تجاربه الجنسية ، حتى أنه لم يكن يحاول في ذكرياته التي سردها علي إلا أن يكون دقيقاً ؟ إذن ، فانه مع مثل هذه الذاكرة القادرة على الاحتفاظ بتفاصيل الماضي ، فان دوافعه الجنسية لا بد قد بلغت درجة مؤلمة من الحدة . كان « محركه » الجنسي قد سخن إلى درجة تهدد بالانفجار . ورأيت في تلك الرسوم محاولة لتبريد ذلك المحرك ، عن طريق تحويل أجساد النساء إلى أشكال مجردة أقرب إلى طريقة موديلياني في رسم نسائه العاريات .

حينئذ بدأت أفهم أول خطأ وقعت فيه . فرغم أنه قد صرح أمامي أكثر من مرة بأن رغباته الجنسية كانت من القوة بحيث أنه كان يريد أن يغتصب كل امرأة في مانشستر ، فانني لم أحاول أبدا أن أدرك هذا التصريح حرفياً . إن رغباتي الجنسية الخاصة طبيعية تماماً ، ولكنها ليست قوية إلى درجة مزعجة . وكنت أحاول أن أفترض بشكل غير واع أن رغباته هو الجنسية تماثل رغباتي . ولكنها لم تكن كذلك ، وانما كانت أشبه بالفرن الدائم الاشتعال ، مسببة ألما حاداً مستمراً . ولم يكن بوسعه أن يتصور أنه من الممكن اشباعها . كانت الطبيعة هي الملومة هنا ، والعالم هو من لا بد أن توجه إليه اللوم . لم يكن خطأه هو أنه امتلك هذا الأتون المستعر بين فخذيه ، دائم التضجر والتوجع ، مشتاقاً إلى أن يتخفف من حرارته وتوتره في السائل البارد بين فخذي إحدى الفتيات . وأنا ، أنا ، كنت ممن يجب أن يوجه إليهم اللوم أيضاً ، لأنني جلست إلى جوار فراشه أسجل الملاحظات . ذلك أنني رغم كل ما تظاهرت به من تعاطف معه ، عجزت أنا الآخر عن الفهم .

• • •

شرعت في العملية البطيئة المؤلمة لجمع شذرات ومزق كراسة مذكراته . كان هذا عملا صعباً إلى درجة لا تصدق ، لأن القطع لم تكن أكثر من مجموعة هائلة من مزق الورق مغطاة بخطوط الحبر الجاف . ولحسن الحظ كانت بعض المزق ما تزال ملتصقة ببعضها . وكان من حسن الحظ أيضاً أن ابني وابنتي كانا

من المتحمسين لحل ألغاز الكلمات المتقاطعة ! وكان باستطاعتهما أن يساعداني ، وإلا لكانت النتيجة هي أن أقرر أن العملية كلها لم تكن أكثر من مضيعة للوقت .

ولكن ما برز أمام عيني في النهاية كان مربكا إلى درجة كافية . كانت القصيدة معنونة : « مذكرات لجنازتي » . (وكان هيامز قد أخطأ في ذكر العنوان) . وكان يبدو أنها قصيدة من الشعر الحر ، كتبت بحروف كبيرة دقيقة ، حتى أن الصفحة الواحدة لم تكن تحتوي على أكثر من اثني عشر سطراً . وكان المكتوب في الصفحة الأولى كما يلي :

« عرفت رجلا يدعى جاك ،
جاك ، جون ، جيمس ، جوك
وكان يراقب الخنافس في سيرها على الأرض
بينما كانت السكين تسخن على النار .
وعض جوك حلمات زو الصغيرة ،
وقطع بالمقص فرج ساره ،
هاو هاو ها هي هي هي
هذان اثنان بدلاً مني .

ولم تكن الصفحة الأخرى مرقمة ، ولذلك فقد كان من الصعب تخمين ترتيبها ، ولم يكن لسطورها من معنى يزيد معنى سطور الصفحة التالية :

« عبر المدبغة إلى الفرح
وصعودا من فرحة إلى « جانيفير »
لن يروق هذا لوارين
لن يروق هذا لوارين
ولا أتوقع أن يروق للوطي
ولن يروق لك أنت أيضا
١١ ديسمبر ١٩٥٩ »

وكانت صفحة أخرى لا تحتوي على غير سطرين يقولان :

« أعط ليولي سكيني
« فسوف تعرف ما تفعله بها » .

أما الصفحة التي كان من المؤكد تقريبا أنها الأخيرة ، فلم تحتو إلا على سطر واحد يقول :

« وقعها جولي جون جاك هي هي هي » .

كان التاريخ هو أول ما جذب نظري . أليس من المفروض أن يقدم مفتاحا إلى شيء ما ، أين كان آرثر في شهر ديسمبر من عام ١٩٥٩ . كانت لدي فكرة غامضة عن أنه كان في السجن في ذلك الحين ، يقضي مدة الحكم الثانية التي حكم عليها بسبب السطو . ولكن مراجعة السجلات أثبتت أنه كان قد أفرج عنه منذ منتصف نوفمبر .

وقررت أنه من المحتمل أن يكون مما يستحق الجهد أن أتحرى الأمر . هتفت بالتليفون لمفتش الشرطة السرية في مانشستر ، المفتش كورنوك ، سألته إن كان يستطيع أن يكتشف لي إن كان لهذا التاريخ أي دلالة عند شرطة مانشستر . هل ارتكبت جريمة قتل في ذلك اليوم ، أو وقعت حادثة سطو سرقت فيها ملابس نسائية داخلية ؟ .

ولم تكن النتيجة مشجعة . ففي خلال ساعة من مكالمتي ، هتف لي تليفونيا ، وكانت الاجابة هي : لا ، على كل أسئلتي .

أرسلت برقية إلى بولين ، وطلبت منها أن تهتف لي تليفونيا . وحينما طلبتني ، أخبرتها بأن آرثر قد سقط ثانية في حالة من التجمد العقلي ، سألتها إن كان بوسعها أن توفر الوقت اللازم لكي تأتي لزيارته ، قالت :

« أأنت واثق أن هذا هو التصرف الحكيم ؟ » .
« لا أعرف ، ولكن الأمل يستحق المحاولة » .
« حسنا . هل ينفع مجيئي في يوم الثلاثاء ؟ » .
وقلت لها إنني موافق

وفي اليوم التالي قابلت بولين على محطة السيارات العامة في دار لينجتون . كنت قد تبادلت معها الحديث مرة واحدة — بالتليفون — منذ مقابلتي الأولى وشعرت بنوع من خيبة الأمل حينما وقع عليها بصري في المرة الثانية ، كانت أكثر بدانة عما كنت أتذكرها ، وبدت لي بشرتها باهتة في ضوء النهار . ولكنني كنت قد نسيت هذا في خلال عشر دقائق ، فقد كانت حيويتها أشبه بتيار كهربائي .

أخبرتها بأمر القصيدة وناولتها لها . كانت هناك صفحتان لم أزل عاجزا عن إعادة بنائهما . ولكني كنت قد استطعت حل « ألغاز » سطرين آخرين يقولان :

« السيدة مــاري مونشيلزيــا
أسقطت أدراجها وأخرجت رعا »

وحينما وصلت بولين إلى هذه الصفحة ضحكت وقالت :

« أنا أعرف موضوع هذه السطور . فقد ذهبت آجي لكي تعيش في مكان يدعى « بوتونموشيلزيا » بالقرب من بلدة ميلستون ، وتزوجت مستشــاراً لمؤسسة هندسية كبيرة . وكان من عادة آرثر أن يدعوها « السيدة مــاري دقمق » .

« أتزوجت آجي ؟ »

لسبب ما كنت أفترض دائما أن آجي قد ماتت ، ولم يكن هذا بالأمر الذي شغلني ملاحقته لأنني توقعت أن يخبرني آرثر بجليته في الوقت المناسب . أضفت أسألهــا :

« متى تزوجت ؟ »

« أوه ، لا أعرف ، دعني أفكر ، لا بد أن هذا قد حدث في عــام ١٩٥٦ تقريبا . ولكنها كانت مخطوبة لهذا الشخص لمدة عامين » .

عامين ، هذا يعود بالتاريخ الى عام ١٩٥٤ ، عندما كان آرثر في السادسة عشرة من عمره .

« ماذا حدث ؟ »

« أوه ، لا أعرف . لقد قابلت هذا الشخص المدعو بريان ، بريان رول ، وأظن أن هذا حدث في حفلة رقص في أحد المنتزهات » .

« إذن فلا بد أن يكون هذا قد حدث في الصيف » .

« هذا صحيح » .

« وكيف كان رد فعل آرثر إزاء هذا ؟ »

« حسنا ، لم أكن هناك حتى أستطيع أن أخبرك بما حدث . لقد كاد يموت من الغيرة . وقد غضبت آجي غضبا حقيقيا لأن آرثر اعتاد أن يهددهــا بقطع عضو هذا الشخص » .

« هذا البريان رول — لم يكن يستطيع أن يكون مستشارا هندسيا في تلك الأيام كما أعتقد ؟ »

« كلا ، كان ما يزال طالبا في معهد مانشيستر للتكنولوجيا . كان ولدا من نوع لطيف جداً — لقد قابلته مرتين » .

« ولكن لماذا لم يستخدم آرثر سيطرته على آجي لكي يفسد هذه العلاقة ؟

« لقد فعل . وكان هذا هو ما جعلها ترحل من المنزل » .

« رحلت من المنزل ؟ »

« أجل ، فقد قابلها الشاب ذات يوم من خروجها من العمل وقال لها : « إنك لن تعودي إلى هذا البيت » وكانت في الواحدة والعشرين من عمرها بالطبع . وقد أصبحت فتاة لطيفة الشكل ، وإن كانت شاحبة » .

« إلى أين أخذها ؟ »

« لكي تعيش مع أمه فيما أظن . إنهم يعيشون في بلدة « نايليزلي » بالقرب من مدينة « بولتون » .

« ألا تذكرين إن كان هذا قبل هجومه على الفتاة إيريس فرانكلين أم بعده ؟ »

« أوه ، قبله فيما أعلم . كنت دائما أظن أن لرحيلها علاقة بهــذا الحادث » .

قلت : « ربما كنت على صواب » .

قدت سيارتي في صمت . إذن فإن آرثر كان قد فقد ابنة عمه الشاحبة حينما تعلق بها طالب في معهد مانشيستر للتكنولوجيا . وهو شاب « لطيف » كان قد عقد العزم على أن يصل إلى هدفه ، وقد وصل إلى هدفه بالفعل ، ولا بد أن هذه كانت صدمة لا يمكن تصورها — فلو أن هناك شيئاً واحداً كان آرثر واثقا منه ، فهو أن آجي لا بد أن تكون بانتظاره لكي تتعاطف معه ، ولكي تسمح له باستخدام جسدها . ولكنها ، وفي نهاية عام من أكثر أعوام حياته تعاسة وكآبة ، هجرته وتخلت عنه . كلا ، لم يكن هذا صحيحا تماما . لقد أوقف الشاب « اللطيف » سيارته وقال لها بقوة : « إنك سوف ترحلين معي . إنك ملكي أنا منذ الآن » وقد كان هو يقصده . ولا شك أن الرجل الشاب كان لطيفا إلى درجة أنه لم يمارس الجنس معها حتى تم زواجه بها .

قالت بولين :

« لم أخبر زوجي بأنني سأجيء إلى هنا » .

« لم تخبريه ؟ أما يزال يبغض آرثر كثيرا ؟ »

« إنه لا يكرهه . أعتقد أن آرثر سوف يخرج من السجن في وقت ما ، أليس كذلك ؟ وأنا غير واثقة من أنني أريده أن يسقط علينا فجأة كلما واجهته المشاكل أو تورط في شيء سيء » .

« هل كان يفعل هذا من قبل ؟ »

« لكي أكون عادلة معه أقول إنه لم يفعل ذلك إلا حينما كان الكيل يفيض به حقا وتضيق أمامه سبل الخلاص . وهو لم يطلب النقود أبدا » .

كنت أقود السيارة ، أفكر فيما تقوله ، حينما طرأ على ذهني فجأة السؤال الذي كان لا بد أن أسأله منذ البداية :

« حينما جاء لزيارتك آخر مرة ... أكان ما يزال مهتما بك من الناحية الجنسية ؟ »

قالت بطريقة عارضة :

« أوه ، أعتقد هذا » .

« ولكنك قلت إن أحدكما لم يعد يحب الآخر منذ غادرت شارع بينكيت ؟ »

« لم يدم هذا إلا فترة قصيرة . فالدم ليس ماء . كان يعرف أنني مغرمة به » .

« ولكن كيف عبر عن اهتمامه الجنسي ؟ »

« أوه ، لا أظن أنه ينبغي علي أن أتحدث عن هذا الموضوع ، مع حالته التي هو فيها » .

« أرجوك ، قد يكون لهذا أهمية خاصة » .

أشعلت سيجارتها الثالثة ، وقالت :

« يا إلهي ، لا بد أنك تظنني لا أحتمل » .

وقهقهت ضاحكة ثم استعادت جديتها وقالت :

« حسنا ، سوف أخبرك . لقد كان في طفولته ولداً شديد العاطفية والحنان — وكان دائما يشتهي القبلات والمناغشات اللطيفة ، وكان دائما يقول : « إنها شقيقتي ، وليست شقيقتك » . وقد اعتاد أن يفعل الأشياء ذاتها حينما كان يأتي لزيارتي — وكنت أقيم ذلك الحين في « ساوثبورت » وكنت أشغل وظيفة رائعة كمديرة لأحد المقاهي ، وهناك قابلت إرني وجورج . قدمت له وجبة طعام ، ثم صعد فجلس في شقتي بالطابق العلوي . كان حينما جاءني في البداية تائها شارد البال . كما لو كان تلميذا تقدم في العمر عن سائر أقرانه ، وأنت تعرف كيف يمكن أن يبدو بشعره المجعد ويداه متشابكتان مستلقيتان بين ركبتيه . ولذلك لم أفعل أكثر من أن جلست على مسند الأريكة التي كان يجلس عليها ، وجريت بأصابعي في شعره وقلت :

« حسنا ، كيف حال صبي البرق ؟ » وكان « صبي البرق » شخصية من الشخصيات الكوميدية الروائية التي كان يقرأ عنها كثيرا . وحينئذ أسند رأسه إلى صدري وأشارت إلى ثديها الأيمن) وقال :

« إنها شقيقتي ، وليست شقيقتك » بنفس الطريقة التي كان يقولها بها في الماضي .

وكان بوسعي أن أتخيل آرثر وهو يحاول أن يعرق بين ذراعي بولين المفعمتين بالأمومة ، لكي ينسى أنه لم يعد بعد طفلا ، وأنه قد ارتكب من الأشياء التي لا يمكن حتى لبولين أن تغفرها له أو تجد له ما يبرر فعلها . ثم استأنفت بولين كلامها قائلة :

« حسنا ، ثم وضع يده في حجري ، ولم أهتم أنا لذلك . وبعد برهة ، حاول أن يدس يده تحت ذيل ثوبي وأن يرفعها إلى أعلى . قلت له : « هاي ، هذا يكفي » فقال : « إنما أردت فقط أن أرى إن كنت ما تزالين تحبين السراويل ذات الحواف المزركشة » وأنت تعرف أنه كان مهتما على الدوام بالسراويل ، ولذلك فقد قلت له شيئا مثل : « ليس هذا ما يفعله الاخوة بأخواتهم » . فقال : « حسنا . هذا هو ما كنا نفعله دائما ، أليس كذلك ؟ » حسنا ، ولكي أختصر لك الحكاية ، فقد انتهينا بالنوم على الأريكة .. وقال :

« إفعلي كما كنت تفعلين في الماضي يا بولي » . وهكذا فعلت . لقد تظاهرنا بأننا ما نزال ننام على سرير واحد كما كنا نفعل في الماضي . أنا أعرف أنك لن تصدق هذا ، ولكن المسألة لم يكن فيها الكثير من الجنس بقدر ما كانت نوعا من الحنان العاطفي . أو هذا ما كانته بالنسبة لي على أي حال . كانت محاولة بذلتها لكي أعيد إليه ثقته بي وبنفسه ، ولكي أجعله يشعر بأنه أحسن حالا . فقد كان بوسعي أن أرى أن معنوياته كانت هابطة تماما » .

أجل كان بوسعي أن أصدق ما قاله لي . فقد كان هذا هو السلوك النموذجي لبولين . كانت تعرف أن معنويات أخيها هابطة ، فبدا لها أن من حسن الذوق أن تقدم إليه ما لديها دون احساس بالعار أو الخجل . وقد كانت جديرة بأن تمنح جسدها بنفس الطريقة لأي رجل يحتاجه احتياجا حقيقيا . دون أي تعهر أو ابتذال سوقي . سألتها :

« هل كان هذا يحدث كثيرا ؟ »

« أوه . كلا . لقد حدث مرة أو مرتين ، وهذا كل شيء . وكانت آخر مرة حينما أخبرته بأنني أنوي أن أتزوج جورج » .

« ظننت أنك تزوجت إرني ؟ »

« لقد فعلت . ولكنني فضلت في البداية فكرة الزواج من جورج » .

« وبذلك فانك وآرثر لم تمارسا فسق المحارم الحقيقي أبدا ، ليس بالمعنى الفني الدقيق . هه ؟ »

« كلا . لم نفعل ذلك أبدا . ولكن إرني لم يصدق هذا أبدا . فان تلك المومس الصغيرة جين قد وسوست في أذنه ببعض الكلمات » .

• • •

وهكذا حصلت على مفتاح آخر لفهم السنوات الأخيرة من حياة آرثر : محاولة العودة إلى العلاقات القديمة ، إلى ذلك الأمان الأسمى الذي يتجسد في ملاطفات ذراعي بولين . ولقد أراد أن يمتلكها - مرة واحدة فحسب . لقد أراد أن يشعر بأن بولين ملكه هو ، وبأنها قد سمحت له بأن يمارس تلك الحرية النهائية المطلقة التي سمحت بها للعم ديك . ولكنه - أيا ما كانت الأسباب - لم يحقق ما أراده من ذلك أبدا . وإنني بمعرفتي لبولين ، لا أستطيع أن أصدق أنها كانت سترفض أن تمنحه تلك الفرصة لو عرفت أنها مسألة على هذه الدرجة من الأهمية بالنسبة له . لقد ذكرت ما قاله لي آرثر عن شعوره في تلك الأيام الباكرة الأولى من أنه كان الزوج الحقيقي ، وأن العم ديك لم يكن سوى العشيق المغتصب .

وعرفت مرة أخرى بثقة كاملة أن بولين كانت - بشكل ما - هي المفتاح الصحيح لفهم حياة آرثر لبنجارد كلها . ربما لم تكن هي المفتاح الصحيح الوحيد ، ومع هذا فانها أحد المفاتيح البالغة الأهمية . كانت تجسد وترمز إلى شيء شديد الأهمية بالنسبة لآرثر : الأم الأولى المبدئية التي تعرف كل شيء والتي سوف تغفر كل شيء .

وجعلني هذا الإدراك أسأل بينما كنا نقترب من بوابات سجن «روزهيل» :

« هل اعترف لك آرثر أبدا أنه قد ارتكب جريمة قتل ؟ »
بدت عليها الدهشة وقالت :
« كلا . لقد كان أبعد جدا من أن يفعل ذلك » .

هكذا إذن لم يخاطر آرثر بأن يخبرها بكل شيء . ولكنه قد قال « لي » بعد أن عرف أنني لا بد سأرى بولين ، كذلك تساءلت فجأة إن كنت قد اندفعت بعيدا عن الهدف المقصود ، أو ما إذا كان ذلك نوعا من الاستبصار الأساسي . لقد أخبر بالحقيقة شخصا ربما أوصلها إلى بولين ...

رأيت طبيب السجن حينما خرجت من السيارة . سألته :
« كيف حاله ؟ »
« يبدو أنه يكرر نفس الدائرة القديمة . إنه في حالة قلق داخلي منقبض . ولكنها ليست حادة حتى هذه اللحظة » .

لاحظت أن بولين حاولت أن تبدو متماسكة مسيطرة على نفسها وهي تدخل حجرة آرثر . ولكنها كانت متوترة وكانت يدها ترتعد بشدة لدرجة أنها طوحت سيجارة كانت قد أشعلتها لتوها منذ قليل .

قال الطبيب :
« ما زال لم يأكل حتى الآن . فإذا استمر الحال على هذا مدة أطول من هذا ، فأظن أننا سنكون مضطرين إلى إطعامه بشكل أو بآخر » .

وكان يعرف أنني لا أوافق على ذلك ، وبوجه خاص في حالة آرثر . إن أنبوبة تولج عنوة في حلقه قد تذكره بعضو سيمون بانكس أو بعضو هاري تيبات .

كان ما يزال مرتديا قميص المجانين ، راقدا وقد أولى الباب ظهره . لم يتحرك حينما دخلنا الحجرة . دارت بولين حول السرير حتى استطاعت أن ترى وجهه . ثم بدت عليها الصدمة . وأدركت السبب . قلت لها :
« لا ينبغي أن نفترض أنه في حالة أسوأ من حالته الحقيقية . إنه يسترد قواه بسرعة كبيرة . وأظن أن جسمه يميل إلى أن يعكس حالة عقله وما يدور

فيه بسرعة وشدة أكبر مما يحدث في معظم الحالات المشابهة . » كذلك قلت وكنت أفكر في مقدار السرعة التي استرد بها قواه في المرة الأخيرة .

انحنت إلى الأمام إلى جوار سريره وقالت :
« آرثر . هذه أنا ، بولين » .

خرج الطبيب بهدوء . وأدركت أنا السبب . وشعرت بأنني كالدخيل المتطفل .

قالت :
« آرثر . هل تعرفني ؟ »
ثم نظرت إلي وقالت :
« أيمكننا أن نخلع عنه هذا القميص ؟ »
« ربما كان في هذا بعض الخطر » .
« ليس خطراً علي » .

كنت أعرف ألا فائدة من مناقشتها . إن شخصا مختل الأعصاب والعقل مثل شقيقها يمكن أن يكون سلبيا في لحظة معينة وعنيفا في اللحظة التالية : عبرت الحجرة إلى السرير وتعاونت معها في حل الأربطة . وبينما كنت أفعل هذا خيل لي أن آرثر قد رمقني بنظرة سريعة . تراجعت فوقفت في الخلفية وتركت بولين تقوم بعملها . فإذا « كان بالفعل » قد رمقني بتلك النظرة فقد يكون معناها أنه يفضل أن تفك بولين أربطته . كنت قلقا ، كان وجهه مغطى بالعرق وكان يرتجف مثل جواد أنهكه السباق . ولكن إذا كان قد تعرف عليها ، وعرف أنها كانت تعاونه وتمد له يد المساعدة ، فإن هذه تكون خطوة هـامة .

أخذت منشفة مبللة من حوض اغتسال لطيف في الحجرة ومسحت وجهه . تحركت لأخرج من مجال رؤيته ، ولكنني ظللت داخل الحجرة لكي أعاونها في أية حالة طارئة . جففت وجهه بمنشفة أخرى ثم انحنت فوقه . لم أستطع أن أسمع ما كانت تهمس به له ، ولكن كان بوسعي أن أحس ما تقوله — إنها

كلمات مطمئنة تعيد إليه الثقة ، وربما كانت كلمات حب وغزل . تحركت بهدوء نحو الباب وخرجت من الحجرة ، تاركا الباب مفتوحا مقدار عـــدة بوصات . كنت أعرف أن بولين امرأة قوية البنية ، وأنها تعرف شيئا عـــن مصارعة الجودو . فاذا هاجمها آرثر لكان بوسعها أن تدافع عن نفسها حتى أصل إليها .

سمعتها تتحرك في الحجرة . نظرْت من خلال فرجة الباب ، فرأيتهـا تملأ كوبا بالماء عند الحوض ، ثم عادت إليه . كان جالسا مستندا إلى الوسادة وشرب الماء ، بينما كانت تقف إلى جواره . وبينما كنت أرقب ما يجري مد يده فلمس ساقها . كنت قد لاحظت أن لها ساقين جميلتين . وكانت ترتدي جوربين شفافين . راقبت يده وهي تتحرك صاعدة على الساق ، تحت الثوب الأسود . ولا شك في المكان الذي وصلت إليه يده . ألقت نظرة سريعة نحو الباب . ونظر إليه آرثر أيضا . ثم عبرت هي الحجرة وأغلقته . شعـــرت بالارتياح . فلم أكن استمتع بلعب دور « توم البصاص » .

لم تكن قد مرت أكثر من دقيقتين ، دون أن يصدر أي صوت مـــن الحجرة ، حينما ظهر مدير السجن ، فرانك سليسور ، سائرا في الدهليز الطويل . قـــال :

« أهلا ! ماذا يجري هناك ؟ أكل شيء على ما يرام ؟ »

كان صوته مرتفعا ينم دائما عن الابتهاج . قلت :

« شقيقته تزوره » .

« أوه ، حسنا » .

اقترب أكثر ، وخفض من ارتفاع صوته وقال :

« أرجو ألا يزعجك تدخلي . ولكن أظن أن عليك أن تبقي البـــاب مفتوحا ، حتى ولو كان مقيدا » ...

أدار مقبض الباب ودفعه فانفتح . كانت بولين ما تزال واقفة إلى جـــوار السرير . ويجب أن أعترف بأنني كنت أتوقع – بنصف اقتناع – أن أراهـــا

على السرير إلى جوار أخيها . وحينما نظر المدير إلى الداخل . أومأت برأسها نحونا . ورأيت أنه قد صدرت عن آرثر حركة مفاجئة . كما لو كان يخفي شيئا . قالت بولين :

« أظن أنه جائع . أليس عندكم لبن ؟ »

أسرعت إلى الخارج لكي آمر بالطعام . وفي خلال خمس دقائق ، كان جالسا ، يأكل بودينج الخبز الذي كانت تطعمه له بالملعقة بيدها . خرجت من الحجرة مع المدير . قال :

« حسنا لقد قمت بشيء من المخاطرة بسماحك له بأن يخلع القميص . ولكنه يبدو في حالة أفضل بالتأكيد . ماذا يحدث له على وجه التحديد ؟ هل تظن أنه سيظل يصاب بهذه الانهيارات العصبية ؟ »

« لا يمكنني أن أقول هذا . أترى ما أعنيه ... إنه يعيش مشكلة تكاد أن تكون دون حل محتمل . هل تذكر قصة كتبها هنري جيمس ، يتحدث فيها عن طفلة تستيقظ في منتصف الليل ، وترى شبحا فتوقظ أمها ؟ ولكن الأم ترتعب رعبا لا يقل عن رعب ابنتها ؟ إنه يكاد يكون في مثل تلك الحالة . فحينما يعود إلى حالة التعقل العادية ، يرى شيئا يجعله ينكص إلى حالة الجمود العقلي المنقبض والانزواء داخل نفسه والتشنج . هذه هي المشكلة » .

« ألا تظن أنه سيشفى في يوم من الأيام ؟ »

كان هذا السؤال من نوع الأسئلة التي لا يمكنني الاجابة عنها . بل إنني لم أفكر فيه من قبل أبدا . ولكنني فكرت فيه في تلك اللحظة . وإن كنت قـــد بقيت عاجزا عن رؤية الاجابة . قلت :

« من المحتمل ألا يشفى » .

« إذن ألا تظن أنه قد يكون الأفضل له أن ينقل إلى سجن مصحـــة « برودمور » ؟ إنني أفهم مشاكلك – فأنت قد تفضل الاحتفاظ به هنا . ولكنه يثير انزعاج المساجين الآخرين . وأنت تعرف ما يعني هذا » ...

كنت أعرف ما يقصده ، كان من المؤسف أن تعرض للخطر نجاح سجن

« روزهيل » الذي كان ما يزال في مرحلة الاختبار بعد تأسيسه ، من أجل سجون واحد مختل الأعصاب والعقل ، ولو أن مليسور عرف ما عزمته أنا ، لاتصل بالمشرف الطبي الأعلى في مصحة برودمور خلال خمس دقائق .

قلت :

« إذا لم يتحسن خلال الغد أو اليوم التالي ، فأعد بأنني سآخذ الاجراءات اللازمة لذلك » .

« إنه على أي حال يمكن أن ينقل إلى سجن « رامبتون » ، وهو لا يبعد عن هنا أكثر من نصف يوم بالسيارة ، أو ساعتين بالقطار . فيمكنك بذلك أن تستمر في رؤيته بانتظام » .

خرجت بولين من الحجرة ، وقالت :

« أظن أنني يجب أن أنصرف الآن » .

نظرت إلى الحجرة . كان ليتجارد غارقا في النوم ، راقدا على جنبه ، وقد اتخذ جسمه وضع الجنين في رحم أمه . وظننت أنني لمحت في تنفسه نوعا من التوتر ، ولكنه يصرف النظر عن ذلك ، كان نومه يبدو طبيعياً وهادئا .

قلت للمدير أن يعيدوه إلى القميص إذا بدت عليه أية علامات للتهيج غير العادي . ثم غادرنا السجن أنا وبولين .

وبينما كنا نعبر بوابات السجن بالسيارة قالت :

« الشيطان المسكين » وكان صوتها مليئا بالتعاطف . قلت :

« ماذا تظنين » ؟

« إنه في حالة سيئة ، أليس كذلك ، أتمنى لو أعرف ما يأكله من الداخل ؟ »

« ألا تعرفين ؟ »

« كلا . أتعرف أنت ؟ »

« لدي فكرة ما . سأحاول أن أشرحها لك فيما بعد » .

وافقت بولين على البقاء لدينا هذه الليلة . ولكن زوجتي لم تكن شديدة

السعادة بهذه الفكرة . فقد جعلتها الأشياء التي قلتها لها عن بولين تشعر بأنهما المرأة القرمزية في رؤيا يوحنا . ولكن كان من الاسراف في التفاؤل أن نتوقع من بولين أن تسافر عائدة إلى ستوكبورت في نفس اليوم ، وكنت أريدها أن تكون قريبة مني ، في حالة إذا ما طلب آرثر أن يراها مرة أخرى .

وبينما كنا في السيارة عائدين إلى هارتل بول ، قالت :

« أتسمح بأن تتوقف قليلا عند محل ماركس وسبنسر ؟ »

« لا بأس . ولكنه خلف المبنى من الناحية الأخرى . سيكون علينا أن ندور من الاتجاه الآخر » .

« إذن ، لا بأس . هذا المحل يكفي . أيمكنك أن تتوقف هنا ؟ »

راقبتها في فضول وهي تدخل قسم الملابس النسائية في أحد المحلات . وبعد خمس دقائق خرجت وهي تحمل حقيبة ورقية صغيرة . قلت :

« أعتذر عن سؤالي ، ولكن ماذا ...؟ »

فتحت الحقيبة وأخرجت منها سروالا داخليا نسائيا أسود اللون من النايلون . وقالت :

« هل تسمح لي ؟ »

ووضعت السروال في قدميها ثم جذبته إلى أعلى وهي تتقوس بجسدها في مقعد السيارة ، أما أنا فثبتّ عيني بقوة على الطريق . وهي تقول :

« أشعر بأنني غير مستريحة وأنا دون سروال » .

« إذن فإن هذا ما كان آرثر يخفيه ؟ »

« أجل .. »

« أتسمحين بأن تخبريني بما حدث ؟ »

« حسنا . لقد وضع يده على ساقي ، ولذلك أغلقت الباب . وحينما عدت إليه نهض جالسا في فراشه وجذب السروال إلى أسفل ، وأرادني أن أرقد إلى جواره في السرير ، ولكني هززت رأسي وأشرت إلى الباب . ثم سمعنا بعض

الأصوات من الخارج . ولذلك جذب السروال بسرعة من على الأرض ووقف في مكانه » .

« وهل قام .... ألم يحدث أي شيء بعد أن خلع سروالك ؟»

« لم يحدث إلا الشيء المعتاد – لقد دس يده بين ساقي لكي يتحسس قليلا » ...

لم أرد كلمة واحدة وأنا أقود السيارة عائدا إلى البيت . ووجدت نفسي أتساءل بجدية إذا كان من المفيد من وجهة النظر العلاجية أن أحاول اقناع بولين بأن تقضي ليلة مع شقيقها او نصف ساعة على الأقل أو نحوها . هذا مستحيل ، بالطبع ، وغير أخلاقي على الاطلاق .

رمقت زوجتي بولين بنظرة وبدت كما لو كانت على وشك الانفجار في أية لحظة . ولكن بولين تقنعت بأفضل ما تعرفه عن سلوك السيدات المهذبات وقالت :

« كيف حالك يا مسز كاهن ؟ يا له من منزل جميل . إنك محظوظة حقا » .

ومثلما توقعت تماما ، فقد أصبحتا تتصرفان معاً كما لو كانتا زميلتين قديمتين في المدرسة في خلال عشر دقائق ، وظللت أتوقع أن تضع كل منهما ذراعها حول خصر الأخرى كما تفعل التلميذات الصغيرات .

ناداني ولدي قائلا :

« أبي ، إن المفتش كورنوك يطلبك » .

تناولت سماعة التليفون ، وقال صوت كورنوك :

« أهلا يا دكتور ، آسف لازعاجك عصر السبت . فقد تسلمت الآن فقط نسخة ذلك الشيء الذي كتبه لينجارد » .

وكنت قد أرسلت نسخة بالكربون من « القصيدة » وقلت :

« ما رأيك » ؟

« هل توجد النسخة الأصلية بجوارك ، أم تذهب فتأتي بها ؟»

« أجل . إنها هنا في هذه الحجرة » .

« أيمكنك أن تأتي بها ، إن هذه المخطوطة تقول في أحد سطورها : «صعودا من المذبحة إلى الفرح ، ومن الفرح إلى جانيفير » ، هل أقرأها « جانيفير » أم « جينيفير » ؟

نظرت إلى الأوراق التي ألصقت أجزاؤها بلاصق شفاف قوي . وقلت :

« يمكن أن تنطق بالطريقتين ، ولكن الحرف يبدو في نظري كما لو كان « ألفا » فتنطق جانيفير » .

« هذا شيء هام . وهو اسم غريب على كل حال . والرقيب التابع لي هنا يقول إنه يتذكر جريمة قتل فتاة تدعى جانيفير تامي وقعت في عام ١٩٥٩ » .

« أين ؟ »

« لقد اختفت في بلدة « أناسديل » – وهي بالقرب من مدينة ساوشبورت . ومن الواضح أنهم عثروا على جسدها بعد ذلك ببضعة أيام في بلدة «أورمسكيرك» على بعد عشرة أميال » .

جلست على أقرب مقعد إلي ، وقد شعرت فجأة كما لو كان ساقاي قد فقدا كل قوتهما .

سألته :

« ألا تعرف أي مزيد من التفاصيل ؟ »

« ليست هناك تفاصيل كثيرة . سأراجع الوثائق بالطبع . يقول الرقيب إنها اختفت في أثناء عودتها من زيارة جدتها ..

« أليست لديه أية فكرة عن الشهر الذي وقعت فيه الحادثة ؟»

« كلا ، ولكن الوقت كان في منتصف الصيف » .

« لأن لينجارد كان في السجن منذ يونيه حتى نوفمبر من ذلك العام » .

« سأكتشف المسألة ثم أتصل بك ثانية . كيف حاله الآن ؟ أيمكن أن يكون في حالة تسمح له بالقدرة على الاجابة على بعض الأسئلة ؟»

« ليس في اللحظة الراهنة إنه لم يتكلم مطلقا منذ هاجمته نوبة منذ يومين » .

حينما وضعت السماعة في مكانها أسرعت فأعددت لنفسي كأسا من الويسكي فشربتها على الفور في جرعة واحدة . وقفت ورحت أحدق إلى الخارج من النافذة . كانت زوجتي مع بولين تحتسيان الشاي في الشرفة المطلة على الحديقة . وكان ولدي يجرب بعض أوضاع « البهلوانية » فوق بساط سميك ، وكانت ابنتي تعبث بآلة الجيتار الخاصة بها في الكوخ الصغير بين شجيرات التفاح . وشعرت كما لو كان شخص ما قد ضربني على رأسي بكيس من الرمل . نظرت إلى الورقة مرة ثانية . جانيفير . كان الحرف « ألفا » بالتأكيد . كيف أمكن أن يكون أبله بهذا الشكل ؟ لسبب ما لم يطرأ على ذهني أبداً احتمال أن يكون لينجارد قد ارتكب مزيدا من جرائم القتل أكثر من تلك التي عرفت قصصها . ووجدتني في تلك اللحظة أحدق في الأسماء الأخرى الواردة في « القصيدة » : « زو وسارة وجوي وجانيفير » . من المذبحة إلى الفرح . وكانت إحداهن تلميذة صغيرة قتلت بالقرب من ساوثبورت – حيث كانت بولين قد التحقت بعمل ما في عام ١٩٥٩ كما أخبرتني هي منذ قليل . كان آرثر لينجارد قاتلا جنسيا . لقد تلاحقت الأمور وأخذ بعضها برقاب بعض ؛ فيتيشية السراويل الداخلية . جرائم الاغتصاب . اغتصاب إيفلين ماركيز وقتلها . كانت الجريمة والجنس تمتزجين امتزاجا لا انفصام له في عقله . ولم يكن ثمة الآن طريق للخلاص . طرأت على ذهني فكرة عبثية سخيفة . فمنذ بضعة أسابيع وجدت لينجارد يرسم واحدا من تلك الألغاز الطفولية التي يظهر فيها منزلان متصلان في حديقة كل منهما الخلفية . وكانت المشكلة هي رسم ست طرق بينهما بحيث لا يتقاطع أي طريق منها مع أي طريق آخر . وأمضيت خمس دقائق أمام اللغز ثم أقنعت نفسي بأنه من المستحيل الوصول إلى الحل المطلوب . كان الرقم الأقصى الممكن هو خمس طرق . ولكن آرثر لينجارد كان يعمل في حل اللغز طوال ساعات كثيرة . وحينما عدت في اليوم التالي كان قد رسم

عددا كبيرا من النسخ للغز ، ملغيا كل رسم بعدما بعد أن يتحول إلى شبكة مختلطة من الخطوط التي لا يمكن التمييز بينها . في تلك اللحظة طرأت لي فكرة أن هذا العمل يثبت عجزه عن التفكير الاستدلالي المعقول الواضح . ولكنني رأيت ذلك العمل الآن باعتباره دليلا على التصميم الجنوني على حل مشكلة لا حل لها . كان بحاجة إلى الاعتراف لكي يحافظ على عقله . ولكنه كان يعرف أنه إذا اعترف فقد يكون معنى هذا هو أن يقضي حياته بأسرها في سجن برودمور . ولكن السؤال الوحيد الذي ظل دون اجابة كان : ما الذي سبب الانهيار الأصلي ؟ »

جلست في مكاني دائخاً . لم أستطع أن أدفع نفسي إلى الخروج ومواجهة بولين . ذلك أن السبب – رغم أنه قد يكون التصريح بذلك غريبا – هو أن الرابطة التي تربطني بها هي أننا كلينا كنا مغرمين بآرثر . إن قارىء هذا التقرير قد يجد أنه من المستحيل أن يصدق أن آرثر يمكن أن يثير في المرء أي شيء باستثناء الرفض . ولكن رفض تصديق هذا إنما يعني تجاهل حقيقة أن وظيفة الطبيب النفسي هي أن يفهم لا أن يدين . كنت قد طورت في داخلي بتعمد كامل إحساسي نحوه بالشعور بالرغبة في حمايته . وهو الشعور الذي يحمله الوالد لطفله . لقد فكرت في أنني قد وصلت إلى ادراك كيف أصبح على ما صار إليه . ولكنني كنت مضطرا الآن إلى الاعتراف بأنني كنت أتجاهل النقطة الحيوية في حياته . وفي هذه اللحظة انهار وتلاشى المشروع الذي شغل كل أفكاري طوال شهرين كاملين . لم يعد هناك أي مظنة لاحتمال علاجه . علاجه من أجل ماذا ؟ من أجل أن يقضي حياته بأسرها وراء القضبان ؟ لقد كان هو يدرك المشكلة ، إن الاعتراف الكامل يمكن أن يكون مساويا للانتحار . وقد اختار هو الانتحار بمعنى من المعاني . ولقد أدركت الآن لماذا وضع للقصيدة عنوان « مذكرات من أجل جنازتي » .

دخل ابني إلى الحجرة . قلت له إن أحد مرضاي قد طلب مني أن أزوره وأنني سوف أعود بعد ساعة . ولكنني كنت أريد فرصة للتفكير . ذهبت إلى

متنزه البلدة وجلست على إحدى الأرائك الخشبية في حرارة شمس أغسطس . أعدت قراءة « القصيدة » اثني عشرة مرة . وأثار السطر الأخير منها إحدى ذكرياتي : « التوقيع جول جونجاك جيمس هي هي هي » . وعادت إليّ الذكرى . من المؤكد أن أحد خطابات « جاك الخانق » في رواية مدام توسود كان يحتوي على عبارة مشابهة ، تقول شيئا مثل : « يا رئيسي العجوز العزيز ، سوف تسمع غدا المزيد من أعمال جوللي جاك ....» .وهل كان هو نفس الخطاب الذي كانت فيه عبارة تقول شيئا مثل : « سوف أملص أذني السيدة ، هاهاها ....» وعبارة أخرى تقول : « عرفت رجلا يدعى جاك » وهي السطر الأول من « القصيدة » الذي يقول : « جاك جون جيمس ، جول » لماذا كل هذا الحديث عن السكاكين ؟ هل قتل بعض الفتيات المذكورات فعلا بالسكاكين ؟ أم أنها كانت مجرد إشارة أخرى إلى جاك الخانق ؟ لقد قال : « أعط سكيني لبوللي ، وسوف تعرف هي ما تفعل به » وذكرني هذا السطر بصرخته عن هاري تيبات : « لا تجعله يغرس هذا فيّ ....» السكاكين وأعضاء التذكير — لقد تطابقتا بشكل ما في ذهنه . سلمه لبوللين : إنه دافع ملح لا يهدأ يدفعه إلى الاغتصاب ، أن يغتصب كل فتاة جذابة في العالم ،فيدعها « تخفيه » في داخلها ...

حينما وقفت مرة أخرى كانت كل شكوكي قد اختفت . رأيت بوضوح أنه لم يكن أمامي مجال للاختيار . فاذا كان آرثر لينجارد قاتلا جنسيا ارتكب الكثير من جرائم القتل ، فان المسألة لا تعود من اختصاصي ، إنها من اختصاص الشرطة . كانت مهمتي الأولى الآن هي أن أكتشف إن كان هو قاتل جانيفير تامس أم أنه ليس قاتلها ، وإذا كان من الممكن التعرف على الأسماء الأخرى في « القصيدة » .

وحصلت على اجابة السؤال الأول في خلال ساعة . فحينما عدت إلى البيت كانت هناك رسالة من كورنوك يطلب إليّ فيها أن أتصل به هاتفيا .

كانت لديه تفصيلات مقتل جانيفير تامس .

وتقول الملاحظات التي كتبتها نقلا عما أملاه عليّ بالهاتف ، تقول ما يلي :

« ٢٨ يونيه ١٩٥٩ . جانيفير تامس . العمر أربعة عشر عاما ونصف . غادرت بيتها في الساعة الخامسة والنصف مساء لكي تتناول الشاي مع جدتها ، التي تقطن في كوخ على بعد ميل واحد . وغادرت منزل جدتها في الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة ، ثم ركبت دراجتها عائدة في اتجاه البيت . وكان طريقها يجعلها تسير على طول حافة ملعب للجولف . وفي نحو الساعة الثانية ظن رجل في الجوار أنه سمع صرخة ولكنه افترض أن بعض المراهقين يلعبون في المنطقة . وفي العاشرة والنصف جاء شقيق الفتاة ليسأل عنها في منزل جدتها فقيل له إنها غادرت المنزل في موعدها . وفي طريق عودته إلى البيت عثر على دراجتها ملقاة في حفرة بالقرب من ملعب الجولف ، وقد انثنت العجلة الأمامية انثناءة خفيفة . وعلى العشب عند حافة الملعب القريبة كانت هناك علامات اطارات سيارة . وقد عثر أيضا على فردة واحدة من حذائها بالقرب من الدراجة . ولم يسمع عنها شيء آخر حتى تم العثور على جثتها في صباح اليوم الأول من شهر يوليو راقدة في حفرة بالقرب من « أورمز كيرك » . وكانت الجثة مرتدية ملابسها الكاملة ، راقدة على ظهرها ، وذراعاها ممدودتان إلى جنبيها ، والساقان مضمومتان . وحينما تم فحص الجثة ، تبين أنها لم تكن ترتدي سوى الجوارب القصيرة وسترتها المدرسية الزرقاء ، وزيها المدرسي الأزرق الشبيه بزي البحرية . أما الجوارب الطويلة ، وقميصها الداخلي المصنوع من النايلون وسروالها ، فكانت كلها مفقودة . وقرر تقرير الطبيب الشرعي إنها قد تعرضت لعدد كبير من الهجمات الجنسية ، إذ وجد آثار السائل المنوي في عضوها التناسلي ، وفي شرجها ، وفمها ، وكان رأسها مكدوماً كدمة كبيرة ، وقد ماتت خنقا . وكانت ميتة منذ نحو يومين . ولم يبلغ أحد عن رؤية أي شخص غريب في منطقة ملعب الجولف ليلة اختناقها ، ولم يلق القبض على أي شخص » . وعن طريق الصدفة أسفر الكشف العلمي عن

اكتشاف أنها لم تكن عذراء منذ وقت طويل جدا .

وأبلغني كورنوك أيضا أنه قد راجع سجل السجن الخاص بآرثر . كان قد قبض عليه أثناء محاولته الهجوم على محل لبيع أجهزة الراديو في اليوم الثاني من شهر يوليو ، وحكم عليه بالسجن لمدة ستة شهور . ثم خرج من السجن في أواخر نوفمبر .

وقال كورنوك : « وأظن أنه من الأفضل أن آتي إليك لأتحدث معك يوم الاثنين » .

وقد شعرت بالارتياح لأنه منحني يوما واحدا أتنفس فيه الصعداء .

دخلت بولين إلى الحجرة بينما كنت جالسا أقرأ ما كنت قد كتبته لتوي وأعيد قراءته .

سألتها :

« أيمكنك أن تتذكري أين كان آرثر يعيش قبل أن يدخل السجن في عام ١٩٥٩ ؟ »

« أجل ، كان يعيش في بريستون » .

« وهل كان يعمل ؟ »

« أجل ، كان قد حصل على وظيفة في محل لاصلاح أجهزة التليفزيون » .

« أليست لديك أية فكرة عن عنوانه في بريستون ؟ »

« ربما كان مكتوبا في كراسة العناوين الخاصة بي » .

وعثرت على كراسة العناوين الصغيرة ذات الغلاف الجلدي في حقيبة يدها . وبدا لي أن آرثر كانت له عناوين متعددة في مانشستر ، وليدز ، وجلاسجو ، ولندن ، وبريستون ، وكلها كانت بولين قد شطبت عليها . وكان عنوانه في بريستون هو « ١٤ ، هيثرجروف ، وألتون لي ديل » .

قالت :

« لقد ذهبت إلى هناك مرة واحدة . كان يقطن هناك مع شخصين ، ولا أستطيع أن أذكر اسميهما . وأظن أنه كان قد قابلهما في السجن » .

« أي نوع من المساكن كان ذلك المسكن ؟ أكان هادئا ؟ أكانت هناك مالكة المسكن ؟ » .

« كلا . كان الشخصان هما مالكي المنزل . وكان لآرثر شيء مثل « كوخ العطلات » في الحديقة . وقد قال لي إنه أحب هذا المكان لأنه هادىء جدا . لماذا ؟ ما هو الموضوع كله ؟ » .

وقررت أنه لا فائدة من مواصلة التزام الصمت . أطلعتها على « القصيدة » وأخبرتها بما قاله لي كورنوك . وقد دهشت وصدمت بقدر ما دهشت أنا وصدمت . وكان أول رد فعل لها أن قالت :

« أوه لا ! ربما كان ولدا شقيا نوعا ما ، ولكنه لا يمكن أن يفعل شيئاً كهذا » .

« أأنت واثقة تماما من ذلك ؟ لقد قلت لي إنك ظننت أنه قتل ذلك المزارع العجوز عامدا » .

« أجل ، ولكن هذا شيء مختلف ، أعني أنه ما كان ليقتل فتاة من أجل الجنس » .

قلت :

« أخشى أنك على خطأ . فقد كان هذا بالتحديد ما فعله » . وأخبرتها بقضية إيفلين ماركيز . ولم يكن هناك سوى شيء واحد حذفته من القصة : هو أن الفتاة المقتولة كانت شديدة الشبه بها .

ظلت تردد : « لا يمكنني أن أصدق هذا . إنه شخص من نوع رقيق جدا . إنني فقط لا أستطيع أن أصدق أنه قادر على ذلك » .

فكرت في شقيقة « خناق بوسطون » التي قالت نفس الشيء عن شقيقها . وأدركت السبب في عجز بولين عن التصديق . ولكن مع الحقائق التي أعرفها الآن ، كان من المستحيل أن يكون ثمة شك في أن آرثر قتل جانيفير تاس . لقد وقعت هذه الحادثة ذات يوم سبت . ربما كان قد ذهب إلى ساوثبورت لكي يرى بولين . وكانت هذه هي الفترة المحبطة التي سبق أن وصفتها لي :

كان غاضبا ويشعر بالغيرة . وإذ كان يقود سيارته في الطريق الريفي الهادىء ، رأى الفتاة على دراجتها في طريق عودتها . لقد بدأ بأن تجاوزها بالسيارة ، ثم انحرف نحوها عامدا فطرحها في الحفرة الجانبية . وربما كان قد ضرب رأسها بحجر التقطه من الحفرة ، والأكثر احتمالا — إذا كانت قد صرخت — فإن آرثر قد قفز خارجا من السيارة وضربها على جبهتها بشيء ثقيل . ثم جر الفتاة الفاقدة الوعي إلى المخزن الخلفي للسيارة ثم قاد السيارة إلى بريستون . وربما كان قد خنقها هناك . ثم أخذها إلى « كوخه » فيما بعد ذلك المساء ، حيث احتفظ بها لمدة أربع وعشرين ساعة ، وربما لمدة أطول ، لكي ينفذ خيالاته المريضة مع جسدها . وبعد ذلك ، وبما عرف عنه من حذر ، ألبسها ثيابها بعناية ، ووضعها في مخزن السيارة . لماذا ؟ لأن جسدا عاريا أجدر بأن يجذب الانتباه من جسد يرتدي كل ثيابه إذا تصادف ونظر أحدهم في مخزن السيارة . وفي ليلة يوم الاثنين أخذها وعاد بالسيارة إلى نقطة تبعد عشرة أميال عن النقطة التي كان قد عثر عليها أول مرة — وذلك حتى يمكن افتراض أنها كانت موجودة في المنطقة منذ اختفائها — وأخرجها وأرقدها بعناية في الحفرة التي عثر على الجثة فيها ، وقد قارب بين عقبيها ، وجعل ذراعيها ممدودتين إلى جنبيها ....

وقد حدث بينما كنت أفكر في قصة الجريمة كاملة — لكي أعيد بناءها في خيالي — أن تملكني فجأة كل ما فيها من رعب . لم تكن هذه حالة جريمة قتل اضطرارية يرتكبها صاحبها في فورة الغضب . لقد أراد التلميذة الصغيرة راكبة الدراجة . فقام بعمل عمدي قائم على الاختيار . كان بوسعه أن يقود سيارته فيتجاوزها ، وبدلا من هذا انحرف نحوها فصدمها وأسقطها . كان بوسعه أن يغتصبها في مؤخرة الملعب ، أو في المقعد الخلفي ، ثم يلقي بها خارجا . فاقدة الوعي ، في مكان آخر . بل إنه كان يستطيع أن يضع غطاء على عينيها ويحتفظ بها مقيدة بينما يغتصبها دون أن تعرف وجهه . ولكنه اطرح كل هذه البدائل وقتلها . ولأول مرة منذ بدأت أتعامل مع آرثر لينجارد أحسست بوجود نوع متعمد من الشر اختاره آرثر وآثره .

وكان رد فعل بولين صحيا ومستقيما بقدر ما كان علي أن أتوقع . فقد قالت :

« إذا كان قد فعل تلك الأعمال ، فإنه ليس شخصا طيبا ولا فائدة منه .. إنه لا يستحق أن يحيا فحسب » .

وحينما قالت هذا ، أدركت على حين فجأة سبب انهيار آرثر . لقد كانت طفولته شقية . ومع هذا فإن الشقاء لا يستطيع حقا أن يؤثر في شخص مثل آرثر ، لسببين : لقد كان يمتلك خياله الخاص ، وقد كانت لديه نساء بين أقاربه . ثم كانت هناك في حياته تلك اللحظات من المتاعة والدفء المطلقين والاحساس الكامل بالأمان ، حينما كان العالم كله يصبح حلوا ، وحينما كان يشعر بأنه غارق بين ذراعي أم أبدية من نوع ما . وقد كان هذا الإحساس الأساسي بالأمان هو ما منحه الثقة اللازمة لمواجهة العالم وحيدا بمفرده باعتباره « المجرم الأستاذ » أو « أستاذ الجريمة » .

ولكن قتل جانيفير تاس لم تكن الجريمة التي يمكن أن يرتكبها « أستاذ الجريمة » وإنما كانت جريمة ثعلب بشري لا يفكر إلا في اشباع شهيته وارضاء رغباته . ولو أن الدليل لم يبدُ لي بمثل هذا الوضوح ، فربما قلت إن هذه الجريمة كانت بالتحديد من النوع الذي لا يمكن أن يرتكبه آرثر . إنها لم تكن من نوع الجريمة التي يمكن أن تتضخم من حجمها وأن تزيد من أبعادها عن طريق الخيال حتى تصبح نوعا من الاحتجاج الرومانتيكي ضد المجتمع . وإنما كانت جريمة رجل لم يعد يتمتع بالثقة بالنفس التي يمكن أن تمنحها أحلام اليقظة الرومانتيكية الثرية : الذي يفعل شيئا يعرف أنه لا يمكن تبريره في عيون بني جلدته من البشر .

فما الذي حدث إذن لكي يحول الحالم الرومانتيكي ، سيد كوكب المريخ ، إلى وحش صبياني شرير ؟

أنني أملك اجابتي على ذلك السؤال . وقد ألهمتني بولين تلك الاجابة في لحظة مبكرة من ذلك اليوم . لقد تضب المعين الذي كان يمده بالكبرياء والثقة

بالنفس حينما هجرته نساؤه . لقد وقعت جريمة قتل جالبفير ناس حينما كان يتشاجر مع بولين حول مشروع زواجها المقترح ؛ ووقعت جريمة قتل إيفلين ماركيز بعد بضعة أسابيع من زواجها . وقد هجرته آجي لكي تعيش مع مهندس شاب محترم . وبعد ذلك ببضعة شهور قام بأول محاولة للاغتصاب مع القتل – مع الفتاة ذات الاثني عشر عاما – إيريس . كانت الدورة ، وشكلها ، واضحين تماما . كان آرثر لينجارد يأخذ بثأره من النساء . ولم يكن بطله هو نفسه بطله القديم ، البروفسور موريارتي ، وإنما أصبح بطله هو المخاتل الجبان ، شبه الأمي ، أو شبه المتعلم « جاك الخانق » .

* * *

في ذلك المساء ، وبمعونة بولين ، عقدت العزم على أن أكتب قائمة بكل التواريخ الهامة في حياة آرثر . وهي كالتالي :

ولد في ١٢ نوفمبر عام ١٩٣٧ .

الأم قتلت في شهر أبريل عام ١٩٤١ ، وقتل الأب في أوائل عام ١٩٤٢ .

نقل – أثناء عملية الجلاء عن لندن – إلى وورينجتون في شهر سبتمبر عام ١٩٤١ .

يبدأ سلوكه الذي تغلب عليه بوجه عام صفة التمرد في عام ١٩٤٥ ، حينما كان في السابعة من عمره . وكان هذا هو نفس العام الذي أصبحت فيه بولين عشيقة لديك لينجارد . رغم أن آرثر لم يكتشف هذا إلا في شهر ديسمبر عام ١٩٤٩ . وأنا أعتقد أنه أحس بهذا الوضع بشكل ما .

ماتت ماجي في شهر أكتوبر عام ١٩٤٩ ، ووقعت أول حادثة سطو لآرثر بعد هذا في شهر نوفمبر .

كانت أول فترة قضاها تحت المراقبة في عام ١٩٥١ ؛ تبعها الحكم الذي صدر بالتحفظ عليه في مدرسة إير لشاو الاصلاحية ، وهي الفترة التي لم يقض منها إلا ستة شهور ، ثم عاد إلى شارع بينكيث في شهر فبراير عام ١٩٥٢ . وقبض على ديك لينجارد في شهر مارس عام ١٩٥٢ ثم أفرج عنه في نوفمبر عام

١٩٥٤ . واستمرت علاقة آرثر بأيفلين جرور منذ شهر مايو عام ١٩٥٢ حتى شهر يناير عام ١٩٥٣ . (أما اغواء آجي فقد حدث في حوالي شهر أغسطس عام ١٩٥٠) .

وقعت جريمة قتل سايمون بالنكس في ٢٨ ديسمبر عام ١٩٥٢ . وتبعتها جريمة قتل داجرتيبات في شهر مارس عام١٩٥٣ .

ويبدو أن انهيارات آرثر العصبية بدأت منذ تلك الفترة . وقابلت آجي زوجها في المستقبل حوالي شهر مايو عام ١٩٥٣ ، ثم « هربت » معه في شهر نوفمبر . أما جريمتا الاغتصاب اللتان ذكرهما آرثر لي فقد وقعتا في وقت ما في خلال الخريف أو الشتاء ، ووقعت محاولة اغتصاب وقتل لوريس فرانكلين بعد حوالي شهر من « هروب » آجي في ديسمبر عام١٩٥٣ .

ولم يصبح التأريخ أكثر صعوبة إلا بعد هذا . كان آرثر قد مكث في شارع بينكيث حتى شهر أكتوبر من عام ١٩٥٤ . أي حتى قبيل خروج ديك لينجارد من السجن بفترة قصيرة . وقد ارتكب عمليتي سطو آخريين في عام ١٩٥٤ – أو على الأقل ، في اعترافه باحداهما – وهي الثانية – طلب أن توضع في الاعتبار حادثة أخرى . وأنذر بأنه إذا ما ألقي القبض عليه ثانية فانه سوف يودع السجن . وكانت بولين تحمل انطباعا بأنه قد رحل إلى اسكتلندا حينما غادر منزل شارع بينكيث ، ولكن أول عنوان له : كتبته في كراسة العناوين الخاصة بها . كان بالقرب من ميدان « كلافام كومون » في لندن ، وهي تظن أن هذا كان في أوائل عام ١٩٥٥ . وكانت هي تقطن « بلاك بول » في ذلك الوقت ، وتعمل كضيفة في ناد ليلي ، وتعيش عدة علاقات مع رجال مختلفين . وقد كتب آرثر إليها هناك – ولا تستطيع بولين أن تتذكر كيف حصل على عنوانها . وفي شهر سبتمبر عام ١٩٥٣ كتب إليها من منطقة « وورم وود سكرابز » ؛ وقد قبض عليه أثناء محاولته السطو على منزل في بلدة «موزويل هيل» وعندما أفرج عنه من السجن في شهر فبراير عام ١٩٥٦ كتب إلى بولين مرة

ثانية . وكان عنوانه هذه المرة في مدينة بوتني . وقد حدث خلال الفترة التي قضاها في السجن أن أعاد علاقته بآجي ، التي كانت قد كتبت له حينما أخبرتها بولين بأنه يواجه المشاكل وأنه تورط في المشكلة التي ذهبت به إلى السجن . وكانت آجي قد تزوجت منذ أغسطس السابق . وكانت تقطن الآن في بلدة بوتون موتشيلبرياه ومن الواضح أنه قد زار آجي هناك عدة مرات بين خروجه من السجن والقاء القبض عليه مرة أخرى بسبب عملية النصب المتصلة بآلة الغسل .

وبعد ذلك . يعود الغموض مرة أخرى فيكتنف التاريخ . وتنتهي الفترة التي حكم عليه بالسجن فيها بسبب حادثة النصب في سجن بريكستون . وفي فترة باكرة من العام التالي انتقل عائداً إلى الشمال ، فذهب هذه المرة إلى مدينة « دونكاستر » حيث كان عنوانه موقع مزرعة « ديري كارافان » بالقرب من قاعدة « آرمثورب » . وحيث استطاعت بولين أن تتذكر بشكل غامض أنه عاد إلى العمل في اصلاح أجهزة التليفزيون . ثم انتقل من دونكاستر في شهر ديسمبر عام ١٩٥٧ ، ولم تسمع عنه بولين شيئا ولم تره حتى وقت ما في عام ١٩٥٨ حيث وجدت خطابا منه ينتظرها في منزل شارع بينكيث . وفي أثناء ذلك كانت هي قد انتقلت إلى ساوثبورت وكانت تلتقي كثيرا بالرجل الذي تزوجته (فيما بعد) . وقد أخبرها آرثر في هذا الخطاب بأنه قد فتح في حياته صفحة جديدة . وأنه يأمل في أن يجمع ثروة كبيرة بالشروع في عمل يمكن أن يجعله يبيع كميات كبيرة من الحمامات التركية القابلة للحمل . وجاء لزيارتها في ساوثبورت للمرة الأولى في عيد الميلاد عام ١٩٥٨ . وهي تظن أنه كان يسكن في مدينة ليفربول في ذلك الوقت . ولكن في فترة باكرة من عام ١٩٥٩ ، انتقل إلى عنوان في بريستون . وعمل في مؤسسة تدعى « فيو — مايز » لها فروع في بلاكبول وساوثبورت ولانكستر . وهذا يعني أنه كان يغطي كل شمال مقاطعة لانكشاير بسيارته .

ووقعت جريمة قتل جانيفير تاس في شهر يونيه من عام ١٩٥٩ ، وبعد ذلك بوقت قصير جدا . كان آرثر يقضي مدة أخرى حكم عليه بالسجن فيها

بسبب حادث سرقة صغير . وتزوجت بولين في شهر يناير من عام ١٩٦٠ . ووقعت جريمة قتل إيفلين ماركيز بعد ذلك بثلاثة أسابيع . وبعد ذلك أصبح من الواضح أن آرثر قد فضل مقاطعة يوركشاير على مقاطعة لانكشاير . كان غاضبا بسبب زواج بولين ، ولم يبذل أية محاولة للاتصال بها قبل شهر مارس عام ١٩٦٢ . حينما تقابلا بالصدفة في بلدة سالفورد حيث كانت تقطن في ذلك الحين .

وقد حدث في شهر يونيه من عام ١٩٦٢ أن بدأت بولين ترتاب في أن آرثر قد أصبح « شاذا » . كان قد زارها عدة مرات في سالفورد — رغم أنه لم يكن قد راق لزوجها وأن الزوج كان يريدها أن تقطع علاقتها به — وكان آرثر يتحدث دائما بغموض وبشيء من التوسع في الكلام عن مشاريعه المستقبل لكي يجمع ثروة كبيرة . وفي عصر اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيه عام ١٩٦٢ ، وصل في حالة نفسية غريبة ، والطبع في ذهن بولين أنه كان يشرب الخمر ويتعاطى المخدرات . وتحدث عن مشروع لافتتاح ناد ليلي للشواذ جنسيا في جلاسجو ، وهو شيء يمكن أن يتناقض مع كل ذوق محتمل ، وطلب من بولين أن تأتي معه لكي تصبح مديرة للنادي الجديد . وقالت بولين بغموض إنها قد تأتي معه ، ثم فجأة تماما ، التقط آرثر صورة لزوجها كانت موضوعة فوق المدفأة وقذف بها في النار . وشعرت بولين بالمهانة . وانحنت لكي تلتقط الصورة من النار ، وحينما كانت تفعل هذا . ضربها على رأسها بشيء ما ، ثم بدأ يتصارع معها وهي تقاومه . وكانت مصممة ألا تصرخ — وكان جيرانها ميالين جدا إلى تبادل الاشاعات عنها حتى ذلك الحين — ولكنها قاتلته بقوة وتصميم . وأدهشتها قدرة آرثر . وذات لحظة . بينما كانا يتصارعان على أرضية الحجرة ، حاول أن يجبرها على فتح ساقيها . ولكنها قالت أن يكف عن هذا ليتوقفا عن العراك . ولكن نتيجة هذه العبارة أفزعتها . فقد بذل فجأة محاولة حقيقية لخنقها ، وحينما قاومته . ضربها على وجهها عدة مرات . وخمشته بأظافرها بقوة . ثم على حين فجأة تماما ، انفجر باكيا . وتوسل إليها أن تغفر

له ، ثم انصرف من المنزل .

ولم يكن ثمة شك في ذهنها أنه كان يحاول اغتصابها بالفعل . سألتها :

« ولكنك كنت مصممة تماماً على أنك لا تريدينه ؟»

هزت كتفيها وقالت :

« لم تكن المسألة على هذا النحو . ربما لو أنه عالج الموقف على نحو مختلف » ...

حدقت في المدفأة الخالية برهة طويلة ، ورشفت كأسها الثالثة من الجين والليمون الحامض . ثم قالت :

« عرفت حينئذ أن ثمة خطأ ما بداخله ، وأنه قد تغير . كان بوسعي أن أرى أنه قد اعتاد على أن يأخذ ما يريده عنوة ... »

وقد حدث بعد ذلك أن ثار غضب زوجها حينما وجدها بعينها المتورمة والكدمات الأخرى والخدوش على وجهها وفي جسمها ، فذهب مباشرة إلى الشرطة . وألقي القبض على آرثر في اليوم التالي في مسكنه ببلدة ستوك بورت . ولكن في ذلك الحين كانت بولين قد أقنعت زوجها بأن يتخلى عن اتهامه لآرثر . ووعدت ألا ترى آرثر أو تتحدث إليه ثانية . وبالفعل ، لم تعرف عنه شيئا حتى السنة التالية ، حينما قرأت في الصحف أنه قد ألقي القبض عليه لقتله المزارع العجوز .

وقررت بولين أن تبقى معنا حتى يوم الاثنين . وذلك حتى يتمكن كورنوك من مقابلتها في منزلنا . وصباح الاثنين طلبت سجن رورزهيل هاتفيا . كان آرثر بالغ التوحش والاضطراب حتى أنهم قرروا أن يعيدوه إلى القميص ذي الأربطة . وسألني سليبور عما إذا كنت ما أزال مصمما على عدم إرساله ونقله إلى مصحة المجرمين المجانين في رامبتون . فقلت إنني أود أن يترك لي المزيد من الوقت للتفكير في المسألة . كنت ميالا إلى الخروج ومقابلة آرثر قبل أن يصل كورنوك حتى يمكنني أن أسلمه تقريرا حديثا عنه . ولكنني حينما سألت بولين إذ كانت

تود المجيء معي هزت رأسها بقوة وقالت :

« لا يمكنني أن أواجهه ... وأنا لا أعرف ما فعله تلك الفتاة ».

وعلى ذلك فقد قررت أن أتخلى عن فكرة زيارتي له أنا الآخر .

وصل كورنوك والرقيب التابع له في موعد الغداء ، الذي تناولناه في مطعم بالبلدة . وحينما أطلعته على التقرير المكتوب على الآلة الكاتبة — وهو التقرير الذي نقلته كاملا فيما سبق — قال :

« ينبغي أن تكون شرطيا سريا ».

فضحكت بولين وقالت :

« ألا تعرف ؟ هذه هي حقيقته تماما » .

ما كان ينبغي للمشكلة التي واجهتنا أن تكون صعبة صعوبة غير عادية في بلد مثل انجلترا . لقد ظلت نسبة جرائم القتل في انجلترا ثابتة ثباتا ملحوظا خلال سنوات القرن العشرين كلها ، وكانت تدور حول رقم المائة والخمسين جريمة قتل في كل سنة ، وكانت النسبة الأكبر من هذا الرقم تحل أسرارها ويتم التوصل إلى مرتكبيها الحقيقي ، حتى في الحالات التي كانت « ملفاتها » تظل مفتوحة ، فان الشرطة غالبا ما تكون واثقة من شخصية القاتل ، أو تكون واثقة من أن الضحية قد انتحرت ولم تقتل .

وكان معنى التقرير الذي كتبه إذن هو أن يعود كورنوك فيراجع كل جريمة قتل جنسية بقيت أو تركت مفتوحة دون التوصل إلى قرار بشأنها منذ عام ١٩٥٥ تقريبا ، أي حينما غادر آرثر وورينجتون حتى عام ١٩٦٣ حينما تم القاء القبض عليه بسبب قتل المزارع العجوز . وقد جاءني كورنوك مسلحاً بقائمة لمثل هذه الجرائم . وجلسنا جنبا إلى جنب ، لننظر فيها . كانت لدينا أربعة أسماء : سارة وزو وجوي وجانيفير ، وكنا نعرف هوية هذه الأخيرة . ولم يستغرق منا الأمر أكثر من خمس دقائق لكي نتوصل الى معرفة هوية سارة بدقة . ففي يوم الجمعة السابع من شهر يوليه عام ١٩٥٦ ، خرجت «ساندي لويس» وهي طالبة في مدرسة لندن للباليه في السابعة عشرة من عمرها ، لكي تطلب توصيلة

من السيارات السائرة في الطريق إلى بيتها ببلدة « ميدستون » . وكان معهما شقيقان توأمان – فتى وفتاة – اسمهما « بلاميت » ، يقطنان في بلدة « سيتينج بورن » . وقد عثر على جسدها المغتصب في الساعات الأولى من الصباح التالي بالقرب من بلدة « ووتربنج بوري » على الطريق الرئيسي رقم ٢٦ .

ولم تكن هناك سوى فتاة أخرى يبدأ اسمها بحرف « السين » وكانت قد قتلت في مدينة جلاسجو في شهر أغسطس من عام ١٩٥٩ ، حينما كان آرثر ليتجارد في السجن . وبدا لنا أنه من الممكن افتراض أن فتاة تدعى « ساندي » يمكن أن يكون اسمها الحقيقي هو « سارة » . وكان بوسع كورتوك أن يتصل بشرطة ميدستون من بيتي بعد الغداء ، لكي يتأكد من هذا . وفي وقت متأخر من نفس اليوم ، أصبح بوسعه أن يتحدث إلى الشرطي السري الذي كان مكلفا بالعمل في تلك القضية ، وهو المفتش السري هيفورد من إدارة الشرطة الخاصة ، فحصل منه على التفاصيل الكاملة للجريمة .

كان من عادة سارة لويس أن تطلب توصيلة من السيارات السائرة في الطريق إلى بيتها في عطلاتها الأسبوعية بصحبة صديقها وصديقتها التوأمين من بلدة سيتينج بورن . وفي اليوم السابع من شهر يونيه ركبوا القطار إلى بروملي ، ثم خرجوا إلى الطريق ليطلبوا التوصيلة . وفي خلال خمس دقائق التقطهم رجل في سيارة صغيرة بيضاء . كان شابا حسن الثياب . وقدم نفسه إليهم باعتباره مهندسا الكترونيا . وتبادل الجميع الحديث بابتهاج في أثناء الطريق . ونزل الأخ وأخته من السيارة عند محطة السيارات العامة بالقرب من سيتينج بورن ، ثم انطلق بالسيارة في اتجاه ميدستون ، دون أن يكون معه في السيارة سوى سارة لويس . كان الوقت حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر الساطع الشمس ، وكانت هناك سيارات في الطريق ، ولم يشعر صديقاها بأي قلق عليها .

وكان المفروض أن تصل سارة لويس إلى بيتها قبل الساعة الرابعة . وحينما اتصل بها صديقاها جون ومارجريت بلاميت في حوالي الساعة السادسة ، بدأ

القلق يساور أبويها . وطمأنت أسرة بلاميت الأبوين على ابنتهما ، وقالوا إن الشاب الذي أخذها في سيارته كان يبدو عليه التهذيب والثقافة ، وربما كان قد أقنعها أن يأخذها بالسيارة إلى الشاطىء . ولكن والد سارة ووالدتها أبلغا الشرطة في الساعة التاسعة من مساء نفس اليوم ، وبدأ البحث عن السيارة البيضاء الصغيرة . وعثرت عليها دورية شرطة قبيل منتصف الليل بعدة دقائق على الطريق الرئيسي رقم « ٢٦ » . كانت خالية ، ولكن كان هناك سروال نسائي داخلي ممزق على أرضيتها . وفي حفرة ، على الجانب الآخر من حافة الطريق عثروا على جثة سارة لويس . كانت قد خنقت باليدين واغتصبت جنسياً ، من أمام ومن دبر . ولا بد أن القاتل قد أمضى معها عدة ساعات ، طالما أنها قد هوجمت جنسياً أكثر من مرة واحدة ، مثلما كان الحال في قضية جانيفير تاسي . وكتمت التقارير التي أعطيت للصحف عاملين صغيرين من عوامل – أو من ملامح – الجريمة . كانت حلمة ثديها الأيمن قد قطعتها أسنان قاتلها . وكان الجلد بين الفرج والشرج قد قطع بالمقص . لقد قال آرثر في « قصيدته » :

« أعض حلمتي زو الصغيرتين وأقص بالمقص فرج سارة » .

قلت لكورتوك أن يسأل مفتش الشرطة السرية جيفورد إن كان يعرف المادة التي صنع منها سروال سارة . وجاءت الاجابة على الفور : « أجل ، من القطن » . وفسرت لي هذه الأجابة الشيء الوحيد الذي أربكني في القصة ، وهو أن السروال كان قد ترك ممزقاً في السيارة . ولو أن السروال كان مصنوعاً من النايلون أو الريون لكان آرثر قد أخذه كتذكار من غزوته .

ولم يكن من الممكن أن تكون لديّ أية فطنة للشك في أن آرثر هو القاتل ، حتى رغم أن الوصف الذي ذكره التوأمان « بلاميت » لم يتضمن ذكر العينين الجاحظتين . (فان ركاب السيارة على أية حال لا تكون لديهم فرصة التحديق في عيني السائق) . كان آرثر ليتجارد يسكن في « بوتني » في ذلك الوقت ، وكان كثيراً ما يزور أخي في « بوتون مونشبلزيا » وهي لا تبعد كثيراً عن ميدستون .

وكان قد قال لركابه إنه مهندس الكترونيات — هذه هي وظيفة ومهنة زوج آجي . وكانت السيارة البيضاء الصغيرة قد سرقت في ذلك الصباح من أحد شوارع بلدة كريدون . وكان آرثر في ذلك الوقت منغمساً في عملية النصب المتعلقة بآلة الغسيل ، وقد تضمنت قائمة ضحاياه ثلاثة نسوة من بلدة بروملي .

من وجهة نظر كورنوك : كان من الواضح لنا أن القضية قد حلت وتم التوصل إلى نتيجتها . وكان كل ما عليه أن يفعل هو أن يرسل صورة لآرثر إلى أسرة بلاسيت لكي يكتشف إن كان صاحب هذه الصورة هو سائق السيارة الصغيرة البيضاء . وهذا هو ما حدث في الحقيقة : كان تعرف التوأمين عليه حاسماً تماماً . وكان معنى هذا أنه مهما حدث ، فان لينجارد لن يعود رجلاً حراً مرة أخرى .

وربما يبدو من الغريب أن تظل قضية سارة لويس دون حل حتى تلك اللحظة . لقد كان لآرثر سجل جنائي ، ومن المؤكد أن الرسم التقريبي الذي نشر بعد الجريمة — ونشرته معظم الصحف كان يشبهه إلى حد كبير (رغم أن شكل العينين كان مختلفاً إلى حد بعيد وكان الصدغ طويلا إلى درجة كبيرة) . ولكن الاجابة على هذا السؤال هي أن آرثر لم يكن له سجل جنائي طالما كان الأمر متعلقاً بالجريمة الجنسية . فبصرف النظر عن الهجوم على إيريس فرانكلين في وورينجتون لم يكن سجله يتضمن أي عمل آخر من أعمال العنف الجسدي . ولم تكن هناك أية بصمات للأصابع في السيارة — فقد كان يرتدي القفازات طول الوقت (وهذا هو السبب — دون شك — الذي دفعه إلى القيام بهجومه الجنسي على الفتاة خارج السيارة ، لقد أراد أن يخلع قفازيه) .

وبعد بضعة أيام ، أطلعني كورنوك على صورة لسارة لويس ، وقد أدهشتني هذه الصورة دهشة عظيمة . كانت جميلة نحيلة ذات بشرة بيضاء وشعر أحمر بلون الذهب . كان وجهها بالغ الرقة ، والفم ضعيفاً إلى حد ما رغم رقته الشديدة — وكان من الواضح أن والديها ينتميان إلى الطبقة الوسطى الميسورة إلى حد كبير . وكان بوسعي أن أكتشف نموذجا ثالثاً بدا لي أن آرثر

لينجارد كان ينجذب بعنف إلى نوعين من النساء ، أو بالأحرى ، كانت رغباته تتجه نحو نوعين من النماذج الأصلية : الجسدي ، وما يمكن أن يسمى «الروحي» . وقد أوضح لي وصفه لأيريس فرانكلين أنها كانت تنتمي هي الأخرى لذلك النموذج الأخير . وكذلك كانت ديانا بانكس : الفتاة التي تظر خلسة إلى قميصها الداخلي وهي تستبدل ملابسها في حجرة نومها ، وكذلك كانت شقيقة دنكان ماكيفر . وربما كانت كلمة « الروحي » هي الكلمة الخطأ هنا : فقد بدا إن لمثل تلك الفتيات عند آرثر نوعاً من البريق الذي كان سكوت فيتزجيرالد يضفيه على شخصياته . كان يشتاق إليهن باعتبارهن رمزاً لنوع من التحقق السامي الرفيع ، مرتبطاً باشتياقه إلى انجلترا ريفية خالية من المدن ؛ فتيات ذوات رشاقة وجمال صاف حبيب وثقافة رفيعة ، فتيات يغتسلن في الحمام اغتسالا كاملا في الساعة الخامسة من كل مساء . أما بولين وإيلين جروز — وأنا أعتقد أن آجي أيضاً — كن موضوعات لعلاقات جسدية تتجاوب مع حاجته إلى السيطرة . ولكن ما طرأ على ذهني الآن فجأة ، باعتباره شيئاً ذا دلالة هامة ، هو أنه قد حاول اغتصاب الطفلة في وورينجتون . لقد كان الأمر كما لو أنه قد قرر أن مثل هذا النوع من الجمال يروغ منه دائماً ، إلا إذا امتلكه بالقوة . ولقد شعرت ، حينما سرد علي قصة ذلك الهجوم على الطفلة ، أن الحادثة كانت أكثر أهمية بكثير وأكثر تعقيداً مما أرادني أن أدرك منها . ومن الأشياء ذات الدلالة الهامة أيضاً أنه بدأت تبدو عليه علامات الانهيار الأخير بعد هذا الاعتراف ذاته . فحتى هذه النقطة ، كان شكل حياته واتجاهها الأساسي بحثاً مستمراً ، وربما كان بحثاً دائباً عن الأم التي فقدها في بداية حياته نتيجة لاحدى الغارات الجوية . ولكنه كان في تلك اللحظة قد قرر فجأة أن يقلع عن ذلك البحث ، لكي يصل مباشرة إلى العنف عن أقصر الطرق . وقد كان من المستحيل ألا أرى الارتباط بين هذا القرار وبين قرار آجي — أو زواجها منه في الحقيقة — مع مهندسها الألكتروني .

• • •

كانت مشكلة « زو » و « جوى » هي ما أربك كورنولك ، ودفعني أنا الآخر إلى الحيرة . لم تكن هناك ضحايا لجرائم قتل بأي من الاسمين في القائمة . وقد كان فرانك سليسور هو الذي أمدنا بمفتاح فهم الجزء الأول من تلك المشكلة . ففي يوم الثلاثاء ، الخامس والعشرين من شهر أغسطس ، وهو اليوم التالي لحديثي مع كورنولك ، أطلعت فرانك سليسور على الملخص التسجيلي الذي كتبته عن حياة لينجارد ، ونسخة من قائمة الجرائم التي لم يتم التوصل إلى حل لها . وتركت الاثنين معه وذهبت لرؤية آرثر . اكتشفت سراً في نفسي قدراً ضئيلاً من التوتر العصبي حينما كان الحارس يفتح الباب لكي أدخل حجرته ؛ ولكن هذا التوتر لم يكن ضرورياً . كان راقداً على الفراش بقميصه المشدود ، يحدق بكآبة إلى السقف . وحينما سألته عن مشاعره وعن حاله ، تجاهلني ، رغم أن الذهول والكآبة ظهرا على عينيه . راودني شعور بأنه عاقل بما فيه الكفاية ، وأنه قد عرف تماماً سبب وجودي في حجرته . وبدا لي أن حالته المجهدة الفاترة كانت تنم عما يعتقده من أنه لا معنى عنده لأي شيء يمكن أن تقوله . وكان عليّ أن أحاول التخلص من إحساس بالانقباض تملكني وأنا أغادره ، بعد دخولي بعشر دقائق .

كان سليسور يتحدث في التليفون حينما عدت إلى مكتبه . وكان يقول :

« لقد اعتقدت أنني كنت على حق — لقد عثر عليها مدفونة في أحد الحقول — أليس كذلك ؟ في بستان — ألم يكن بستاناً ؟ أيمكنك أن تزودني بالتفاصيل ؟ أجل ، يمكنني أن أنتظرك » .

ووضع يده على السماعة وقال لي :

« لقد ذكرني هذا العنوان في « آرمشورب » بشيء ، كأنما دق جرساً في رأسي . أذكر أنني قرأت مقالاً ورد فيه ذلك العنوان في إحدى جرائد الأحد منذ عدة سنوات . وكانوا قد عثروا على جثة فتاة دفنت في بستان بالقرب من هناك . وأنا الآن أتحدث إلى رئيس الشرطة في دونكاستر » .

وبعد عشر دقائق كانت التفاصيل قد وصلته .

كانت الجثة قد تم العثور عليها في شهر مايو من عام ١٩٥٩ ، مدفونة تحت شجرة تفاح على حافة أحد المجاري المائية . وكانت الجثة قد بدأت تتصبن . وهذا يعني أن تشبع رطوبة التربة كان قد تسبب في تحول ما في الجسد من عناصر دهنية إلى مادة تعرف باسم « آديبو سير أو رغوة الدهن » وهي مادة دهنية بيضاء مصفرة تشبه صابون الغسيل . وكانت النتيجة أنه رغم أن الوجه كان قد تآكل جانب منه بفعل هجمات حشرة النحل ، فان الأطراف والثديين والردفين كانت قد تيبست كما يحدث لو أن الجثة كانت قد حنطت . كانت فتاة حسنة الشكل والبنية ذات شعر داكن اللون . ولم يمكن التعرف عليها أبداً بشكل واف . كان الجسد مرتدياً كل ملابسه ، باستثناء حمالة الصدر والسروال الداخلي (رغم أنه كان من المحتّم أن تختفي الملابس كلها) . وكان قد مر وقت طويل جداً منذ موتها حتى أصبح من الصعب التحقق مما إذا كانت الفتاة قد تعرضت للاغتصاب أم لا . ولكن حلمتي الثديين كانتا مقطوعتين بفعل عضة أسنان قوية .

كنت أقف خلف سليسور ، أراقبه وهو يكتب التفاصيل التي تملى عليه بالتليفون . وبينما فرغ من كتابتها ، أسرعت بإخراج النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة من « قصيدة » لينجارد من جيبي ، وقرأت السطر الذي يقول فيه : « جول يعض حلمتي زو الصغيرتين » . وأشرت إليه ليراه سليسور ، فأومأ هذا برأسه ، ثم قال لمحدثه في التليفون :

« أظن أننا سنعثر لك على حل لهذه الجريمة . هل كانت هناك فتاة تدعى زو من بين الضحايا المحتملين » ؟ .

ثم نظر إلي وهز رأسه ثم أضاف يقول لمحدثه :

« أيمكنك أن تعطيني قائمة بأسماء النساء اللواتي وضعتهن كضحايا محتملات في هذا الحادث » ؟ .

وكان الاسم الثاني في القائمة التي كتبها « بيللا بيزلي » . وقد شوهدت لآخر مرة في يوم ١٠ ديسمبر عام ١٩٥٧ ، ومرة أخرى أشرت إلى السطر الذي

تضم تاريخ « ١١ ديسمبر ١٩٥٩ » في القصيدة . وقال سليسور في التليفون :

« أليست لديك أية تفاصيل أخرى عن هذه الفتاة الثانية ؟ مثلا ألم يكن لها اسم مستعار مثل « زو » ؟ » وأجابه رئيس شرطة دونكاستر إنه سيتأكد من ذلك ثم يتصل من جديد .

قلت : « أعتقد أنها لا بد أن تكون هذه الفتاة . لقد اختفت من دونكاستر يوم ١٠ ديسمبر . وكان آرثر يعيش في منازل المساكن المؤقتة في قاعدة آرمثورب حتى ذلك الوقت . وطبقاً لما تقوله بولين ، فانه رحل عن دونكاستر في ديسمبر » .

« باستثناء أن تاريخ الاختفاء كان ١٠ ديسمبر عام ١٩٥٧ وليس ١١ ديسمبر عام ١٩٥٩ » .

« لقد اختفت يوم ١٠ ديسمبر ، وربما كانت قد أمضت الليلة مع آرثر ثم قتلها في اليوم التالي ، وربما كان قد اختطفها وفعل معها ما فعله مع جاليفيرتاس . ولم يعثر على الجسد إلا في عام ١٩٥٩ . وربما كان مزج عامدا بين التاريخين مسقطاً بينهما من زمن ، أو ربما كان قد تعمد أن يضع التاريخ الخطأ لكي يضلل خطى من يقتفي أثر القضية من خلال الكلمات » .

حينما اتصل رئيس شرطة دونكاستر مرة أخرى تليفونيا ، بعد نصف ساعة ، أصبح من الواضح أنني كنت قد وضعت يدي على التفسير الصحيح . كانت بيللا بيزلي تعمل في بار مفتوح طول الليل ، وكانت تفضل أن تعرف باسم « زو » . كانت في العشرين من عمرها وذات جسم جميل . (راجعت الموضوع في ملفات صحف لندن ، وكانت مجلة « ذا نيوز أوف ذا وورلد » قد نشرت لها صورة جعلتها تبدو شديدة الشبه ببولين : نفس الصدر الناهد المتفجر ، ونفس الردفين المستديرين الشبيهين بردفي طفلة نامية ، بل نفس طريقة تطويح الرأس إلى الوراء حينما يكون أحدهم على وشك التقاط صورة لها). وقبل اختفائها بأيام قليلة ، أعلنت بيللا لصاحب البار أنها تنوي أن تترك

العمل عنده . وأخبرت أصدقاءها بأنها التقت « برفيق مدهش » عرض عليها أن يدخلها في أحدى مدارس الدراما في لندن . (وكانت تحلم دائماً بأن تصبح ممثلة) . ومن الواضح أنها لم تكن عذراء . رغم أنها لم تكن بغياً كما أشارت إلى ذلك إحدى الصحف . وقد استجوب عدد كبير من الرجال بعد العثور على الجثة في البستان . وكان أحدهم قد ضاجعها بالفعل قبل ساعات من مغادرتها المقهى والبار لآخر مرة . وقد أخبرته بأنها تنوي أن ترحل إلى لندن بالسيارة تلك الليلة مع رجل يدعى « نيجل » ، كان قد اتصل بها هاتفياً منذ قليل لكي يؤكد لها أنه قد رتب لها مقابلة مع أحد المسؤولين عن مدرسة « رادا » للدراما . وكانت قد جاءت إلى البار في الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ١٠ ديسمبر لكي تودع أصدقاءها ، ثم خرجت لكي تلتقي بمن يدعى « نيجل » .

أما ما حدث بعد ذلك فلن يعرف أبداً . وتخميني الخاص هو أن ليجارد قد أخذها إلى المسكن الذي كان يقيم فيه وقتلها . لقد قتلها لأنها كانت مثل بولين وتشبهها ، وليس لأنه أراد أن ينام معها — فمن المحتمل أن يكون قد نام معها من قبل بالفعل . وربما كان قد دفنها في تلك الليلة ذاتها ، أو ربما احتفظ بها في المسكن لعدة أيام . وقد كشفت إحدى تحريات الشرطة فيما بعد أن آرثر قد أقام في المساكن المؤقتة — في مسكن مستأجر ممن يدعى مستر ل . ماترز من « ديري فارم » — منذ مارس عام ١٩٥٧ حتى ٢٨ ديسمبر من نفس العام . وفي خلال معظم تلك الفترة عمل في مؤسسة للتليفزيون في « بالبي » وكان يقوم بقيادة سيارتهم المخصصة لعمليات الاصلاح . ومن المؤكد انه قد استخدم تلك السيارة في نقل الجثة من مسكنه إلى البستان على بعد ميلين . وكان البستان جزءاً من مزرعة لم يقطن أحد في المنزل الملحق بها منذ شهر يوليو السابق . وربما كان آرثر قد أخذ الجاروف اللازم لحفر القبر من حجرة الأدوات القريبة من بوابة البستان .

وتبدو لي هذه الجريمة قادرة على تجسيد بعض من أغرب المشكلات السيكولوجية في تلك القضية . ففي عام ١٩٥٧ كان آرثر على علاقة طيبة ببولين ،

وبعد قضائه مدة سجنه استمر في تبادل الخطابات معها ، وزارها مرتين في ساوثبورت . وفي هذه الفترة كانت تعيش مع رجل متزوج كان عمره يبلغ ضعف عمرها على الأقل ، ولكن هذا لم يبد أنه أزعج آرثر أو أثار غضبه . وعلى العكس ، يبدو أنه هو وعشيقها تبادلا الاعجاب ، وفي إحدى المناسبات ، جلسا معاً حتى الساعات الأولى من الصباح يسكران ويتبادلان الأنخاب .

ومع هذا ففي شهر نوفمبر التقى آرثر بعاملة البار الجميلة التي ذكرته ببولين - ويبدو أنه تحمل الكثير من أجل اغوائها (فقد أخبرت هي إحدى صديقاتها بان « نيجل » كان يأخذها إلى المطاعم الفاخرة الغالية) وكذب عليها بشأن وظيفته واتصالاته بعالم المسرح ، وخطط لقتلها . كانت هذه العملية تتضمن مخاطرة أكثر بكثير من جريمة قتل جاليفير تاس أو سارة لويس . فطالما أنه كان يعمل في دونكاستر فقد كان معرضاً لأن يلتقي بها فجأة في أية ساعة من ساعات النهار ، كما أن سيارة اصلاح التليفزيون لا تستطيع إلا بصعوبة بالغة أن تدعم قصته المزعومة عن كونه رجل أعمال تمثيلياً شاباً . ولو أنها كانت قد أسرفت قليلاً في الحديث عنه ، أو حتى لو أنها وصفت مظهره ، فربما استطاعت الشرطة بسهولة أن تقتفي أثره بعد مقتلها . ولكن فكرة قتلها أثارت لديه وتراً عصبياً جنسياً مهلكاً ، فتجاهل كل تلك المخاطر ، وقتلها .

ولكن لماذا قتلها ؟ لو أنه لم يكن ينوي أكثر من أن ينام معها ، لكان في وسعه أن يحقق هذا الهدف دون أن يقتلها - بل وحتى دون أن يكذب عليها بشأن وضعه ووظيفته واتصالاته . فان عاملاً من عمال اصلاح التليفزيون يمكن أن يكون عاشقاً مقبولاً تماماً . إن علي أن أفترض أن النوم معها دون قتلها والكذب عليها كان شيئاً يمكن أن « يضجر » آرثر إلى درجة لا يستطيع احتمالها . إن اغواء فتاة تعمل في إحدى الحانات على أيدي عامل من عمال اصلاح أجهزة التليفزيون ليس بالعمل الذي يمكن أن يتناسب مع أحلام بقطة البروفسور موريارتي . لقد أراد أن يكون المجرم الذي يحيطه الغموض ، والقاتل الذي خلا قلبه من الرحمة .

وهذا في حد ذاته يكشف عن شيء هام في تكوينه النفسي . إنه لم يكن - حتى تلك الفترة - يرسم لنفسه رسماً دراميا في صورة نابوليون الجريمة - لقد كان هذا صعب الاحتمال جداً بالنظر إلى افتقاره إلى النجاح حتى بوصفه نصاباً صغير الشأن - ولكنه كان مستمراً في تصور نفسه صورة العنكبوت الأسود المميت ، الذي كانت الفتيات بالنسبة له ذبابات يحملها إلى وكر نسيجه كالشرك الخطر . وبكلمات أخرى ، كان قد « قرر بوعي » أن يكون مجرماً جنسياً من مستوى خطير . كان قد قتل آيجي في شخص سارة لويس . وهو الآن قد قتل بولين واغتصبها في شخص زو بيزلي . إنها جريمة قتل يقوم بها انتقاماً أو بهدف الانتقام - الانتقام من أجل « أمه » التي تم استبدالها . ومن هنا تكررت عملية قضم الحلمات بالأسنان وقطعها ، وفي حالة سارة لويس ، كانت عملية القضم قد استهدفت الأعضاء التناسلية ، الأمر الذي يرمز إلى تصميمه على أنها ينبغي ألا تعطي نفسها لأي رجل آخر .

* * *

لم يكن لغز الكلمات المتقاطعة يفتقد الآن إلا قطعة واحدة : هوية «جوى» .

كنت أنظر إلى السجل التاريخي الذي وضعته لحياة آرثر ، فخطر لي فجأة أن التاريخ التقريبي المحتمل لاحدى جرائم القتل التي قام بها آرثر يمكن أن يكون في عام ١٩٦٢ ، بعد مهاجمته لبولين . ورحت أقرأ بعناية قائمة الجرائم الجنسية التي لم يتم التوصل إلى نتيجة بشأنها في ذلك العام . ولم تكن هناك أية ضحية تحمل اسم « جوى » . ثم وقع بصري عليه : مارتا آيجوى ، قتلت في مدينة ليدز في السابع عشر من شهر يوليو عام ١٩٦٢ . إنه يقول في « القصيدة » : « من المذبحة صعوداً إلى الفرحة ، ومن « جوى » إلى جانيفير » . كانت هذه العبارة قد حيرتني . كيف يمكن للمرء أن يصل إلى جاليفير صعوداً « على جوى » ؟ ولكن الأمر الآن كان واضحاً : إنها كانت مجازاً سخيفاً . لقد كان اسمها « آيجوى » ، وقد امتطاها ورقد فوقها .

اتصلت هاتفياً بشرطة مدينة ليدز لكي أطلب التفاصيل ، فعرفت أنني عثرت على القطعة الناقصة . كانت مارثا آتجوى ، التي تبلغ الثامنة عشرة من عمرها ، قد عثر على جسدها مخنوقة بفردة جورب حريري في فناء كنيسة سانت ماري في مدينة ليدز . وقد تطابقت حكايتها مع التقسيمات التي وضعتها تطابقاً كاملاً : إنها ابنة لوالدين ثريين ، نحيفة وشقراء ، وكانت على وشك أن تبدأ دراستها في كلية سانت آن ، التابعة لجامعة أوكسفورد . وقد شوهدت لآخر مرة أثناء زيارتها لمستشفى ليدز حيث كان صديقها ، وارين ماخين الذي كانت مخطوبة له ، يعالج بعد اجراء جراحة في أنفه . كانت مارثا آتجوي تقود سيارتها الحمراء من نوع « ستاندارد تريومف » ، وكانت قد تركتها في مكان الانتظار في ميدان « ثورزباي بليس » بالقرب من المستشفى . ووقف صديقها امام نافذة حجرته بالمستشفى وظل يرقبها وهي تصعد إلى سيارتها وترحل بها . وعثر على السيارة مهجورة في اليوم التالي في منطقة المروج الكثيفة بين مدينتي ليدز وبرادفورد . وفي المقعد الخلفي كان هناك مسدس ، ولكنه كان لعبة من لعب الأطفال .

وكانت إعادة تسجيلي لحوادث الجريمة كما يلي :

ربما كان آرثر قد رأى الفتاة أثناء مغادرتها السيارة فشعر بانجذاب نحوها — أو ربما كان قد رأى السيارة أثناء انتظارها ووجود الفتاة في المستشفى فلاحظ أنها سيارة فتاة — فمعظم النساء يتركن في سياراتهن أشياء نسائية ، ربما مناشف ورقية ملوثة بأحمر الشفاه ، أو إحدى المجلات النسائية . وصعد آرثر إلى المقعد الخلفي للسيارة ورقد على الأرضية خلف المسند الأمامي . وصعدت هي إلى السيارة دون أن تلحظ وجوده ، فانطلقت بها . وفي لحظة ما ، وضع فوهة المسدس على مؤخرة عنقها وأمرها بأن تستمر في السير . وأجبرت الفتاة على أن تصحبه بالسيارة إلى بقعة منعزلة في منطقة المروج ، حيث اغتصبها جنسياً ،

ثم خنقها ، ووضع جسدها في السيارة ، وقادها عائداً إلى ليدز ، حيث تركها في فناء الكنيسة .

فلماذا كان عليه أن يفعل ذلك ؟ كانت المخاطرة جنونية دون شك . ويعتقد كورنوك أن الإجابة هي أن آرثر كان في الحقيقة مجنوناً ، وأنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن خطورة ما كان يفعله ، وهو يشير إلى وصف بولين لزيارة أخيها — قبل هذه الجريمة بشهر واحد — باعتبارها دليلاً على هذا الجنون .

ولكن نظرتي أنا أكثر تعقيداً : وهي أيضاً تفسر — فيما أعتقد — قدراً أكبر بكثير من لغز السبب الذي دفعه إلى العودة إلى ليدز .

لقد كشفت الشهادة الطبية عن أن مارثا آتجوى كانت عذراء قبل أن يقع عليها هذا الهجوم . ومن الواضح أيضاً أنها لم تهيج آرثر إلى درجة الجنون الجنسي الذي دفعته إليه الضحايا السابقات . فان الجسد لم ينتهك انتهاكاً عنيفاً بعد الموت ، كما أن السائل المنوي لم يوجد إلا في العضو التناسلي فقط .

إنها بينما كانت تقود السيارة في اتجاه المروج الكثيفة ، والمسدس — الذي كانت تظنه حقيقياً — يضغط على عنقها ، لا بد أن تكون قد توسلت إليه ، وربما قالت له إنها ما تزال عذراء . وبعد هذا الاتصال الشخصي ، لم يعد بوسعه أن يعاملها ببساطة باعتبارها موضوعاً لشهوته الجنسية . حقاً إنه كان قد عاش نوعاً من الاتصال الشخصي بكل من سارة لوبس وزو بيزلي وايفلين ماركيز قبل أن يقتل كلا منهن : ولكنه في كل حالة من تلك الحالات كان يمثل دوراً منتظراً اللحظة التي سيفقدهن فيها وعيهن . كان مثل القط الذي يراقب الطائر الذي يتقافز على الأغصان غافلاً دون أن تخالجه الشكوك . أما في هذه الحالة فقد انتاب الخوف الفتاة ، وكانت قد عرفت ما يسعى إليه . لقد حدثته عن الرجل الذي كانت مخطوبة له . ورغم هذا فقد أرغمها على أن تخلع ملابسها كلها (فقد اثبت الكشف على الجثة أن الملابس كانت قد خلعت ثم اعيد ارتداؤها من جديد) . ولا ريب أنه استمتع باحساسه بالقوة والسيطرة وهو

يراقبها وهي تخلع ملابسها أمامه . ومع هذا فقد كانت شخصاً . وليست مجرد موضوع للشهوة الجنسية . لقد أرغمها على أن ترقد على ظهرها ، ثم ألقى نفسه فوقها ، وواجه مشكلة ممارسة الجنس مع عذراء شابة متوترة ومرتعبة . ورغم كل هذا فقد استمر في عمله ، وفي خلال فترة الساعات القليلة التالية ، كرر العملية على الأقل مرتين . ويتبنى كورنوك رأياً يقول بأن الفتاة كانت قد أفقدت وعيها في ذلك الوقت — كانت مؤخرة رأسها قد جرحت جرحاً بليغاً بسبب ضربة ثقيلة . ومن الواضح أنها ضربت بالمسدس اللعبة ، الذي كان من النوع العالي الثقيل . ولا أستطيع أنا أن أقبل هذا الرأي . لأن لينجارد إذا كان قد ضربها حتى أفقدها الوعي قبل أن تبرح السيارة ، فانها ما كانت لتظل فاقدة وعيها لمدة تزيد على الساعة . أنا أعتقد أنه أخذ يتحدث معها ، بل ربما كانت قد أبدت نوعاً من الاهتمام به والتعاطف معه . كانت مقتنعة بأنه حينما ينتهي من أمره معها وينال بغيته ، فانه سيتركها ترحل في سلام . وتركها هو تعتقد ذلك وتصدقه ، ولكنه كان يعرف أن هذا لن يحدث . فانها ما كان عليها إلا أن تذكر أوصافه لشرطة ليدز ، فيصبح رهين الحبس في خلال ساعات . وفي وقت ما بعد أن حل الظلام — وربما بعد منتصف الليل — جعلها تقود السيارة عائدة إلى ليدز ، بينما جلس هو في المقعد الخلفي ، وتوقفت السيارة في الشارع الساكن القريب من فناء كنيسة سانت ماري ، على بعد أقل من نصف ميل من منزلها . وجعلتها ضربة عنيفة واحدة على مؤخرة جمجمتها تنحني إلى الأمام فاقدة وعيها . ونظر إلى كل الجهات لكي يتأكد من أن الشارع كان خالياً من كل إنسان ، ثم جرها إلى خارج السيارة حتى فناء الكنيسة وخنقها . وكانت الفتاة قد ماتت منذ ما يقرب من ثماني ساعات حينما عثر على جسدها في الساعة التاسعة من الصباح التالي . ثم بدأ بعد ذلك يتساءل : ألم يترك وراءه أي شيء عند مسرح جريمة الاغتصاب ؟ يبدو لي هذا هو التفسير المقنع الوحيد القادر على الابانة عن سبب عودته بالسيارة إلى المروج . أما الاحتمال الثاني فهو أنه كان يقطن في مدينة برادفورد . وكان القيام بأخذ السيارة طول الطريق إلى برادفورد

قادراً على أن يوجه البحث إلى هناك . وهكذا فقد ترك السيارة في منتصف الطريق ، وسار على قدميه ما بقي من الليل ...

فاذا كانت اعادة نسج الجريمة على هذا النحو صحيحة ، فانني أعتقد إذن أنه من الهام من الناحية السيكولوجية أن تقيد حريته وأن يمنع من الاتصال بالمجتمع . هنا توجد قضية حيث الجريمة كلها قد فاحت رائحتها . لقد قصد بها عمداً أن تكون نوعاً من انفجار الشهوة ، ثم تحولت إلى نوع من ابتزاز فتاة على قدر كبير من الحلاوة والعاطفية ، بل إن عملية الاغتصاب نفسها قد فسدت بعذريتها وتوترها العصبي . إن الخاصية المميزة لنوع الجريمة الذي يرتكبه آرثر كانت هي أنها جريمة ترتكب لكي تتناسب مع عالم أحلامه ، ولكن هذه الجريمة كانت حقيقية اكثر مما يمكن احتماله وواقعية أكثر مما يمكن اغتفاره . إنه لم يرد أن يقتلها — وإلا لكان قد قتلها في منطقة المروج المنعزلة النائية . فوفر بذلك على نفسه قدراً كبيراً من المشاكل . ولكنه قتلها بناء على حساب دقيق بارد وبدافع هذا الحساب وحده . لأنه لم يكن يستطيع أن يتحمل نتائج ما ستدلي به من أقوال — وهي الأقوال التي لا بد كانت ستدلي بها — ولم يستطع أن يثق بوعدها — الذي لا بد كانت قد قطعته له على نفسها — من أنها لن تسيء اليه . ولا بد أنه بينما كان يسير عائداً إلى بيته في تلك الليلة ، لا بد أنه تمنى من كل قلبه لو أنه لم ير تلك السيارة الرياضية الحمراء ولم يقع بصره عليها أبداً ، ولا بد أنه تمنى لو أن مارتا أبجوي كانت في تلك اللحظة راقدة في فراشها في هدوء وراحة كاملة . لقد تركته الجريمة مثقلاً بمشاعر المرارة والاحساس بالدناءة والشر .

فأي دليل هناك على هذا الرأي ؟ حسنا ، هناك الحقيقة المقررة التي تشير إلى أن هذه كانت هي آخر ما ارتكبه من جرائم جنسية ، رغم أنه كانت أمامه ستة أخرى يعيشها في الحرية . وهذا في حد ذاته جدير بالملاحظة . إن أغلب المجرمين الجنسيين يستمرون في ارتكاب جرائمهم حتى يلقى القبض عليهم ، كما أن جرائمهم تزداد تقارباً كلما تقدم بهم الوقت . أما آرثر لينجارد فقد

ارتكب خمس جرائم جنسية في الفترة الواقعة بين شهر يونية عام ١٩٥٦ حتى شهر يوليو عام ١٩٦٢ ، ثم توقف بعد هذا . وقد حاولت أن أثبت أنه في كل تلك الحالات كان دافعه هو الانتقام — من آجي ومن بولين — بقدر ما كان هذا الدافع هو الجنس . ولكنه بقتل مارتا آجوى ، تسللت الحقيقة الواقعية إلى حلم اليقظة الجنوني ، وتوقفت جرائم القتل .

• • •

في اليوم السادس والعشرين من شهر أغسطس — وبينما كان كورنتوك ما يزال يحاول أن يكتشف هوية زو — اتصل بي فرانك سليسور تليفونياً لكي يقول إنه يريد أن ينقل لينجارد إلى مصحة برودمور في رامبتون على الفور . فبينما كان أحد الحراس يخلع له قميصه المشدود — قبل اطعامه — انحنى آرثر إلى الأمام وأطبق على اصبع الحارس بأسنانه . وظل يعض بقوة ، وانغرست أسنانه في عظام الاصبع . وظل يعض ، رغم الضربات الجنونية التي كالها الحارس له على وجهه . وحينما أجبر في النهاية على فتح فكيه ، أغمي على الحارس ، وبصق آرثر من فمه بصقة كبيرة من الدماء ، ثم طوح صينية الطعام فبعثرها على الأرض .

ووافقت على نقله فوراً . وكانت الحقيقة هي أن آرثر وضع في قميص المجانين ذي الأربطة ، ليس لأنه كان ببساطة ميالا إلى العنف ، وإنما لأنه كان من السهل عليه جداً أن يهرب من سجن «روزهيل» لو أنه بذل أي مجهود حقيقي من أجل الهرب .

وفي يوم السابع والعشرين من أغسطس نقل إلى برودمور ، ولم أصحبه في رحلته . فقد أرسلت سلطات برودمور سيارة شاحنة صغيرة لنقله . وبعد ذلك بيومين ، حينما اتصلت بالمدير لكي أسأله إن كان يريدني أن أزور آرثر قال إنه قد يكون من الأفضل أن أبقى بعيداً عنه في تلك الفترة . وكان آرثر قد استقر في سجنه الجديد بسرعة ، ولم تبد عليه أية علامة على الميل إلى العنف ، وكان قادراً على الدخول في محادثة عاقلة بهدوء .

في اليوم التالي لتلك المحادثة ، سافرت إلى لندن مع كورنتوك ، بدعوة من اسكوتلاند يارد . وقد أردت أيضاً أن ألقي نظرة على ملفات الصحف في قاعة مكتبة « كولنديل » . وقد حدث هناك أن تحققت من التشابه الجسدي المدهش بين بولين وزوبيزلي . وكان كورنتوك يأمل أن يقتفي آثار حركات آرثر خلال الفترات التي لم يكن لبولين فيها عناوين معروفة — في خلال سنة ١٩٥٨ ، وفيما بين شهر يونية عام ١٩٦٢ والقاء القبض عليه بسبب جريمة القتل في بيت المزرعة في العام التالي . وقد حدث خلال اليوم التالي من اقامتي في لندن أن وصلت إلى اكتشاف حكاية مارتا آجوي في ليدز — حينما كنت أفحص ملف اسكوتلاند يارد الخاص بجرائم القتل التي لم يتم التوصل إلى نتيجة بشأنها . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، أصبحت المسألة بين يدي كورنتوك ، وبين يدي رئيس المفتشين هوكينز في اسكوتلاند يارد . وقد قررت أيضاً أن أخصص يوماً أهتم فيه بمسألة اهتماماً شخصياً : فقد أردت أن أقابل مسز رول — وهي التي كان اسمهـا السابق هو آجي لينجارد . ولا بد لي أن أعترف أنني لم أكن أشعر إزاءها بفضول كبير . فقد كانت بولين هي الأكثر أهمية بين الاثنتين : أما أجيني فقد انساقت بشكل سلبي ، تاركة للأشياء أن تقع وللأمور أن تجري في مجراها دون تدخل منها . كان من الواضح أنها واحدة من أولئك النساء الهادئات غير الميالات إلى الشجار أو المتاعب دون قدر ملحوظ من الحيوية أو الذكاء . ولكنه بدا لي أن من المؤسف أن أعود إلى يوركشاير دون أن أراها .

قدت سيارتي في عصر يوم الخميس ، وأنا أفكر في أنني أسير الآن في نفس الطريق الذي سار فيه آرثر حينما كان يقود السيارة الصغيرة البيضاء .

كان الريف يبدو أخضر اللون يسوده السلام والهدوء ، وكانت البساتين ملأى بثمار التفاح ، والحدائق تتألق بالزهور . ولم يكن ثمة أثر لجو الخريف في الهواء . عثرت على منطقة المروج على بعد نصف ميل من القرية ، وكان هناك كوخ جميل مائل السقف ، ومن الواضح أنه قد شيد في غضون العشرين

ماماً الأخيرة . لم تأتني أية اجابة حينما ضغطت على جرس الباب الأمامي .
للحظة خشيت أن تكون زيارتي عبر المدينة مجرد اضاعة للوقت .
ولكنني سمعت بعض الأصوات في الحديقة . فسرت حول جانب المنزل .
رآني كلب ضخم من نوع البوكسر فشرع في النباح ، وكنت أعرف من طباع
الكلاب ما معني من التراجع فتقدمت نحوه . فراح يتشممني ثم سار إلى
جانبي بهدوء .

كانت الحديقة الخلفية واسعة . وكانت هناك ثلاث سيدات يجلسن في ظل
الأشجار . يشربن الشاي . وكان هناك عدد من الأطفال في ثياب الاستحمام
يتقافزون خارجين من مياه مجرى قريب من نهاية الحديقة أو قافزين إليه . وقفت
سيدة شاحبة رقيقة ترتدي ثوباً يجمع بين اللونين الأزرق والأبيض وجاءت لكي
تستقبلني . ذكرني وجهها برسوم وجه فيرجينيا وولف — لقد كانت لها
نفس العيون الواسعة والأجفان الكبيرة . وكانت ابتسامتها حلوة بشكل غير
عادي . وكان هذا راجعاً من ناحية إلى عينيها ، وراجعاً من ناحية إلى أسنانها
الأمامية البيضاء التي كانت احداها قد ركبت فوق الأخرى بدرجة خفيفة .
سألتها :

« هل مسز رول موجودة من فضلك » ؟

« أجل . أنا مسز رول . ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك » ؟

نظرت إليها مدهوشاً . كان شعرها أشقر فاتح الشقرة ، يكاد يكون في لون
الرماد . وبشكل ما ، كنت قد تصورت آجي على الدوام . ذات شعر داكن
مثل أبناء عمها . وأنها ذات بشرة سمراء . وجدت نفسي أقول ، وأنا أقول :
« اسمي كاهن . الدكتور صامويل كاهن . وأنا أريد أن أتحدث
معك بشأن ابن عمك آرثر » .
شحب لون وجهها وقالت :
« ما أحواله ؟ أين هو » ؟
« أخشى أن أقول لك إنه في سجن بروديمور . لقد أصيب بانهيار

عقلي بالغ القسوة » .
« أوه ، يا إلهي » !
كانت لكنتها هي لكنة لانكشاير تماما ، وكان صوتها فضياً ممتعاً . نظرت
نحو الحديقة الخلفية بطريقة تدل على الانزعاج وقالت :
« أتسمح بأن تتفضل إلى الداخل ؟ اسمح لي بدقيقة أخبر صديقاتي
بالأمر » .
اثارني الفضول إلى معرفة صديقاتها . فسرت وراءها إلى الحديقة الخلفية .
صاحت فتاة شقراء جميلة في حوالي السابعة من عمرها بصوت رفيع :
« مامي : آرثر يضربني بمسدس الماء » .
تجاهلتها آجي ، وقالت لاحدى صديقتيها :
« ماري : هذا السيد يريد أن يتحدث معي عن ابن عمي آرثر .
أتسمحين بأن تلاحظي الأطفال » ؟
ونظرت إلي بطريقة مرتبكة وغامضة كما لو كانت قد نسيت فجأة سبب
وجودي في منزلها — وكان بوسعي أن أخمن أن الحسم والكفاءة ليسا من فضائلها
الأساسية — ثم قررت أن من الواجب أن تقدمني للصديقتين . فقالت :
« مستر كاهن . أعني الدكتور كاهن . هذه مسز ميرسر . وهذه
مسز آدامز » .
كانت إحدى المرأتين صغيرة السن وفائقة الجمال — وربما كانت زوجة
مهندس تنفيذي شاب . وكانت الأخرى في نحو الخمسين من عمرها — وبدت —
وكان هذا واضحاً — كما لو كانت زوجة خوري الكنيسة المحلية .
قالت آجي : « أتسمح بالمجيء إلى المنزل يا دكتور » ؟
تبعتها وأنا ألاحظ أن ولدها آرثر بعيد الشبه عن قريبه بقدر ما يمكن أن
يبعد الشبه . فقد كان ضخم الجسم ممتلئاً أشقر الشعر والبشرة .
قادتني عبر النوافذ الفرنسية إلى حجرة مشرقة ذات أثاث جيد . وهناك
رفوف الأسطوانات الموسيقية فوق جهاز الحاكي المزدوج الصوت .

اعتذرت عن المجيء في وقت غير مناسب ، ثم لخصت لها قصة علاقتي بابن عمها ، محاذراً من أن أقول شيئاً عن جرائم القتل . أصغت إلي بطريقة تدل على الارتباك وقد اتسعت عيناها ، ووجدت نفسي أتساءل عن مقدار ما كانت تدركه من حديثي . ولكنها قالت عندما فرغت من سرد القصة :

« لقد فعل آرثر شيئاً مرعباً ، أليس كذلك » ؟

أومأت برأسي وقلت :

« لقد قتل فتاة » .

حدقت في وجهي دون تعبير ، وتساءلت بيني وبين نفسي إن كانت قد أدركت معنى ما قلت . ثم قالت :

« كنت أعرف دائماً أنه قد يفعل ذلك » .

« كيف عرفت ذلك » ؟

قالت : « لقد أراد أن يقتلني » .

« ماذا » ! كذلك صحت وأنا أكاد أقفز من مكاني .

« هذا هو السبب الذي جعل بريان — وهذا اسم زوجي — يقول له ألا يعود إلى هذا المنزل ثانية أبداً . وقد قال لي إنه مقتنع بأن آرثر قد انتوى أن يأتي إلى المنزل فيقتلني حينما يجدني بمفردي » .

« وماذا ظننت أنت » ؟

« لقد ظننت ... » وبدا عليها الارتباك ثم أضافت تقول :

« ظننت أنه يستطيع ذلك . هل أنت ... هل تعرف كل شيء عن آرثر ... » ؟

أكملت عبارتها فقلت :

« أعرف أنكما كنتما عاشقين .. أجل » !

ابتسمت ابتسامة شاحبة وقالت : « لم نكن عاشقين . إنه لم يحبني أبداً » .

« ولكنك أنت أحببته » ؟

أومأت بوقار وقالت : « بالطبع . إنني ما زلت أحبه » .

كانت تتمتع بالقدرة على دفعي إلى الفأفأة من الارتباك والدهشة بأن تقول الأشياء بطريقة توحي بأنها لا تبالي بها دون حرارة ، كما لو كان الزبد لا يمكن أن ينصهر في فمها . وبينما كنت أحاول أن أجمع شتات ذهني ، قالت :

« كم شخصاً قتل » ؟

قاطعنا دخول ابنها الصغير الذي اندفع إلى الحجرة وهو يلهث . وحينما هزت له رأسها مستنكرة قال إنه أصبح قطاراً ينفث الدخان . ثم اقترب منها ووقف عند ركبتها وقال :

« عن أي شيء تتكلمان » ؟

« عن آرثر » .

« هل مات » ؟

قلت : « كلا . إنه ما يزال حياً » .

قال الولد بابتهاج : « حسنا . إذن فكل شيء على ما يرام . مامي ، لماذا ترفض ماري أن تجعلني أمسك دبها الصغير قليلاً .. » ؟

شعرت بصدمة . أجل ، إن كل شيء على ما يرام . إذن فماذا فسد في داخل آرثر وسار في الطريق الخطأ ؟ كيف أمكنه أن يصبح شخصاً سالباً إلى هذه الدرجة ؟ .

وبينما كنت أحدق فيها وهي تلاطف شعر ابنها الصغير ، تراءت لي فجأة صورتها وهي ترقد عارية على البساط في الحجرة الأمامية في شارع بينكبث . وكانت لرؤيتي حيوية هلوسة المحموم . وفجأة خطرت لي فكرة أخرى : لم يكن بوسع آرثر أبداً أن يصدق أن هذه الفتاة الرقيقة الهشة يمكن أن تهجره . إنها ما تزال تحب آرثر بالطبع . لقد كانت من النوع الذي إذا منح حبه لا يعود فيسحبه أبـداً .

وحينما جرى الطفل خارجاً مرة أخرى سألتها :

« هل جاء آرثر إلى هذا المنزل » ؟

« أوه ، أجل . سبع مرات أو ثماني . كان هذا بعد زواجنا بفترة قصيرة جدا . كنت حاملا في ماندي في ذلك الوقت . »

كان بمقدوري أن أتخيل الصورة . آجي في ثوب حملها الأموي ، في هذا المنزل الذهبي . آجي ، ناعمة وهائمة بهورمونات الأمومة التي تتدفق في داخلها بهدوء ، تبتسم في غرام رقيق لزوجها الذي حملها بعيدا مثل الفارس . وآرثر ، الغريب ، اللامنتمي ، بأحلامه ورؤاه عن كوكب المريخ ، وحقيقته الكريهة المحملة بحياته اليومية في الجريمة . والنتيجة ؟ لقد قرر أن يكون أفاقا مهذبا ، نصابا ، بدلا من أن يكون لصا ...

نقرت زوجة الخوري نقرات خفيفة بأصابعها على النوافذ الفرنسية وقالت :

« أوه ، معذرة ... أظن أنه لا بد لنا أن نذهب . لقد وقع روبين في الماء وبلل ملابسه ... »

نهضت آجي ، واعتذرت عن انصرافها ، وخرجت . جلست أنظر من النافذة . كان من المدهش أن أتبين أن آجي كانت — بطريقتها الخاصة — لا تقل بهجة عن بولين . ربما كانت أقل منها حيوية ، ولكنها كانت أكثر أنوثة : يستطيع المرء أن يتخيل طريقتها إذ تغضب . ومن الواضح أن هذه الحياة قد لاءمتها . كان بإمكاني أن أرى المنزل الأخضر وراء أشجار التفاح في الحديقة : كانت يداها الصغيرتان بنيتين وخشنتين . إنهما يدا امرأة كانت تستمتع بحفر الأرض وزراعتها . فاذا كانت بشرتها ذات يوم شاحبة وغير صحية ، فقد اكتست الآن لونا ذهبيا دافئا ، بشرة امرأة تمضي الكثير من وقتها خارج المنزل تحت الشمس وفي الهواء الطلق . كانت فتاة من النوع الذي يحب بعض الرجال — من ذوي الميول الأبوية مثلي أنا شخصيا — أن يربتوا عليها وأن يدللوها . كان شكلها جميلا جدا ، وخاصة شكل جسمها — نحيلا ومستقيما — وكان نهداها ما يزالان متماسكين . كانت قد تعودت أن تعطي جسدها للرجال منذ كانت طفلة ، لقد شعرت منذ ذلك الحين أن من حقهم أن يأخذوها . كانت جديرة بأن تسمح لهم بممارسة الجنس ، بينما ظل عقلها متعلقا برغائبه الخاصة :

الأطفال ، ومنزل له حديقة ، وثمار الفراولة مع الشاي في أيام الأحد . كانت نموذجا للمرأة التي رسمها بليك : « روح البهجة الحلوة ، التي لا يمكن تشويهها ولا إفسادها أبدا » . فماذا كان يمكن أن تعرفه عن صور البغض السوداء ونوبات الغضب التي كان آرثر يمور بها بينما كان يتجه إليها في سيارته ؟ لو أنني كنت قد رأيتها جالسة في الحديقة مع المرأتين الصديقتين ، تصب الشاي وتلاحظ الأطفال وهم يقفزون في مجرى الماء ، لكنت قد افترضت أنها ابنة عائلة من نبلاء الريف . لقد كانت تشيع جوا من السمو الأخلاقي الأصيل .

كان آرثر بحاجة إليها ، وبمعنى ما ، كان بحاجة إليها إلى درجة أكثر من احتياجه إلى بولين .

رأيت أن تلميذة جميلة في نحو الرابعة عشرة من عمرها كانت تلعب الآن في الحديقة مع الطفلين ، وكان من الواضح أنهما يحاولان أن يجذباها من ذراعيها كل من أحد الجانبين . ودخلت آجي مرة ثانية ، قالت :

« إنها ابنة الجيران الملاصقين لنا ، إنها تساعدني في أمور المنزل أحيانا »

جلست وحدقت فيما ورائي ، ثم قالت :

« ماذا سيحدث لآرثر ؟ »

قلت : « لا شيء ، سوف يبقى في السجن . »

« هل سيقدمونه إلى المحاكمة بسبب الفتاة ؟ »

« إذا استرد قواه العقلية ، أجل . »

بدأت تبكي . وكان علي أن أكبح رغبتي في أن أقترب منها لكي أربت على شعرها . ولكي أصرف انتباهها ، أخرجت « القصيدة » من جيبي وناولتها لها . ومثل الطفلة ، مسحت الدموع عن عينيها بظاهر كفها ، ونظرت إليها . وبدا عليها أنها قرأتها دون أن تفهمها . قالت :

« ولكنها تحمل توقيعا باسم جونك ... »

« هذا جاك الخانق . »

« أوه ، أجل . أعرف معناها الآن . إنني أفهم هذا السطر الذي يتحدث

عن الخنافس . »

« أخبريني بما فهمته . »

« كان كتابا عن جاك الخانق ، وكان مؤلفه رجلا يدعى ماترز ... كلا ، ماترز . وقد جلس آرثر في المطبخ ليقرأه ، وكان هناك عش لبعض الخنافس السوداء في ثقب من الركن . وقد ظل يقرأ هذا الكتاب حتى تفكك إلى أجزاء متناثرة ... وأذكر شيئا آخر .. كان ذلك في عيد الميلاد وعثر آرثر على عظمة الأمنيات في كتف الدجاجة ، وجلبتها معه فحصل هو على النصف الأكبر . ولكنه قال لي : « تمني أنت ، فلا فائدة لي من التمني . » وبذلك تمنيت شيئا لا أذكره . ثم قال : « لا يمكنني أبدا أن أحصل على الشيء الذي أريده أكثر من أي شيء آخر . » فسألته : « وما هو ؟ » فأجابني : « أن أعرف من كان جاك الخانق حقا . »

لم تكن لدي أدنى فكرة إن كنت قد عثرت على مفتاح رئيسي جديد ، أم أنني وقعت فقط على أثر زائف آخر . جاك الخانق ، القاتل الجماعي الانجليزي الوحيد الذي لم يلق القبض عليه أبدا ... أكان هو الصورة الخيالية التي حلت في ذهنه محل موريارتي حينما هجرته آجي ؟ »

نظرت بغموض إلى الورقة التي في يدها وقالت :

« لماذا هي ممزقة بهذا الشكل ؟ »

قلت : « لأنه لم يستطع أن يقرر إن كان يطلعني عليها أم لا . »

ماذا كان الخوف الذي عشش في مؤخرة عقله وهو يرتجف في ركن زنزانته . الكلب ؟ كلب آجي ؟ وفجأة سطعت في ذهني صورة أخرى . كانت صورة لهذا المنزل في وقت متأخر من الليل ، وهناك نافذة وحيدة ما زال الضوء يشع منها . وآرثر واقف عند الباب ، يحدق في النافذة . عيناه جاحظتان ، والعرق ينضح من وجهه ويسيل على صدغيه . وقد أمسك في يده سكينا .

سألتها : « أتصدقين أنه كان بوسع آرثر أن يحاول إيذاءك ؟ »

ابتسمت في وجهي ، تكاد ابتسامتها تنم عن الاشفاق لي أو الرثاء لأجلي .

وقالت :

« كلا . بالطبع لا أصدق هذا . »

بقيت مع آجي طوال ما بقي من وقت العصر حتى حل المساء . كانت تشترك في شيء واحد مع ابنة عمها بولين : صراحة غريبة . لقد لاحظت الطريقة الواضحة التي أخبرت بها زوجة الخوري أنني جئت لكي أكلمها عن ابن عمها آرثر ، نزيل السجن ... كان من الواضح أنه يبدو لها ، ببساطة كاملة ، أن لا شيء يستحق اخفاءه أو الكذب لأجله أو بشأنه .

جاء زوجها إلى البيت قبيل الساعة السادسة بقليل ، وهو يقود سيارة كبيرة فاخرة من نوع « جاجوار » . كان رجلا شابا وسيما ، له شعر باهت اللون ووجه بارز القاطع . وقال لي إن هوايته كانت الموسيقى ، وأن طفليه كليهما يتلقيان دروسا في العزف على البيانو . وفجأة بدا لي بوضوح : كانت هذه الحياة هي الحياة التي تنتمي إليها آجي حقا ، وليس الحياة في شارع بينكيث . لقد كانت غريبة عن الحياة هناك بقدر غربة آرثر عنها . وكان هذا هو السبب الذي جعله يحبها .

سار زوجها معي إلى السيارة التي كنت قد استأجرتها لذلك اليوم ، سألته عن فكرته عن آرثر . فقال :

« إنه من نوع مضحك . إنه لم يرق لي أبدا بشكل حقيقي . كانت الطريقة التي كان ينظر إلي بها تذكرني دائما بشكل الثعبان . وقد كان يأتي إلى هنا كثيرا . »

« أجل ، في عام ١٩٥٦ . لقد ذكرت زوجتك هذا . »

« أجل ، كان هذا هو ما يحدث . كانت آجي حاملا بماندي في ذلك الوقت . وماندي هي الكبرى – إنها في المدرسة الابتدائية . وقد كان لـدي إحساس بأن آرثر يكرهنا كلينا كراهية حقيقية . وكان هذا هو السبب الذي جعلني أقول في النهاية أن يظل بعيدا عنا . » وهز رأسه ثم استطرد يقول :

« لكي أكون أمينا معك أقول لك إن ما حملته إلينا من أخبار يجعلني أتنفس الصعداء . إنني أظن أن وجوده في السجن أفضل له وللجميع . إن آجي تحبه على الدوام بالطبع . وقد أصرت على أن تطلق إسمه على ابننا الأصغر . »

صافحني من خلال نافذة السيارة وقال :

« تذكر أنني لم أتمنّ له أبدا أي أذى أو ضرر . وأنا أرحب بأن يأتي إلى هنا . من أجل آجي . »

« أخشى أنه لن يأتي أبدا . »

ولوحت لي آجي بيدها وهي تقف على الباب الأمامي . وكان ابنها الصغير يدفع ساقها بيده ، محاولا أن يجذب انتباهها إليه .

* * *

قتل آرثر ليجارد في اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٦٧ ، بعد سبوعين من نقله إلى سجن رامبتون . وكان الرجل الذي قتله يقضي حكما عليه بالسجن بسبب جرائم جنسية أيضا واسمه : تشارلس دولي ، وهو « خناق دبلين » . كان دولي مجنونا جنونا حقيقيا ، وهو رجل تملكه دافع يجعله يخنق النساء عند اكتمال القمر . ولم يبذل أية محاولة لاخفاء أجساد ضحاياه أو لاخفاء نفسه .

وما زال ما حدث غير واضح حتى الآن . لقد بدا أن كلا من الرجلين قد راق للآخر . وكانا تحت مراقبة أحد الحراس ، يتبادلان الحديث في الحديقة . وابتعد الحارس قليلا لكي يتبادل بضع كلمات مع حارس آخر . وحينما نظر خلفه ، رأى آرثر على الأرض ، ويدي دولي الضخمتين مطبقتين على عنقه . ومات فيما بعد ، دون أن يسترد وعيه . ولم يقل دولي إلا كلمات عنيدة ظل يرددها دون توقف : « هو الذي بدأ الشجار . » وزعم سجين آخر أن آرثر قد قفز على دولي وبدأ يلكزه بقبضتيه . ويبدو أن سبب المشاجرة كان سروالا نسائيا أسود اللون زعم آرثر أن دولي قد سرقه من الدرج الخاص به .

لقد سررت بعودتي إلى بيتي مع أسرتي . وحينما عدت إلى المنزل ، اندفع

ابني نحوي لكي يحتضنني ، وسقط الكتاب الذي كان يقرأه على الأرض . والتقطت له الكتاب . كان هو نسخة قصة « أميرة المريخ » الذي التقطته من تحت سرير آرثر في سجن « روزهيل » حينما دخلت الحجرة لآخر مرة .

نظرت بسرعة إلى الصفحة التي فتح الكتاب عندها وشعرت بصدمة توتر مفاجئة . كان الفصل تحت عنوان : « من المذبحة إلى جوى » . سطر القصيدة الذي راع مني كثيراً ولم استطع أن أدرك مغزاه . رحت أقرأ الفصل لكي أرى إن كان له أي مغزى خاص بالنسبة لآرثر . ولكنني لم أستطع أن أكتشف أي مغزى .

وحينما وصلت إلى نهاية الفصل ، رأيت عنوان الفصل التالي : « من جوى إلى الموت » .

كان آرثر يعرف الكتاب معرفة جيدة جدا لدرجة أنه لم يكن مضطرا إلى إعادة النظر فيه .

تمت

هذه الرواية

بدأ الطبيب النفسي علاجه للسجين وهو يؤمن بأن الدوافع الجنسية الغريزية، مثلها مثل الوضع الاجتماعي للانسان، قدر لا فكاك منه . ولا شك ان السجين المصاب بحالة الانعماء العقلي والتصلب الجسدي، كان ضحية من ضحايا الحرب والفقر والتخلف الذهني والتفكك الاسري والتحلل الاخلاقي، ولكنه كان يملك خيالا وقدرة على تكوين ارادة خاصة ومثل اعلى ، فهل يمكن الاستمرار في النظر اليه باعتباره مجرد « ضحية » سلبية للظروف ؟ وهل يمكن ان يظل اداة طيعة، مثل الدمية، في يد عوامل « قدرية » او يريد البعض ان يضعوها في موضع القدر الآلهي القديم، مثل الدافع الجنسي او الوضع الاجتماعي؟

ولكن هل يمكن ان يحكم على القاتل الجنسي « آرثر لينجارد » من وجهة النظر الاخلاقية وحدها ؟ هل من وظيفة الطبيب النفسي ان يصدر حكماً بالادانة ، رغم انه « ادرك » الاسباب ، وشعر بالابوة تجاه مريضه السجين؟

ان كولن ولسون يمضي في اعماله الروائية ــ مع القدرة على تجديد بنائها الفني واسلوبها ــ بخطوات ثابتة تنم عن قدرتـه ــ في الفن ــ على استيعاب الوضع الانساني بشكل شامل ، وعلى طرح قضايا التناقض بين قوى « القدر » العصري: الجنس او المجتمع وبين ارادة الانسان وقدرته الخاصة على التخيل وخلق المثل العليا واختيار طريق حياته بوحي من رغباته الحرة، بصرف النظر عن « قواعد السلوك الحميد » التي اصبح من الصعب ان يلتزم بها حتى القديسون!

ومن ناحية اخرى ، فان رواية « القاتل » التي اسميناها « الحالم » بوحي من رغبة المؤلف نفسه، قد تكون دليلا على قدرة « الفن » على مساعدة المفكر في اكتشاف الحقيقة الانسانية ، اكثر من مجرد الفلسفة !

« المترجم »

الثمن .... او ما يعادلها

57